سلسلة كنوز الحضارة

تـــاريخ الحضارة الأوربيـة

إعـــداد

د. أحمد توفيق محمد الأنصاري   د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٩٠١.٩
أ.ا

الأنصاري ، أحمد توفيق محمد .

سلسلة كنوز الحضارة / أحمد توفيق محمد الأنصاري .
{واخ}.ـط١.ـ دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.
٤٢٠ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : ٦ - ٦٥٩ - ٣٠٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١. الحضارة – تاريخ .

أ - الأنصاري ، أحمد توفيق محمد (معد مشارك) .

رقم الإيداع : ٢٨٨٣ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

الفهـــرس

مقدمة

الحضارة الأوربية هي الحضارة التي رسخت جذورها في الألفية التاسعة قبل الميلاد وذلك عند اكتشاف حرفة الزراعة على ضفاف الأنهار (الأردن، دجلة والفرات)، التي انتقلت بعدها إلى القارة الأوروبية وانتشرت فيها، وأدى هذا الأمر إلى انشاء الدول والمدن والإمبراطوريات فيها وتطويرها، وكانت البداية لها من اليونان ، لتقوى منها وتنتشر عبر القارة الأوروبية على يد الرومان، وازداد تطورها واعيدت صياغتها في القرن الخامس عشر في "عصر النهضة"، ونجحت في انتشارها عالمياً على يد (الإمبراطوريّات الإستعماريّة).

تميزت تلك الحضارة بعدم ثبوتها، بل كان يعاد تشكيلها باستمرار ، حيث تختلف الأسس التي قامت بها الحضارة عند الإغريق عن الحضارة اليونانية، ووسائل الترفيه كانت تختلف باختلاف الحضارات أيضاً. من الإمبراطوريات الغربيّة التي أثرت الحضارة الغربيّة على مدى عقود، الإمبراطوريّة الرومانيّة، وكذلك الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وبعد تفكك الإمبراطوريتين تحولتا إلى دويلاتٍ أصغر، وظهرت لاحقاً "الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدسة . ومن الحضارات الغربية القديمة بالإضافة للرومان والإغريق ، ظهرت الحضارة الكلتونيّة والحضارة الجرمانيّة. لم تخلو تلك الحضارات من الصراعات والتي سجلت عبر التاريخ بين الحضارات الشرقية والغربية، فقد تجلت تلك الصراعات في أعمال "هوميروس" القديمة، حيث قام بوصف حروب (الإسكندر الأكبر) واليونانيين ضد الفرس.

الفصل الأول
لمحة عن تاريخ أوربا

أوروبا إحدى قارات العالم السبع. وجغرافيًا تعد شبه شبه جزيرة كبيرة تكون الجزء الغربي الممتد من أوراسيا بين جبال الأورال وجبال القوقاز وبحر قزوين من الشرق والمحيط الأطلسي من الغرب والبحار البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ومنطقة القوقاز من الجنوب والمحيط المتجمد الشمالي من شمال القارة.

وتعتبر قارة صغيرة نسبياً مقارنة ببقية القارات لكن قارة أستراليا أصغر منها.

إلى جانب حدود أوروبا الجغرافية يعود مفهوم حدود القارة إلى العصور القديمة الكلاسيكية، والتعسفي، حيث أصبح مصطلح "القارة" جغرافيّا في المقام الأول ولكنه يشمل أيضًا العناصر الثقافية والسياسية.

وكلمة أوربًا أصلها إغريقي باليونانيّة (Ευρώπη): وتعني الوجه العريض، تصل مساحة القارة لحوالي ١٠.١٨٠ مليون كم ٪ ٧.١) ٢من مساحة الأرض). وهي القارة الثالثة من حيث عدد السكان في العالم إذ يزيد عدد سكانها عن ٧٠٠ مليون نسمة) أي ١١ ٪ من سكان الأرض. تمتدُّ روسيا وهي أكبر بلد أوروبي عبر كامل شمال آسيا و٤٠٪ من أوروبا، في حين تعتبر دولة الفاتيكان أصغر دول القارة.

يتفق المؤرخين أن أوروبا، خاصةً في اليونان القديمة وروما القديمة هي مهد الحضارة الغربيةالمؤثرة على العالم .وقد لعبت أوروبا دورًا بارزًا في الشؤون العالمية بدءاً من القرن الخامس عشر، وخاة عقب بداية الاستعمار. سيطرت الدول الأوروبية بين القرنين السادس عشر والعشرين، في أوقات مختلفة على الأمريكتين، ومعظم أفريقيا وأوقيانوسيا، وأجزاء كبيرة من آسيا. أدّت الثورة الصناعية، التي بدأت في بريطانيا العظمى في نهاية القرن الثامن عشر، إلى تغييرات اقتصادية وثقافيّة وإجتماعيّة راديكالية في أوروبا الغربية أولاً، لتشمل بعد ذلك العالم. وقد ازداد النمو السكاني الأوروبيّ بشكل كبير، إذ بحلول عام ١٩٠٠، كان نصيب أوروبا حوالي ٢٥% من مجمل سكان العالم.

أخذت الحربان العالميتان مسرحها وأحداثها بشكل كبير في أوروبا، ومساهمتها في الشؤون السياسيّة أخذت في الإنخفاض مع انخفاض هيمنة أوروبا الغربية في الشؤون العالمية في منتصف القرن العشرين وازدياد نفوذ كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

خلال الحرب الباردة، قسمت أوروبا على طول الستار الحديدي بين منظمة حلف شمال الأطلسي في الغرب وحلف وارسو فيأوروبا الشرقية. أدى التكامل الأوروبي إلى تشكيل مجلس أوروبا والاتحاد الأوروبي في أوروبا الغربية، ومع سقوط الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٩١ انضمت دول أوروبية شرقية إلى الاتحاد الأوروبي. وتعد عملة اليورو وهي العملة الموحدة للاتحاد الأوروبي العملة الأكثر تداولاً في القارة.

أصل التسمية والتعريف:

في الميثولوجيا اليونانية، أوروبا هي ابنة آجينور ملك صور الفينيقي (ما يسمى في يومنا هذا لبنان)، وقيل أن القارة الأوروبية سميت على إسمها.

يعود مفهوم أوروبا ككيان ثقافي وجغرافي وسياسيّ موحّد إلى الإمبراطورية الرومانية بدايةً والمسيحية بشكل خاص، حيث كانت المسيحية من أسس وأركان القاعدة الثقافية الأوروبية وفي مناسبات محددة كانت الركن الوحيد للهوية الأوروبية، خاصّة عندما سعت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لبسط نفوذها الثقافي ومن ثم السياسي عليالغرب الأوروبي، فالأممية المسيحية أو مفهوم العالم المسيحي ظلت قوة سياسية ودافعًا فكريًا وعقائديًا وسياسيًا أثّر مباشرةً على مسيرة السياسية الأوروبية، بل إنه أصبح لب فكرة «المفهوم الغربي»، وقام بإستبدال المفهوم الجغرافي الأوروبي الضيق أو الروماني المحدود وأصبح يمثل شرعية جديدة بدأت تترسخ داخل الشعوب الأوروبية والوجدان السياسي فيها، وأصبح هذا المفهوم يمثل الشرعية السياسية والدينية على حد سواء.

التاريخ:

قرص برونزي عُثر عليه في بلدة نبرا الألمانية، يعود لحوالي سنة ١٦٠٠ ق.م. يعتبر أقدم خريطة فلكية معروفة. لاحظ عنقود الثريا في أعلى اليمين.

تدل الأحافير التي اكتشفها العلماء على أن الإنسان الأول عاش في أوروبا منذ أكثر من مليون عام. وأهم الأشكال المعروفة عن إنسان ماقبل

التاريخ إنسان نياندرتال والإنسان الكرومانيوني. عاش الإنسان النياندرتالي في حوالي الفترة

التي تقع قبل ١٠٠,٠٠٠ إلى ٣٥,٠٠٠ سنة مضت، وعاش الكرومانيوني في الفترة التي تقع قبل ٤٠,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ سنة خلت. وكانوا يعيشون على الصيد، وكثيري التنقل من مكان إلى آخر بحثًا عن الطعام. ويعيشون في جماعات تتراوح بين ٢٥ و٣٠ فردًا .

تعلم الإنسان في جنوب شرقي أوروبا نحو سنة ٦٠٠٠ ق.م كيفية الحصول على قوته بفلاحة الأرض. مهد هذا التطور المبكر لوضع اللمسات النهائية لظهور الحضارات التي أدت بدورها لاستقرار الإنسان الذي كان دائم التنقل بحثا عن الطعام. وقد كان عندما يستقر في مكان معين يقيم القرى. وقد تطورت بعض تلك القرى فيما بعد وأصبحت نواة لقيام المدن الأوروبية الأولى. بعد نحو عام ٦٠٠٠ ق.م بدأت تتجه أعداد أكثر فأكثر من الأوروبيين القدماء نحو الزراعة، إذ أصبحت الزراعة مصدر الغذاء الرئيسي وحتى نهاية فترة ما قبل التاريخ، أي نحو سنة ٣٠٠٠ ق. م، فعمت كل أرجاء أوروبا باستثناء مناطق الغابات الكثيفة في الشمال .

قامت الحضارات الأوروبية الأولى في جزر بحر إيجة شرقي اليونان. ازدهرت الحضارة الإيجية في الفترة بين ٣٠٠٠ ق. م و١٢٠٠ ق.م .فكان سكان بعض الجزر الإيجية، خاصة في جزيرة كريت، يستخدمون نظامًا للكتابة، كما كان بينهم البحارة المغامرون والتجار. ظهرت حضارة مماثلة

للحضارة الإيجية في جزيرة مالطة جنوبي إيطاليا .وبعد عام ٢٥٠٠ ق.م .تقريبًا أبحر بحارة من جزر بحر إيجة وجزيرة مالطة على طول السواحل الجنوبية والغربية لأوروبا. فكانوا يقدمون للشعوب التي وجدوها في طريقهم، طريقتهم وأسلوبهم في الحياة.

الحضارة الإغريقية القديمة:

كان للإغريق القدماء فضل كبير في قيام وازدهار الحضارة. فلقد نزحت قبائل من الشمال إلى شبه جزيرة اليونان حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م. وعندما استقرت هذه القبائل في اليونان بدأت في تأسيس حضارة لها على نمط الحضارة الكريتية. أصبح الإغريق قوة ضاربة في منطقة بحر إيجة، حتى استولوا على المنطقة من الكريتيين في القرن الخامس عشر ق.م. وخلال القرون العديدة التالية توحدت مجموعات من تلك القبائل فكونت نوعًا جديدًا من الوحدات السياسية المستقلة. وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تسمى بولس أو الدولة ـ المدينة. بلغت الحضارة الإغريقية أوج عظمتها خلال القرنين الخامس والرابع ق.م مع ظهور مدينتي إسبرطة وأثينا ومدن أخرى لاتقل نفوذًا وقوة. انتشرت فكرة الديمقراطية خلال هذه الفترة كما ازدهر الفن والعلم. إلا أن اليونان دخلت في الوقت نفسه تقريبًا في حروب طويلة.

أولاً: هزم الإغريق قوات الغزاة القادمة من الإمبراطورية الفارسية في الشرق.

□

ثانياً: نشبت الحروب الداخلية بين الدول ـ المدن الإغريقية نفسها.

وباستمرار هذه الحروب بدأت قوة الإغريق السياسية في الانهيار. إلا أن أثينا ظلت مركزًا ثقافيًا للعالم القديم.

بلغت الإمبراطورية الرومانية أوج عظمتها خلال فترة مايعرف بالسلام الروماني التي استمرت من سنة ٢٧ ق.م حتى سنة ١٨٠ م. لم تكن هناك دولة في تلك الفترة لها القوة الكافية لتمثل خطرًا على الإمبراطورية الرومانية لذا أصبحت تلك الفترة فترة سلام. بلغ الفن والعلم الرومانيان الذروة، كما

ازدهرت التجارة في جميع أرجاء الإمبراطورية. اقتبس الرومانيون أفكارًا عديدة من الإغريق مما ساعدهم على نشر الثقافة الإغريقية في أنحاء إمبراطوريتهم. وغالبًا مايطلق على الثقافة الرومانية اسم الثقافة الهيلينية-رومانية. لكن كان للرومان أيضًا إسهاماتهم في الحياة الأوروبية بالتخطيط الدقيق للمدن وتشييد وإقامة شبكات الطرق. كما أصبحت اللغة اللاتينية أساسًا قامت عليه اللغات الرومانسية المتداولة في أوروبا اليوم. كما أصبح كثير من الأسس القانونية التي وضعها الرومان جزءًا من الأنظمة القانونية في أوروبا ولاحقًا جزءًا من الأنظمة القانونية في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية.

بدأت المسيحية في فلسطين التي تقع في جنوب غربي آسيا وقد كانت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. وسرعان ما انتشرت في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية. ظل الرومان يضطهدون المسيحيون الأوائل حتى مطلع القرن الرابع الميلادي، حيث منح الإمبراطور قسطنطين الكبير المسيحيين حرية العقيدة، وفي أواخر القرن الرابع الميلادي، أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية .

وفي أواخر القرن الثاني الميلادي بدأت بعض القبائل القوية في الشمال والشرق تهديد الإمبراطورية الرومانية التي لم تعد تستطيع الدفاع عن جميع حدودها. فقد كانت الخلافات الداخلية تمثل تهديدًا آخر للإمبراطورية، بدأت الإمبراطورية تتفكك على أثره حتى أعاد الإمبراطور قسطنطين توحيدها عام ٣٢٤م. في عام ٣٩٥م انقسمت الإمبراطورية الرومانية بصورة نهائية إلى إمبراطوريتين. فأصبح النصف الشرقي الإمبراطورية الرومانية الشرقية

أو البيزنطية وكانت عاصمتها القسطنطينيةوالتي أصبحت مركز المسيحية الشرقية ومركز حضاري عالمي، فأضحت أعظم مدن العالم في ذلك العصر. أما باقي الإمبراطورية فأصبح الإمبراطورية الرومانية الغربية وكانت عاصمتها روما.

العصور الوسطى:

فقدت الامبراطورية الرومانية قوتها بعد انقسامها للإمبراطورية الشرقية والغربية. وتعرضت كل من أقوام القوط، الوندال، اللومبارديون، الفرنجة، والسكسون، والجوتيون الذين يقطنون بهسبانيا وجالايا وإيطاليا خارج حدود الامبراطورية الرومانية الغربية، إلى هجوم أقوام البربرية الالمان.

واستولى القوط الغربيون في حروبهم ضد الهون على مدينة روما متقدمين إلى جنوب نهر الدانوب بقيادة آلاريك في عام ٤١٠.

وسقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية في ٤٧٦. وبسقوط الامبراطورية الرومانية بدأت العصور الوسطى.

قام القوط الغربيين، الفرع الغربي من القوطيين اللذين تنقلوا من إيطاليا ثم إلى أسبانيا، بتأسيس مملكة كبيرة لهم هناك. واستولى الوندال، وهم جزء أخر من الشعب الألماني على روما في عام٤٥٥، بقيادة أركان حرب جنسيرك.

وتقدم الفرنج- التابعين لقبائل البربر- إلى الغرب مباشرة، ووصلوا إلى داخل جالايا. وقام في الوقت نفسه كل من القوط والسكسون بتنظيم الهجوم والغزوات على بريطانيا الرومانية احدى الولايات في روما.

أمّا القوط الشرقيين- الفرع الشرقى من القوط - فإستولوا على أراضي روما أيضًا، وأسسوا مملكة كبيرة لهم فيإيطاليا. لكن على الرغم من ذلك، لم تستمر هذه الامبراطورية كثيرًا، وانهارت بعد ٦٠ عامًا من تأسيسها. وأثناء هجوم البربرلم ينشأ نظام حكم قوى ومتين في إيطاليا .

قام الامبراطور البيزنطى جستنيانب ضم إيطاليا إلى اراضي الامبراطورية الرومانية بعد فترة مستفيداً من الاوضاع السياسية المتوترة بها ولكن بعد وفاة البيزنطى جستنيانفي ٥٦٥، قام اللومبارديون بالإستيلاء على إيطاليا مرة اخرى.

سقط أغلب شبه جزيرة أيبيريا في القرن الثامن (٧١١-٧١٨) بيد جيوش المسلمين القادمة من شمال أفريقيا. كانت هذه الفتوحات جزءاً من توسع الخلافة الإسلامية الأموية .تمكنت فقط منطقة صغيرة جبلية في الشمال الغربي من شبه جزيرة من مقاومة الغزو الأولي. بموجب الشريعة الإسلامية، جرت معاملة المسيحيين واليهود معاملة أهل الذمة. حيث يسمح هذا الوضع للمسيحيين واليهود بممارسة دياناتهم كأهل الكتاب وكان عليهم دفع الجزية.

تطور اعتناق الإسلام بوتيرة متزايدة باستمرار. يعتقد بأن المولدون (المسلمون من أصول عرقية أيبيرية) قد شكلوا غالبية سكان الأندلس في نهاية القرن العاشر .

إعتنق الفرنجة الديانة المسيحية في القرن السادس الميلادى. وأسست قبائل الفرنجية الإمبراطورية الكارولنجية والتي سيطرت على ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وسويسرا، وإيطاليا الحالية.

وقد إعتمدت بشكل أساسي على إرث الإمبراطورية التي أسسها الإفرنج بفرنسا. وفي عام ٧٦٨ وصلت حدود الإمبراطورية لاقصى اتساع لها، وذلك بعد تولي شارلمان حكم الفرنجة .

وفي ٢٥ ديسمبر ٨٠٠ م أعلن البابا ليون الثالث فيكاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان، ليو شارلمان امبراطورًا للامبراطورية الرومانية. وحتى ذلك الوقت اضطرالبيزنطون، الحاملين للقب الامبراطور الروماني، إلى الإعتراف بلقب امبراطورية شارلمان.

وانهارت الإمبراطورية الكارولنجية بعد وفاة شارلمان في ٨١٤ م. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، قام أوتو الأولمن حكام الالمان بالسيطرة على الاراضي الخاضعة لحكم شارلمان، وأسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفي عام ٩٦٢ م منح البابا لونوس الثانى عشر لقب الامبراطور الروماني إلى أوتو الأول .

وانضمت الامبراطورية الرومانية المقدسة إلى الكونفدرالية الألمانية في وسط أوروبا. لكن بسبب عدم قدرتها على المنافسة فقدت سيطرتها وقوتها في عام ١٨٠٦، وحلت محلها الامبراطورية النمساوية .

حتى عام ٧٧٤ ظلت زمام الامور بأيدى اللولمبارديون القاطن بشمال إيطاليا. وفي عام ٧٥١ خاضاللولمبارديون حروبًا في الجنوب وسيطروا على رافينيا وآرادوا دعمًا من البابا بالفرنجة .

ولكن هزمت الإفرنج اللومبارديون، وعادت إيطاليا إلى البابا مرة أخرى. وبالتالي تأسست دولة بابوية مستقلة عن مدينة روما .

وردًا على ذلك، قام البابا الثالث ليو باسترداد كرامة ومكانة الإفرنج، وذلك باعلان الامبراطور شارلمان ملك عليها امّا في القرن الحادي عشر، قويت الدولة بضم العديد من الدول مثل: جمهورية البندقية، جمهورية جنوة، اتحاد لومبارد، مملكة نابولي، وجمهورية فلورنسا .

وفي ذلك الوقت كانت البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة من أهم مراكز القوة في العالم. واندلعت العديد من المشادات والخلافات بين انصار كل قوى منهما في دول المدن بإيطاليا. وعرفت هاتين المجموعتين باسم الغويلفيون والغيبلينيون.

خلال القرون الوسطى، تم بناء مدارس قرب الكنائسوالكتدرائيات، ودعيت بمدارس الكاتدرائية .وكانت هذه المداراس مراكز للتعليم المتقدم، وبعض من هذه المدارس أصبحت في نهاية المطاف الجامعات الأولى في الغرب. وأُعتبرت مدرسة كاتدرائية شارتر أكثر المدارس شهرةً وتأثيرًا، حيث كان لها دور هام في حفظ الفكر القديم ونشر العلوم في العالم الغربي. مع ظهور مدارس الكاتدرائية في أوائل القرون الوسطى تحولت هذه المؤسسات إلى مراكز تعليم متقدمة، ومتطورة في كثير من الأحيان وشكلت نقطة انطلاق لكثير من الإنجازات في أوروبا الغربية، وفي وقت لاحق شجعت على حرية البحث وخرّجت مجموعة كبيرة ومتنوعة من العلماء والفلاسفة.

كان للمدارس وجامعات الكنيسة آثار ايجابية على تطوير العلوم، المؤرخين يذهب أبعد من ذلك إذ بحسبهم هذه المداراس تمثل بدايات العلم الحديث .

لم تكن سلطة كنيسة القرون الوسطى دينية فقط بل دنيوية أيضًا، تمثلت بالدولة البابوية التي ثبتت أركانها فيالقرن الحادي عشر؛ وتمثلت أيضًا بالدور القيادي في السياسة الذي لعبه البابا كوسيط بين مختلف ملوك أوروبا، إن قوة الكنسية السياسية، فضلاً عن وضع المسيحيين المتردي في الشرق، ورغبة أمراء أوروبا توسيع أملاكهم وثراوتهم والكف عن الاقتتال الداخلي، جعل المناخ ملائمًا لنشوء الحملات الصليبية التي دعا إليهاالبابا أوربانوس الثاني سنة ١٠٩٤ خلال مجمع كليرمونت جنوب فرنسا، وانطلقت في إثره الحملة الصليبية الأولى التي استطاعت احتلال الساحل السوري إضافة إلى لبنان وفلسطين ومناطق من تركيا والأردن ومصر.

عاشت الإمبراطورية البيزنطية عصرها الذهبي خاصًة تحت حكم الأسرة المقدونية حيث دعي عصرهم بعصر النهضة المقدونية ففي عهدهم مرت الامبراطورية البيزنطية نهضة ثقافية وعلمية وكانت القسطنطينية في عهدهم المدينة الرائدة في العالم المسيحي من حيث الحجم والثراء والثقافة.

فقد كان هناك نمو كبير في مجال التعليم والتعلم ممثلة بجامعة القسطنطينية ومكتبة القسطنطينية وجرى الحفاظ على النصوص القديمة وإعادة نسخها. كما ازدهر الفن البيزنطي وانتشرت الفسيفساء الرائعة في تزيين العديد من الكنائس الجديدة، وفي عصر الكومنينيون تجدد الاهتمام بالفلسفة الإغريقية الكلاسيكية، بالإضافة إلى تزايد الناتج الأدبي باليونانية العامية.

احتل الأدب والفن البيزنطيان مكانة بارزة في أوروبا، حيث كان التأثير الثقافي للفن البيزنطي على الغرب خلال هذه الفترة هائلًا وذو أهمية طويلة الأمد.

شمل العهد المقدوني أحداثًا ذات أهمية دينية. كان تنصير الشعوب السلافية مثل البلغار والصرب والروس إلى المسيحية الأرثوذكسية بصفة دائمة قد غير الخريطة الدينية لأوروبا ولا يزال صداه حتى يومنا هذا.

الفصل الثاني
أوروبا في العصور الوسطى

لقد حاول البعض أن يحصر العصور الوسطى بين ٤٧٦، عندما سقطت الإمبراطورية في الغرب سنة ١٤٥٣، وهي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية في أيدي العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا.

إلا أن الناظر إلى التاريخ بتعمق يدرك أنه ليس من الحكمة ولا من الواقعية تحديد سنة بعينها لتكون حدًا فاصلًا بين عصر وعصر، لأن حلقات التاريخ متداخلة بشكل معقد.

على أنه من الممكن اعتبار القرن الرابع بداية العصر الوسيط لما حدث فيه من تطورات ضخمة على الصعيد السياسي والديني والجغرافي فقد تفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التي كيفت تاريخ أوروبا العصور الوسطى..

وما قيل في القرن الرابع يمكن أن يقال في القرن الخامس عشر الذي حدث في آخره ما يسمى بحركة النهضة، حيث تحرك العقل الأوربي من كثير من القيود الكنسية فأبدع في مجالات متعددة.

ولا شك أن إلقاء نظرة موجزة على أوروبا في العصر الوسيط يساعدنا إلى حد بعيد في استقراء دوافع الحروب الصليبية ومعرفة أسبابها، ويكشف لنا النقاب عن مختلف العوامل والمؤثرات التي تفاعلت فنتجت عنها تلك الحروب.

أ - أحوال الإمبراطورية الرومانية:

كاذباً أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ هي هذه الامبواطورلة التي بلغت من القوة والاتساع مالم يبلغه غيرها في تاريخ البشر، فقد امتدت من المحيط الأطلسي غربًا حتى الفرات شرقًا. وتمكنت السلطة

المركزية من إحكام سيطرتها على هذه المساحات الضخمة وذلك بوضع قوانين تناسب ذلك العدد الكبير من الشعوب. كما تمكنت الإمبراطورية من استيعاب شعوب ذات حضارات قديمة إلى جانب شعوب حديثة المولد. فازدهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لأهل هذه الإمبراطورية وتركت لهم الحرية الفكرية والاعتقادية. فشهدت بذلك أزهى عصورها.

لم تكن هذه الإمبراطورية ملكية دستورية، ولكنها لم تكن كذلك عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة، حيث ساد العرف والقانون وتمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهوري.

ب - الضعف ومظاهر الانهيار:

بدأت هذه الإمبراطورية بعد ذلك تضعف شيئًا فشيئًا وقد بدا ذلك واضحًا في القرن الثالث للميلاد عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية في عزل الأباطرة وإقامة غيرهم.. ثم بدأت الفرق الإمبراطورية في مختلف الولايات تتحكم في اختيار قادتها دون الرجوع إلى الإمبراطور إلى غير ذلك من مظاهر التفكك والاضمحلال، وأصبح النظام استبداديًا

يعتمد على الجيش في تنفيذ إرادة الإمبراطور والضغط على الأهالي الذين بدءوا يتبرمون من الضرائب وغيرها وظهرت الحروب الأهلية.

أما في الخارج فقد زاد ضغط الجرمان كما تضاعف الخطر الفارسي على الولايات الآسيوية وفي أواخر القرن الثالث ظهرت بكل وضوح العوامل التي أدت إلى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ثم سقوطها حيث تفاقمت المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في الداخل، وازدادت الأخطار

الخارجية بشكل بارز وبدأت بعض الولايات تتجه نحو الانفصال عن جسم الإمبراطورية مستجيبة بذلك إلى طموح الأهالي الذين عمهم الاستياء والنقمة.

وبدأت الحكومة المركزية في محاولات يائسة للإصلاح كالفاعل بين السلطتين المدنية والعسكرية في الولاية وتصغير مساحة الولاية.

وساءت الحالة الاقتصادية نتيجة للحروب الأهلية وفرضت الضرائب الجمركية، وازدادت نسبتها.. كما أن الضرائب التي تفرض على الأرض قد تحرر منها كبار الملاك وفرضت على المستأجرين، وبذلك اختل بناء الجامع الروماني حيث ازداد الغني غنى وازداد الفقيد فقرًا، وتناقصت الطبقة الوسطى بشكل سريع وتدهور الإنتاج وانخفضت قيمة العملة التي لم يتردد بعض الأباطرة في تزويرها فارتفعت الأسعار ارتفاعًا جنونيًا وعمت النقمة وكثرت الثورات، واتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة.

إذًا ..وضع داخلي متفجر صحبته أخطار خارجية جسيمة وبذلك أصبحت الإمبراطورية على شفا الهاوية، رغم إن بعض الأباطرة أحسوا بخطورة الوضع فسعوا للإصلاح..

ج - بارقة أمل:

وكان من أبرز هؤلاء الأباطرة المصلحين قسطنطين، نظرًا للأعمال الهامة التي قام بها والتي كان لها أثر واضح في تغيير وجه التاريخ الأوربي، وقد قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية حيث اعترف رسميًا بالديانة المسيحية ونقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور.

✓ **ومن أهم التغييرات التي قام بها:**

- التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنية في الولايات.
- إدخال مبدأ الحكم الوراثي، وقد اعتمدت أسرته في ذلك على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية من جهة أخرى.
- إنقاص عدد أفراد القوة العسكرية، والمواصلة في سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط في سلك الجيش كجنود نظاميين.
- مضاعفة الضرائب والخدمات الجمركية.
- إنزال طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية بجعل الحرب والأعمال وراثية.
- أما في الجانب الديني فإن اعتناقه واعترافه بها رسميًا كان له أعظم الأثر فيما وصلت إليه المسيحية من مجد وعظمة بعد ذلك. وكان

أن وجدت المسيحية متنفسًا كبيرًا بعد أن كانت تعاني من الضغوط والقتل والتشريد في صفوف رجالها. ولم تلبث الكنيسة أن حصلت على امتيازات هامة بوصفها راعية الديانة الرسمية للدولة.

وبعد قسطنطين قسمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة إلى أن تمكن أحدهم – وهو قسطنطيوس – من توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠.

د -إلى الانهيار من جديد:

سرعان ما بدأت الإمبراطورية ذلك تتعرض لعوامل الانحلال السريع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها دون أن تفلح جهود الأباطرة في صد تلك الهجمات أو في وقف تيار الانحلال، فبدأت قبائل القوط تتسرب داخل الأراضي الإمبراطورية تحت ضغط الهون الآسيويين.

وفي هذا الوقت أخذت الكنيسة تظهر على درجة كبيرة من القوة والثروة وأصبح مصير الإمبراطورية معلقًا بين الجرمان ورجال الكنيسة. ثم انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي بين ابني)ثيودسيوس (وهو مظهر من مظاهر التفكك والانحلال الذي لم تفعل جهود المصلحين من الأباطرة قبل ذلك إلا أن أخرت وقوعه، ولم يكد القرن الخامس ينتصف حتى كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد مزقت إربًا لضياع معظم أجزائها في أيدي القوى الخارجية من البرابرة وغيرهم.

٥- سقوط الإمبراطورية في الغرب وقيام الممالك الجرمانية:

توالت الضربات على الإمبراطورية الغربية فسقطت سنة ٤٧٦، وأصبح الأمل الوحيد في الكنيسة التي التف حولها الإيطاليون طوال القرون التالية ورأوا فيها الزعيم والسند الكفيلين بحمايتهم. وقد قامت ست ممالك جرمانية في غرب أوروبا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

وهذه الممالك هي :مملكة أودواكي في إيطاليا - الوندال في شمال إفريقيا - القوط الغربيون من اللوار حتى جبل طارق - البرجنديون في وادي الرون ووادي الساؤون - دولة الفرنجة على المز والراين الأدنى - وصغرى هذه الممالك الجرمانية وهي مملكة السويفي في الجهات المعروفة حاليًا بأمم البرتغال وغاليسيا.

ومن أهم هذه الممالك الست دولة الفرنجة التي يعتبر قيامها أهم حدث في تاريخ الغزوات الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصرف بطابع الغزو.

وقد احتفظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية بينما ذابت بقية الشعوب الجرمانية في المحيط اللاتيني الذي استقرت فيه.

وقد اعتنق الفرنجة المسيحية، والمهم في هذا هو أنهم اعتنقوها على عذابها الإثناسيوسي أو الغربي مخالفين في ذلك بقية الشعوب الجرمانية التي ظلت ممقوتة في الغرب بسبب أريوسيتها، فاكتسب الفرنجة بذلك عطف الكاثوليك وتأييدهم في جميع أرجاء غرب أوروبا وقام بذلك نوع من التعاون والارتباط والتآلف بين الفرنجة والنرمان وظهر ملوك الفرنجة في

ثوب حماة المسيحية ورجالها في الغربة مما مهد لإيجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك الفرنجة مما كان له أبعد الأثر في مستقبل أوروبا العصور الوسطى.

وقد توسع الفرنجة في الاتجاهين الشرقي والشمالي إضافة إلى توسعهم في الجهات الغربية والجنوبية، وذلك عندما أخذ الأهالي من الرومان الكاثوليك في بقية أنحاء "غاليا" يتمنون الدخول تحت حكم الفرنجة الذين يتفقون معهم في المذهب، وقد ظهر هذا التوسع بوضوح خاصة عندما أنزل الفرنجة بالألمان هزيمة ساحقة حتى اضطروا إلى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين. على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكي لم يلبث إن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين في غاليا مثل البرجنديين والقوط الغربيين وغيرهم.

و-صراعات بين الغزاة:

أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس ملك الفرنجة إجبارهم على دفع الجزية – رمز التبعية – وأما القوط الغربيون فقد قتل ملكهم واستولى على جزء من مملكته، إلى أن تدخل ملك القوط الشماليين وحل الموقف وتم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين في حين احتفظ ملك القوط الشرقيين بالجزء الآخر.

وقد اعتبر الفرنجة أن الملك إرث يقسم بين سائر أبناء الملك كسائر أنواع الإرث.. ولذلك فقد قسم كلوفس المملكة بين أبنائه الأربعة وكان لهذا الأمر أثره في مستقبل دوله الفرنجة. وقد تواصلت مقومات هذه الدولة – رغم ذلك التقسيم – وخاصة وأن كلوبترا استطاع توحيد مملكة الفرنجة من جديد بعد وفاة إخوته الثلاثة. إلا أن هذه المملكة العريضة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى لتظهر فيها بكل وضوح الخلافات التاريخية والجنسية بين مختلف الأقسام.

ثم غزا القوط الشرقيون إيطاليا في شكل هجرة عامة اصطحبوا فيها ناءهم وماشيتهم وكان زعيمهم ثيوديك يعتبر أعظم شخصية سياسية في عصره وقد دخل إيطاليا صديقًا لا عدوًا، وتمتعت في عهده بحكم قوي حازم، وبالرغم من ذلك فقد ظل الخلاف المذهبي يحول دون حسن التفاهم بين الاثناسيوسيين والأريوسيين، ولم يتمكن ثيودريك رغم كل الجهود التي بذلها من إقامة مملكة قوطية آمنة ثابتة الأركان في إيطاليا، ولم تخضع له هذه الحقيقة المؤلمة إلا في أواخر أيامه عندما قام إمبراطور الدولة البيزنطية باضطهاد كبير للأريوسيين. ولما لم يجد تدخل ثيودريك قام بحملة أكبر شناعة ضد الكاثوليك في إيطاليا. وعندما مات ثودريك اختفى القوط الشرقيون من صفحة التاريخ كأمة قائمة بذاتها.

أما بريطانيا فقد انسحبت منها الفرق الرومانية في أوائل القرن الخامس ثم تلاحقت عليها الأحداث إلى أن توارت تمامًا من مسرح التاريخ، حتى إذا ما ظهرت من جديد كانت قد اتخذت صيغة جديدة وأصبحت إنجلترا لا بريطانيا، ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال وفي شبه جزيرة جتلاند) مثل الإنجليز والسكسون والجوت (واصلت غاراتها على بريطانيا وخاصة بعد انسحاب الجيوش الرومانية في أواخر النصف الأول من القرن الخامس فاصطحبوا معهم نساءهم قصد الإقامة، فطردوا أهل البلاد الأصليين مما جعل المسيحية تختفي مؤقتًا من البلاد.

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم وإنما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت باسم الممالك السبع واستمرت المنازعات بين هذه الممالك حتى استطاع اثلبرت- وهو أحد الملوك السبع - أن يفرض سيطرته عليها جميعًا. وكان هذا الملك قد تزوج من أميرة فرنجية مسيحية في الوقت الذي وصل إنجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثًا من البابا جريجوري وكان لهذين العاملين أثر كبير في انتشار المسيحية بخطى حثيثة من جديد في هذه البلاد؛ حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها.

وهكذا يتضح أن الغزوات التي قام بها البرابرة قد تركت أثرًا واضحًا في المجتمع الروماني وأدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية في الغرب ولم تفلح جهود الإمبراطور البيزنطي في استرداد الأقاليم المفقودة.

أما من الناحية الاقتصادية فإن الامبراطورية الرومانية كانت تشكو أعوام التدهور الاقتصادي قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها، ذلك الغزو الذي زاد الطين بلة لما صحبه من حروب نتج عنها التدمير والخراب وتوقفت التجارة والصناعة والزراعة.

ولعل الناحية التي ظلت ثابتة في التطورات الجديدة هي الكنيسة الكاثوليكية التي احتواها الجرمان ولم يمسوها بسوء، حتى ازدادت في ذلك العصر قوة ونفوذًا، والواقع أن الأخطار التي ألقت بالعالم الروماني من جهة وسقوط الإمبراطورية الغربية من جهة أخرى جعلا الكنيسة الغربية تبدو في صورة القوة الوحيدة التي يمكنها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضي. كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التي أحاطت بهم.

إن فترة التاريخ الأوروبي التي نسميها "العصور الوسطى" تعتبر عادة من ألف سنة أو نحو ذلك بين سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب (حوالي ٤٠٠ م)، وحتى بداية النهضة الإيطالية (في ج. ١٤٠٠). في الواقع، وقد صاغ هذا المصطلح من قبل المؤرخين لاحق، وتعني "العصور الوسطى"، والتي قد تصبح اليوم بأنه "في الفترات الفاصلة بين مرات" - تلك الفترة التي جاءت بعد الحضارات عالية من الإغريق و الرومان ، وقبل الحضارة عالية من عصر النهضة: عصر البربرية والجهل، والأمية والعنف.

ما زلنا نحصل على صدى من هذا في الأفكار المحيطة بمصطلح "القوطية" – الظلام، الكئيب، الشرف. في الواقع، على الرغم من أن المؤرخين الحديثين يعتبرون هذه القرون مهد العصر الحديث، وهو الوقت الذي كانت فيه العديد من عناصر مجتمعنا الذي نقدره – الديمقراطية والتصنيع والعلوم وما إلى ذلك – جذورها. وكان واحداً من أكثر العصور الرائعة والتحويلية في تاريخ العالم.

ويمكن تقسيم هذه الفترة الطويلة ألف سنة إلى ثلاث مراحل رئيسية، من طول غير متكافئ. وقد سمى القرون الخمسة بعد سقوط روما (حتى ١٠٠٠ ج) العصور المظلمة، وشهدت انخفاضا كبيرا في مستوى الحضارة المادية. وانكمشت التجارة لمسافات طويلة، وانهارت العملة، عاد الاقتصاد في الغالب إلى المقايضة، وتقلصت المدن بشكل كبير في الحجم. محو الأمية،ومع ذلك التعلم، كل ما اختفت. وقد أعيد تشكيل المجتمع الأوروبي مع ظهور القراصنة المكتفية ذاتيا، ثم جنود الحصان (فرسان)، وأخيراً الإقطاع وقد عززت الكنيسة، التي كانت مؤثرة جدا في وقت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، عظمتها على المجتمع.

كانت الفترة من العصور الوسطى العليا، من حوالي ١٠٠٠ إلى ١٣٥٠، علامة مائية عالية من الحضارة في القرون الوسطى، وترك تركة دائمة في الكاتدرائيات المرتفعة والقلاع الضخمة التي نشأت في جميع أنحاء أوروبا. من حوالي ١٣٥٠ إلى ١٥٠٠ كانت فترة أواخر العصور الوسطى فترة انتقال، ورؤية ظهور أوروبا الحديثة.

تغيير الحدود:

بحكم التعريف تقع حضارة أوروبا في القرون الوسطى في أوروبا. ومع ذلك، من حيث تلك السمات التي نربطها مع المجتمع في العصور الوسطى - الإقطاع، والفروسية، المسيحية وهلم جرا - تغير الموقع مع مرور الوقت، ولم تغطي حقاً كل من أوروبا.

كانت جذور العديد من عناصر القرون الوسطى في المجتمع أصولها الجغرافية في مقاطعات الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، ولا سيما غول (فرنسا) وإسبانيا وإيطاليا. عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية و كانت هذه المحافظات قد اجتاحتها القبائل البربرية، فإن التوليف بين الثقافات الرومانية والألمانية خلق في نهاية المطاف مجتمعا "إقطاعياً" معترف به - وهو واحد من السمة المميزة للحضارة الأوروبية في القرون الوسطى (على الرغم من أن كلمة "الإقطاع" تحتاج إلى بعض التعامل الدقيق). وهذا يميز مناطق الإمبراطورية الرومانية الغربية القديمة من الإمبراطورية الرومانية الشرقية.هنا، نجت السلطة الرومانية لمدة ألف سنة أطول مما كانت عليه في الغرب، ومركزة على القسطنطينية. يصف العلماء الحديثون هذه الامبراطورية البيزنطية، وتأتي لتأثير الكثير من أوروبا الشرقية.

لم تكن أوروبا فى العصور الوسطى كالآن، بل كانت تنتشر بالخرفات التى لن تصدقها فلا يوجد أي مقارنة من أي نوع لآوروبا الآن وأوروبا في العصور الوسطى وقد رصدنا لكم في هذا المقال مظاهر حياة الإنسان الأوروبى قديماً فى العصور الوسطى.

إحتساب الوقت:

فى أوائل القرون الوسطى قام الأوروبيين بإبتكار طريقة غريبة جداً لإحتساب الوقت حيث قاموا بتقسيم اليوم إلى سبع ساعات فقط متساوية فى الطول، وبسبب أن أيام الصيف أطول من أيام الشتاء كان يتم إحتساب الساعة فى الشتاء ب ٦٠ دقيقة وإحتساب الساعة فى الصيف ب ١٥٠ دقيقة.

نظام السجون :

فى تلك الفترة المظلمة، كان نظام السجون وحشياً جداً بكل ما تحملة الكلمة عكس الآن تماماً، حيث لم يكن هناك أى نوع أو أى شكل من أشكال التحضر حيث كانت السجون عبارة عن قلاع عالية جداً والمسجون يظل فى السجن طوال اليوم ولا يرى الشمس إطلاقاً بل ويظل مكبل اليدين بالإضافة إلى سوء الطعام لدرجة أن معظم المساجين كانوا يموتون داخل السجون

أرصفة الشوارع:

كانت الشواع فى أوروبا فى ذلك الوقت وفى معظم المدن الكبرى وتحديداً فى لندن قذرة بكل ما تحملة المعنى من كلمة حيث لم يكن هناك أرصفة فى الشوارع وكانت الشوارع غارقة فى المياة العفنة وروث الحيوانات طوال الوقت بالإضافة للطعام الفاسد الموجود فى الشوارع.

علاج للمشكلات النفسية:

لم يكن هناك أى علاج للمشكلات النفسية فى حيث المريض النفسى فى ذلك الوقت كانوا يظنون أنه مسوس من قبل الجن وكانوا يذهبوا بـه إلى الكهنـة ممـا أدى إلى إنتشـار الخرافـات وسـاد التطـرف والسـحر وكـانوا يعالجهوم بطرق

مخيفة كالعزلـة والضربـب والجلـد لتخـرج الـروح الشريرة وكـانوا يجعلوهم مكبلين اليدين لفترات قد تصل إلى عشر سنوات.

عدد السكان:

عندما نقل أن عدد السكان قليل فنحن نعنى ذلك حيـث كـان عـدد السكان فى ذلك الوقت فى لندن وباريس لا يتعدى ٤٠ ألف نسمة فكانـت أوروبا فى ذلك الوقت فارغة تماماً.

كرة القدم:

ربما تعد كـرة القـدم الآن اللعبـة الشـعبية الأولى وتعـد أوروبـا مـن القارات المتميزة فيها فقد كانت هذه الرياضة فى ذلـك الوقـت مـزيج مـن الراكبى وكرة القدم الآن ونظراً للعنف الموجود فى اللعبة منع الملـك إدوارد الثانى هذه الرياضة فى عام ١٣١٤.

الغالبية العظمى سكارى:

كان الغالبية العظمى للنـاس فى ذلـك الوقـت سـكارى وكـان مـن الصعب الحصول على مياة نظيفة وقد ظن النـاس أن المـاء فى ذلـك الوقـت صعب لعملية الهضم وكان يتم شرب النبيذ بشكل مفرط بدلاً من الماء.

الإستحمام:

أوروبا الحالية والمواطن الأوروبى الحالى ليس له علاقة بالمواطن الأوروبى فى القرون الوسطى، والأوروبى الأنيق النظيف الآن مختلف تماماً عن الأوروبى فى هذه القرون والذى كان يعتقد أن الإستحمام يسبب أضرار بدنية

وصحية وأن الأطفال الذى يتعرض بدنهم للماء تتعرض أبدانهم للهشاشة على الرغم من إنتشار الحمامات فى المدن الكبيرة مثل أثينا وروما.

الموت بالطاعون:

يعتبر الطاعون او ما كان يعرف باسم الموت الأسود واحد من أكثر الأمراض فتكاً فى التاريخ، وفقاً لحسابات تاريخية قتل الطاعون ما يقرب من نصف سكان أوروبا فى ذلك الوقت فإذا كنت تعيش هناك فقد تكون نسبة إصابتك للطاعون تصل إلى ٥٠٪.

أستند الطب على الخرافة:

فى القرون الوسطى فى أوروبا كان الذهاب للطبيب هى أسوأ مخاوفك فقد كان التنجيم سائد فى علاج الكثير من الحالات وقد كان يتم إستخدام الأدوات المدببة وبدون تخدير إطلاقاً وكانوا يستخدمون النظريات البرية لعلاج المرضى.

الفصل الثالث
طغيان الكنيسة في العصور الوسطى الأوروبية

إن كانت الكنيسة خسرت دينها ونفسها عندما اقتضت مصلحتها التحالف مع الإمبراطور قسطنطين وحَرَّفَت دينها ووثنت النصرانية من أجل الاعتراف بها ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، فإنها أيضاً أذلت أتباعها واستعبدتهم باسم الدين والدين منه براء عندما تطورت العلاقة بين الكنيسة والأباطرة إلى الشراكة في حكم أتباعهما في المجتمعات الإقطاعية الغربية، وفي تلك الفترة لعب رجال الدين الذين دخلوا على خط الإقطاع وتملكوا الإقطاعيات الكبيرة دوراً كبيراً وخطيراً في تخدير مشاعر الفلاحين المستعبدين والمظلومين والمقهورين عند الإقطاعيين، وامتصاص نقمتهم وإجهاض رغبتهم في الثورة والتمرد على ذلك الظلم، بكذبة: أن لهم -الفقراء- الجنة وملكوت السماء. وليت جشع رجال الدين النصارى وقف عند ذلك الحد ولكنه بعد أن استطاعت الكنيسة الهيمنة على الحياة كلها في أوروبا والتحكم في مصائر سكانها حكاماً ومحكومين وأصبح لها الكلمة الفصل والمطلقة على الجميع، امتدت أيدي الكنيسة ورجال الدين إلى ما في جيوب الفقراء من الزهيد من المال إن توفر ليسرقوه باسم صكوك الغفران التي أعطوا لأنفسهم الحق في منحها لهذا أو ذاك بدعوى التفويض الإلهي للبابا ظل الله في الأرض!.

فقد توجت الكنيسة تصرفاتها الشاذة وبدعها الضالة بمهزلة لم يعرف تاريخ الأديان لها مثيل عندما احتاجت إلى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالي لمواجهة أعدائها، وقد كان ألد وأخطر أعدائها (المسلمين) أثناء الحروب

الصليبية التي بدأت تلوح علامات هزيمتها فيها بعد أن بلغ ضعف الحماس الديني في نفوس الأوربيين مبلغاً كبيراً وفقد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجة لخيبة أملهم في النصر الذي وعدتهم به وعداً قاطعاً، ففكرت في وسيلة تجعل المقاتل يندفع للاشتراك في الحملة الصليبية فكانت تلك الوسيلة (صكوك الغفران)! حيث أصدر المجمع الثاني عشر المعروف باسم مجمع لاتيران سنة ١٢١٥م قرار يمنح البابا حق امتلاك الغفران للمذنبين! يقول ول ديورانت: أن صكوك الغفران كانت توزع على المشتركين في الحروب الصليبية ضد المسلمين. **وأنه لم يكن يحظى بالحصول على صك الغفران إلا أحد أثنين:**

١. رجل ذو مال يشترى الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحددها هي.
٢. رجل يحمل سيفه ويبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.

وقد مثل ذلك ذروة الطغيان الكنسي ضد الفقراء والأمراء على حد سواء، وكانت أول أمرها من أسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخها، حيث قويت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالجحافل البربرية التي تطوعت للقتال

في سبيلها من أجل الحصول على الغفران. وبالمقابل كانت لها نتائج سلبية على الكنيسة ووضع حد لطغيانها نهائياً بعد عدة قرون، فقد انخفضت سلطة الملوك والأمراء والنبلاء الذين كانوا جنوداً للكنيسة يقاتلون بأنفسهم في الحروب الصليبية. ورأوا أنهم أصبحوا هم وشعوبهم ليسوا إلا أدوات أو صنائع رجال الدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان إن سخطوا، كما أن الثراء

الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافساً قوياً لأصحاب الإقطاعيات وكبار الملاك ما أثار في نفوسهم شعور العداوة لها والحقد عليها.

أضف إلى ذلك الأسباب الأخرى التي تجدها في كل الكتب عند الحديث عن ظروف نشأة العلمانية في الغرب، والثورة ضد الكنيسة، **مثل**:

١. الطغيان الديني (محاكم التفتيش)؛ بدء من فرض عقيدة التثليث، مروراً باضطهاد الكنيسة لكل المخالفين لها، انتهاء بثورة مارتن لوثر المزعوم أنها (إصلاحية). يقول برنتن: "لم يكن بوسع الكثيرين من أفراد المجتمع الغربي أن يعترفوا صراحة وجماعة بالإلحاد أو اللاارادية أو بمذهب الاتصال بالله أو بأية عقيدة أخرى غير (المسيحية) إلا خلال القرون القلائل الأخيرة، وقد كان الكفار الذين يجاهرون بكفرهم قلة نادرة في الألف سنة التي استغرقتها القرون الوسطى.

٢. **الطغيان السياسي:** فقد تحـول رجـال الـدين إلى طواغيـت وسياسـيين محترفين، وتملكتهم شهوة عارمة للتسلط ورغبة شرهـة في الاسـتبداد، بزعم تطبيـق الشرـيعة وأن البابـا ظـل الله عـلى الأرض. فقـد كانـت الكنيسة ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعاً منهم بل واجباً يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي جـاء في البيـان الـذي أعلنـه البابـا (نقولا الأول) قوله: "إن ابن الله أنشأ الكنيسـة؛ بـأن جعـل الرسـول بطرس أول رئيس لها، وأن أسـاقفة رومـا ورثـوا بطـرس في تسلسـل مستمر متصل..(لذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهـر الأرض يجـب أن تكون له السيادة العليا والسـلطان الأعظـم عـلى جميـع (المسـيحيين)، حكاماً كانوا أو محكومين".

٣. **الطغيان المالي:** يستطيع المرء أن يقـول دون أدنـى مبالغـة أن الأناجيـل (المسيحية) لم تنه عن شيء نهيها عن اقتناء الثروة والمـال، ولم تنفـر مـن شيء تنفيرهـا مـن الحيـاة الـدنيا وزخرفهـا، وجـاءت القـرون التاليـة فشهدت مفارقة عجيبة بين مفهـوم الكنيسـة عـن الـدنيا وبـين واقـع الكنيسة العملي، **ونستطيع أن نلخص مظـاهر الطغيـان الكنسيـ في هذا المجال بما يلي:**

- **الأملاك الإقطاعية:** يقول ول ديورانت: "أصبحت الكنيسة أكـبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا، فقد كان ديـر "فلدا" مثلا، يمتلك (١٥٠٠٠) قصر صغير، وكان دير "سـانت جول" يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان "الكوين فيتور"

(أحد رجال الدين) سيداً لعشرين ألف من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية، وهكذا أصبحت الكنيسة جزءً من النظام الإقطاعي. وكانت أملاكها الزمنية، أي المادية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل (مسيحي) متمسك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والباباوات".

الأوقاف: كانت الكنيسة تملك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية باعتبارها "أوقافاً" للكنيسة بدعوى أنها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية، إلا أنها أسرفت في تملك الأوقاف حتى وصلت نسبة أراضي الكنيسة في بعض

الدول درجة لا تكاد تصدق، وقد قال المصلح الكنسي (ويكلف) وهو من أوائل المصلحين: "إن الكنيسة تملك ١/٣ أراضي إنجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي، وطالب بإلغاء هذه الأوقاف واتهم رجال الدين بأنهم "أتباع قياصرة لا أتباع الله".

- **العشور:** فرضت الكنيسة على كل أبتاعها ضريبة "العشور" وبفضلها كانت الكنيسة تضمن الحصول على عشر ما تغله الأراضي الزراعية والإقطاعيات، وعشر ما يحصل عليه المهنيون وأرباب الحرف غير الفلاحين. يقول ويلز: "وكانت الكنيسة تجبي الضرائب ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بل طالبت به كحق".
- **ضريبة السنة الأولى:** لم تشبع الأوقاف والعشور نهم الكنيسة الجائع وجشعها البالغ بل ظلت ترهق كاهل رعاياها بالرسوم والضرائب الأخرى، ولما تولى البابا حنا الثاني والعشرين جاء ببدعة جديدة هي "ضريبة السنة الأولي" وهى مجموعة الدخل السنوي الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية، تُدفع للكنيسة بصفة إجبارية، وبذلك ضمنت الكنيسة مورداً مالياً جديداً.
- **الهبات والعطايا:** كانت الكنيسة تحظى بالكثير من الهبات يقدمها الأثرياء الإقطاعيون للتملق والرياء أو يهديها البعض بدافع الإحسان والصدقة، كما أنهم كانوا يخشون غائلة غضب الكنيسة بحرمانهم من

المغفرة عند الاحتضار على الأقل. وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة صكوك الغفران إذ انهالت التبرعات على الكنيسة وتضخمت ثروات رجال الدين كما أسلفنا.

- **العمل المجاني "السخرة"** : لم تقتنع الكنيسة ورجال الدين بامتلاك الإقطاعيات برقيقها بل أرغمت أتباعها على العمل المجاني في حقولها وفي مشروعاتها، لا سيما بناء الكنائس والأضرحة، وكان على الناس أن يرضخوا لأوامرها ويعملون بالمجان لمصلحتها مدة محددة هي في الغالب يوماً واحداً في الأسبوع ولا ينالون مقابل ذلك جزاءً ولا شكوراً.
- **المواسم المقدسة والمهرجانات الكنسية**: التي كانت تدر الأموال الطائلة على رجال الكنيسة، فمثلاً "في سنة ١٣٠٠م عقد مهرجان لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج في روما بلغ من انهيال المال إلى خزائن البابوية أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التي وضعت عند قبر القديس بطرس".

وهكذا كانت الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة وأعبائها المالية المرهقة، وكان الملوك والأباطرة ورجال الدين الصغار يحسون بذلك أيضاً ولم يكن في وسع أحد أن يرفض شيئاً من ذلك، فالشعب خاضع تلقائياً لسطوتها، والملوك كانوا يخشون بأسها من جهة كما كانت بينهما مصالح مشتركة من جهة أخرى، إذ كانت الكنيسة تمدهم بأسباب البقاء، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة لإعلان احتجاجهم. يقول

تولستوي :"لقد استولى حب السلطة على قلوب رجال الكنيسة كما هو مستول في نفوس رجال الحكومات، وصار رجال الدين يسعون لتوطيد سلطة الكنائس من جهة ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة أخرى". إذن فمصلحة السلطتين تقتضي بقاء الأوضاع على صورتها الواقعة.

٤ . **الصراع بين الكنيسة والعلم**: بما أن الدين بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة في أوروبا العصور الوسطى، فإن الأصح أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم وليس بين الدين والعلم. **وقد كان الصراع نتيجة خطأين فادحين ارتكبتهما الكنسية**:

- **أحدهما**: تحريف حقائق الوحي الإلهي وخلطها بكلام البشر، والخرافات الوثنية والمعلومات البشرية التي جعلتها الكنيسة عقائد إلهية تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدت الكفر بها كفراً بالوحي والدين.
- **والآخر**: فرض الوصاية الطاغية على ما ليس داخلاً في دائرة اختصاصها، وحاسبت الناس لا على معتقدات قلوبهم فحسب، بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم.

أثر الكنيسة على الفكر الأوربي

لقد نقد المفكرون الأوربيون الكنيسة وحاولوا إصلاحها، ومع تقدم العلوم والمعارف، اصطدموا بالكنيسة وحدث ما سمي بالصراع بين الدين (المسيحي الكنسي) والعلم، وحينما أتيحت لهم فرصة التحرر من ذلك الدين

استغلوها إلى أبعد الحدود ، ولذلك فإن الكنيسة أضرت بالدين لكونها السبب في نبذه والتحرر منه.

ولا بد من التأكيد هنا أن الذي حدث في أوربا ليس راجعا إلى الدين بوجه عام، وإنما بالدرجة الأولى إلى المسيحية وعقائدها وشعائرها ورجال الدين فيها، فالنتائج التي سبق ذكرها تولدت في بيئة معينة، ونتيجة لظروف معينة ودين معين، وهذا الحكم لا ينسحب على الإسلام والمجتمعات الإسلامية، لانتفاء التعارض والصراع بين العلم والدين في الإسلام ، بل على العكس هناك دعوة للتفكر والنظر والتأمل.

لقد تهيأ للكنيسة في العصور الوسطى سلطان واسع النطاق ، روحيا بحكم وظيفتها، وسياسيًا بسبب ضعف الملوك والأباطرة ، وأدى انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦ م إلى ازدياد سلطة الكنيسة، فسيطرت الكنيسة على التعليم بالمدارس، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس ، وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها من قبل ، ويكفي أن نعلم أن التقدم للحصول على الدكتوراه في القانون يحتاج لموافقة الأسقف.

لقد أدت تفسيرات الكنيسة لنصوص العهد القديم لمناقضة العلم صراحة، كالقول بدوران الشمس حول الأرض، واعتبار أمراض المسيحيين مردها إلى الشياطين، واستبعاد علم طبقات الأرض والأنثروبيلوجيا، إضافة لاعتبار علم الكيمياء فنا شيطانياً خبيثاً، وغيرها من التناقضات الكثيرة مع العلم.

وقفت الكنيسة بعد ذلك بالمرصاد لكل فكر مخالف لها، ولكل صاحب رأي مغاير لرأي آبائها ورجالها، واضطهدت المخالفين إن وجدوا وقمعتهم، وأقامت من أجل ذلك محاكم التفتيش المشهورة بالتعذيب والتنكيل التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

بعد هذه المقدمة والتمهيد ندخل في صلب الموضوع، متناولاً مراحل محاولات تحرر العقل الأوربي من قيود الكنيسة، والتي بدأت بنقد الكنيسة ومحاولة إصلاحها، وانتهت بالثورة على الكنيسة وما تتبناه من مسائل تتعارض مع ما وصل إليه العلماء.

أولاً: نقد الكنيسة الذي كان له أسباب أهمها: تدهور المستوى الأخلاقي لرجال الدين المسيحي وتفشي حالات الفساد بينهم، كشربهم للخمر وارتكابهم للزنا وغير ذلك، إضافة لاستغلال رجال الدين لنفوذهم بفرض ضرائب على رعايا الكنيسة، وجمعهم الأموال بطرق غير مشروعة، ناهيك عن طبيعة المعتقدات المسيحية المخالفة للعقل البشري كالتثليث والتجسيد.

لقد تطور هذا النقد من الأمور الأخلاقية لرجال الدين فحسب، إلى نقد التعاليم الكنسية ، ثم نقد الدين برمته، ومن الحركات التي قامت بالنقد: الكاثاريون ومعناها الأطهار، والولدانيون بقيادة بطرس والدو المتوفى سنة ١٢١٧ م .

ثانياً: بوادر الصراع بين الدين والعقل منذ القرن الثاني عشر على يد أكثر من شخصية، بطرس أبيلا و أنسلم وألبرتس ماجنوس وتوماس أكونياس وغيرهم، ولعل أبرزهم الفيلسوف الفرنسي بطرس أبيلارد، صاحب فلسفة الشك والتشكيك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح.

ولا شك أن الصراع الذي بدأ بين العقل والكنيسة له أسباب أهمها: طبيعة الدين المسيحي واحتوائه على مسائل عقدية غامضة ، وأصول إيمانية معقدة ، كعقيدة التثليث التي كانت عقبة أمام التفكير العقلي السليم ، بسبب التحريف والتبديل الذي تعرض له الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) ، إضافة إلى سيطرة رجال الكنيسة على مقاليد العلم والعلماء ، واحتكار الكنيسة واستبدادها بفهم وتفسير الكتاب المقدس.

ثالثاً: ثورة الإصلاح الديني البروتستانتي التي خرجت على الكنيسة الكاثوليكية، ونددت بعيوبها ومفاسدها، والتي مهدت لظهورها طبعاً الحركات النقدية للكنيسة، وفقدان البابوية الكثير من نفوذها وهيبتها منذ القرن الرابع عشر بسبب الأسر البابوي (من عام ١٣٠٥ – ١٣٧٧) والانشقاق الكبير (بين عام ١٣٧٨ – ١٤١٧) وتطور العقلية الأوربية تطوراً دنيوياً، بعدما كانت ترى الكنيسة هي الملجأ والملاذ، بسبب صكوك الغفران مثلا وموضوع الاستحالة.

لقد كان من أشهر قادة الإصلاح البروتستانتي: مارتن لوثر وزوينجلي وكالفن، وقد تحدث الكاتب عن نبذة لحياة كل منهم ، فمارتن لوثر – وهو الشخصية الأبرز في الإصلاح البروتستانتي والتي تنسب المدرسة إليه – تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامها وصفاتها، والذي أنكر صراحة صكوك الغفران و عصمة البابا وعصمة المجامع الكنسية، ودعا لإخضاع رجال الكنيسة للسلطة المدنية، عدم احتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس، إضافة إلى إباحة الزواج للقسس ، وقد تزوج مارتن لوثر فعلاً بإحدى الراهبات.

والحقيقة أن هذه الحركة لا تعتبر إصلاحاً بل استقلالاً، فهي لم تزد على نقد الكنيسة الرومانية وليس نقد المسيحية، وإنشاء كنيسة جديدة بأفكار مختلفة ، فالكنيسة الرومانية ما زالت قائمة، وجذور وأصول المسيحية بشكل عام ما زالت قائمة، ولم تجرؤ الحركة على نقدها وإصلاحها، ففكرة التثليث والتجسد والخلاص ما زالت قائمة في كل المذاهب المسيحية، وكذلك التحريف في الكتاب المقدس ما زال قائماً.

رابعاً: ثورة العقل الأوربي على الدين المسيحي المتمثل بالكنيسة، فكانت ثورة على أمرين: على الكنيسة وفسادها الأخلاقي والمادي، وعلى المسيحية كدين يخالف العقل ويعوق الفكر أمام التقدم العلمي، واتجه العقل الأوربي إلى إحياء المذهب الإنساني من آداب اليونان والرومان، والاهتمام بالطبيعة وحب ارتياد المجهول.

لقد كان من نتائج ثورة العقل الأوربي تحرره من القيود الكنسية المفروضة على العقل والتفكير، والذي ولد كراهية للكنيسة، وتحرراً منها ومن الدين كذلك، إضافة إلى التحول إلى الترف وحياة التبذل والتهتك ونبذ كل التقاليد الدينية والآداب العامة، فانطلقت الشهوات من عقالها، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله.

خامساً: الصراع بين الدين (المسيحية) والعلم في أوربا في ظل التقدم العلمي، الذي أبرز مدى ملائمة أو موافقة ما تنتجه العقول الأوربية لما تؤمن به الكنيسة، وما جاء بالكتاب المقدس، و جناية رجال الدين المسيحي على دينهم كبيرة، إذ إن ما دسوه في كتبهم كان من بين أهم أسباب الصراع مع العلم.

ففي باريس حرم البرلمان الفرنسي - مدفوعاً من رجال الكهنوت - المباحث الكيميائية، التي قام بها شبان اشتغلوا بالعلم التجريبي، وفي إيطاليا قضى الإكليروس على أكاديمية البحث الطبيعي التي أنشأها تليزيو في نابلي عام ١٥٦٠ ، وكذلك قاومت بريطانيا البروتستينية الجمعية الملكية والمجمع البريطاني لتقدم العلم ، ووصل هذا الصراع إلى أوجه في القرنين ١٦ و ١٧ ، مع نظريات علم الفلك الحديث التي زلزلت أركان الكنيسة.

سادساً: العلمانية التي اختلف كثيراً في معناها بين فتح العين وكسرها، وعلى كل حال فهي تعني بالاجمال اللادينية أو الدنيوية، واستبعاد الدين من توجيه شؤون الحياة، وقد نشأت العلمانية في أوربا بسبب الظروف الخاصة التي مر ذكرها هناك في الغرب، وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال استنساخها في المجتمعات الإسلامية التي ليس فيها أي عامل من تلك العوامل التي أدت ظهورها .

سابعاً: التحول إلى الفكر المادي عند الأوربيين بفعل موقف الكنيسة من العلم، وتطلق المادية على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد هو (المادة)، ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شيء واحد، والمادة أساس كل شيء، والحياة والحركة ما هي إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها، وهذه المادة لم يخلقها الله تعالى، بل قديمة أزلية، لا تتغير قوانينها ولا تفنى، ولكن العلم الحديث أثبت بشكل قاطع اهتراء هذه النظرية وبطلانها، من خلال تأكيده على أن الكون له بداية، وأن أزلية المادة وهم وباطل بطلانا تاماً.

لقد كان للكنيسة وأفعالها المقيدة للعقل والعلم، أثر بارز وظاهر في اتجاه العقل الأوربي إلى الاتجاه المقابل تماماً، ألا وهو الإيمان بالمحسوس والمادة فحسب، وطرح الدين (المسيحي) جانباً، والكفر بمبادئه وعقائده وغيبياته.

الفصل الرابع
العصر الوسيط (عصر الفيودالية والنظام الفيودالي)

١. خصائص العصر الوسيط (عصر الفيودالية و النظام الفيودالي):

درج المؤرخون الأوربيون منذ عصر النهضة على تقسيم تاريخ أوربا إلى مجموعة عصور متعاقبة هي: العصر القديم بمرحلتيه اليونانية و الرومانية، والعصر الوسيط ثم العصر الحديث. واتخذوا من بعض الأحداث السياسية العسكرية الكبرى مفاصل بين عصر وآخر.

ويجمعون في هدا الشأن بأن سنة ٤٧٦ ميلادية، التي تم فيها وضع حد لسيادة الإمبراطورية الرومانية تمثل نهاية العصر القديم و بداية العصر الوسيط. بينما اعتبروا سنة ١٤٥٣ ميلادية، تاريخ سيطرة الأتراك العثمانيين على القسطنطينية، نهاية العصر الوسيط و بداية العصر الحديث. ومن ثم، يكون العصر الوسيط قد استغرق حوالي ألف سنة. شهدت خلالها أوربا بوجه عام ومناطقها الغربية بوجه خاص أحداثاً متميزة و تطورات متباينة، سواء من حيث الإيقاع أو من حيث المظاهر.

تعود مقدمات تلك الأحداث والتطورات إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثالث و الخامس. وهي فترة اصطلح على تسميتها بالعصر الإمبراطوري الأسفل. شهدت خلالها الإمبراطورية الرومانية أزمة متعددة المظاهر انتهت بسقوط روما سنة ٤٧٦ م. على اثر موجة غزو أولى قامت بها شعوب قدمت من شمال أوربا عبر فترات، واستقرت على أطراف الإمبراطورية قبيل بداية الغزو.

وإذا كـان ذلـك الغـزو قـد أدى إلى نهايـة وجـود الإمبراطوربـة الرومانية، فقد أدى من جهة ثانيـة إلى الإسراع بـوتيرة تلـك الأحـداث و التطورات. إذ استطاعت تلك الشعوب، المعروفـة بالشـعوب الجرمانيـة، أنتسيطر على أقاليم غرب أوربا التي كانت ولايـات تابعـة للإمبراطوريـة. وأسست بها كيانات سياسية. فكان ذلـك إيـذانا ببدايـة مسلسـل التجزئـة السياسية و تدهور المؤسسات العمومية. وهو مسلسل اسـتفحلت حلقاتـه خلال السنوات والقرون التي تلت عمليات الغزو، رغم بعض المحاولات التي رامت العودة بأوربا إلى عهود الوحدة. و قد تمت تلك المحـاولات في نطاق محدود و آلت إلى الفشـل. وبالتـالي، وجـب الانتظـار حتـى أواسـط القرن الخامس عشـر لتبدأ محاولات الوحدة ولتشرع المؤسسات في التبلـور في اطارالدول المركزية الناشئة.

وواكبت مسلسل التجزئة السياسية سلسلة حـروب شـبه متواصـلة داخل أوربا وخارجهـا (كانـت الممالـك الأوربيـة طرفـاً فيهـا) اسـتغرقت العصـــر الوسـيط برمتـه. حـدثت أولاهـا بـين الممالـك الجرمانيـة التـي تأسستغداة الغـزو. وتلتهـا حـروب خاضـها أكـبر حكـام هاتـه الممالـك، كحروب شارلمان الملـك-الإمبراطـور فيجرمانيـا وايطاليـا وأسـبانيا. ثـم الحروب التي جرت فصولها بمناسبة الموجة الثانية من موجات الغزو التـي قام بها هذه المرة السكندنافيون والهنغاريون. والحـروب بـين المسـيحيين و المسلمين، وأبرزها الحـروب الصـليبية في المشـــرق وحـرب الاسـترداد في الأندلس. وانتهت سلسلة حروب العصر الوسيط بحـرب المائـة سـنة بـين فرنسا و انجلترا اللتان انضمت لهما ممالك أخرى.

ومن المفيد أن نذكر في هـذا المقـام بـأن العصر الوسـيط في أوربـا هـو عصـــر الفروسـية والفرسـان. فقـد شـكل الفرسـان الشـــريحة السـفلى في الأرستقراطية. وكانوا موزعين عـلى شـكل فرق(مليشـيات). تعمـل كـل واحدة منها تحت إمرة أحد أفراد الشريحة العليا في الأرستقراطية .و تربط بين الطرفين روابط خاصة تعرف بالروابط الفيودو- فصلية liens féodo-les vassaliques). وقد مثلت هذه الروابط كنه ظاهرة الفيودالية.

وبما أن الحرب كانت اهـتمام الفرسـان الأول والأخـير، فقـد كانـت الوقائع بين أفراد الأرستقراطيات المحليـة أو الجهويـة أمـراً مألوفـاً. و قـد بلغت الوقائع ذروتها سنة ١٣٣٧ حين اندلعت حرب المائة سنة المشار إليها آنفاً. وكانـت تتخلـل سلسـلة الحـروب والوقـائع، أو تسـبقها أو تتلوهـا، حركات اجتماعية- دينية كان يقوم بهاالفلاحون. وأبرزها حركات القـرنين الحادي عشـر و الرابع عشر.

وفي جميع الأحوال كـان هـؤلاء الفلاحـون، الـذين شـكلوا السـواد الأعظم في مجتمع أوربـا العصرـ الوسـيط، هـم حصـاد تلـك الحركـات و الحروب. كما كانوا في نفس الوقت هم الحطب المغذي للحروب بما يقدمونه من خدمات وضرائب و مغارم و مكـوس لفائـدة الأرسـتقراطية العقاريـة التي سخر أفرادها كل الوسائل القانونية و العسكرية للاستفادة من فـائض إنتاج عمل الفلاحين. الذين كان الواحد منهم ملزما بقضاء أكثـر سـاعات النهار في وضعية انحناء نحو الأرض التي غـدت خـلال العصرـ الوسـيط مصدر الإنتاج الرئيسـي، بل مصدر حياة ووجود مجتمع بأكمله.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن عملية إعادة تشكيل الخارطة السياسية في أوربا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية واكبتها عملية إعادة تشكيل مماثلة « للخارطة الاقتصادية » التي لم تعد مشكلة من أنشطة واضحة المعالم: نشاط فلاحي في الأرياف ومبادلات تجارية وأنشطة حرفية وخدماتية في الحواضر. بل اختزلت كثيراً، حتى أنها لم تعد تشمل سوى النشاط الزراعي.

في حين اختفت المبادلات التجارية والأنشطة الحرفية ومختلف الخدمات، بما فيها الأنشطة الفكرية التي اشتهرت بها مدن الإمبراطورية الرومانية. ولم تعرف هذه الأنشطة الانتعاش إلا بعد مطلع القرن الحادي عشر. حين أفضت النهضة الزراعية التي شهدتها الأرياف إلى حدوث تحولات هائلة شملت جميع مناحي الحياة.

بدأت تلك النهضة تسجل تراجعاً ارتسمت معالمه الأولى حوالي ١٣١٦ - ١٣١٧. وأصبحت واضحة منذ حوالي ١٣٢٠ ايذانا بحدوث انقلاب في الظرفية، سرعان ما تحول إلى أزمة اقتصادية وديموغرافية واجتماعية وسياسية و عسكرية وفكرية استغرقت القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وانطلاقاً مما تقدم نخلص إلى القول بأن مجمل أحداث و ظواهر وتطورات العصر الوسيط، بما فيها ظاهرة الفيودالية، التي سنتناول جوانبها بتفصيل، حدثت في الأرياف التي مثلت إطارها الرئيسي؛ على الأقل حتى مطلع القرن الحادي عشر. حيث ستشرع المدن الناشئة في الانضمام إلى

الأرياف كفضاء لأحداث و تطورات ما بعد سنة ١٠٠٠. و لذلك نؤكد منذ البدء بأن تاريخ العصر الوسيط في أوربا هو عموما تاريخ أرياف.

فمنذ القرن الثالث للميلاد شهدت الإمبراطورية الرومانية مشاكل متعددة المظاهر، ازدادت تفاقماً حتى سنة ٤٧٦ تاريخ سقوط روما. وكان من بين مظاهر تلك المشاكل تدهور المدن. وتواصل هذا التدهور خلال القرون اللاحقة حتى أن العديد منها اختفى تماماً. وإن المدن القليلة التي استمرت في الوجود تقلصت مساحتها وتراجع عدد سكانها. وبالتالي، أصبحت الأرياف هي إطار جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية حتى مطلع القرن الحادي عشر. حيث شهدت حركة التمدين بداية انتعاش سيتواصل خلال القرون الموالية. فشرعت المدن بموازاة تلك الحركة في استعادة جانب من وظائفها وجانب من الهيمنة التي كانت تمارسها على الأرياف قبل القرن الثالث.

ويجب التنبيه، بأن عملية الاستعادة تلك كانت محدودة نسبياً، حيث إن المبادلات التجارية التي تعتبر من أبرز الوظائف التي تحتضنها المدن ظلت مرتبطة بما كانت تقدمه الأرياف من منتجات زراعية ستشهد تراجعاً منذ سنتي ١٣١٦-١٣١٧. وسيتأكد هذا التراجع بعد سنة ١٣٢٠ وعلى امتداد قرنين من الزمان.

كما أن التشكيلة الاجتماعية التي تمنح المدن هوية مجتمعية تتطابق وتسميتها كمدن لم تأخذ في التبلور إلا بعد مطلع القرن الرابع عشر. لأن البورجوازية، التي كان يفترض أن تكون الطبقة السائدة في تلك المدن، كما سيحدث بعد مطلع القرن السادس عشر، ظلت هجينة بعد عودة حركة التمدين إلى الانتعاش.

مما لا شك فيه أن الفقرات السابقة تسلط بعض الضوء على خصائص العصر الوسيط، وتساعد على فهم السياق العام الذي "نشأت" فيه وتطورت فيه الفيودالية في معناها الضيق كروابط والتزامات ذلت صلة بالفيف (*le fief*) أو في معناها الواسع كنظام اقتصادي و اجتماعي.

٣. دلالات مفهومي " الفيودالية " و " النظام الفيودالي "

تعتبر كلمة " فيودالية " تعريبا للمصطلح الفرنسي " *Féodalité* " الذي شرع في استعماله بفرنسا ابتداء من مطلع القرن السابع عشر؛ في وقت أخذت تستعمل فيه بباقي أقطار أوربا مصطلحات مرادفة كمصطلح " *Feudalismo* " الذي استعمله الايطاليون و الإسبانيون و مصطلح " *Feudalism*" الذي استعمله الأنجليزيون و مصطلح " *Feudalismus* " الذي استعمله الألمانيون. و يندرج هذا التعدد و التنوع في سياق تعدد و تنوع اللغات الناشئة في أقطار أوربا. حيث أصبح سكان كل قطر يستعملون لغة خاصة بهم ابتداء من هذه الفترة.

وقد تم اشتقاق جميع المصطلحات السالف ذكرها من الكلمة اللاتينية فيوداليس" *Feodalis* " أو من كلمة " *Feodum* " التي أصبحت الكلمة الأكثر تداولا في النصوص ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر ، و تعني الفيف " *le fief* ". و هو قطعة أرض كان شخص (و قد يكون أيضا مؤسسة دينية) يسمى " سنيورا " (*un seigneur*) يقدمها لشخص آخر. فيصبح المستفيد من قطعة الأرض تابعا للمانح و يسمى فصلا (*un vassal*). يلتزم بتقديم خدمات و التزامات معينة للسنيور. و تنشأ عن عملية تقديم الفيف وعن تلك الالتزامات روابط خاصة بين الطرفين.

وقد ظلت كلمة فيودوم " *Feodum* "تعني منذ هذا التاريخ و حتى مطلع القرن الثامن عشر الفيف و الالتزامات المترتبة على التابع المستفيد منه. وبعد مطلع القرن الثامن عشر أخذ مفكرو أقطار غرب أوربا يعطون للمصطلحات الحديثة المشتقة من كلمة فيودوم مضامين و دلالات متنوعة. وتجلى هذا التنوع بشكل أكبر في فرنسا عاصمة فكر الأنوار الذي ساد في أوربا خلال القرن الثامن عشر.

فقد ظل رجال القانون و المهتمون بتاريخ المؤسسات حريصين على استعمال مصطلح " *féodalité* " بمعناه الضيق الأصلي، أي الفيف و ما يترتب عن الاستفادة منه من التزامات وروابط. أما أقطاب الفكر السياسي، أمثال لويس مونتسكيو (*Charles Louis Montesquieu*) (١٦٨٩ – ١٧٥٥) وهنري دي بولانفليي (*Henri de Boulainvilliers*) (١٦٥٨ – ١٧٢٢) الذين عاصروا مرحلة سيادة السلطة المركزية في كل من فرنسا و انجلترا، فقد استعملوه عند الحديث عن التجزئة السياسية التي

شهدتها أوربا بعد القرن التاسع، و ما نشأ عنها من طـرق و أسـاليب خاصة في تدبير السلطة؛ التي أصبح يمارسها أفراد الأرستقراطية. كل واحد منهم يمارسها في حدود رفعـة ترابيـة ضـيقة. في حـين أعطـى الفلاسـفة و المنظـرون، أمثـال فرانسـوا مـاري أرويـة (*François Marie Arouet*) المعـروف بفـولتير (*Voltaire*) (١٦٩٨-١٧٧٨) للمصـطلح دلالات أوسع. فاستعملوه بمعنى نسق من التطور (*un processus d'évolution*). أو بمعنـى نمـط مـن أنـماط الحيـاة(*un mode de vie*) كانـت تتبنـاه مجتمعات غرب أوربا خلال العصر الوسيط . و يمكن أن يتبناه

أي مجتمع في أي مجال جغرافي . فالفيودالية من وجهة نظرهم ليسـت مجرد ظاهرة خاصة شهدتها مجتمعات أوريا في العصر الوسيط ،بل هي نسق من أنساق التطور أو نظام حياة حـدث في العصرـ القـديم . كـما حـدث في العصر الوسيط . و له امتدادات في العصر الحديث .

وعلى غرار الفلاسفة و المنظرين أعطـى المفكـرون الاقتصـاديون ، و أبـــرزهم الانجليـــزي أدم ســـميث (*Adam Smith*) (١٧٢٣-١٧٩٠)،لمصطلح فيودالية دلالات أوسـع كـذلك. فقـد رأوا بـأن الفيـف الذي اشتق منه هو أولاً و أخيراً عقار (*un bien-fonds*) اكتسـى أهميـة بالغة بالنظر إلى سيادة النشاط الزراعي في العصر الوسيط .و قد شكل تبعـا لذلك مصدر ثروة بالنسبة للسيد و التابع. ومن ثم، لا يمكن الحديث عنـه و عن الالتزامات و الروابط المتصـلة بـه بمعـزل عـن الحيـاة الاقتصـادية. فانكبوا على دراسة بنية ذلك العقار و مكونات تلك الثروة و مجالات

صرفها و ما إلى ذلك من قضايا ذات صلة بالأوضاع الاقتصادية التي شهدتها أقاليم غرب أوربا زمن سيادة الفيودالية.

وقد شكلت طروحات الفلاسفة و المنظرين و المفكرين الاقتصاديين نقطة انطلاق بالنسبة لماركس وانجلز و أتباعهما الذين ذهبوا بعيداً. فجعلوا من الفيودالية نمط إنتاج،أي نظاماً سوسيو- اقتصادياً نشأ بعد نهاية النظام العبودي. وانتهى عندما بدأت تترسخ قواعد النظام الرأسمالي. أي أن النظام الفيودالي نشأ في أوربا عندما تراجع دور العبيد كقوى منتجة و لم تعد العلاقات الاجتماعية قائمة على العبودية. و بدأ في الانحلال عندما هيمنت المبادلات التجارية على الحياة الاقتصادية؛ و بدأت العلاقات الاجتماعية تأخذ منحى

منسجماً مع تطور قوى الإنتاج. و معنى ذلك أن فترة سيادة نمط الإنتاج الفيودالي حدث خلالها تطابق بين قوى الإنتاج التي بلغت مستوى معيناً من التطور والعلاقات الاجتماعية التي حققت بدورها مستوى معيناً من التطور.

وتبعاً لانتشار الفكر الماركسي، فقد تبنى هذا الطرح العديد من المفكرين والباحثين في أقطار أوربا وأمريكا و آسيا و إفريقيا. و أصبحوا يفضلون استعمال أحد المفهومين المركبين : "نمط الإنتاج الفيودالي" (*mode de production féodal*) أو " النظام الفيودالي " (*système féodal*) بدل مفهوم الفيودالية. لأن لهما دلالة شاملة تنطبق على جميع بنيات

المجتمع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ويمكن استعمالهما عند البحث في بنيات مجتمعات أخرى غير المجتمعات الأوربية. فيمكن حينئذ الحديث عن نمط إنتاج فيودالي في اليابان أو في الصين أو في أحد أقطار إفريقيا.

وانطلاقاً مما تقدم، يتضح بأن المضامين و الدلالات التي أعطاها مفكروأوربا لمصطلح فيودالية و للمصطلحات المرادفة له مضامين ودلالات مختلفة. وقد تحول الاختلاف إلى تباين حينما لجأ ثلة من المفكرين إلى استعمال مصطلحات مركبة هي نمط الإنتاج الفيودالي (*le mode de production féodal*) أو النظام الفيودالي (*le système féodal*). بحيث لم يعد ممكنا إحداث تقارب بين وجهات النظر. لأن المصطلحات ارتقت إلى مستوى المفاهيم، نظرا لصبغتها الإجرائية و الوظيفية و نظراً لما يعكسه استعمالها من مواقف و رؤى و مناهج في البحث. ولازال هذا التباين حتى اليوم أحد سمات الإنتاج الإسطريوغرافي المتصل بالموضوع.

وإجمالاً يمكن التمييز في عموم الباحثين و المفكرين بين فئتين: فئة تتبنى وتستعمل مفهومالفيودالية (أو أحد المفاهيم المرادفة له حسب لغة المفكر أو الباحث). وتلخص مضمونه في كونه الفيف والالتزامات المرتبطة به والعلاقات القائمة بين الذي يقدمه والذي يستفيد منه. وفئة تتبنى وتستعمل مفهوم نمط الإنتاج الفيودالي أو النظام الفيودالي بمعنى نسق من التطور شهده مجتمعغرب أوربا خلال مرحلة معينة من تاريخه تطابقت فيها قوى إنتاج، وصلت مستوى معينا من التطور، مع علاقات اجتماعية منسجمة معها.

ورغم المناظرات والملتقيات التي سعت بعض الجهات التي نظمتها إلى تقريب وجهات نظر الفئتين، فإن التباين أصبح قدراً محتوماً. بل إن هذا التباين أخذ في فرنسا طابع الجدل الحاد الذي أفضى- منذ مطلع القرن العشرين إلى ظهور وشيوع استعمال مفهوم جديد في أوساط المفكرين و الباحثين المشبعين بفكر ماركس وانجلز وهو مفهوم الفيوداليسم (*Féodalisme*)المرادف لمفهومي نمط الإنتاج الفيودالي والنظام الفيودالي. وقد تبنت هذا المفهوم الأوساط العلمية. و دخل قاموس اللغة الفرنسية الذي يتميز بكونه القاموس الأوربي الوحيد الذي يتضمن مفهومين هما : " *Féodalité* " و" *Féodalisme* ".

والحقيقة أن هذه الإضافة لم تعمل على إثراء رصيد لغة الباحثين الفرنسيين بقدر ما جعلت الهوة الفاصلة بين الذين يستعملون هذا المفهوم أو ذاك أكثر عمقا. ويخطأ البعض حين يعتبرون هذه الازدواجية مجرد اختلاف في اللغةأو

المفاهيم المستعملة. بل على العكس من ذلك تماما تعكس، في اعتقادنا، اختلافاً في الرؤى و المناهج المتبعة كما سيتبين ذلك من خلال العناصر التي سيتم تناولها في هذا البحث.

٣.مصادر دراسة الفيودالية و النظام الفيودالي:

تفادياً لأي فهم خاطئ قد يوحي به هذا العنوان، نوضح بأن دراسة الفيودالية و النظام الفيودالي لا تتم انطلاقاً من مصادر جد خاصة، بل على العكس من ذلك تستوجب الإحاطة بمختلف جوانبها العودة إلى قاعدة

معلومات و معطيات متنوعة لاستقاء المادة التاريخية. تتمثل هذه القاعدة في المصادر الأركيولوجية و المصادر الخطية.

أولاً: المصادر الأركيولوجية:

يفرض هذا النوع من المصادر حضوره لاعتبار أساسي هو أن الفيودالية هي في كنهها ظاهرة حربية.إذ أن الوقائع العسكرية تصدرت أحداث الحقبة التي سادت فيها. و بما أن عملية خوض الحروب أصبحت تشغل بال أفراد الأرستقراطية منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية، ثم حدثت تحولات بعد مطلع القرن الحادي عشر جعلت الحروب تصبح من اهتماماتهم الرئيسية، فقد اقتضى الأمر بعد هذا التاريخ إقامة تحصينات؛ أبرزها القصور (*les châteaux*) والقلاع (*les donjons*) والقصور المشيدة على تلال طبيعية أو اصطناعية (*les mottes castrales*). وقد أصبحت هذه المنشآت من أبرز معالم المشهد المآثري (*paysage le monumental*) في أرياف أوربا. وغدت مراكز للقيادة وممارسة السلطة من قبل أفراد الأرستقراطية. ومن ثم، فان البحث في ظاهرة الفيودالية

وما يتصل بها من مؤسسات اقتضى منذ عقود مضت القيام بعمليات مسح جوي و تنقيب ميداني لتحديد مواقع تلك المنشآت و الكشف عن بقايا ما اندرس منها. وقد أفضت مختلف العمليات التي بوشرت في مختلف أنحاء أوربا، وفي فرنسا بوجه خاص، باعتبارها "مهد الفيودالية" كما يقال، إلى نتائج بالغة القيمة عززت رصيد قاعدة المعلومات و المعطيات التي

كانت حتى بدايات القرن الماضي تستقى من النصوص في المقام الأول؛ الأمر الذي مكن من إعادة رسم خارطة الانتشار الجغرافي للفيودالية ، و من إعادة تحديد المجال الترابي الذي كانت تمارس فيه سلطة أفراد الأرستقراطية خلال فترة سيادة الفيودالية.

وقد تمت صياغة أهم نتائج عمليات الاستشعار الجوي (*la détection aérienne*) والتنقيب الميداني في تقارير و عروض و دراسات أهمها على الإطلاق عروض وتقارير الملتقيات الدورية التي دأب على تنظيمها منذ سنة ١٩٦٢ مركز الأبحاث الأركيولوجية القروسطوية *le Centre de Recherches Archéologiques médiévales*) التابع لجامعة (*Caen*).

ثانياً: المصادر الخطية :

تمثل المادة التاريخية التي تتضمنها المصادر الخطية الجانب الأكبر من قاعدة المعلومات والمعطيات الضرورية لدراسة الفيودالية وما يتصل بها من مؤسسات، فضلا عن السياق التاريخي الذي نشأت وتطورت فيه. ويتألف هذا النوع من المصادر من مصنفات متنوعة ومتفاوتة القيمة. يمكن أن نذكر من بينها كتب الإخباريات (*les Chroniques*) وكتب الحوليات (*les Annales*)

والكتب التي تروي سير القديسين والقديسات وتتحدث عن كراماتهم (*les récits hagiographiques*) ونصوص الظهائر والمراسيم والقرارات الصادرة عن *الملوك (les Diplômes et les Edits royaux*) والمتن الذي تكونه نصوص القوانين الجرمانية "الباربارية" (*les Lois Barbares*) ووثائق العقود (*les Formulaires*).

وعموماً يمكن استعراض نماذج من أهم هذه المصنفات كما يلي:

أولاً: كتب الإخباريات و الحوليات:

أ. الإخباريات:

١- Abbon de Fleury (mort en ١٠٤٠), Siège de Paris par les Normands, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France depuis la formation de la monarchie française jusqu'au ١٣e siècle, Paris, éd. J.L.J. Brière, vol. I, ١٨٢٤.

٢- Flodoard de Reims (mort en ٩٦٦), Chronique, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…

٣- Hugues de Fleury (mort après ١١٢٢), Chronique, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…

٤- Raoul Glaber (mort en ١٠٤٧), Chronique, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…

٥- Richer de Reims (mort en ٩٩٨), Histoires, texte édité , traduit et annoté par Jean Guadet, Paris, éd. Jules Renouard, ١٨٤٥, ٢ vol.

ب. الحوليات

١. Anonyme, Annales de Saint- Bertin et de Metz, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France depuis la formation de la monarchie jusqu'au ١٣e siècle, Paris, éd. J.L.J. Brière, vol. I, ١٨٢٤.

٢. Annales de Saint- Bertin et de Saint-Vaast suivies de fragments d'une chronique inédite, éd. Abbé César Auguste Dehaisnes, Paris, éd. Jules Renouard, ١٨٧١.

٣. Eginhard (mort en ٨٤٠), Annales des rois Pépin, Charlemagne et Louis-le Débonnaire, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…, vol. III, ١٨٢٤.

ثانياً: سير القديسين والقديسات:

١- Bernard d'Angers (mort vers ١٠٥٠) et continuateurs, Les miracles de Sainte-Foy de Conques (morte en ٣٠٣), éd., Auguste Bouillet, Paris, A. Picard, ١٨٩٧.

٢- Moine anonyme, Vie de Saint-Didier évéque de Cahors (٦٣٠-٦٥٥), éd. René Poupardin, Paris, A. Picard, ١٩٠٠.

٣- Saint Odon abbé de Cluny (mort en ٩٤٢), Vie de Géraud d'Aurillac (mort en ٩٠٩).

ثالثًا: الظهائر والمراسيم الملكية:

١- Eugène de Rozière, Recueil général des formules usitées dans l'Empire des Francs du Ve au Xe siècle, Paris, éd. Auguste Durand, ١٨٥٩-١٨٧١, ٣ vol.

٢- Recueil des actes de Louis II le Bègue, Louis III et Carloman II rois des Francs (٨٧٧-٨٨٤), éd. Félix Grat, Jacques de Font-Reaulx, Georges Tessier et Robert-Henri Bautier, Paris, Imprimerie Nationale, ١٩٧٨.

٣- Recueil des actes de Robert I et Raoul rois de F rance (٩٢٢-٩٣٦), éd. Jean Dufour, Paris, Imprimerie Nationale, ١٩٧٨.

٤- Recueil des actes de Lothaire et de Louis V rois de France (٩٥٤-٩٨٧), éd. Louis Halphen et Ferdinand Lot, Paris, Imprimerie Nationale, ١٩٠٨.

٥- Recueil des actes de Philippe Ier roi de France (١٠٥٩-١١٠٨), éd. Maurice Prou, Paris, Klincksieck, ١٩٠٨

الفيودالية بمعنى الفيف و روابط الفصالة:

يجمع جل الباحثين الغربيين، عامة و الفرنسيين بوجه خاص، بأن نشأة الفيودالية تعود إلى مطلع القرن الحادي عشر. ويربطون تلك النشأة بالتحولات السياسية التي بدأت تشهدها أقاليم غرب أوربا ابتداء من سنة ١٠٠٠. وهي تحولات تمثلت في استفحال تدهور السلطات المركزية ونهاية الدور الذي كانت تقوم به المؤسسات العمومية في تدبير شأن القمطيات. مما أدى إلى حدوث فراغ سياسي و انعدام الأمن و الاستقرار.فوجد أفراد الأرستقراطية أنفسهم مضطرين إلى إيجاد صيغ جديدة للتآزر فيما بينهم. فظهرت من جراء ذلك الفيودالية – أي الروابط المتمحورة حول الفيف – كصيغة من صيغ التآزر المنشود. و قد شارك في تفعيلها جميع أفراد الأرستقراطية. بحيث أن كبار الملاكين العقاريين كانوا يقدمون قطع أرض لمتوسطي الملاكين، وهؤلاء كانوا يقدمون بدورهم قطع أرض للفرسان. وكانت هذه العملية تباشر وفق طقوس خاصة و في مراسيم احتفالية تتم فيها تسمية مانح قطعة الأرض سنيورا والمستفيد منها فصلا. يؤدي يمين الولاء للمانح ويتعهد بأداء خدمات والتزامات ذات صبغة عسكرية في المقام الأول. كانت تقتضيها الظرفية التي "نشأت" فيها الفيودالية. وإذ اتخذت تلك الروابط منحى عمودياً، فقد اتخذت أيضا شكل علاقات

أفقية. لأن الفصل كان بإمكانه أن يكـون تابعـاً لأكثـر مـن سـنيور. وتفادياً لأي انزلاقات أو مشاكل قد تترتـب عـن تعـدد علاقـات الفصـل الواحد ،فقد تم إيجاد ضوابط ملزمة، هي جزء من الروابط التي كانت تنظم الروابط بين كل سنيور والفصل التابع له كما سنرى لاحقاً. ولهذا الاعتبار و لغيره اتخذت الفيودالية طابع نظام متكامل (*un régime*).

ومن هذا المنطلق يحق للمرء أن يتساءل كيف وصلت الفيوداليـة إلى هذا المستوى الأعلى من التطور و الاكتمال خلال هذه الفـترة التاريخيـة، أي فترة ما بعد سنة ١٠٠٠؟ ألم تسبقها أشكال وصيغ من الـروابط هيـأت لهـا إمكانية التطور؟ خاصة إذا علمنا بأن الفرد الأوربي، سواء كان ينتمي لعامة المجتمع أو لخاصته، لم يكن يعيش منعزلاً عن الأفراد الآخرين المنتمين لفئته أو لطبقته أو لطائفته. كما لم يكن منعزلاً عن الأفراد المنتمين لغـير فئتـه. ولا يختلف اثنان في القول بأن أفراد الأرستقراطية، الذين يهمنا أمـرهم في هـذا المقام، كانت تربط بينهم منذ عهود قديمة روابط اقتضتها المصالح المشتركة.

ونحن إذ نطرح هذه التساؤلات و نقـدم هـذه المعطيـات، فللتـذكير بأن عددا من المؤرخين، وخاصة منهم الفرنسيون، الذين سيأتي ذكـر أسـماء بعضهم لاحقـا، ينكـرون أن تكـون الفيوداليـة – أي الـروابط الفيـودو – فصلية – امتداداً للروابط التي كانت قائمة بين أفراد الأرستقراطية قبل سنة ١٠٠٠،

أو شكلاً متطورا لتلك الروابط. ودعواهم في ذلك هو أن الفيف بوصفه حجر الزاوية في تلك الروابط لم يظهر ولم يصبح محور الفيودالية إلا ابتداءا من مطلع القرن الحادي عشر. كما أن كلمة فيودوم نفسها التي اشتق منها مصطلح فيودالية لم يبدأ تداولها في النصوص إلا بعد سنة ١٠٠٠. وخلافاً لهذا الاعتقاد، سنحاول في هذا القسم تأكيد فكرة مفادها أن الفيودالية تضرب بجذور عميقة في تاريخ غرب أوربا تعود على الأقل إلى القرن الثالث للميلاد. وقد تطورت لتصل إلى مرحلة النضج ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر. ونميز في مسيرة الفيودالية الطويلة التي امتدت من القرن الثالث حتى نهاية العصر الوسيط بين

ثلاثة مراحل كبرى: أولاها مرحلة علاقات الرفاقة (*le Compagnonnage*) التي كان يقيمها أفراد الأرستقراطية الجرمانية مع مجموعة شباب. كانوا يتخذونهم رفقاء و حراسا لهم في نفس الوقت. و تمثل هذه العلاقات في اعتقادنا أصول الفيودالية. و ثانيها مرحلة علاقات الفصالة (*le vasselage*) التي أصبح يقيمها أفراد الأرستقراطية في الممالك التي تأسست بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية. وكانت هذه العلاقات قائمة بينهم و بين مجموعة أتباع (محاربين في المقام الأول). قامت في بادئ الأمر على عطاء غير الأرض يسمى بنفسيوم (*beneficium*)؛ ثم أصبحت الأرض أساس هذه العلاقات منذ منتصف القرن التاسع. وقد استغرقت الفترة الزمنية الممتدة من القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر

أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة نضج الفيودالية. و خلالها أصبحت علاقات الفصالة التي سادت خلال المرحلة السابقة قائمة على الفيف. و لذلك نسمي العلاقات التي سادت خلال المرحلة الثالثة باسم الروابط الفيودو- فصلية تميزا لها عن علاقات الفصالة.

أصول الفيودالية: علاقات الرفاقة عند الجرمان

لا يمكن البحث في جوانب تاريخ أوربا خلال العصر الوسيط دون استحضار الجرمان، باعتبارهم إحدى أبرز القوى التي أثرت بشكل فعال في مجربات أحداث هذه الحقبة التاريخية. وأثروا تبعا لذلك في نظم وحضارة الحقبة المذكورة. ويكفي أن نذكر مجدداً بأنهم هم الذين أجهزوا على الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦. فساهموا بذلك في إعادة تشكيل خارطة أوربا السياسية. وتجاوز فعلهم حدود البنيات السياسية ليشمل البنيات الاقتصادية والاجتماعية وعناصر السكان. ولا زالت مظاهر تأثيرهم في تاريخ وحضارة غرب أوربا

سارية المفعول إلى يومنا هذا. بل تجاوز تأثيرهم حدود القارة الأوربية ليشمل مناطق من إفريقيا بعد أن نجحت مجموعة قبلية من الجرمان، متمثلة في الو ندال، من إقامة مملكة ببعض أقاليم شمال إفريقيا.

وقد بات من المعروف اليوم بأن الشعوب الجرمانية تنحدر من أصول هندو- أوربية. كانت تقيم في المناطق المحيطة ببحر البلطيق؛ و بالتحديد في الأقاليم التي تتشكل منها اليوم كل من السويد والدانمارك والنرويج والأقاليم المجاورة لها. وامتد مجال تواجدها في اتجاه بحر الشمال

ومصبي كل من نهر الألب ونهر الويزر.ثم شرعت بعد سنة ٩٠٠ قبل ميلاد المسيح في القيام بحركة نزوح نحو الجنوب حتى أصبحت مستقرة حوالي القرن الثالث للميلاد في الأقاليم الواقعة شمال جبال الألب و نهر الدانوب و شرق نهر الراين.

يعد مصنفاً سايوس يوليوس قيصر (*Caius Julius Caesar*) (١٠٠ ق.م. – ٤٤ ق.م.) و بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس (*Publius Cornelius Tacitus*) (٥٥ ق.م. –١٢٠ م.) أهم المصادر الخطية التي يعتمدها الباحثون في استقاء معلومات عن نمط حياة وتنظيمات الشعوب الجرمانية. فقد كان الأول قائداً عسكرياً مارس السلطة واستكمل مشوار حياته المهنية كمدون للأحداث. خاض سلسلة حروب بين سنتي ٥٨ ق.م. و ٥١ ق.م. لإخضاع غاليا (*Gallia*)١ أو غالة (*la Gaule*). فوجد نفسه وجها لوجه أمام الجرمان الذين كانوا يشنون غارات على غاليا بين الفينة و الأخرى. فخاض ضدهم عدة

وقائع. اضطر في إحداها إلى عبور نهر الراين لاستئصال شأفتهم في مواطنهم. وقد دون مذكراته عن تلك الحروب في مؤلف٢ نشره سنة ٥١ ق.م. يتضمن مادة طيبة عن السلتيين (*les Celtes*) أو الغاليين، سكان غاليا. كما يتضمن معلومات قيمة – وإن كانت ضئيلة – عن تنظيمات

---

١ - كانت غاليا تتكون قبيل سنة ٥٨ ق.م من مجموع الأقاليم التي تتشكل منها فرنسا اليوم بالإضافة إلى الأقاليم التي تعرف حاليا ببلجيكا و أجزاء من شمال ايطاليا و بعض أقاليم ألمانيا. وكل هذه الأقاليم كانت خارج دائرة السيطرة الرومانية باستثناء أقاليم الجنوب التي كانت خاضعة للرومان منذ سنة ١٢١ ق. م.

٢- يعرف هذا المؤلف في ألأوساط الفرنسية باسمين :
Commentaires sur la Guerre de la Gaule ou La Guerre des Gaules و قد اعتمدنا في هذا البحث على نسخة منه نقلها إلى الفرنسية و أعدها للنشر Charles Louandre. وصدرت بباريس سنة ١٨٦٨ عن منشورات Charpentier. (تضم هذه النسخة النصان اللاتيني والفرنسي).

الجرمان العسكرية. بينما كان الثاني مؤرخا محترفا تجول في بعض مواطن القبائل الجرمانية. ودون هو الآخر مشاهداته في مؤلفنشره سنة ٩٨ م.[١] يحفل بمعلومات غزيرة حولها تعد تكملة لما ورد في مذكرات يوليوس قيصر.

يتضح من المؤلفين بأن الشعوب الجرمانية كانت تتألف من عدة قبائل. يمكن التميز فيها بين ثلاث مجموعات كبرى تبعا لمجال استقرارها و هي: الجرمان الغربيون ، ويتألفون من قبائل الألمان والسويڨ والماركومان والفرنجة. والجرمان الشرقيون، ويتألفون من قبائل الو ندال و القوط و البورغنديين و اللا نڭوبارديين. و أخيراً الجرمان الشماليون، و يتألفون من جرمان جبال الألب وجرمان أقاليم بحر الشمال وجرمان العالم الاسكندناڤي.

كانت كل قبيلة، من مجموع القبائل، تتكون بدورها من مجموعة عشائر تمثل فيها العائلة (بالمعنى الواسع للكلمة) الخلية الأساسية. وقد كانت تعيش على الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد والحرب التي كانت من أبرز اهتمامات أفرادها من الذكور[٢].

١- يتعلق الأمر بكتاب Germaniae الذي اعتمدنا على نسخة منه حققها و نشرها Jacques Perret تحت عنوان La Germanie؛ و صدرت سنة ١٩٦٧ عن منشورات Les Belles Lettres بباريس. و تتضمن هذه النسخة النص اللاتيني و ترجمته الفرنسية.
٢ - Jules César,Guerre des Gaules,Op. Cit. Livre IV,pp. ١٤٣-١٤٤.

فقد كان محاربو إحدى القبائل يشنون غارات على بعض المراكز الواقعة على الحدود مع الإمبراطورية الرومانية. وأحياناً كان مجموعة محاربين من إحدى القبائل يشنون غارات على قبيلة أخرى. فتقع بين أيديهم غنائم، وعدد من الأسرى يبيعونهم كعبيد في الأسواق الرومانية الواقعة بمحاذاة نهري الراين والدانوب. ويحصلون على نقود يصرفونها في شراء سلع ترفيهية ومواد استهلاكية من تلك الأسواق.

وكان من الطبيعي أن تتزايد حاجياتهم باستمرار. فترتبت عن ذلك زيادة في غارات القبائل على بعضها البعض وارتفاع في حدة الضغط الذي كانت تمارسه بعض تلك القبائل على أطراف الإمبراطورية الرومانية. فدفع هذا الضغط الأباطرة و كبار الموظفين الرومان إلى اللجوء إلى سياسة تقديم الهدايا العينية و النقدية لرؤساء تلك القبائل و أعيانها و كبار محاربيها[1] بهدف استقطابهم و صرفهم عن شن غارات على الأقاليم الحدودية. وبذلك أخذت تتراكم في حوزة هؤلاء الرؤساء والأعيان وكبار المحاربين ثروات عينية ونقدية. أضافوها إلى ما كانوا يحصلون عليه من هدايا وأعطيات من لدن اسر القبائل التي كانوا ينتمون إليها بحكم مكانتهم السياسية و الاجتماعية أو العسكرية. بوصف بعضهم رؤساء قبائل، والبعض الآخر أعضاء في مجالس القدماء (أو الشيوخ)(*les conseils des anciens*) أومحاربون كبار. فأصبحوا متميزين عن باقي أفراد القبائل التي ينتمون إليها. و شكلوا طبقة أرستقراطية وراثية. كما كونوا مجلساً دائماً (*un conseil permanent*) أصبح يمارس السلطة في القبيلة.

١- Tacite , La Germanie , Ibid. , p. ٧٣.

و استطاع بعض أعضاء هذا المجلس الارتقاء إلى مصاف الملوك. نعرف من بينهم اليوم أسماء أولائك الذين قادوا الجرمان إلى اقتحام أقاليم غرب أوربا وشمال إفريقيا أمثال شلدريك الأول (*Childéric*) ملك الفرنجة وألريك (*Alaric*) ملك القوط الغربيين وجنسريك (*Genséric*) ملك الو ندال.

وكان من تبعات تنامي ثروة أفراد الطبقة الأرستقراطية و تميزهم عن سائر الأفراد، أن لجأ عدد منهم الر استقطاب مجموعات من الشباب أصبحوا يشكلون حاشياتهم. فكانوا يحضرون اجتماعاتهم ومجالسهم. واتخذوهم في نفس الوقت حرساً خاصاً لهم. يسهرون على حمايتهم وحماية ممتلكاتهم ومرافقتهم في تنقلاتهم. وقد كان كل ارستقراطي يحرص على انتقاء الشباب المكونين لحاشيته وحرسه. فيشترط أن تكون سمعة الواحد منهم طيبة. وأن يكون على دراية بفنون الحرب والقتال.

وقد تحدث تاسيتوس عن هذه المجموعات من الشباب باسم" الرفقاء "(*les compagnons*) قائلاً في نص تقتضي الضرورة إثباته رغم طوله:"(...) إن إحدى سمات النبالة هي أن يحضى بعض الأفراد برضى بعض الرؤساء.وهي رغبة بعض الأفراد من الشباب أيضاً. إذ يسعون إلى الانضمام إلى بعض الأقوياء. و قد كان يتم التعبيرعن هذه الرغبة منذ قديم. وإن الفرد لا يخجل حين يجد نفسه من بين الرفقاء(...) بل إن الرفقاء يتنافسون ليكون الواحد منهم أكثر قرباً من الرئيس. كما يتنافس الرؤساء

ليكون للواحد منهم أكبر عدد من الرفقاء إنه المجد، إنها القوة أن يكون الواحد محاطا دائما بمجموعة كبيرة من أفراد شباب يمثلون الصفوة. فهم زينة أوقات السلم وحرس أوقات الحرب(...)إن الحرص عليهم شديد، ومن أجله تقدم لهم الأعطيات. وغالباً ما يكفي اسمهم لتحديد

نتيجة الحروب..."[1]. و يقول في موضع آخر "(...)إن الرؤساء يحاربون من أجل النصر، أما الرفقاء فيحاربون من أجل رئيسهم".[2] وينتصرون له ظالماً أو مظلوماً.

ومما لا شك فيه، أن النصوص التي يتضمنها مصنف تاسيتوس تأكد المنحى الحربي "العسكري" الذي أخذته علاقات الرفاقة بين الشباب المحاربين و الملوك و أعيان و رؤساء القبائل. وينسجم هذا التطور، فيما يبدو، مع طبائع القبائل الجرمانية المعروفة بميلها إلى الحرب والقتال منذ أزمنة غابرة كما يوضح ذلك يوليوس قيصر في مذكراته[3]. واستمرت كذلك زمن تاسيتوس؛ الذي يذكر بأن الواحد من أفراد تلك القبائل لم يكن يباشر أمراً خاصاً أو عاماً إلا وهو يحمل سلاحه[4]. ومهما يكن من أمر، فإن تاسيتوس الذي خص مسألة الرفاقة بحديث مسهب في مصنفه لا يفصح عما إذا كانت تقدم للرفقاء الشباب قطع أرض أم لا؟ والأكيد أن كل أرستقراطي كان يسهر على إيواء أفراد المجموعة التابعة له. ويقوم بتلبية

١-Ibid. , p. ٧٨.

٢- Ibid. , p. ٧٩.

٣- أنظر الكتاب الرابع من مؤلف يوليوس قيصر La Guerre des Gaules

٤ - Tacite ,La Germanie, Op.Cit., p.٧٨.

حاجياتهم من ملبس و مأكل و مشرب. ويقدم لكل واحد منهم فرسا وقطع السلاح التي تتطلبها مهامه كمحارب. بالإضافة إلى بعض الهدايا و التحف أو أعداد من العبيد الذين يتم الحصول عليهم بعد كل غارة محلية على إحدى القبائل أوغارة على أحد المواقع الرومانية.ومن هذا

المنطلق نعتقد أنهم لم يكونوا يستلمون قطعا أرضية. لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى مصدر عيش[1]، ولأن مهامهم كانت تقتضي بأن يظلوا بالقرب من سيدهم.

ويبدو أن هذه الروابط التي تعود إلى ما قبل القرن الثالث استمرت في الوجود والتطور خلال القرنين الرابع والخامس رغم أنه من الصعب تتبع مسارها خلال هذه الفترة نظراً للغموض والاضطراب الذي ميزها. فقد تردت الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية بسبب الفوضى السياسية والعسكرية والمصاعب الاقتصادية و الاضطرابات الاجتماعية. وزادت من تفاقم تلك الأوضاع عمليات الغزو الجماعي الذي قامت به القبائل الجرمانية. ومن المعطيات الدالة على استمرارها و تطورها هو أن بعض الكلمات التي تؤلف اليوم ما يسمى بقاموس الفصالة، مثل كلمة ڤاسو (*vasso*) و كلمة ڤاسوس (*vassus*)، كانت مستعملة في اللغة اللاتينية المتداولة من قبل العامة قبل القرن السادس. وستدخل ضمن لغة المتن

١- هذا ما يفهم من حديث مارك بلوك(Marc Bloch) حين يذكر في معرض حديثه عن الروابط خلال هذه الأزمنة بأنه كانت تفوح منها رائحة "خبز الدار"(le pain de ménage) أنظر في هذا الصدد كتابه :

La Société Féodale, Paris, Albin Michel, ١٩٦٨, pp.٢٣٣-٢٤٩ et p.٢٥٩.

الذي تتألف منه القوانين " الباربارية " (*les lois barbares*) التي أصبحت تنظم المعاملات في الممالك الجرمانية بعد

القرن السادس، وخاصة المجموعة المعروفة بالقانون السالي *la loi* (*Salique*)[١] والمجموعة المعروفة بالقانون الضفي (*la loi Ripuaire*)[٢]. ففي هذه القوانين أصبحت كل من كلمة ڤاسو و كلمة ڤاسوس تطلق على العبيد وكذلك على مجموع الأفراد المرتبطين عن طريق الولاء بأفراد آخرين[٣]، أي أتباع. ويتضح من خلال القوانين المذكورة بأن هؤلاء الأتباع كانوا أفراداً متواضعين من الناحية الاجتماعية، ولكنهم كانوا، خلافاً للعبيد، أحراراً من حيث الوضع القانوني. بدليل أن القانونان السالي والضفي يوضحان بأنهم كانوا يحضرون الاجتماعات العمومية (*les plaids*). ومن المعلوم أن حضور الاجتماعات خلال فترة سيادة الممالك الجرمانية الناشئة في أقاليم غرب أوربا، كان مقتصرا على الأفراد الأحرار،كيفما كان موقعهم في علاقة التبعية.

١- يمثل القانون السالي مجموعة الأعراف التي كانت تحتكم إليها مجموعة من قبائل الفرنجة. و قد تم تدوينها بين سنتي ٥٠٧ و ٥١١ على عهد كلوڤيس (Clovis) أول ملوك الفرنجة في غاليا أو(غالة). فأخذت شكل مدونة قوانين مؤلفة من ٦٥ بندا على شكل فقرات متفاوتة الطول. ثم خضعت لعمليات تكملة و تنقيح عدة مرات بين سنتي ٥١١ و ٥٣٣ و بين سنتي ٥٦٧ و ٥٩٣ ثم بين سنتي ٧٦٣ و ٧٦٤ . و تم تصحيحها أخيرا سنة ٧٩٨. و صدرت بعد تحقيق نصها في عدة طبعات من بينها طبعة ١٨٢٨ التي تضم مجموعة القوانين السالية و مجموعة القوانين الضفية باللغتين اللاتينية و الفرنسية في كتاب واحد تحت عنوان :

Lois des Francs (contenant la loi Salique et la loi Ripuaire), texte traduit et annoté par Jean François- Aimé Peyré , Paris, Imprimerie de Firmin Didot, ١٨٢٨.

٢- نسبة إلى مجموعة قبائل من الفرنجة كانت مستقرة قبيل عمليات الغزو بمناطق محاذية لنهر الراين. فسموا بالفرنجة الضفيين(les Francs Ripuaires).

٣- أنظر الفقرة ٣٥ ، البند٦ من القانون السالي ضمن الكتاب المشار إليه في الهامش السابق.

تسمح المعطيات التي أوردناها بتأكيد وجود روابط تبعية قبل القرن الثالث للميلاد. نشأت في أطراف أقاليم غرب أوربا. ثم انتقلت في مرحلـة لاحقة، أي بعد سنة ٤٧٦ ، إلى قلبها. فهل معنى ذلـك أن الفيوداليـة ذات أصول جرمانية؟ هذا ما نميل إليه رغم أن قلة مـن البـاحثين هـم وحـدهم الذين أثاروا

هذه المسـألة. ومـن بيـنهم الفرنســي فرنسـوا گيزو (*Francois Guizot*) الذي يؤكد في كتاب صدر له سنة ١٨٣٠ بأنه ليس مـن المعقـول أن تصل الفيودالية إلى مرحلة الاكتمال دون أن تكـون لهـا مقـدمات[1]. و إذ تفادى جعل تلك المقدمات ذات أصول جرمانية أو رومانية، فقـد دعـا إلى رصدها من خلال البحث في ثلاثة عناصر. أولاها طبيعـة الملكيـة الترابيـة وثانيها انصـهار السـيادة مـع ملكيـة الأرض وثالثهـا منظومـة المؤسسـات التشريعية والقانونية والعسكرية[2]. أما الأنجليزي سير فرنسيس بالغريب (*Francis Palgrave*) فقد كان أكثر وضوحا حين ذهـب إلى التأكيـد بـأن بعض عناصر الفيودالية ذات أصول جرمانية. حملها الجرمـان معهـم مـن أدغال جرمانيا. ومن بين تلك العناصر الولاء (*l'hommage*) الذي يتم التعبير عنه عمليا بانحناء شخص أمام شخص آخر و وقوفه على الركبتين و قولا بترديده لعبارة " أريد أن أصبح رجلك "[3]. أما قطب المدرسة

١- Francois Guizot , Histoire de la civilisation en France depuis la chute de l'Empire romain,(٣ éme édition), Paris, Victor Masson, ١٨٥١, Tome III, p.٢٢٧.
٢ - Ibid. pp.٢٣٠-٢٣١.
٣- Francis Palgrave, History of the Anglo – Saxons, London, William Tegg , ١٨٦٩, p. ٢١١.

التاريخية الفرنسية المعاصرة مارك بلوك فقد نعت مسألة الأصول بكونها "معضلة" يصعب الحسم فيها. واكتفى في موضوعها ببضعة أسطر. أبان فيها عن ميله إلى اعتبار أصول الفيودالية جرمانية- رومانية في نفس الوقت. امتزجت مع مرور الزمن.[١] وعلى غراره ذهب روبير بوتريش (*Robert Boutruche*) إلى القول بثنائية الأصول حيت أكد بأن " الفصالة "[٢]

نشأت من جراء قيام أفراد الأرستقراطية في مختلف المالك الجرمانية الناشئة بإحياء علاقات الرفاقة (الجرمانية)وعلاقات الإذعان و التضرع (*la recommandation*) التي كانت منتشرة في ربوع الإمبراطورية الرومانية خلال المرحلة المتأخرة من عمرها[٣].

وتعقيباً على ما ذهب إليه بوتريش، نوضح بأن علاقات الإذعان والتضرع قامت بين بعض الأفراد الأثرياء من الأرستقراطية الرومانية وكبار الموظفين. وأخذت طابع الزبونية و تبادل المصالح. بينما كان أفراد آخرين من متوسطي الحال أو من الفقراء يضعون أنفسهم رهن إشارة أولائك الأثرياء وكبار الموظفين لخدمتهم و الانخراط في زمرتهم نظير الحصول منهم على ما يسد رمقهم. و لكنها لم تأخذ في كل الأحوال ذلك المنحى الحربي الذي أخذته علاقات الرفاقة. لأن الإمبراطورية الرومانية، حتى تاريخ سقوطها، ظلت "دولة مؤسسات" كانت فيها أمور حفظ

١-Marc Bloch ,La Société féodale , Op.Cit. ,pp. ٢١٣-٢١٤.-

٢- أي العلاقات التي سادت خلال ما سميناه بالمرحلة الثانية من مسيرة الفيودالية.

٣- Robert Boutruche , Seigneurie et Féodalité, Paris, Aubier, ١٩٧٥, Tome I ,p.١٦٦.

الأمن الداخلي وخوض الحروب موكولة لمؤسسات وأجهزة رسمية، أبرزها الجيش النظامي. وبالتالي، فان أفراد الأرستقراطية الرومانية لم يكونوا في حاجة إلى تكوين "مليشيات عسكرية" مسخرة لحمايتهم. ولكن لا بأس من التنبيه في هذا المقام بأن العادة جرت في جميع ولايات الإمبراطورية بأن يحيط كل واحد من أفراد الأرستقراطية نفسه بحاشية من الأتباع و الأصدقاء و "الزبائن" ومن ضمنهم بعض أفراد الحرس الخاص.ولا شك أن هذا الإجراء الأخير أخذ في الاستشراء بموازاة تفاقم الأوضاع الأمنية خلال المراحل المتأخرة من عمر الإمبراطورية.

ومهما يكن من أمر،فان روابط التبعية لم تكن قائمة على الفيف خلال هذه المرحلة الأولى من مسيرة الفيودالية حسب الإفادات التي تقدمها النصوص المتوفرة. كما أن تلك الروابط كانت تتم في نطاق محدود نسبياً، على اعتبار أن المعنيين بها كانوا نفرا من علية القوم و مجموعة شباب يسعون لتحسين أوضاعهم الاجتماعية. ويطمحون لتحقيق المجد من خلال استغلال شجاعتهم و مقدراتهم القتالية.

ولكن يجب التذكير في هذا المقام بمقولة "أول الغيث قطرة". فهذه الروابط كانت في بداياتها. وبما أن حالة عدم استقرار الأوضاع الأمنية استمرت بعد سنة ٤٧٦ على امتداد عدة قرون، فقد استدعى الأمر من أفراد الأرستقراطية البحث المتواصل عن سند حرصا على ذواتهم و على ممتلكاتهم. وكان من تبعات ذلك أن اتسع نطاق تلك الروابط كما سنرى

لاحقاً. ولا بأس من التذكير بأن علاقات التضرع والإذعان استمرت هي الأخرى في خط موازي مع علاقات الرفاقة. فالأوضاع السياسية المتردية والظرفية الاقتصادية الصعبة ظلت تدعو الأغنياء إلى البحث عن سند و الفقراء إلى البحث عمن يحميهم و يلبي حاجياتهم[١].

من علاقات الرفاقة إلى علاقات الفصالة:

تميزت الممالك الجرمانية بكونها لم تكن دول مؤسسات قوية ومتطورة كما كان الأمر خلال سيادة الإمبراطورية الرومانية. لأن السلطة فيها ظلت منذ عهد الملوك الأوائل، وعلى امتداد حوالي ثلاثة قرون،[٢] تختزل في شخص الملك الذي كان قائد حرب في المقام الأول. يعتبر، طبقا لتقليد جرى العمل به منذ عهود قديمة، الكيان الذي يخضع لسلطته بمثابة غنيمة تمت حيازتها بعد النصر. يتصرف فيها كيفما شاء، ثم يقسمها على أبنائه قبيل وفاته. و لذلك فان " الرجالات " الذين كانوا يساعدون الملك في إدارة و تدبير " الغنيمة " كانوا بمثابة خدام أكثر من كونهم موظفي دولة. لم يتعد فعلهم و تأثيرهم حدود دائرة ضيقة. و من ثم، ظلت الأقاليم البعيدة عن القصر، الذي يمثل المركز،بمنأى عن تأثير الملك و خدامه. وهذا ما يؤكده روبيرفوصيي(*Robert Fossier*) حين يذكر بأن عدم فعالية المؤسسات و الأجهزة في مملكة الفرنجة بغالة، كما في مملكة القوط الغربيين

١- اكتفينا في هذا المقام بذكر الأوضاع السياسية و الاقتصادية دون ذكر اعتبارات أخرى أسهمت بدورها في تفعيل تلك العلاقات ومن بينها المواقف الذهنية السائدة. فالأغنياء، وهم أيضا الأقوياء، بقدر ما كانوا يبحثون من وراء علاقات الإذعان و التضرع عن السند،فقد كانوا ينشدون أيضا القيادة و تحقيق الشهرة.

٢- أي منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ و حتى بداية حكم شارلمان سنة ٧٦٨، الذي سيسعى إلى القيام بسلسلة إصلاحات إدارية و قضائية و اقتصادية للرقي بمستوى المؤسسات.

باسبانيا أو في مملكة اللومبارديين بايطاليا دفع بعض كبار الملاكين العقاريين، بمن فيهم كبار رجال الدين، إلى الاستعانة بعدد من فرق العبيد الذين كانوا في ملكيتهم و بمجموعات من الشباب. إذ كانوا يسهرون على إيوائهم و إعالتهم و تزويدهم بالسلاح نظير القيام بحراسة ممتلكاتهم١. و قد كانت مهام هؤلاء المسلحين تتجاوز حدود الحراسة إلى المشاركة في أي اشتباك

قد يقع بين المالك العقاري الأرستقراطي و أحد جيرانه. و كذلك الإنخراط ، تحت إمرة سيدهم، في الحروب الدفاعية أو الهجومية التي تخوضها المملكة. ويكتسي هذا المعطى أهمية كبرى نظرا لما سيترتب عنه مستقبلاً من نتائج فيما يخص علاقة " الدولة " بظاهرة الفيودالية، لذلك سنتوقف عنده قليلاً.

فقد كانت الحروب من الثوابت التي رافقت تاريخ الممالك الجرمانية منذ مراحل تأسيسها. حتى إن إحدى الباحثات ذهبت إلى القول بأن فترات السلم خلال مرحلة سيادة الممالك الجرمانية كانت بمثابة الفاصل بين مشهدين في عرض مسرحي. ومع ذلك، فان ذلك الفاصل لم يكن مرغوبا فيه.(٢) ويبدو أن هذا القول ينطبق أيضا على الفترات التاريخية التي تلت مرحلة سيادة الممالك الجرمانية حسب خلاصة انتهت إليها باحثة أخرى.(٣)

١ - Robert Fossier, Histoire sociale de l'Occident médiéval, Paris, Armand Colin, ١٩٧٠, p.٩٨.
٢ - Colette Beaune, Le miroir du pouvoir, les manuscrits des rois de France au Moyen Age, Paris, Bibliothèque de l'image, ١٩٩٧, p.٩٥.
٣ - Hélène Débax, La féodalité languedocienne XIe-XIIe siècles. Serments, hommages et fiefs dans le Languedoc des Trencavel, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, ٢٠٠٣, p.٢٣٤.

ودون استعراض كرونولوجية الحروب التي خاضتها هاته المملكة أو تلك، يمكن التمييز فيها بين ثلاثة أشكال : حروب توسعية، و حروب دفاعية، و حروب ناتجة عن نزاع بين أفراد إحدى الأسر المالكة أو بين الأسرة الحاكمة في مملكة من الممالك و بعض العناصر المتمردة على السلطة. بالإضافة إلى شكل آخر أشرنا إليه سابقاً، وإن لم يكن يعني القائمين على الأمرمباشرة، تمثل في الحروب الخاصة (*les guerres privées*) بين بعض الأسر الأرستقراطية داخل المملكة الواحدة. وفي جميع الأحوال كانت وقائع تلك الحروب كثيرة. و كانت تتطلب التوفر على موارد

بشرية هائلةو متجددة باستمرار؛ و هو الأمر الذي لم يكن من السهولة بمكان لاعتباراتديموغرافية[1] واقتصادية[2]. ومن ثمة، تتضح صحة ما ذهب إليه مارك بلوك منذ ثلاثينيات القرن الماضي حين أكد بأن التحدي الأكبرالذي كان على القائمين على الأمر رفعه لم يكن متصلا بمسألة تدبير شأن ممالكهم أوقات السلم، بقدر ما كان يتمثل في كيفية الحصول على العناصر البشرية اللازمة لخوض الحروب[3]. لذلك كانوا يستنفرون عند كل وقعة كل الذكور الأحرار القادرين على حمل السلاح. كما كانوا يستعينون بخدمات أفراد الأرستقراطية الذين كانوا يعززون "جيوش الملوك" بما كان تحت إمرتهم من عناصر مسلحة. وسيزداد الأمر حدة في الممالك التي أصبحت محاذية لمراكز الوجود الإسلامي في أوربا بعد

١- كانت أعداد سكان أقاليم غرب أوربا قليلة منذ سنة ٤٧٦ حتى مطلع القرن التاسع؛ حيث بدأت تلك الأقاليم تشهد بداية نمو ديموغرافي سيتضح أكثر بعد حوالي سنة ١٠٠٠. و تعزى تلك القلة لأسباب بشرية و طبيعية، من بينها الحروب و الانتفاضات الاجتماعية و الأوبئة والمجاعات.

٢- تتمثل هذه الاعتبارات في تدهور مختلف الأنشطة و ندرة السيولة النقدية لدفع مرتبات الجند. فضلا عن كون تكاليف إعداد الفارس الواحد كانت باهضة. فالفرس لوحده كان سعره خلال القرن السابع يبلغ ثلاث مرات ضعف سعر الثور.

٣- Marc Bloc, La société féodale, Op.Cit., pp.٢١٧-٢١٨.

أن نجح المسلمون في فتح الأندلس سنة ٧١١ وشرعوا في عبور جبال البرانس. وأهم الممالك التي نعنيها في هذا المقام مملكة غاليا (أو غالة) التي كان يحكمها شارل[١] محافظ قصر أوسترازيا إبان فترة أوج الفتوحات الإسلامية في أوربا بعد سنة ٧١١. فقد شرع في استنفار جميع من له قدرة على حمل السلاح.

بل فكر جدياً في استحداث فرق من المحاربين تمتطي صهوات الخيول بعد أن كان معظم محاربي المملكة من المشاة[٢]؛ في حين كان المسلمون يعتمدون في حروبهم على الفرسان إلى جانب المشاة. وفي هذا الصدد، يفيدنا أحد إخباريي القرن الثامن[٣]، بأن شارل نجح بعد سنة ٧١٦ في تكوين فرق من الفرسان انضمت إلى صفوف خاصة محاربيه(حرسه الخاص) الذين كانوا مرتبطين بقائدهم شارل بعلاقات تبعية وولاء. وكان

١- هو شارل ابن ببين هرسطال(Héristal).ولد حوالي سنة ٦٨٨ وتوفي سنة ٧٤١. كان دوقا لمقاطعة أوسترازيا. ثم أصبح محافظا لقصرها بين سنتي ٧٣٧ و٧٤١. و بما أن الملوك المنتمين للأسرة الميروفنجية الذين تعاقبوا على حكم غالة منذ سنة ٦٣٨ كانوا ضعاف الشخصية أو صغار السن، فان محافظي القصور هم الذين كانوا بمثابة ملوك فعليين. و قد برز من بينهم محافظو قصر أوسترازيا : ببين هرسطال ثم ابنه شارل الذي لقب بشارل مارتل (Charles Martel) (أي شارل المطرقة) بعد وقعة بواتيي أو بلاط الشهداء.

٢- يجب أن ننبه في هذا المقام بأن الممالك الجرمانية لم تكن تتوفر على جيوش نظامية كما كان الأمر خلال سيادة الإمبراطورية الرومانية، لذلك كان الملوك يستنفرون عند كل حرب الذكور الأحرار القادرين على حمل السلاح. كانوا ينظمون على شكل فرق من المشاة. أما الفرسان المشاركون في تلك الحروب فكانوا يتألفون أساسا من الفرسان العاملين تحت إمرة أفراد الأرستقراطية والفرسان التابعين للملوك. و يمثلون حرسهم الخاص (les antrustions). و سيتزايد عدد الفرسان المحاربين تحت إمرة الملوك بعد إصلاحات شارل العسكرية.

٣- يتعلق الأمر بمؤرخ مغمور يدعى فريدكير(Frédégaire). ينتمي لمنطقة بورغونديا و عاش معظم حياته في مقاطعة أوسترازيا. وضع مصنفا سنة ٦٦٠ يتناول الأحداث منذ بدء الخليقة حتى حوالي ٦٤٢. و من ضمنها الأحداث التي شهدتها ممالك كل من الفرنجة و اللومبارديين و القوط الشرقيين و الغربيين. ثم تعاقب على استكمال نص الكتاب ثلاثة إخباريين مددوا الفترة التي يتناولها حتى حدود سنة ٧٦٨. تم تحقيق و ترجمة هذا المصنف المؤلف من عدة نسخ إلى مختلف اللغات الأوربية. و قد اعتمدنا في هذا البحث على ترجمة فرنسية أنجزها فرانسوا كيزوت (François Guizot) وصدرت بباريس سنة ١٨٢٣ ضمن منشورات J.-L.-J. Brière في كتاب يتضمن مؤلف غريغوار أسقف مدينة تور (تاريخ الفرنجة) و مؤلف فريدكير (إخبارية) (Chronique) تحت عنوان :

Collection des Mémoires relatifs à l'histoire de France

المحاربون العاملون تحت إمرة أفراد الأرستقراطية يعززون هذا الجيش؛ بالإضافة إلى كل من له قدرة على حمل السلاح. وقد حقق انتصارات كاسحة في جميع الوقائع التي خاضها ضد السكسونيين(*les Saxons*) والألمن (*les Alamans*) والفريزيين (*les Frisons*). وتمكن من إيقاف المد الإسلامي في وقعة بواتيي (*Poitiers*) (بلاط الشهداء) سنة ٧٣٢. ثم اتجه نحو الجنوب حيث استرد أقاليم أكيتانيا وبورغونديا وبروڤانسيا. واستكمل بذلك وحدة غالة.

وأهم ما في الأمر،هو أن القائمين على الأمر في غالة بدوا ، منذ عهد شارل مارتل، أكثر اقتناعا من أي وقت مضى بمدى ثقل الأرستقراطية على المستويين العسكري والسياسي ، فارتأوا الاستمرار في تسخيرها لتحقيق مشاريعهم. ولذلك أخذوا يغضون الطرف عن إجراءات أفراد الأرستقراطية الذين ظلوا يدينون بالولاء للقائمين على الأمر ولممثليهم في مختلف القومطيات؛ ولكنهم لم ينفكوا في نفس الوقت يعملون على توسيع نطاق شبكة علاقات التبعية التي سبق أن أرسى قواعدها آباؤهم وأجدادهم منذ أمد بعيد. وكان من نتائج سياسة غض الطرف أن أصبحت لإجراءات أفراد الأرستقراطية شيئاً فشيئاً تداعيات في دائرة كل قرية تقع بها ممتلكات هذا الأرستقراطي أو ذاك. تجلت تلك التداعيات في كون عموم الفلاحين المقيمين في تلك القرى أصبحوا يخضعون أكثر للقوة التي

يلمسون وقعها وليس لتلك التي يشعرون بصداها. وهذا أمر طبيعي إذا علمنا بأن القوة اقترنت في جميع المجتمعات ومنذ فجر التاريخ بـالثروة. فالذي يملك الثروة يملك القوة. فيتقرب له من هم أنـداده أو الأقـل منـه ثروة و يذعن له المستضعفون[1].

ومن ثم، فان تلك الإجراءات ذات الطابع الحربي، وما استتبعها من علائق، أخذت تتبلور وتترسخ أكثر فأكثر في ربوع قرى غـرب أوربـا عـلى حساب علاقات التضـرع والإذعان (*la recommandation*) التي ضاق نطاق استعمالها دون أن تختفي بصورة نهائية، طالما أن نسبة كبيرة مـن أفـراد مجتمع غرب أوربا كانت تعيش في حالة إملاق. ولذلك، فـان عـدداً مـنهم ظلوا يضعون

أنفسهم رهن إشارة متوسطي الحـال والأغنيـاء لخـدمتهم، أو فقـط لاستجدائهم والحصول منهم على ما يسد رمق أفراد أسرهم.

ويؤكـد روبـير بـوتريش غلبـة العلاقـات ذات البعـد الحـربي (العسكري)، مستدركاً في ذات الوقـت موقفـه السـابق بخصـوص ثنائيـة أصل الفيودالية في قوله :"المحصلة النهائيـة هـي أن الفصـالة، في معناهـا الحقيقي، نشأت في أوساط المحاربين وفق مقتضيات ستتضـح و سـتتبلور أكثر مستقبلاً. وستفضي في ذات الوقت إلى إرساء التزامات أكثـر تخصصـاً ستلقي بضلالها على علاقات التضرع و الإذعان"[2].

١- و مـن هنـا نفهـم لمـاذا تنعـت النصـوص الأرسـتقراطي بـالقوي (Potentat) و المسيطر(Dominus). و من هنا الفعل الفرنسي سيطر (dominer) .

٢ - Robert Boutruche, Seigneurie et féodalité, Op.Cit. Tome I, p.١٧٠.

ويبدو أن موعد أجرأة مقتضيات الفصالة لم يتـأخر كثـيراً. فـالملوك الجرمان الأوائل في غالة وفي الممالك الأخرى كـانوا يغضـون الطـرف عـن مختلف أشكال علاقات التبعية. ولكن ملوك ما بعد العقد الثالث من القرن الثامن أصبحوا منخرطين في تفعيلها. ويعني هذا الانخراط في أعين بعـض الباحثين[١] نجاح الأرستقراطية في الهيمنة على "المؤسسـة الملكيـة" في تلـك الممالك.

وتمثل سنة ٧٥٧ لحظة حاسمة في هذا الاتجاه. وقعت أحـداث تلـك اللحظة في غالة أكبر الممالك الجرمانية و" مهد الفيوداليـة ". وأورد اينهـارد أو

ايجنهارد (*Eginhard*)[٢] تفاصيلها في " حولياته " ضـمن أحـداث سنة ٧٥٧ كما يلي :" كان الملك ببين (*Pépin*)[٣] يرأس جمعا ببلـدة كـومين (*Commynes ou Compiègne*)[في أحد أيام تلك السنة] فقـدم تسـلون (*Tassilon*) دوق (*Duc*) بڤاريا. ومثل بين يدي الملك وقدم له الولاء عن

١- أنظر على سبيل المثال ما يذكره ميشال كابلان (Michel Kaplan) حول الموضوع في كتابه : Histoire médiévale, Tome I, Le Moyen Age IVe-Xe siècles, Paris, Boréal, ١٩٩٤, p.١٦٨.

٢- يعتبر من أشهر إخباريي غالة. ولد حوالي سبة ٧٧٠ أو ٧٧٥ و توفي سنة ٨٤٠. ينحدر من أسرة نبيلة.تلقى تعليمه الأولي بمنستير فولدا (Fulda) شرق غالة. و أبان عن فطنة ونباهة منذ نعومة أظافره، فتم إرساله سنة ٧٩١ إلى المدرسة الملكية الملحقة بقصر شارلمان لاستكمال تعليمه. و ظل بالقصر،حيث قربه شارلمان منه و أصبح من خاصته. و عينه كاتبا خاصا له و"وزيرا".
نظم مجموعة قصائد و وضع عدة مؤلفات أشهرها عمل "بيوغرافي"حول شخص شارلمان يعرف ب"حياة شارلمان"(Vita Karoli) و كتاب الحوليات(Annales) الذي يشك بعض الباحثين في نسبته لايجنهارد.

٣-هو ببين ابن شارل مارتل. يعرف بببين القصير نظرا لقصر قامته. ولد حوالي سنة ٧١٥ و توفي سنة ٧٦٨. شغل منصب محافظ قصري كل من نوستريا و أوسترازيا بمملكة غالة بين سنتي ٧٤١ و ٧٥١. ثم أقصى آخر الملوك الميروڤنجيين و أصبح ملكا لمملكة غالة منذ سنة ٧٥١ حتى تاريخ وفاته.

طريق لف اليدين. ثم وضع يده على الكتاب المقدس وأقسم اليمين بأن يصبح تابعا للملك وابنيه السيد شارل و السيد كارلومان. وهذا ما يتوجب أن يقوم به بتفان و إخلاص كل فصل لسادته. وقام أعيان بڤاريا الذين قدموا مع تسلون بدورهم بتأدية فروض الطاعة والولاء "[1].

يكتسي النص من دون شك أهمية قصوى لكونه يتضمن معطيات ذات قيمة بالغة في تاريخ الفيودالية. **ولذلك يستوجب إبداء الملاحظتين الآتيتين:**

أولاً: يسجل النص نقلة نوعية في طبيعة علاقات التبعية، وخاصة فيما يتعلق بأطرافها. فقد كانت علاقات الرفاقة تربط منذ ما قبل القرن الثالث بين مجموعة محاربين وأحد أعيان أو رؤساء القبائل الجرمانية أو أحد كبار محاربيها. واستمرت حتى سنة ٤٧٦ تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية كما رأينا من

قبل.ثم أصبحت تربط بين أحد أفراد الشريحة العليا في الأرستقراطية العقارية

ومجموعة محاربين حتى سنة ٧٥٧. وسيستمر هذا النوع من الروابط وفق مقتضيات جديدة. ولكن سنة ٧٥٧ تسجل بداية دخول أطراف جديدة سامية في شبكة علاقات التبعية.ونعني بهذه الأطراف الملوك وكبار

١- Éginhard, Annales,Texte traduit et édité par François Guizot dans Collection des Mémoires relatifs à l’histoire de France, Paris, J.-L.-J., Librairie, ١٨٢٤, pp. ٦-٧.

رجالات الممالك من أقماط ودوقات وغيرهم. كان لكل واحد منهم أتباع. ولكن بعد هذا التاريخ أصبح بعضهم تابعا للبعض الآخر. وكلهم أتباع للملك أو لمحافظي القصور الذين أصبحوا ملوكا دون أن تتم تسميتهم كذلك.

ثانياً: يقدم النص صورة عامة عن المراسيم التي أخذت تتم فيها علاقات الفصالة، و التي ستتم فيها الروابط الفيودو- فصلية بعد ذلك. كما يتحدث عن أهم المقومات التي سيرتكز عليها هذا النوع من الروابط خلال المرحلة الثالثة من مسيرة الفيودالية. و تتمثل هذه المقومات في الولاء الذي يقدمه الفصل، و عملية وضع يديه ملفوفتين بين يدي السنيور(*la dation*)،وعملية أداء القسم باستعمال أشياء أو بقايا مقدسة (*les Reliques*).

و انطلاقا من هاتين الملاحظتين تبدو التطورات التي يتحدث عنها النص مفاجئة و مثيرة للدهشة. إذ لا يعقل أن تأخذ علاقات الفصالة هذا الطابع الرسمي؛ و تتم مباشرتها في هذه الأجواء بدءا من سنة ٧٥٧ دون مقدمات.

وتوضيحاً للأمر نذكر بمعطى أوردناه في مقدمة هذا المبحث وهو أن "رجالات الدولة " في الممالك الجرمانية كانوا بمثابة خدام للملوك. عدد منهم

كانوا خداماً "مدنيين" يؤلفون حاشية الملك و خاصة أقربائه. وعدد آخر كانوا خداماً "عسكريين". يتشكلون من الحرس ويمثلون صفوة حملة السيف. يقيم هؤلاء الحراس بجانب الملك. يسهرون على حمايته أوقات السلم ويخوضون إلى جانبه الوقائع أيام الحرب. يتمتعون بحظوة خاصة لدى الملك. تتضح إذا علمنا بأن أحد بنود القانون السالي المنظم للعلاقات والمعاملات في مملكة غالة الميروڤنجية كان يقضي بأن يدفع قاتل أحد هؤلاء الحراس ذعيرة يفوق مبلغها ثلاث مرات مبلغ الذعيرة التي يدفعها الجاني إذا تعلق الأمر بمقتل "مواطن"؛ حتى و إن كان هذا "المواطن" إفرنجيا (*un franc*) أو أحد البرابرة (*unbarbare*)[1].

والجدير بالذكر أن هؤلاء الحراس، الذين كانوا صفوة حملة السيف كما ذكرنا آنفا، كانوا يمثلون أيضا نخبة خدام الملك. كانت تربطهم به علاقات تبعية تقوم على الولاء (*la fidélité*) والقسم الذي يؤديه الواحد منهم بعد أن يضع يديه ملفوفتين بين يدي الملك. ويجمع عدد من الباحثين[2] بأن هذه العلاقات، بمختلف مقوماتها و الطقوس التي كانت ترافقها، ورثها ملوك القرنين السادس والسابع عن الأجداد والأسلاف[3]. ونفس علاقات التبعية هاته أصبحت تربط

١- ينص القانون السالي في البند الأول من الفقرة (أو المادة) ٤٣ على أنه إذا قتل أحدهم إفرنجيا أو أحد البرابرة يلزم بدفع غرامة قدرها ٨٠٠٠ دنير (deniers) أو ٢٠٠ " فلس"(sous) من ذهب. بينما بنص البند الرابع من نفس الفقرة (أو المادة) على أنه إذا قتل أحدهم حارسا من حراس الملك (membre de la Truste) يلزم بدفع غرامة قدرها ٢٤٠٠٠ دنير أو٦٠٠ "فلس" من ذهب. أنظر الصفحة ١٤٩ من القانون السالي ، طبعة ١٨٢٨ التي سبقت الإحالة عليها.

٢- من بينهم على سبيل المثال جون- بيير بولي (Jean-Pierre Poly) و اريك بورنازيل (Eric Bournazel) مؤلفا كتاب :

La mutation féodale, Paris, P.U.F. (Collection Nouvelle Clio) ١٩٨٠.

٣- أنظر ص.١٠٩ من نفس الكتاب.

بين الملوك وخدامهم "المدنيين" كمحافظي القصور والأقماط والدوقات و كبار رجال الدين وكبار الملاكين العقاريين بعد تأسيس الممالك الجرمانية. كانت تقوم هي الأخرى على الولاء و القسم، و وضع الخادم (أي التابع) يديه ملفوفتين بين يدي الملك. و الجديد في الطقوس المصاحبة لهذه العلاقات هو أن القسم أصبح يعتمد في أدائه على الكتاب المقدس الذي يضع التابع يده عليه. وقد أدرج كعنصر جديد بعد أن تبنت الممالك الجرمانية المسيحية كديانة رسمية[1]. وسيتواصل العمل بهذه الطقوس خلال القرون الموالية. وسينضاف عنصر جديد إلى العناصر المكونة لها بعد مطلع القرن الحادي عشر و هو عملية تقديم السنيور حفنة تراب أو غصن شجرة صغير مورق للفصل دليلاً على تقديم الفيف.

ونذكر بأن غياب هذا العنصر بالنسبة للباحثين الذين ينكرون وجود فيودالية قبل مطلع القرن الحادي عشر، يعني غياب الفيف كعنصر مادي في علاقات التبعية وغيابه كمصطلح في نصوص ما قبل سنة ١٠٠٠. ونحن إذ نقر بدورنا بما يذهبون إليه، نؤكد في المقابل بأن الأرض كانت حاضرة في علاقات الفصالة ولو على نطاق ضيق نسبياً. كيف ذلك؟.

لقد كانت علاقات الرفاقة تقوم على عطاء كان يقدمه السيد للرفيق كما ذكرنا فيما مضى. تمثل في المأوى و المأكل والمشرب و السلاح والحصان. وظل

١- نشير في هذا الصدد إلى أن كلوڤيس(Clovis) أول ملوك مملكة غالة الميروڤنجية (وهي أكبر الممالك الجرمانية) اعتنق المسيحية يوم ٢٥ دجنبر ٤٩٨. بعد مرور ١٦ سنة على اعتلائه عرش هذه المملكة.أنظر تفاصيل الحدث عند ݣريݣوار أسقف كنيسة تور(Tours) فيكتاب :
Histoire des Francs, traduction et édition Robert Latouche, Paris, Les Belles Lettres,١٩٩٥, Livre II, chap. ٣١, pp.١٢٠-١٢١.

نفس العطاء يمثل محور علاقات الفصالة خلال القرنين السادس والسابع والنصف الأول من القرن الثامن. ثم حدث أن دخل القائمون على الأمر وممثلو السلطة "المركزية" كطرف في علاقات الفصالة، فضلاً عن أطرافها القدامى ككبار رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين. فأصبح بعضهم " سنايرة " (*des seigneurs*) و بعضهم أفصالا. حينها لم يعد من المعقول أن يظل العطاء على حاله. بمعنى أنه كان يجب أن يرقى إلى مستوى هذه الأطراف السامية. فكيف أصبحت طبيعته؟.

كان حرياً بالإخباري الذي نقل إلينا خبر اجتماع ببين القصير سنة ٧٥٧ ومقدم دوق بڤاريا إلى بلدة كومين و تقديمه لفروض التبعية و الولاء للملك أن يخبرنا عن نوعية العطاء الذي قدمه الملك السنيور لفصله الدوق، ولكنه لم يفعل. ويبدو أن ثمة ما يبرر عدم بث الإخباري في الأمر، لأن تسلون كان في غنى عن ذلك العطاء الذي يقدم لمتوسطي و بسطاء الأفصال. كما لم يكن ينتظر أن تمنح له قطعة أرض و هو الدوق الذي يتصرف في أرض شاسعة المساحة؛ وهي دوقية بڤاريا التي كان يحكمها. وربما كان العطاء هو الدوقية نفسها التي أقر ببين تسلون على حكمها.

وعلى كل، فان كتب الإخباريات و الحوليات تفيدنا بأن العطاء الذي كان معروفا منذ قرون ظل معمولاً به في أوساط الفئات المتوسطة والدنيا المعنية بعلاقات الفصالة. ولكن الأمر اختلف بالنسبة لخاصة المجتمع. فقد شرع شارل مارتل قبيل سنة ٧٣٢ في تقديم قطع أرض تقع ضمن ممتلكات

الأسرة الحاكمة لنفر من أتباعه من كبار أفراد الأرستقراطية عرفانا بما أسدوه من عون و مساندة.

كما وزع قطعا أخرى على كبار أتباعه من حملة السيف. وبما أن الوقائع كانت كثيرة، و أعداد المحاربين كانت في تزايد مستمر، لم يكن ممكنا أن يستمر في تقديم قطع أرض من ممتلكاته أو من ممتلكات المملكة، لذلك لجأ إلى مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت في حوزة الكنائس. وكان من الطبيعي أن يثير هذا الإجراء حفيظة تلك المؤسسات. وفي ذلك خسارة لشارل مارتل الذي كان في حاجة إلى سندها؛ خاصة وأنه كان لازال محفظ قصر يحكم "نيابة" عن ملك يحضى بالشرعية. واستدراكاً للموقف دعي إلى إيجاد مخرج للمشكلة. فعقدت ثلاث مجامع دينية بين سنتي ٧٤٢ و ٧٤٤. انتهت إلى الإقرار بأن الأراضي التي صودرت من الكنائس و وزعت على أفصال (محاربين أو غير محاربين) تظل في ملكية تلك المؤسسات. ولا حق للأفصال فيها إلا حق الاستغلال الذي ينتقل إلى ورثة الفصل بعد وفاة هذا الأخير. وقد يتوقف مفعول حق الاستغلال إذا ارتأى الملك ذلك. ويلتزم الأفصال المستغلون لما في أيديهم من أراضي بتقديم ضريبة محددة. نص عليها عقد كان يبرمه كل فصل مع الكنيسة مالكة الأرض. بينما كان يبرم ذات الفصل عقدا آخر مع الملك باعتباره السنيور المانح لحق الاستغلال. ومنذ هذا التاريخ وحتى مطلع القرن الحادي عشر بدأت ترتسم في الأفق معالم علاقات الفصالة المتمحورة حول قطعة أرض كعطاء يعرف في النصوص باسم " بنفسيوم "

(*beneficium*)[1]. وتترك نفس النصوص الانطباع بأن مجال استعمال هذا النوع من العطاء أخذ يتسع على

حساب العطاء الذي كان معمولا به منذ ما قبل القرن الثالث للميلاد (أي المأوى و المأكل وما شاكل ذلك). كما أن أعداد المعنيين بالعطاء "القديم" ظلت في تراجع رغم عدم وجود معطيات رقمية تثبت ذلك.

ويمثل عهد شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤) فترة حاسمة في اتساع نطاق استعمال قطع الأرض كعطاء في علاقات الفصالة. و قد استمر هذا الاتساع حتى نهاية حكم الأسرة الكارولنجية حسب الخلاصة التي انتهى إليها فردناند لوط (*Ferdinand Lot*) منذ عدة عقود[2]. وقد كان محقاً في ذلك. على اعتبار أن شارلمان خاض حروباً كثيرة في اسبانيا وايطاليا و جرمانيا أفضت إلى الحصول على مساحات شاسعة من الأرض. وزع قطعاً كثيرة منها على عدد من أفراد الأرستقراطية الذين ارتبطوا به بعلاقات تبعية و ولاء. ولكنه حرص على ألا يكون لهم عليها سوى حق الانتفاع، لكي يحرص كل مستفيد على التشبث بالولاء ويضع في حسبانه بأن قطعة الأرض قد تنتزع منه إذا لم يف بالتزاماته العسكرية المتمثلة في استنفار ما تحت إمرته من محاربين عند الضرورة. وعلى كل، فقد أصبحت الأرض

١- يجدر التنبيه إلى أن كلمة بنفسيوم لا تطلق فقط على قطعة أرض، و إنما على أي شيء يقدمه شخص لشخص آخر للانتفاع به. و قد يكون ذلك الشيء كمية من الحبوب أو مبلغا من المال.

٢ - Ferdinand Lot, « Le serment de fidélité à l’époque franque », in Recueil des travaux de Ferdinand Lot, Paris – Genève, Droz, ١٩٦٨, TomeII ,p. ٣٤٣.

حجر الزاوية في علاقة الملوك الكارولنجيين بـأفراد الأرسـتقراطية. وهذا ما يفهم من كلام الباحثان جون- بيير بـولي (*Jean– Pierre Poly*) واريك بورنزيـل (*Eric Bournazel*) اللـذان تنـاولا المسـألة منـذ بضـع سنوات وأكدا بأن البنفسيوم غدا عنصراً أساسياً في علاقات الفصـالة منـذ منتصف القرن التاسع[١].

ونعتقد من جانبنا بأن هذا التطور ينسجم مع مسارعلاقات الفصالة التي اتخذت منذ عهد شارلمان طابعاً رسـمياً. وأصـبحت إحـدى الأدوات المعتمدة في الحكم والتسيير.

ويبدو هذا التطور في علاقة الدولـة بالفصـالة غريبـاً إذا علمنـا بـأن شارلمان قام بعـدة إصـلاحات[٢] في مجـال الإدارة والقضـاء ونظـام الحكـم بهدف إرساء دعائم "دولة مركزية" ذات مؤسسات يخضع لسـلطانها جميـع سـكان المملكـة - الإمبراطوريـة. وكـان مـن المفـترض أن تفضـــي تلـك الإصلاحات إلى تقليص مساحة شبكة علاقات التبعية والحـد مـن سـطوة أفراد الأرستقراطية؛ خاصة وأن شارلمان قرر الإشراف شخصياً على تعيين الأقماط والـدوقات وكبـار رجـال الـدين عـلى رأس مختلـف القمطيـات. وحرص على أن يكونوا هم المسؤولين المبـاشرين عـلى إقـرار الأمـن وعـلى جباية الضـرائب وهم المشـرفين على أمور القضاء. وزاد بأن دعم هذا

١- أنظر الصفحة ١١٧ من كتابهما La mutation féodale: الذي سبقت الإحالة عليه.

٢- نشرت دراسات وأبحاث كثيرة حول شخصية شارلمان و حول إصلاحاته. يمكن العودة على سبيل المثـال إلـى الدراسـة المستفيضـة التـي أنجزهـا لـوي هـالفن (Louis Halphen) منذ عقود تحـت عنوان :

Charlemagne et l'empire carolingien,Paris, Albin Michel,١٩٤٧, réédition,١٩٦٨.

الإجراء بإقرار مبدإ الرقابة المستمرة بواسطة المبعوثين الملكيين (*les missi dominici*)؛ الذين كانوا يتجولون عبر مختلف القمطيات ويرفعون لـه تقـارير عـن سـير الأقـماط والمؤسسـات الدينيـة وعـن سـلوك أفـراد الأرستقراطية. غـيران هـذه الإجـراءات لم تحـدث القطيعـة المنتظـرة مـع علاقات الفصالة، لأن شارلمان كـان يراعـي في اختيـارالأقماط والـدوقات وكبار رجال الدين أن يكونوا من أشد المخلصين للأسرة المالكـة. تـربطهم بشخص الملك علاقات تبعية وولاء، أي علاقات فصالة. على أن يغـدوا في المقاطعات

التي يشرفون على إدارتها "سـنايرة" (*des seigneurs*) يـرتبط بهـم بعلاقات فصالة مختلف رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين. بينما تـترك لعموم فلاحي المقاطعـات و "المـواطنين" الأحـرار حريـة اختيارالسـنايرة الذين يرغبون في الارتباط بهم بعلاقات فصالة.

وبناء عليه يتضح بأن الإصلاحات التي قام بها شارلمان في مجال نظام الحكم و إدارة القمطيات لم تكن تهدف استئصال علاقات الفصالة بقدر ما كانت تروم "ترويضها" أو بعبارة أصـح تقنينهـا[1]. لأن عمليـة استئصـالها كانت صعبة ،حتى لا نقول مستحيلة، لاعتبارات **يمكن إيجاز أهمهـا فـيما يلي :**

١- نقصد بتقنينها sa canalisation. أي جعلها تأخذ مسلكا واحدا يبتدأ عند أدنى فرد في المجتمع متمتع بحق الحرية و ينتهي عند شخص الملك باعتباره " سنيور السنايرة "(le suzerain).

أولاً: رسوخ علاقات الفصالة في المجتمع عامة، وفي أوساط الطبقة الأرستقراطية التي تبنتها كتقليد منذ قرون. ولم يكن بإمكان شارلمان المضي قدماً في إصلاحاته الإدارية بإلغاء هذا التقليد. ومن ثم التنكر لأفراد الأرستقراطية الدين أسدوا خدمات جلة لآبائه و أجداده أوصلتهم إلى دفة الحكم على حساب ملوك الأسرة الميروفنجية.

ثانياً: افتقار الدولة إلى أطر كافية و محترفة لتدبير شؤونها في وقت أصبحت فيه مترامية الأطراف بعد الحروب التوسعية. وبالتالي، فان الضرورة كانت تقتضي الاستمرار في الاعتماد على أفراد الأرستقراطية في تدبير مختلف القمطيات من خلال علاقات الفصالة التي أرسوا دعائمها والتي مكنتهم من القيادة والتسيير.

ثالثاً: محدودية الموارد المالية الضرورية لتغطية النفقات التي تتطلبها مهام الحكم والتدبير ودفع مرتبات "موظفي" الدولة من رجال الدين والعلمانيين رغم الإصلاحات الاقتصادية والمالية التي قام بها شارلمان. وبالتالي، كان لابد من استعمال الأرض كوحدة نقدية لتغطية النفقات الإدارية والعسكرية وبما أن الحروب التي خاضها شارلمان و فرت مساحات شاسعة من الأرض، فقد أغنت عن المضي قدماً في البحث عن مصادر السيولة النقدية. كما أن تلك الوفرة شجعت على المنح المطلق أحياناً وعلى المنح المشروط بحق الاستغلال في أحايين كثيرة. وكان من تبعات ذلك أن استغل عدد من أفراد الأرستقراطية وفاة شارلمان فسيطروا على قطع الأرض التي منح لهم حق استغلالها. كما أن خلفاؤه حادوا عن

السياسة التي انتهجها في هذا المضمار والتي كان يتبعها فيما مضى محافظو القصر. وذلك حين قرروا بأن تصبح ملكية الفصل على قطعة الأرض التي منحت له كعطاء (*beneficium*)، ملكية تامة مطلقة نظير استمراره على الولاء سواء كان سيده، أي "سنيورة" أحد الخواص أو سيده الملك شخصياً.

وانطلاقاً مما تقدم، نخلص إلى القول بأن علاقات الفصالة التي نشأت في الممالك الجرمانية زمن ضعف السلطات المركزية، كان من المفترض أن تتراجع في مرحلة بدأت تترسخ فيها نسبياً أسس الدولة المركزية. غير أن هذا التطور لم يحصل. بل على العكس من ذلك تماما اكتست تلك العلاقات مشروعية وارتقت إلى مصاف القوانين المنظمة للعلاقات والمعاملات. وهذا ما حدث بالذات في غالة التي غدت في عهد شارلمان إمبراطورية مترامية الأطراف. شمل نفوذها معظم أقاليم غرب أوربا. وستشكل الاضطرابات الداخلية التي شهدها

هذا الكيان بعد وفاته بالإضافة إلى عوامل خارجية المناخ الأمثل لكي تنطلق تلك العلاقات نحو آفاق أرحب سنتوقف عند تجلياتها في الفصل الموالي.

الروابط الفيودو- فصلية:

هيا انهيار الامبراطورية الكارولنجية و ماتلاه من اضطرابات داخلية وغارات خارجية[1] المناخ الملائم لاتساع مجال انتشار علاقات الفصالة في غالة وفي مجموع أقاليم غرب أوربا. والحقيقة أن تلك العلاقات لم تتوقف أبداً عن الانتشار منذ عهد محافظي القصور كما أوضحنا ذلك فيما مضى. وكان من الممكن أن يأخذ انتشارها منحى تصاعدياً منذ عهد شارل مارتل، غير أن شارلمان نجح في التخفيف من إيقاع مسيرتها حين عمل على تقنينها. وبذلك وفق أيضاً في كبح جماح أفراد الطبقة الأرستقراطية ووضعهم تحت السيطرة ولو إلى حين. وبعد وفاته افتقدت غالة، و الغرب الأوربي عموماً، حاكماً في مثل حنكته وقوة شخصيته. فخلى الجو لأفراد الأرستقراطية الذين عادوا مجدداً لتفعيل علاقات الفصالة التي أصبحت منذ هذا الوقت متحورة حول الفيف أكثر من أي وقت مضى. كما اجتهدوا في بسط سلطانهم على عموم الفلاحين. وشرعوا في إرساء الآليات والوسائل الكفيلة بتحقيق مكاسب معنوية ومادية من وراء ذلك السلطان. وقد استفادوا لتحقيق مبتغاهم من الاضطرابات والفوضى السياسية. ومع ذلك فيجب التنبيه في هذا المقام، بأن أفراد الأرستقراطية من كبار الملاكين العقاريين وكبار رجال الدين لم يستغلوا تلك الأوضاع للإسراع بإعلان تمردهم أو للتحلل من سلطة القائمين على الأمر في الممالك التي

١-نعني هنا غارات الڤكينج أو النورمان و غارات القبائل الهنغارية و غارات المسلمين انطلاقا من الأندلس.

قامت في غالة، وفي أقاليم غرب أوربا الأخرى، بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية. فقد استمروا، حتى العقد الأخير من القرن العاشر، يدينون بالولاء للملوك مباشرة أو للأقماط الذين يمثلونهم في القمطيات. وتجلى ذلك في كونهم ظلوا يؤدون فروض الطاعة للملوك مباشرة، ويحضرون أشغال "الاجتماع الملكي" (*le plaid royal*). وهو واحد من بين اجتماعين سنويين كان يرأسهما الملك. كما ظلوا يؤدون يمين الولاء للأقماط. بعضهم يقومون بذلك بوصفهم أفصالا لهؤلاء الأقماط وبعضهم الآخريقومون بذلك بوصفهم "مواطنين" خاضعين لسلطة الأقماط. وبما أنهم من علية القوم، فقد كان يتوجب عليهم القيام عمليا بأداء الولاء، وحضور الاجتماعات الدورية التي يدعو إليها القمط (*les plaids comtaux*). وعند تعيين قمط جديد على رأس القمطية، كان كبار الملاكين العقاريين وكبار رجال الدين يقومون بتقديم ولائهم للقمط الذي تم تعيينه. وإذا تعذر على أحدهم القيام بذلك لأسباب قاهرة كان ينيب عنه من يقوم بالعملية. كأنهم بذلك يقدمون فروض الطاعة والولاء للملك شخصياً. وهذا التقليد ظل يجري به العمل منذ عهد شارلمان[1]. ولكن بعد مطلع القرن الحادي عشر بدأت تظهر معالم الاتجاه نحو مرحلة جديدة في مسار تطور الفيودالية.

١- تحدث بتفصيل عن هذا التقليد هنكمار(Hincmar)أسقف كنيسة مدينة ريمس(Reims) في كتابه :

De Ordine Palatii , texte latin et sa traduction française établit par la Bibliothèque de l' Ecole des Hautes Etudes, Paris, Editions f.Vieweg , ١٨٨٥.

ومن المعلوم أن هنكمار الذي عاش بين سنتي ٨٠٦ و ٨٨٢ قضى فترة من حياته في خدمة لويس التقي(Louis le Pieux) و شارل الأصلع(Charles le Chauve) خلفاء شارلمان.

نشترك مع عموم الباحثين في القول بأن هذه المرحلة تميزت بكون الفيف أصبح خلالها يمثل حجر الزاوية في العلاقات بين أفراد الأرستقراطية. ولكننا نختلف معهم حين نذهب إلى اعتبارها مرحلة ثالثة اكتمل خلالها نضج الفيودالية كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا القسم. في حين، يذهب الباحثون إلى اعتبار هذه المرحلة مرحلة أولى ووحيدة نشأت خلالها الروابط الفيودو – فصلية، وخلالها أيضاً تبلورت تلك الروابط. و ينكرون اعتبار علاقات الفصالة مقدمة لهذه الروابط.

ومهما يكن من أمر، فقد قام الباحثون منذ عقود برصد مسيرة هذه الروابط و باستعراض السياق الذي "نشأت" وتطورت فيه. بعضهم اختار الغرب الأوربى ككل مجالاً جغرافياً لتناولها، وبعضهم اختار أحد أقطاره الحالية كإطار جغرافي للقيام بذلك، بينما ارتأى البعض الآخر تناولها في حيز جغرافي أضيق. وبما أننا نتفق معهم، على الأقل في كون فترة ما بعد سنة ١٠٠٠ تمثل مرحلة تبلور الروابط الفيودو – فصلية، فقد ارتأينا في هذا الفصل اعتماد بعض المنغرافيات الإقليمية للقيام باستعراض أبرز مظاهر هذا التبلور كما حدثت في قمطيتين تنتميان لغالة الموسومة بكونها "الموطن الأصلي" للفيودالية هما قمطية ماكوني (*le Mâconnais*)[١] وقمطية بروڤانسيا (*la Provence*)[٢]؛

١- Georges Duby , La société au XIe et XIIe siècles dans la région mâconnaise, Paris, A. Colin, ١٩٥٣.

٢ - Jean-Pierre Poly, La Provence et la société féodale, ٨٧٩-١١٦٦, contribution à l’étude des structures féodales dans le Midi, Paris, Bordas, ١٩٧٦.

وفي إقليمين بعيدين عن غالـة همـا إقليـم اللاسـيوم (*le Latium*)[1] أحد أقاليم ايطاليا، وإقليم قطلونيـا (*la Catalogne*)[2] الواقـع في شـبه جزيرة ايبيريا.

شكلت قمطية ماكوني مجالاً جغرافياً لأطروحة أصدرها جورج دوبي (*Georges Duby*) سنة ١٩٥٣ . وقد أنجـز هـذه الأطروحـة بـين نهايـة الأربعينيات ومطلع الخمسينيات من القرن العشرين؛ خلال مرحلة خاصة من مسيرة البحث التاريخي في فرنسا. تميـزت بكـون الرؤيـة الضـيقة التـي تختزل الفيودالية في الفصالة والفيف والمؤسسات المتصـلة بهـما كانـت هـي السائدةفي

أوساط الباحثين في التاريخ الأوربي الوسـيط[3] وكـذلك في أوسـاط المهتمين بالقانون و تاريخ المؤسسات[4]

١- Pierre Toubert , Les structures du Latium médiéval :Le Latium méridional et la Sabine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle, Paris, les Editions de Boccard, ١٩٧٣, ٢ vol.

٢- Pierre Bonnassie, La Catalogne du milieu du Xe à la fin du XIe siècle :Croissance et mutations d'une société, Toulouse, Association des publications de l'Université de Toulouse-Le Mirail ,١٩٧٥-١٩٧٦, ٢ vol..

٣- نذكر من بين هؤلاء الباحثين فوستيل دي كولانج (Fustel de Coulanges) المتوفى سنة ١٨٨٩. وأوكيسـتان فلـبش (Augustin Fliche) المتـوفى سـنة ١٩٥١. وفرديناند لـوط (Ferdinand Lot) المتوفى سنة ١٩٥٢.أنجز هؤلاء المؤرخين أبحاثا كثيرة ذات قيمة علمية بالغة. شكلت حجر الزاوية في لائحة المراجع التي اعتمدها مؤرخو ما بعد الحرب الكونية الثانية. ومن بين أبحاثهم نذكر على سبيل المثال:

- Fustel de Coulanges,Histoire des anciennes institutions françaises, Paris, Hachette, ١٩٠١-١٩١٤. ٦ Tomes.
- Augustin Fliche, La chrétienté médiévale (٣٩٥-١٢٥٤), Paris, Editions de Boccard, ١٩٢٩.
- Ferdinand Lot, La France des origines à la guerre de Cent ans, Paris, Gallimard, ١٩٤١.

٤- نذكر من بين هؤلاء المهتمين جاك فلاش (Jacques Flach) المتوفى سنة ١٩١٩.رجل قانون له عدة مؤلفات من بينها :

- Etudes critiques sur l'histoire du droit romain au Moyen Age, Paris, Librairie Larose et Forcel, ١٨٩٠.

. بينما كانت الرؤية الواسعة التي تبناها مارك بلوك (*Marc Bloch*)[1]، والتي ترى الفيودالية إحدى التجليات التي اتخذتها البنيات الاجتماعية في تطورها خلال العصر الوسيط، لا زالت تبحث لها عن موطئ قدم. ولذلك، جاءت أطروحة دوبي مثقلة بإرث الماضي ومستشـرفة في ذات الوقت النقلة التي ستحدث بعد تزايد تلامذة بلوك. وهذا ما يتضح من عنوانها و كذلك من مضمونها.فقد تضمن عنوانها كلمة "مجتمع" على شاكلة عنوان كتاب مارك بلوك. أما مضمونها فتضمن فصولاً مطولة خصصها الباحث للفصالة والفيف. وأخرى خصصها لرصد التحولات التي شهدها مجتمع الماكوني خلال القرنين الحادي عشـر والثاني عشـر. سعى فيها جاهداً إلى إقناع القارئ بأن الفصالة والفيف كانا مجرد واجهتين لمؤسسات نشأت وتطورت في سياق تلك التحولات الاجتماعية. و رغم الجهد المبذول، لم يستطع جورج دوبي التحرر من نظرة المؤرخين القدامى للفيودالية[2] حين يرون بأنها تمثل الحصيلة المنطقية لانفراط وحدة

وفرانسوا اوليفيي – مارتان (François Olivier- Martin) المتوفى سنة ١٩٥٢. هو أيضا رجل قانون له عدة مؤلفات من بينها :

- Histoire du droit français des origines à la Révolution, Paris, Montchrétien, ١٩٤٨.

١- يعد من أبرز المؤرخين الباحثين في اقتصاد و مجتمع فرنسا في العصر الوسيط. دعا إلى ضرورة تغيير مناهج البحث. و أسس لهذا الغرض رفقة زميله لوسيان فيفر (Lucien Febvre) المجلة الشهيرة "حوليات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي" (Annales d'Histoire Economique et Sociale) التي لازالت تصدر إلى اليوم باسم "الحوليات، التاريخ، العلوم الاجتماعية" Annales Histoire Sciences Sociales.) كما أنجز عدة أبحاث قبل أن يلقى حتفه رميا بالرصاص على يد القوات النازية يوم ١٦ يونيو ١٩٤٤. و من أهم ما صدر له :

Les caractères originaux de l'histoire rurale française (١٩٣١).Et La société féodale (١٩٣٩).

٢- ننبه القارئ بأن ما نذكره في هذا الشأن ينطبق على أطروحة دوبي التي صدرت سنة ١٩٥٣. أما بعد ذلك فقد تطورت نظرته كثيرا كما يتضح من خلال مؤلفاته اللاحقة مثل كتاب Guerriers et paysans (١٩٦٩) وكتاب Les trois ordres ou l'imaginaires du féodalisme (١٩٧٨)

الإمبراطورية الكارولنجية. إذ يذهب على غرارهم إلى الاعتقاد بأن تدهور مؤسسة القمطية في إقليم الماكوني أفضى إلى تشكل شبكة من الروابط الفيودو – فصلية انخرط فيها أفراد الأرستقراطية في هذا الإقليم.

أولاً: تدهور مؤسسة القمطية:

يفيدنا جورج دوبي بأن إقليم الماكوني كان منتظماً في إطار قمطية نشأت منذ العهد الكارولنجي في سياق عملية إعادة تنظيم "الإدارة الترابية" وقد حصل فتور في علاقة هذه القمطية بالمؤسسة الملكية منذ شهر غشت من العام ٨٤٣، تاريخ توقيع معاهدة ڤردان (*Verdun*) التي تم بموجبها تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بين الإخوة الثلاث أبناء الملك لويس التقي (*Louis le Pieux*). وتحول هذا الفتور إلى نوع من القطيعة منذ سنة ٩٥١ . فقد زار الملك لويس الرابع قمطية ماكوني خلال هذه السنة. وبعد هذا التاريخ لم تطأها أقدام ملك حتى حوالي سنة ١١١٦٦. ورغم هذه التطورات، فإن مؤسسة القمطية والمؤسسات العمومية المتصلة بها ظلت منذ سنة ٩٥١ وحتى حدود سنة ٩٨٠ أو ٩٨٢ تمارس دورها في إقرار الأمن و جباية الضرائب والإشراف على أمور القضاء والسهر على ممارسة الشعائر الدينية في ربوع قمطية الماكوني. ولذلك فإن عموم الفلاحين وغيرهم من الأفراد الأحرار ظلوا يثقون في تلك المؤسسات. ولم يعودوا يبحثون عن الأمان والاطمئنان في علاقات القرابة أو في صيغ

١- Georges Duby, La société au XIe et XIIe siècles…, Op. Cit. p.٩١ et p.٥٤٠.

أخرى مماثلة لها. أما أفراد الأرستقراطية اللائكية، فقد استمروا من جانبهم في احترام مؤسسات القمطية. ولم يكونوا يترددون في مد يد العون للقمط وللمؤسسات الدينية في الحالات العادية، كما في الظروف الاستثنائية. غير أن مستجدات شهدتها القمطية أخذت تأثر سلباً في علاقة أفراد الأرستقراطية اللائكية و الدينية بالقمط.

فابتداء من سنة ٩٨٢ تولى إدارة القمطية أوت گيوم (*Otte Guillaume*) الذي أمضى السنوات الأولى من فترة ولايته في سلسلة حروب توسعية ضد جيرانه. استنزفت موارد القمطية واضطر لإنهائها دون تحقيق طائل ليتفرغ لإقرار السلم الاجتماعي[1] في ربوع القمطية على اثر موجة العنف التي أخذت تجتاحها.

لم يخف أفراد الأرستقراطية تذمرهم من سياسة أوت گيوم ، ولكن المصالح المشتركة اقتضت أن يلتفوا حوله لمواجهة هذه المستجدات الداخلية. ويفيدنا جورج دوبي بأن عملية التصدي لأعمال العنف التي

١- نقصد هنا ما يعرف بحركة سلام الله(la Paix de Dieu) التي ظهرت سنة ٩٨٩ بإقليم أكيتانيا،جنوب غالة، ثم انتشرت في مختلف أقاليم غالة. و هي حركة ذات مسحة دينية اجتماعية. نشأت في أوساط رجال الدين و تبنتها المؤسسات الدينية. كانت تهدف إلى اقرار السلم الاجتماعي بين المسيحيين على اثر حركات العنف التي بدأت تندلع هنا وهناك في سياق التحولات الكبرى التي بدأت تشهدها أقاليم غرب أوربا.

وقد كان هدفها الأسمى في حقيقة الأمر هو حماية المؤسسات الدينية، و الحرص على حرمتها. لذلك عقدت الكنائس سلسلة اجتماعات للنظر في آليات تطبيق الحركة.أقرت على إثرها جعل المؤسسات الدينية أماكن حرما يجرم من اقتحمها أو اعتدى على الأفراد العزل المحتمين بها. كما أقرت كذلك جعل أيام الأحد و الاثنين والثلاثاء و الأربعاء أياما حرما لا يتم فيها القتال.و نفس الأمر ينطبق على الأيام التي تتصادف مع تخليد الأعياد الدينية. لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع يمكن العودة إلى كتاب :

Dominique Barthélemy, L’an mil et la paix de Dieu: la France chrétienne et féodale (٩٨٠-١٠٦٠), Paris, Fayard, ١٩٩٩.

أخذت تقوم بها مجموعـات مـن الفرسـان والتـي واكبتهـا حركـات احتجاج في أوساط الفلاحين شكلت في حقيقة الأمـر سـلاحاً ذو حـدين: فقد أبانت عن تظافر جهود القمط وأفراد الأرستقراطية ورجـال الـدين في تدبير الشأن العام. كـما أبانـت عـن حـرص جميـع الأطـراف عـلى سـلامة المؤسسـات واسـتمرارية دورهـا. ولكنهـا دلـت في نفـس الوقـت عـلى أن مؤسسة القمطية لم تكـن قـادرة لوحـدها عـلى مواجهـة أعـمال العنـف أو التصدي لحركات الاحتجاج. وبما أن تلك الأعمال والحركات اتخذت في

بادئ الأمر مسحة دينية، فقـد تزعمـت المؤسسـات الدينيـة عمليـة مجابهتها. فأمدها ذلك بشحنة معنوية وجعل كبـار رجـال الـدين ينفـردون باتخاذ بعض القرارات دون العودة إلى القمط؛ من قبيـل عقـد الاجتماعـات دون سابق إعلان للبث في آليـات التصـدي لتلـك الحركـات. فكـان هـذا الإجراء لوحده يمثل مؤشراً على تزايـد تنـامي سـلطة كبـار رجـال الـدين وتراجـع هيبـة القمـط أوت گيوم الـذي أخـذ يـتخلى عنـه كبـار أفـراد الأرستقراطية اللائكية بدورهم. و هذا مـا تأكـد لاحقـاً بعـد سـنة ١٠٠٠ حيث أخذ عدد الحاضرين لاجتماعات القمط يتراجع بشكل مسـتمر. و إذا صدقنا جورج دوبي، فإن اجتماعاً دعـا لانعقـاده أوت گيوم سـنة ١٠٠٥ لم يحضرـه سـوى أفصـال القمـط و نفـر مـن كبـار رجـال الـدين و أعيـان الأرستقراطية اللائكية. أما اجتماع سنة ١٠١٠ فلم يحضره سوى أفصال

القمط وأسقف القمطية مرفوقاً بأحد مساعديه[١]. وبعد هذا التـاريخ أخذت تلك الاجتماعات تكتسي طابعاً عائلياً. حيث لم يعد يحضرها سـوى أقرب المقربين من القمط وأفراد عائلتـه وأشـخاص آخـرين تـربطهم بـه صلات قرابة.

ومعنى ذلك أن أفراد الأرسـتقراطية، مـن كبـار الملاكـين العقـاريين اللائكيين وكبار رجال الدين تحللوا مـن سـلطة القمـط وقطعـوا صـلاتهم بمؤسسات القمطية. وأضحوا سادة أنفسهم وسادة سكان القمطية الـذين أصبحوا خاضعين لنفوذهم في إطارما نصطلح على تسـميته "بالسـنيورية الإلزامية"[٢] (*la seigneurie banale*). كما شيدوا القصور التي اتخـذوها مراكز لممارسة السيادة. وشكلوا، لتفعيل تلك السيادة أجهـزة ومؤسسـات تابعة لهم. تقوم

بـإقرار الأمـن وجبايـة الضـرائب وتشـرف عـلى أمورالقضـاء. وبموازاة ذلك ارتبطوا فيما بينهم بعلاقات فصالة متمحورة حول الفيف.

ثانياً: تشكل الروابط الفيودو – فصلية:

يعود جورج دوبي في معرض حديثه عن الروابط الفيـودو – فصـلية ليقنع القارئ ضمنيا بـأن انخـراط أفـراد الأرسـتقراطية الماكونيـة في هـذه الروابط يمثل النتيجة المنطقية التي آل إليها تدهور مؤسسة القمطية.

١- Georges Duby, La société au XIe et XIIe siècles…,Op.Cit.,p. ١٦٨.

٢- سنعرف بهذه المؤسسة و سنتحدث عن بنيتها بتفصيل في موضع لاحق.

ويفيدنا في هذا الصدد بأن النصوص التي اعتمدها توضح بأن الصلة بين الفيف و الولاء[1] (*l'hommage*) أصبحت وثيقة في الماكوني ابتداء من سنة ١٠٣٠ . حيث غدت كل عملية تقديم فيف تستوجب من المستفيد منه تقديم الولاء وأداء القسم. وتبعاً لذلك خصص صفحات مطولة لرصد مسيرة الفيف و للحديث عن الولاء وعن الطقوس التي كانت تتم فيها عملية تقديم الفيف وعملية أداء الولاء. **وأهم الملاحظات التي يمكن استخلاصها من تلك الصفحات هي كما يلي:**

أولاً: لم تكن العلاقات بين جميع أفراد الأرستقراطية في إقليم الماكوني قائمة على الفيف. فقد مثل حجر الزاوية في العلاقات القائمة بين أفراد الشريحة السفلى وأفراد الشريحة المتوسطة في الطبقة الأرستقراطية، وكذلك بين أفراد هذه الشريحة و أفراد الشريحة العليا، أما بين أفراد الشريحة العليا فقامت روابط "فيودو – فصلية " غير مستندة على الفيف. وقليلاً ما كان أحد أفراد هذه

الشريحة يقدم فيفا لفرد آخر. لأن أفراد هذه الشريحة كانوا ينحدرون كلهم من أسر نبيلة و عريقة مالكة لأراضي مترامية الأطراف، و لأن الأمر يتعلق هنا بشخصين متساويين في المقام والقوة. ومن ثم، لم يكن من اللائق أن يسلم أحدهم فيفا للآخر، لأن عملية تسليم الفيف تحيل إلى نوع من الدونية. كما تجعل المستفيد من الفيف في وضعية تبعية و خضوع للشخص مانح الفيف.

١- ننبه القارئ بأننا نستعمل كلمة ولاء كمرادف لكلمة hommage . كما أننا سنستعملها لاحقا كمرادف لكلمة fidélité. في حين أن هناك فرقا بين الكلمتين الفرنسيتين. لذلك فإننا عند كل استعمال لكلمة ولاء نسجل بين قوسين ما يقابلها في اللغة الفرنسية حسب سياق النص.

ثانياً: اتخذت عملية تقديم الولاء (*l'hommage*) في قمطية ماكوني شكلا عمودياً وآخر أفقياً. فقد كان بإمكان الشخص الواحد المنتمي للشريحة السفلى أو للشريحة المتوسطة في الأرستقراطية أن يتسلم فيفين من مانحين. فيغدو بذلك فصلا "لسنيورين". وغالباً ما كانت تتكرر مثل هذه الحالات في أوساط حملة السيف الذين كان الطلب عليهم قوياً، لذلك كان "السنايرة" يتنافسون في استقطابهم بمنح الأفياف و التخفيف من أعباء الخدمات والالتزامات. بينما لم يكونوا هم أيضا يترددون في الاستجابة لتلك الإغراءات. فكان الواحد منهم يضع مهاراته القتالية رهن إشارة أكثر من سنيور لزيادة رصيده من الأفياف. غير أن تعدد مثل هذه الروابط كان يطرح أحياناً بعض المشاكل، حين يقع سوء تفاهم بين سنيورين. فيجد الفارس المرتبط بهما بعلاقة فصالة نفسه في وضعية حرجة.

ومهما يكن من أمر فالمحصلة النهائية التي يخرج بها قارئ أطروحة جورج دوبي هي أن قمطية الماكوني وقعت في شراك الفيودالية بعد تدهور مؤسسة القمطية و نهاية دورها في رعاية شؤون أفراد المجتمع. فغدت بذلك إحدى المجالات الجغرافية الممثلة لهذه الظاهرة في ربوع غالة. ومن ثمة، فإن قصة

العلاقة بين قمطية الماكوني والفيودالية تلخص إلى حد بعيد قصة غالة مع هذه الظاهرة تبعا للانطباع الذي تتركه الأطروحة. ففي الماكوني كما في مجموع تراب غالة بدأت تلك القصة عندما تدهورت المؤسسات السياسية، وحدث فراغ سياسي أفضى إلى تجزئة متقدمة للسلطة التي أصبح

يمارسها كل من استطاع إلى ذلك سبيلاً. فانتفت المؤسسات. وانتفت معها أية صلة تربط الفرد بالدولة. فماذا يمكن أن يقال عن صلة قمطية بروڤانسيا بالفيودالية؟

شكل إقليم بروڤانسيا مجالاً جغرافياً لأطروحة أنجزها جون بيير بولي (*Jean–Pierre Poly*) الباحث الذي يزاوج بين المقاربة التاريخية و المقاربة القانونية في تناول قضايا العصر الوسيط في أوربا.

وتندرج هذه الأطروحة و الأطروحتان اللتان سيأتي الحديث عنهما بعد حين[1] ضمن مشروع علمي طموح انبرى للقيام به ثلة من الباحثين منذ سبعينيات القرن الماضي. سعى لدحض فكرة كانت رائجة في أوساط الباحثين في تاريخ العصر الأوربي الوسيط خلال خمسينيات وستينيات القرن المذكور. مفادها أن موطن الفيودالية هو الأقاليم الممتدة بين نهري اللوار والراين التي شكلت قلب الإمبراطورية الكارولنجية. أما أقاليم جنوب غالة، ومعها أقاليم جنوب أوربا، فلم تشهد ظاهرة الفيودالية. وإذ قدر لبعض تلك الأقاليم أن تشهد بعض تجليات الظاهرة، فقد كانت تجليات دخيلة على نظمها و بنياتها.

١- يتعلق الأمر بأطروحتي بيير توبير و بيير بوناصي اللتين أرجأنا الحديث عنهما بعد الحديث عن أطروحة جون بيير بولي لأنها تهم أحد أقاليم غالة.

وقد عبر جون بيير بولي عن مقاصد أطروحته منذ الصفحات الأولى من خلال السؤال المحوري الآتي: هل ينطبق المخطط الخاص بالفيودالية، الذي صاغه مؤرخو مرحلة ما بعد الحرب الكونية الثانية انطلاقاً من نصوص تنتمي للأقاليم المعروفة بمهد الفيودالية، على إقليم بروڤانسيا خاصة، و أقاليم جنوب غالة عامة؟[1]

وقد اقتضى الجواب عن هذا السؤال من قبل الباحث اعتماد ما ينفي عن ألفي نص من النصوص المعروفة " بالمواثيق " (*les chartes*). بالإضافة إلى ترسانة أخرى من المصنفات؛ ككتب التاريخ العام و الحوليات و سجلات الأديرة والنصوص الهاجيوغرافية التي تعرض لسير وكرامات القديسين والقديسات وغيرها من النصوص.

خلص جون بيير بولي بعد استقرائها إلى خلاصة مفادها أن قمطية بروڤانسيا انخرطت هي الأخرى في ظاهرة الفيودالية من أبوابها الواسعة. وأن مقومات الظاهرة في هذا المجال الجغرافي لم تقل نضجاً وتكاملاً عن مثيلاتها في وسط أو شمال غالة.

ويفيدنا على غرار جورج دوبي بان الفيودالية اتبعت في نشأتها و تطورها بقمطية بروڤانسيا مسارين متوازيين: واحد ذو طابع سياسي تمثل في نهاية دور المؤسسات العمومية. والثاني ذو صبغة عقارية تمثل في تشكل شبكة من العلاقات تمحورت حول الفيف. ولكن لحظة انطلاق المسار الأول كانت أسبق

---

١ - Jean-Pierre Poly, La Provence …, Op.Cit., p.IV.

من لحظة انطلاق المسار الثاني. حيث انطلق المسار السياسي بين سنتي ١٠٠٠ و١٠٤٠. ولم ينطلق المسار العقاري إلا بعد مطلع القرن الثاني عشر.

وبناء عليه، ففي إقليم بروڤانسيا كما في إقليم الماكوني شكلت مؤسسة القمطية أم المؤسسات. كانت تباشر بواسطة أجهزتها الاقتصادية والقانونية والقضائية تدبير الشأن العام. وإليها كانت تحتكم سائر فئات المجتمع من خاصة وعامة.

وإذا كانت حركة هدنة الله قد شكلت منعطفاً حاسماً في مسار تلك المؤسسات بقمطية الماكوني، كما رأينا من قبل، فإن تطورات ذات بعد اقتصادي – ديموغرافي حدثت خلال الفترة الممتدة بين سنتي ٩٥٠ و ١٠٤٠ هي التي أفضت هذه المرة إلى التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها بروڤانسيا بعد سنة ١٠٤٠.

وقد تمثلت هذه التطورات في كون أن أفراد الأرستقراطية، من كبار ومتوسطي الملاكين العقاريين، أصبحوا يلاقون صعوبات في إيجاد الأيدي العاملة الكافية لاستثمار استغلالياتهم المترامية الأطراف. بفعل التراجع الديموغرافي و تقلص أعداد العبيد الذين كانوا يسخرون منذ قرون في مختلف الأنشطة الزراعية. ومن ثم، لم يجدوا أمامهم من حل سوى القيام ببسط سلطانهم المعنوي والمادي على عموم الفلاحين الأحرار. فشرعوا في إرساء الآليات لتحقيق هذا المبتغى.

ومن المفيد التذكير مجدداً في هذا المقام، بأن القمط كان هو المسؤول الوحيد منذ عهد شارلمان، وقبله أيضاً، الذي تتجسد في شخصه السلطة في ربوع القمطية. فهو الذي يمتلك ما تسميه بحق الإلزام[1](*le droit de ban*) الذي يسري مفعوله في حدود دائرة ترابية معينة هي القمطية. و بمقتضى هذا الحق، الذي تقوم بأجرأته عدة أجهزة، يقوم القمط بالقيادة (*le commandement*) و يسهر على إقرار الأمن، ويدعو كبار أفراد الارستقراطية لحضور الاجتماعات السنوية التي تعقد للبث في القضايا التي تهم القمطية، ويشرف على جباية الضرائب، وعلى شؤون القضاء، كما يشرف على استخلاص الذعائر والغرامات.

فحدث في قمطية بروڤانسيا أن شرع عدد من أفراد الأرستقراطية اللائكية في التطاول على بعض هذه الحقوق. فأخذوا يسهرون على إقرار الأمن في ربوع القرية التي تقع بها ممتلكاتهم العقارية. ونجحوا في التأثير على أشغال المؤسسات القضائية. وأنشأوا مؤسسات اقتصادية كالأفران والمعاصر والطاحونات. واحتكروا استغلالها.

وبالنظر إلى ثروة أفراد الأرستقراطية و ما كانوا يملكونه من نفوذ قوي، فقد أصبحت لمعظمهم اليد الطولى داخل القرى. بل إن عدداً منهم نصبوا أنفسهم "اقماطا" في تلك القرى. التي تحولت كل واحدة منها إلى "سنيورية إلزامية". أي إلى دائرة ترابية يمارس الأرستقراطي في حدودها حق الإلزام بكل تجلياته.

١- يسمى هذا الحق باللغة اللاتينية Bannus. وبما أنه حق ملزم (un droit contraignant) ، فقد ارتأينا ترجمة اسمه بالفرنسية Le ban أو le droit de ban بعبارة حق الإلزام.

وقد كان التطور حاسماً في هذا الاتجاه، في نظر جون بيير بـولي، حـين أصبح أفراد الأرستقراطية في بروڤانسيا يشيدون القصـور والحصـون دون طلب إذن من مؤسسة القمطية. فأخذت هذه المنشآت تنتشرـ هنـا وهنـاك بإيقاع سريع. إذ قبيل حدود سنة ١٠٤٠ أضحت إحدى المعـالم البـارزة في المشهد العمراني بقمطية بروڤانسيا. الأمر الذي دفع الباحـث إلى التسـاؤل عن أسباب هذه الظاهرة.

انتهى جون بيير بولي في معرض جوابه عن هـذا السـؤال إلى التأكيـد بأنه لم يكن ثمة مبرر أمني داخلي أو خطر عسكري خارجي يدعو إلى إقامة هذه التحصينات، خاصـة و أن المسـلمين الـذين كـانوا يهـددون القمطيـة تراجعوا عن حدودها منذ سنة ١٩٧٢. فـما مـن تفسـير لهـذه الظـاهرة، في اعتقاده، سوى أن أفراد الأرستقراطية كانوا يسعون بخطى حثيثة لعسـكرة القرى لسببين: أولاً لحماية أنفسـهم وحمايـة ممتلكـاتهم بـدل التعويـل عـلى الأجهزة العموميـة لتحقيـق الحمايـة. وثانيـاً لإيجـاد قاعـدة ماديـة لتفعيـل سلطانهم على سكان القرى.

وانطلاقاً مما تقدم، يذهب جـون بيـير بـولي إلى الاعتقـاد عـلى غـرار جورج دوبي بأن القصر (*le château*) أو الحصن أصبح من وجهـة نظـر معنوية رمزاً للسلطة. ومن وجهة نظر مادية مركزا لمؤسسة هـي السـنيورية الإلزامية. انطلاقاً مـن هـذا المركـز أضـحى الأرسـتقراطي، أي السـنيور، يمارس حق الإلزام على سكان القرية.

١ - Jean-Pierre Poly ,La Provence…,Op.Cit., p. ١٢٧.

وإذ قدر لأفراد الأرستقراطية في بروڤانسيا النجاح في الاستحواذ على حق الإلزام، و سحب البساط من تحت أقدام القمط، فقد أفرغوا بذلك مؤسسة القمطية من أي محتوى، و نجحوا في نفس الوقت في إيجاد مخرج لأزمة اليد العاملة التي كانت وراء كل هذه الترتيبات.و إذا كانت هذه التحولات قد حدثت دون أن ترافقها أحداث دامية كبرى كما حدث في قمطيات أخرى،فقد أدت مع ذلك ، إلى حدوث " قطيعة " بين عهدين في بروڤانسيا[1] كما يؤكد ذلك جون – بيير بولي :عهد ما قبل الفيودالية، وعهد الفيودالية. ورغم ذلك فان الباحث يشد انتباهنا إلى مسألة أساسية و هي أنه حتى نهاية القرن الحادي عشر كانت الظاهرة "تستعد لحط الرحال" بالديار البروڤانسية. وكان عليها أن تبدأ المسار الثاني من رحلتها لكي تستكمل مسيرتها و تصبح نظاماً متكاملاً.

بدا جون بيير بولي معالجته لهذا المسار بالتذكير بأن الفئات الاجتماعية في قمطية بروڤانسيا ارتبطت فيما بينها بمختلف أشكال وصيغ علاقات التبعية منذ القدم كما هو الشأن في مختلف قمطيات غالة. فالفقراء ارتبطوا بالأغنياء، والضعفاء ارتبطوا بالأقوياء بعلاقات تضرع وإذعان. بينما ارتبط نفر من كبار أفراد الأرستقراطية الدينية واللائكية مع القمط بعلاقات ولاء (*la fidélité*).

١- Ibid. p. ١٢٩.

وقد كانت علاقات الولاء بين هذه الأطراف التي تهمنا فيها نحن يصدده، تستند في بعض الحالات إلى عقار. هو عبارة عن "بنفسيوم" استفاد منه عدد من "علية القوم" الذين أبانوا عن إخلاص وتفان في خدمة القمط والقمطية. تمثل ذلك البنفسيوم في الأغلب الأعم في مجموعة حصون. كان المستفيدون منها

يقومون بحراسة المناطق التي تقع بها نظير استمرارهم على ولائهم للقمط. وحسب الإفادات التي يقدمها لنا جون بيير بولي، فإن النصوص القليلة التي تتحدث عن هذا الشكل من العلاقات لا تتضمن مصطلحات تندرج ضمن ما يسمى بقاموس الفصالة.كما أنها لا تتضمن معلومات عن الطقوس والحركات (*les gestes*) المتصلة بعلاقات الفصالة من قبيل الانحناء و عملية أداء اليمين. باستثناء نص واحد يعود لسنة ٩٩٠ يفيد بأن ريكولف (*Riculf*) أسقف كنيسة فريجوس (*Fréjus*) وقف على ركبتيه (*s'est agenouillé*) يوماً ما بين يدي القمط كما يفعل الفصل أمام سيده السنيور[١]. ولاشك أن هذا الحدث يكتسي دلالة بالغة الأهمية؛ الأمر الذي دفع جون بيير بولي إلى التساؤل عما إذا كان هذا الانحناء تعبيراً عن علاقة فصالة أم أن ما قام به الأسقف كان مجرد تعبير عن الإخلاص والولاء في أرقى صوره؟ جواباً عن هذا السؤال يذكر بولي بأنه من الصعب الحسم في المسألة انطلاقاً من شهادة منفردة. ولكنه لم يتردد مع ذلك في الجزم بأن الطقوس والشعائر المرافقة لعلاقات الفصالة لم تظهر في قمطية بروڤانسيا

١- Ibid., p. ١٦٠.

إلا بعد مطلع القرن الثاني عشر. ويذكرنا في هذا المقام بأن عدداً من أفراد الأرستقراطية الذين شيدوا القصور و الحصون ، كما ذكرنا فيما مضى، شكلوا مليشيات عسكرية كانت تعمل تحت إمرتهم؛ وكان من المفروض أن يكون أفرادها أ فصالا لهم، ورغم ذلك فقد كانت العلاقات القائمة بينهم وبين أفراد الأرستقراطية قائمة على الولاء، ولم تكن علاقات فصالة. ويدعم جون بيير بولي وجهة نظره هاته بالقول بأن المصادر الخطية التي اعتمدها في انجاز

أطروحته لا تتضمن سوى ١٩ نصاً تعود للفترة الممتدة بين سنتي ١٠٤٠ و١١٠٠ تتحدث عن الولاء (*la fidélité*). ولا تشير من قريب أو من بعيد إلى الفصالة (*la vassalité*). وبعد سنة ١١٠٠ وحتى حدود سنة ١١٦٦ انضاف إليها ١٦ نصاً. تعززت بظهور عدد من العقود الفيودالية (*des conventions féodales*) بلغ عددها ٢٢ عقداً. وأهم ما في الأمر هو أن معظم هذه النصوص بالإضافة إلى العقود المشار إليها أصبحت تتحدث بكل وضوح عن الفصالة وما يتصل بها من طقوس.

والمحصلة النهائية هي أن قمطية بروڤانسيا انخرطت بدورها في سلك القمطيات التي سادت فيها الفيودالية. وقد وجدت في جون بيير بولي الباحث الذي أثبت ذلك بالحجة و الدليل. فماذا يمكن أن يقال عن اللاسيوم أحد أقاليم شبه جزيرة ايطاليا.

ظل الباحثون حتى نهاية الستينيات من القرن الماضي يروجون لوجهة نظر مفادها أن الأراضي التي كانت خاضعة لسلطة البابوية في شبه جزيرة ايطاليا ظلت بمنأى عن ظاهرة الفصالة حتى حدود سنة ٩٩٩ حين اعتلى عرش البابوية رجل الدين الفرنسي جربير الأورياكي (*Gerbert d'Aurillac*) المعروف باسم البابا سلفستر الثاني *(Sylvestre II*).

يذكر روبير بوتريش، أحد الباحثين المتأخرين المروجين لهذا الطرح[1]، بأن البابا المذكور أبان خلال الأربع سنوات التي قضاها على رأس البابوية عن حيوية ونشاط لرد الاعتبار لمؤسسة البابوية، ولنشر تعاليم المسيحية في بعض

أقاليم أوربا الشرقية المعروفة اليوم ببولندا وهنغاريا. ولم يخف رغبته في وضع الحجاج القاصدين بيت المقدس تحت حماية البابوية. بل دعا إلى حمل السلاح لتحرير الأماكن المقدسة. فشرع في استقطاب حملة السيف من المتحمسين لهذا المشروع. وشجع أفراد الأرستقراطية على تكوين مليشيات والانخراط في روابط الفصالة.

وإذ ارتبط هذا المشروع بشخصية البابا سلفستر الثاني ، فقد شهد نوعاً من التعثر بعد وفاة هذا الأخير سنة ١٠٠٣. ولذلك ظلت الفيودالية محتشمة في هذه الربوع. ولم يقدر لها الاكتمال لتصل إلى مستوى أعلى من التبلور حسب مزاعم بوتريش و الباحثين السابقين.

١- أنظر كتابه الذي سبقت الإحالة عليه ، الجزء الأول ، ص ص.٢٢٤-٢٢٥.

تمثل أطروحة بيير توبير (*Pierre Toubert*) الصادرة سنة ١٩٧٣ قطيعة مع هذا الطرح. فقد خلص بعد قراءة جديدة لترسانة من النصوص تهم الفترة الممتدة بين القرنين التاسع و الثاني عشر بأن الأمر عكس ما روج له الباحثون تماماً.

وحقيقة هذا الأمر هو أن فيودالية إقليم اللاسيوم (*le Latium*) الذي اختاره مجالاً جغرافياً لبحثه، فيودالية "محلية الصنع". كانت وراء إرساء

قواعدها مؤسسات دينية، أبرزها دير فارفا (*Farfa*)[١] ودير سوبياكو (*Subiaco*)[٢]. فقد دأبت هاتان المؤسستان منذ مطلع القرن الحادي عشر على

تقديم قطع أرض لأفراد ينتفعون بها مدى الحياة (*des tenures livellaires*) سعياً منها لاستقطاب أكبر عدد ممكن من المريدين.

ويفيدنا بيير توبير بأن دير فارفا كان مؤهلاً أكثر من دير سوبياكو في التسريع بوتيرة إرساء دعائم الفيودالية. فقد كان يملك موارد مادية وبشرية هائلة. تمثلت في تحف نادرة وقطع أرض شاسعة المساحة وأعداد كبيرة من المريدين. كانوا في معظمهم يتألفون من فلاحين يقيمون في قرى

١- ينتسب هذا الدير للقديسة ماريا (Sainte – Marie). يقع في منطقة صابين أو صابينا على بعد حوالي ٥٠ كلم. من روما. تعود نشأته إلى القرن السادس للميلاد. اتبع خلال رحلته الطريقة البندكتية. أنظر في هذا الشأن :

John Howe, Church and social change in eleventh century Italy, University of Pennsylvania Press, ١٩٩٧.

٢- أنشأ هذا الدير القديس بنوا (Saint Benoît) حوالي سنة ٥٠٠ ميلادية. وقد اتبع الطريقة البندكتية كدير فارفاً.

محيطة بالدير، ويحظون بحمايته فيما يعرف "بالمحميات" (*les sauvetés*). لذلك ارتأى رجال الدين القائمون بأمر دير فارفا إنهاء العمل بالصيغة السالف ذكرها. وشرعوا منذ سنة ١٠٦٢ في منح قطع أرض كأفياف للمريدين، الذين يتقنون استعمال السلاح، مقابل خدمات عسكرية. وسرعان ما تلت هذه العملية عمليات مماثلة خلال السنوات الموالية. ثم تضاعفت خلال العشرية الممتدة بين سنتي ١٠٨٠ و١٠٩٠. وغدت هي الصيغة الأكثر تداولاً بين دير فارفا و الراغبين في الانضمام للمليشيات التي أنشاها. ومنذ هذا التاريخ بدأت ظاهرة العسكرة تأخذ منحى تصاعدياً في الأراضي الواقعة في منطقة صابين (*Sabine*) الخاضعة لنفوذ دير فارفاً. ثم أصبحت الظاهرة واضحة أكثر بعد سنة ١١٠٠ حسب الإفادات التي تقدمها النصوص التي اعتمدها بيير توبير[1].

وقد سمحت نفس النصوص لبيير توبير بالقول بأنه ابتداءا من حوالي سنة ١١٢٠ أخذ نفس المشهد يتشكل في المنطقة المحاذية لنهر التيبر (*le pays Tibertin*) الخاضعة لنفوذ دير سوبياكو. فقد أبان نفر من أفراد الأرستقراطية

١- Pierre Toubert, Les structures du Latium…, Tome II, p. ١١٠٥.

اللائكية عن رغبة جامحة في الاستحواذ على أراضي تدخل ضمن ممتلكات هذا الدير، فاقتضت ضرورة صد الأطماع من رجال الدين المشرفين عليه الالتحاق بركب زملائهم رجال دين دير فارفا. فاجتهدوا بدورهم في استقطاب "المريدين" (*Fides equites*) من بين الذين يتقنون فنون الحرب والقتال وامتطاء صهوات الخيول. فمنح الدير لكل منخرط في العملية فيفا. وشكل مجموع المنخرطين مليشيات عسكرية. ارتبط أفرادها بسادتهم من رجال الدين بروابط فيودو – فصلية. و تعهدوا بالخدمة العسكرية.

انطلاقاً مما تقدم يتضح بأن مؤسسات دينية "صغرى" نسبياً هي التي تزعمت حركة إرساء الفيودالية في شبه جزيرة ايطاليا ، أو على الأقل في إقليم اللاسيوم وفي الأراضي المحاذية لنهر التيبر. و هذا ما يستفاد من كلام بيير توبير حين يذكر بأن عملية إرساء الفيودالية في ايطاليا اندرجت ضمن اهتمامات "المؤسسات العمومية" وليس ضمن اهتمامات الأفراد كما حدث في أقاليم غالة(١). و قد تأكد هذا البعد "المؤسساتي العمومي" أكثر حين انضمت البابوية إلى العملية. فما هي الإجراءات التي قامت بها أم المؤسسات الدينية في هذا الشأن؟

يذكرنا ما يورده بيير توبير من معطيات و هو بصدد الجواب عن هذا السؤال بما حدث في غالة قبيل أن يتولى شارلمان حكمها. فقد كانت روابط الفصالة قد استشرت في أوساط الطبقة الأرستقراطية من مجتمعها. وبما أنه

١- Ibid., Tome II,p. ١١٨٣.

كان من الصعب استئصال الظاهرة، فقد فكر في احتوائها ،كما ذكرنا فيما مضى، من خلال إضفاء الطابع المؤسساتي عليها. وذلك بأن جعلها إحدى وسائل الحكم وممارسة السلطة. وهذا بالذات ما حاولت البابوية القيام به في ايطاليا.

فقد شرع البابوات منذ مطلع القرن الثاني عشر في نسج خيوط شبكة من الروابط الفيودو – فصلية. وشجعوا كبار رجال الدين وكبار الملاكين العقاريين اللائكيين على الانخراط فيها؛ مستحضرين في هذا الشأن ما سبق أن قام به البابا سلفستر الثاني. ولتحقيق النجاح في مسعاهم اتبعوا مسلكين أساسيين: تمثل المسلك الأول في عملية شراء مجموعة قصور وحصون كانت في حوزة بعض أفراد الأرستقراطية. منحت لهم فيما مضى قصد الانتفاع، أو بسطوا عليها نفوذهم في ظروف غير عادية. فاشترتها منهم البابوية وعادت لتمنحها لهم كأفياف نظير الإقرار بتبعيتهم لها كأفصال. وتمثل المسلك الثاني في عملية "شراء للولاءات". فقد كان عدد من كبار الملاكين العقاريين يدينون بالولاء (*la fidélité*) للبابوية منذ القدم. فارتأى البابوات تقديم مبالغ مالية لهؤلاء على أن يتحولوا من مجرد أشخاص يدينون بالولاء للمؤسسة إلى أفصال تابعين لها.

ويفيدنا بيير توبير بأن البابوية حققت نجاحاً منقطع النظير في هذا الاتجاه. إذ بعد مضي سنوات قليلة شرع كثير من كبار الملاكين العقاريين وعدد من الأقماط في تقديم فروض الطاعة للبابوية بالانحناء وتقديم الولاء (*l'hommage*) وتأدية القسم كسا يفعل سائر الأفصال[1]. وبذلك، فإن

الفيودالية التي سبق لها أن بلغت مستوى من النضج في إقليمي اللاسيوم وصابينا اكتمل نضجها أكثرعلى يد البابوية. واتسع انتشارها هذه المرة في مجال جغرافي أوسع.

والجدير بالذكر أن ما أقدمت عليه البابوية كان ينسجم من جهة مع ما كان يعتمل في ايطاليا وفي غرب أوربا عامة من أحداث وتحولات انطلقت منذ مطلع القرن الحادي عشر. فكان على هذه المؤسسة الدينية أن تركب تيار مرحلة جديدة من تاريخ غرب أوربا اختلط فيها الديني بالدنيوي. وأصبحت فيها المؤسسات الدينية تجنح نحو طلب الدنيا كما كان يفعل أفراد الأرستقراطية اللائكية[2]. كما كان يستجيب من جهة أخرى مع رغبة البابوية في أن تكون تحت إمرتها مليشيات تمدها بالقوة وتسمح لها بقيادة المسيحيين في المشروع الحربي الشهير بالحروب الصليبية.

١- Ibid., Tome II, p. ١١٣٥ et suivantes..

٢- Jules Gay, Les Papes du XIe siècle et la chrétienté, Paris, Gabalda, ١٩٢٦,p.١٢٦. voir aussi Jean Flori,
Croisade et chevalerie, XIe – XIIe siècles, Paris – Bruxelles, De Boeck Université, ١٩٩٨, pp. ١٥-١٦.

تترك الفقرات السابقة الانطباع لدى القارئ وكأن نشأة وتطور الفيودالية، في إقليمي اللاسيوم وصابينا، حدثا في سياق مختلف عن السياق الذي حدثا فيه في إقليمي الماكوني و بروڤانسيا. ففي هذين الإقليمين حدث أن تدهورت المؤسسات العمومية. فاتجهت عملية تدبير الشأن العام نحو "الخوصصة "؛ و ذلك حين قام أفراد الأرستقراطية (فرادى) بالسطو على حق الإلزام وشرعوا في تشييد القصور. ثم أصبحوا يمارسون ذلك الحق في إطار

سسنيوريات إلزامية أنشأوها. وارتبطوا فيما بينهم في شبكة من العلاقات تمحورت حول الفيف.

في ايطاليا لم يحدث التدهور المشار إليه. فقد كانت المؤسسات الدينية تشكل دائما ما يمكن تسميته ببنيات استقبال. حيث كانت تحتضن أفراد المجتمع وتسهر على تأطيرهم. كما أن منظومة القوانين التي كانت تنظم المعاملات بين الأفراد ظلت قوية. ومن ثم لم يتهافت أفراد الأرستقراطية اللائكية في إقليم اللاسيوم على تطبيق قوانين جديدة. ولم يسارعوا إلى التسلط على شؤون القضاء. ورغم أنهم شرعوا منذ منتصف القرن العاشر في تشييد القصور و إقامة مناطق النفوذ، فإنهم لم يلجئوا إلى نسج روابط فيودو - فصلية كما فعل زملائهم في عدد من أقاليم غالة[١]. وهذا ما يفسر في نظر الباحث عدم مواكبة الروابط الفيودو – فصلية (أي الفيودالية في معناها الضيق) في إقليم اللاسيوم لظاهرة تشييد القصور و إقامة مناطق

١ - Pierre Toubert, Les structures du Latium…, Tome II, p. ١٠٩٧.

النفوذ كما حدث في أقاليم غالة. لكن هذا لا يعني بأن أفراد الأرستقراطية (اللائكية بوجه خاص) ظلوا في إقليم اللاسيوم بمنأى عن الفيودالية أو بمنأى عما كانت تقوم به المؤسسات الدينية. **فكيف يوضح بيير توبير هذا الأمر؟**

يفيدنا بيير توبير بأن حضور أفراد الأرستقراطية في قلب الأحداث يتجلى من خلال الحديث عن "حركة إعادة الهيكلة" التي شهدها إقليم اللاسيوم بين سنتي ٩٢٠ و ١٠٣٠، والتي شملت مختلف المجالات كأشكال السكن الريفي وأساليب الزراعة والبنيات الاجتماعية و طرق تدبير الشأن المحلي. وقد كانت

وراء تلك "الحركة" تحولات كبرى، أبرزها النمو الديموغرافي[1] الذي حدث في مجال جغرافي يتميز بصعوبة تضاريسه وقلة أراضيه الصالحة للزراعة. الأمر الذي كان يستدعي التدخل لإعادة تنظيم ذلك المجال بشكل يجعله قادراً على استيعاب التزايد المذكور دون إعاقة النمو الاقتصادي (أي التوسع الزراعي) الذي بدأ يرتسم في الأفق منذ نهاية القرن العاشر. ولتحقيق هذا المسعى قام أفراد الأرستقراطية بتجميع سكان إقليم اللاسيوم في قرى محصنة بأسوار أقاموها لهم في المرتفعات وفي المناطق الوعرة التي لم تكن مستغلة من قبل. فأفضى ذلك إلى ظهور تجمعات

١- Ibid., Tome I, p. ٣١٣.

سكنية جديدة. أطلق عليها الباحث اسم "الأنكستلمنطو" (*l'incastellamento*)[1]. والواقع أن الأمر يتعلق بظاهرة تجاوزت كثيراً حدود التجمعات السكنية. **اكتست دلالات متعددة وترتبت عنها نتائج بالغة الأهمية يمكن إجمالها فيما يلي:**

أولاً: أشرف على إقامة تلك التجمعات أفراد الأرستقراطية الدينية واللائكية. أحياناً كانوا يقومون بذلك مجتمعين، وفي أحايين أخرى متفرقين. فانتهى على اثر ذلك عهد تميز فيه العمران الريفي بتفرق المساكن. وحل عهد أصبحت فيه المساكن متجمعة. وغدا "الكاستروم" (*le Castrum*) هو النواة الأساسية في التنظيم الترابي. وبالمثل انتهى عهد كانت فيه أرياف ايطاليا

مجالاً جغرافياً مفتوحاً، يمكن أن تتحرك ساكنته في جميع الاتجاهات. وحل عهد أصبح فيه الفلاحون قرويون (*des villageois ou des castellanus*). يقيمون تحت رحمة أفراد الأرستقراطية في تجمعات مغلقة يمكن نعتها بلغة عصرنا " بالكيطوهات " (*des ghettos*).

ثانياً: ترتب عن إقامة القرى المحصنة نهاية العمل بنظام الدومين الكبير (*le grand domaine*) الذي كان سائدا خلال الحقبة الكارولنجية. والذي بمقتضاه كانت الأراضي الصالحة للزراعة موزعة إلى

١- أطلق بيير توبير كلمة " الأنكستلمنطو " على التجمعات السكنية في قرى محصنة معلقة في المرتفعات .ويستعمل الفرنسيون كلمة Enchâtellement كمرادف لها. و على غرار بيير توبير ، استعمل روبير فوصيي (Robert Fossier) كلمة encellulement للحديث عن التجمعات السكنية في إقليم بيكارديا (la Picardie).

استغلاليات كبيرة، شاسعة المساحة. فأصبح الآن كل دومين مقسما إلى وحدات صغرى يتوسطها قصر المالك العقاري. وتكتسي إعادة الهيكلة هاته دلالة بالغة في نظر بيير توبير لأنها تعني نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الوسيط في إقليم اللاسيوم.

ثالثاً: يختلف بيير توبير مع بعض الباحثين حين يربطون بين ظاهرة "الأنكستلمنطو" وغارات المسلمين على بعض المواقع الايطالية. ويوضح في هدا المقام بأن أقدام المسلمين وطأت إقليم اللاسيوم بين سنتي ٨٧٠ و ٩١٠. وقد استطاع المسلمون الوصول إلى كنيسة القديس بطرس. ثم ابتعدوا عن الإقليم نهائياً بعد هزيمتهم في وقعة ٩١٥. في حين أن عملية تشييد القرى المحصنة لم تنطلق إلا بعد سنة ٩٢٠[١].

وبناء على ما تقدم يخلص بيير توبير إلى القول بأن المنشآت الجديدة أقيمت في بادئ الأمر لإعادة تنظيم السكان. وبعد ذلك غدت أطرا تعتمل فيها حياة سكان الأرياف. بل إن جميع الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية

والاجتماعية أصبحت الآن تعتمل في هذه الفضاءات الجديدة. وكأنه بذلك يقر ضمناً بأنها لا تختلف عن السنيوريات الإلزامية التي أرسى دعائمها أفراد الأرستقراطية في قمطيتي الماكوني و بروڤانسيا كما رأينا فيما مضى. ويؤكد بيير بوناصي فعلا، في معرض تعليقه على أطروحة بيير توبير، بأن تجمع السكن الريفي في إقليم اللاسيوم أو تفرقه في إقليم

---

١ - Ibid. Tome I,p. ٣١١.

قطلونيا لا يعدوان كونهما مجرد تجليات اتخذها السكن هنا وهناك. أما في واقع الأمر،فقد كان السكان تحت سيطرة الطبقة الأرستقراطية التي استطاع أفرادها امتلاك حق اتخاذ القرار، أي امتلاك حق الإلزام[١]. وإذا كان مالكو حق الإلزام في قمطيات غالة قد حصنوا أنفسهم بتشييد القصور المنيعة، وشكلوا المليشيات للاستناد عليها في أجرأة ذلك الحق، فيبدو أن الهاجس الأمني أو العسكري لم يكن غائباً تماماً عن أذهان أفراد أرستقراطية اللاسيوم. لأنهم بقدر حرصهم على حل المشاكل الديموغرافية عن طريق إعادة تنظيم المجال ، فقد كانوا أيضاً حريصين من خلال إقامة القرى المحصنة وتشييد القصور على حماية أنفسهم وحماية ممتلكاتهم العقارية. و جعلها في مأمن من أي خطر قد يتهددها من قبل الفلاحين، الذين أخذت أعدادهم تتكاثر بشكل ملفت، أو من قبل أية قوى أجنبية.

نخلص في ضوء ما تقدم إلى القول بأن بيير توبير أبان بما لا يقبل الجدل بأن إقليم اللاسيوم، وبمعيته مجموع أقاليم ايطاليا، شهد ظاهرة الفيودالية. وأن الأمر يتعلق بظاهرة أصيلة نشأت وترعرعت في نفس الإقليم. وبالمثل ففد أبان

١- Pierre Bonnassie, Le Latium au cœur du Moyen Age, in Anuario de estudios medievales, No ٠٩,
١٩٧٤-١٩٧٩, pp.٧٢٣-٧٣١.

بأنه انتهى زمن كان يتم فيه النظر إلى فيودالية غرب أوربا انطلاقاً فقط من النموذج الماكوني أو من نماذج الأقاليم الواقعة في الشمال بين نهري الراين واللوار. ونؤكد من جانبنا بأن أطروحة بيير توبيرالتي حظيت باهتمام خاص في الأوساط العلمية[1] غدت منذ صدورها نموذجاً يقتدى من قبل المهتمين بالبحث في المؤسسات السياسية والقانونية و في البنيات الاجتماعية و الزراعية في أقاليم جنوب أوربا. وقد تلتها بعد سنتين فقط أطروحة بيير بوناصي حول إقليم قطلونيا التي أحدثت القطيعة بصفة نهائية مع الطروحات التي ظلت رائجة حتى مطلع سبعينيات القرن الماضي، سواء فيما يتعلق بنشأة وتطور الفيودالية، أو فيما يتعلق بطبيعة هذه الظاهرة في أقاليم جنوب غالة وأقاليم أوربا المتوسطية. **فماذا يمكن أن يقال عن الفيودالية في إقليم قطلونيا؟**

اعتمد بيير بوناصي لانجاز بحثه على ما ينيف عن ١٥٠٠٠ نص تعود للفترة الممتدة بين منتصف القرن العاشر ونهاية القرن الموالي. توزعت بين سجلات أديرة ومواثيق وعقود ونصوص هاجيوغرافية وغيرها. خلص بعد استقرائها إلى فكرة أساسية وهي أن إقليم قطلونيا شهد خلال الفترة المذكورة تحولات اقتصادية كبرى واكبتها عملية إعادة تشكل للبنيات الاجتماعية ومن ثم، فخلافاً لجورج دوبي وبيير توبير الذان يربطان نشأة الفيودالية بالتحولات السياسية، يذهب بيير بوناصي إلى التأكيد بأن نشأة و تطور ظاهرة الفيودالية في إقليم قطلوتيا لا يمكن فهمها وتتبع

١- دليلنا في ذلك التعاليق و التقارير الكثيرة التي خصها بها الباحثون في الدوريات و المجلات المتخصصة.

مسارها إلا باستحضار النمو الاقتصادي الذي أفضت إليه تلك التحولات الاقتصادية.

أولاً: نهاية الركود الاقتصادي في إقليم قطلونيا و بداية النمو:

يفيدنا بيير بوناصي بأن النصوص التي اعتمدها تسمح بالقول بأن إقليم قطلونيا كان منتظما خلال الفترة موضوع البحث في هيأة قمطيات؛ أكبرها قمطية برشلونة. وعلى غرار قمطية الماكوني، فقد ظلت مؤسسة القمطية قوية في قطلونيا حتى حدود سنة ٩٥٠. حيث كان القمط مهاب الجانب. يدين له بالولاء جميع السكان من خاصة وعامة. وربما كان التماسك والتآلف في قطلونيا أقوى مما كان عليه في سائر القمطيات نظرا لقربها من مراكز وجود المسلمين في الأندلس. أما اقتصادياً، ففد كانت قطلونيا إقليماً فقيراً حتى حدود السنة المذكورة. يقيم سكانها المؤلفين في معظمهم من فلاحين في المناطق الوعرة. يعيشون في إملاق و تغلب على حياتهم الرتابة.

ويفيدنا بيير بوناصي بأن أقماط قطلونيا تحللوا من تبعيتهم لملوك غالة منذ عهد بوريل الثاني(*Borrell II*) الذي تولى مهام القمطية بين سنتي ٩٤٨ و٩٩٢ . فحرموا من أي سند يحميهم، ولذلك ظلوا حريصين على كسب ود خلفاء قرطبة بحفظ المواثيق وتبادل الهدايا و الصلات. ولم يجرؤوا يوماً على مناوشة مسلمي الأندلس رغم أنهم تعرضوا لبعض الحملات العسكرية مثل تلك التي قادها المنصور بن أبي عامر سنة ٩٨٥ م. / ٣٧٤ ه. و تلك التي قام بها ابنه عبد الملك سنة ١٠٠٣ م./ ٣٩٣ ه. ورغم انقلاب موازين القوى لصالح مسيحيي شبه جزيرة ايبيريا بعد

سقوط الخلافة واتجاه الأندلس نحو التجزئة، فقد استمر أقماط قطلونيا في نهج سياسة الود والمهادنة اتجاه القائمين على الأمر في الممالك الطائفية خلافاً للسياسة التي انتهجها القشتاليون. وأهم ما تجرؤوا على القيام به هو حماية بعض الممالك الطائفية الصغرى مثل مملكتي سرقسطة

وطرطوشة والمشاركة في بعض الحملات التي قام بها مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا ضد مسلمي الأندلس والسماح لعدد من المحاربين القطلانيين بوضع مهاراتهم القتالية رهن إشارة بعض القوى الإسلامية مقابل أجر.

ويبدو أن سياسة الأقماط وخدمات المحاربين عادت بالنفع على القمطية وعلى سكانها. فقد أخذت تتسرب إليها كميات مهمة من القطع الذهبية الأندلسية. ساهمت منذ حوالي سنة ٩٨٠ في إنعاش اقتصادها. حيث أعطت ديناميكية للنشاط الزراعي الذي كان معتمد سكانها. و أسهمت في إذكاء المبادلات التجارية، وإن ظلت منتجات الأرض موضوع تلك المبادلات. مما أفضى إلى نهضة اقتصادية. بدأت معالمها تتضح أكثر ابتداء من سنة ١٠٢٠[١].

وينبهنا بيير بوناصي في هذا المقام يأته من الخطأ القول بأن العوامل الخارجية وحدها هي التي أدت إلى حدوث الانتعاش الاقتصادي. والصواب هو أن استقرار الأوضاع الأمنية على حدود قطلونيا هيأ الظروف الملائمة لجهود مضنية كان يقوم بها الفلاحون منذ منتصف القرن العاشر.

١- Pierre Bonnassie, La Catalogne du milieu du Xe à la fin du XIe siècle : croissance et mutations d'une société, Toulouse, Association des publications de l'Université de Toulouse-Le Mirail,١٩٧٥-١٩٧٦, Tome I, p. ٤٣٣ et p. ٤٧٩.

تمثلت في عمليات توسيع للمساحات الصالحة للزراعة عن طريق استصلاح الأراضي الهامشية وتجفيف بعض المستنقعات و تحسين أساليب الأداء في العمل الزراعي. وأتى ذهب الأندلس ليقدم قيمة مضافة لتلك الجهود.

والحصيلة هي أن عوامل خارجية وأخرى داخلية تظافرت لتنتقل قمطية قطلونيا من مرحلة الركود إلى مرحلة النمو(١)؛ ومن مرحلة الانغلاق إلى مرحلة الانفتاح. وقد تجسدت صور هذا الانتقال في ارتفاع كمية عائدات الأرض، وانتعاش الأسواق، وازدياد حدة السيولة النقدية، وانتعاش حركة البناء والتشييد وتحسن ظروف عيش السكان، وارتفاع وتيرة الترحال في اتجاه المراكز المسيحية والإسلامية.

ثانياً: النمو الاقتصادي وتشكل الروابط الفيودو – فصلية:

كان من تبعات النمو الاقتصادي أن ازدادت قيمة و أهمية الأرض. وأصبحت موضوع رهان حاد و صراع مكشوف بين عموم الفلاحين و كبار الملاكين من أفراد الأرستقراطية الذين تزايد جشعهم. فلجأ هؤلاء إلى تشييد الحصون و القصور المنيعة و تشكيل المليشيات العسكرية على غرار ما قام به أقرانهم في مختلف قمطيات غالة. و شرعوا في شن الغارات على بعض المؤسسات الدينية و على الفلاحين للاستحواذ على ما في حوزتهم من أراضي.

١- Ibid. , Tome I, p. ٤٨٠.

وآل الصراع بطبيعة الحال لأفـراد الأرسـتقراطية الـذين نجحـوا في بسط سلطانهم على معظم فلاحي قطلونيـا مـن خـلال إرسـاء السـنيورية الإلزامية. التي تمثل في نظر الباحث مؤسسة أقيمـت للاسـتفادة مـن الـثمار التي أسفرت عنها جهود الفلاحين(١).

ويبدو أن المكاسب المادية و المعنوية التي حققها أفراد الأرسـتقراطية لم تثنيهم عن طلب المزيد. فأينعت رؤوس الكبـار مـنهم. و أخـذوا يرنـون بأبصارهم نحو مؤسسة القمطية. و دخلـوا فعـلا في صراع مكشـوف مـع القمط رايموند برنجر الأول (*Raimond Béranger Ier*) . نجحوا على إثره في بسط سـلطانهم عـلى القـرى الواقعـة في منطقـة قطلونيـا العليـا. و أسسـوا بهـا مـا يشـبه الكيانـات السياسـية المسـتقلة (*des dominations territoriales autonomes*). بينما فشلوا في تحقيق نجاح مماثل في الحاضرة برشلونة وفي القرى التابعة لأعمالها. ومرد هذا الفشل في نظر بيـير بونـاصي يكمن في قوة سلطة القمط في هذه المناطق و في انضمام سـكان الحـاضرة و فلاحي القرى إلى صفوفه تجنباً للسقوط في قبضة أفراد الأرستقراطية.

والأهم من ذلك هو أن الانتصار الذي حققه القمط في هذه المواجهة شكل منعطفاً حاسماً في مسيرة المؤسسات السياسية والبنيات الاجتماعية في قطلونيا. فقد خبر رايمند برنجر قوة خصومه، فارتأى أن يتحول من قمـط يشرف على تدبير الشأن العام و يرعى شؤون جميع أفراد المجتمع من

١- Ibid. ,Tome II, p. ٥٣٧. Voir aussi du même auteur Les cinquante mots clefs de l'histoire médiévale, Toulouse, Privat, ١٩٨١, p. ٢٧ et p.٨٦.

خاصة وعامة إلى قائد للارستقراطية. فكان هذا التحول يعني بالنسبة لبيير بوناصي دخول قطلونيا في " عصر الفيودالية "[1]. حيث غدت الروابط الفيودو – فصلية هي أساس العلاقات بين الأقماط الذين تعاقبوا على إدارة قطلونيا و كبار أفراد الأرستقراطية. وقد تميزت هذه الروابط بكونها كانت تتم أمام الملأ في

طقوس و مراسيم خاصة. ثم أصبحت منذ سنة ١٠٤٠ تتم عبر مواثيق أو عقود(*les convenientiae*).[2] فكان كل واحد من كبار الأرستقراطية يبرم عقدا مع القمط؛ بوصف الأول فصلا والثاني سنيورا. وبموجب هذه العقود كان يتم تحديد واجبات وحقوق كل طرف من طرفي العقد. وقد تزايد عدد هذه العقود خلال السنوات الموالية. وواكبتها في تفس الوقت روابط فيودو – فصلية من دون عقود بين المنتمين للشريحة السفلى والمنتمين للشريحة الوسطى في الطبقة الأرستقراطية وكذلك بين هؤلاء والمنتمين للشريحة العليا في نفس الطبقة.

والمحصلة النهائية هي أن شبكة الروابط الفيودو – فصلية بلغت في ظرف لا يتجاوز العقدين بعد سنة ١٠٤٠ مستوى رفيعاً من النضج والتبلور لم يسبق له مثيل في مختلف أقاليم غرب أوربا بما في ذلك الأقاليم الواقعة بين نهري اللوار والراين التي ظلت تنعت حتى مطلع سبعينيات القرن الماضي بكونها مهد الفيودالية.

١- Pierre Bonnassie, La Catalogne…, Op. Cit., Tome II, p. ٦٨٠.
٢- Pierre Bonnassie, « Les conventions féodales dans la Catalogne du XIe siècle », in Les structures sociales de l'Aquitaine , du Languedoc et de l'Espagne au premier âge féodal, Paris,éd. Du C.N.R.S., ١٩٦٩, pp.١٨٧-٢٠٨.

يسمح العرض الوجيز لمضامين المنغرافيات الإقليمية التي اخترناها كنماذج لرصد مظاهر تطور الفيودالية خلال المرحلة الثالثة من مسيرتها بالقول بأن الفيودالية بلغت فعلا مستوى متطورا من النضج بعد سنة ١٠٠٠. **يمكن إجمال تجلياته والأبعاد المترتبة عنه في العناصر الآتية:**

أولاً: تجلى ذلك النضج في تجزئة مطلقة للسلطة؛ التي أصبح يمارسها كل من استطاع إلى ذلك سبيلا من أفراد الأرستقراطية في دوائر ترابية ضيقة لا تتجاوز حدود القرية. فتراجع دور قصور الملوك و مقرات الأقماط. وغدت

القصور القديمة التي كان يملكها أفراد الأرستقراطية، و القصور التي استحدثها نفر منهم، مراكز لاتخاذ القرارات و إصدار الأوامر و ممارسة حق الإلزام الذي تم تسليطه على عموم الفرحين. و استتبع كل ذلك اتساع نطاق شبكة روابط الفصالة التي بلغت خلال هذه المرحلة الثالثة مستوى من الكمال. فأخذت تبرم بمناسبة إقامتها في بعض الأقاليم عقود ومواثيق. كما حدث مثلاً في إقليمي قطلونيا واللانكدوك حيث حلت تلك المواثيق محل الوفاء القائم على القسم في الروابط الفيودو- فصلية. وفي نفس الوقت أصبحت هذه الروابط متمحورة حول الفيف الذي لم يعد متمثلاً في قطعة أرض فقط، بل أصبح كذلك عبارة عن قصور أو حصون كان يمنحها الأقماط أو كبار الملاكين العقاريين لقادة المليشيات العسكرية[1].

١- أنظر في هذا الشأن بيير بوناصي :

Du Rhône à la Galice :Genèse et modalités du réglme féodale,in Structures féodales et féodalisme…, Op.Cit.p. ٣٩ et suivantes.

ثانياً: يبدو أن هذه التحولات كانت بالغة الأهمية حسب الانطباع الذي تتركه قراءة مؤلفات المعاصرين لها[١]. ترتبت عنها نتائج عميقة وشاملة على جميع الأصعدة و المستويات. ولذلك ذهب جورج دوبي، المعروف بكونه أبرز الباحثين الفرنسيين في التاريخ الأوربي الوسيط، إلى نعتها "بالثورة الفيودالية"[٢].

فيما ارتأى باحثون آخرون نعتها "بالانتقال الفيودالي"[٣](*la mutation féodale*).

ثالثاً: انخرطت فيما نسميه بالمرحلة الثالثة من مسيرة الفيودالية مختلف أقاليم غرب أوربا، ولو أن انطلاقة هذه المرحلة تمت هنا وهناك في فترات متفاوتة نسبيا بين كيان سياسي وآخر؛ و أيضاً بين كيانات متجاورة

١- من بينهم راوول كَلابير (Raoul Glaber) أحد أبرز إخباريي العصر الوسيط. ولد سنة ٩٨٥ و توفي بعد سنة١٠٤٧. نقل إلينا معطيات عن تلك التحولات في " تواريخه " التي نشرها فرانسوا كَيزو (Francoit Guizot) باللغة الفرنسية سنة ١٨٢٤ تحت عنوان Chronique de: Raoul Glaber . ثم أعاد موريس برو (Maurice Prou) نشر نصها اللاتيني سنة ١٨٨٦ تحت عنوان Les Cinq livres de ses histoires:. وصدرت بباريس عن منشورات A. Picard

٢- استعمل جورج دوبي العبارة لأول مرة و جعلها عنوان مبحث في كتاب du: féodalisme,Paris,Gallimard, ١٩٧٨,pp.١٨٢-٢٠٥. Les trois ordre ou l’imaginaire

٣- يتعلق الأمر بجون بيير – بولي و اريك بورنازيل اللذان جعلا عبارة " la mutation féodale" عنوانا لكتاب أصدراه سنة ١٩٨٠ و قد سبق أن أحلنا عليه. و الجدير بالإشارة أن مسألة الثورة الفيودالية أو الانتقال الفيودالي ، التي لا يسمح لنا المقام بالتوقف عندها،أثارت نقاشا حادا في أوساط الباحثين خلال السنوات القليلة الماضية. يمكن الاطلاع عليه من خلال العودة إلى المقالات التي نشرتها المجلة الأنجليزية Past and Presentفي العدد ١٤٢ الصادر سنة ١٩٩٤، و العدد ١٥٢ الصادر سنة ١٩٩٦، و العدد ١٥٥ الصادر سنة ١٩٩٧.كما يمكن العودة إلى كتاب دومنيك بارثلمي (Dominique Barthélémy) :

La mutation de l’an mil a-t-elle eu lieu ? Servage et chevalerie dans la France des Xe et Xie siécle,
Paris, Fayard, ١٩٩٧.

كما يمكن العودة إلى بحث لكريستيان لورنسون روزاز (Christian Lauranson Rozaz) تحت عنوان « Le débat sur la mutation féodale :état de la question »:. وهو نص من ١٤ صفحة في صيغة pdf منشور على الموقع www.droit.u-clermont١.fr:

داخل المجال الجغرافي الواحد. ففي غالة نجح أفـراد الأرسـتقراطية في الانفراد بالسلطة في جميع الأقاليم منذ العقد الثاني مـن القـرن الحـادي عشر كما يتضح من منغرافيتي جورج دوبي وجون بيير بولي. أما في انجلـترا فلم يحدث ذلك إلا على نطاق ضيق منذ عهد وليم الفاتح (*Guillaume le Conquérant*). فقد تنامت قـوة بعـض البارونـات. وأقـاموا شـبكة مـن علاقات التبعية. وأصبحت تحت إمرتهم مليشيات عسكرية. ولكنهم ظلوا يحترمون المؤسسة الملكية من خلال تقديم الضـرائب

وتلبيـة نـداء الملـوك حـين يـدعونهم لإبـداء المشـورة أو لخـوض الحروب.[1]

ويبدو أن هذا المسار الخاص الذي سلكته الفيودالية في أنجلـترا هـو الذي حدا ببعض الباحثين إلى إنكار وجود فيودالية بها. بل إن نفـرا مـنهم نادوا بضرورة شطب مفهوم الفيودالية من قاموس اللغة.[2]

١- لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع نحيل القارئ إلى دراستين إحداهما قديمة باللغة الفرنسية و الأخرى باللغة الأنجليزية
صدرت منذ بضع سنوات. وهما :
Charlees Menche de Loise, France et Angleterre, étude sociale et politique, Paris, éd. E. Dentu, ١٨٥٩. et Wilfred Lewis Warrem, The governance of norman and angevin England ١٠٨٦-١٢٧٢, California, Stanford University Press, ١٩٨٧.

٢- تعد الباحثة اليزابيث راش براون (Elisabeth Rash Brown) أبرز من عبر عن هذا الموقف في عدد من أبحاثها و أهمها في هذا المقام مقال :
« The tyranny of construct, feudalism and historians of medieval Europe », The American Historical Review, Vol. ٧٩, No ٠٤, ١٩٧٤, pp. ١٠٦٣-١٠٨٨.

وخلافاً لأنجلترا، ففي شبه جزيرة أيبيريا استطاعت أرستقراطية إقليم قطلونيا أن تفرض وجودها كقوة فاعلة ابتداء من سنة ١٠٦٠ بعد أربعين سنة من الصراع مع سلطة الإقليم ممثلة في شخص القمط.

وقريباً جداً من قطلونيا، في مملكة قشتالة و ليون، لم يستطع أفراد الأرستقراطية الانفراد بالسلطة إلا بعد سنة ١١٠٩ تاريخ وفاة ألفونسو السادس الذي كان يحكم المملكة خلال عهده بيد من حديد.[١]

وعموماً، فقد حدثت التحولات في مختلف كيانات غرب أوربا بعد فترة مخاض صعبة امتدت بين سنتي ١٠٢٠ و ١٠٦٠ أو ١٠٨٠. احتدمت خلالها النزاعات السياسية – العسكرية و الاضطرابات الاجتماعية. فماذا يمكن أن يقال عن ملامح فترة المخاض و ما هي مظاهر التحولات التي انبثقت عنها؟

يستفاد من الأبحاث المنغرافية التي استعرضنا مضامينها و من غيرها[٢]، بأن الفترة المشار إليها شهدت فعلاً حالة احتقان وتوتر عمت مختلف أقاليم غالة كإقليم ماكوني وإقليم بواتو (*Poitou*) وإقليم

١- Marie-Claude Gerbet, La noblesse dans le royaume de Castille, Paris, les publications de la Sorbonne, ١٩٧٩.

٢- يمكن أن نذكر في هذا المقام المنغرافيات الآتية :

Marcel Garaud, Les châtelains de Poitou et l'avénement du régime féodal. XIe-XIIe siècles, Poitiers, éd., Société des Antiquaires de l'Ouest, ١٩٦٧ ;Robert Fossier, La terre et les hommes en Picardie jusqu'à la fin du XIIIe siècle, Paris, B. Nauwelaerts, ١٩٦٨, ٢ Vol. ;Dominique Barthélemy, Les deux âges de la seigneurie banale. Coucy (XIe-XIIIe siècles), Paris, les publications de la Sorbonne, ١٩٨٤ ; Hélène Débax, La féodalité languedocienne XIe-XIIe siècles. Serments, hommage et fiefs dans le Languedoc Trencavel, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, ٢٠٠٣.

بيكارديا (*la Picardie*)؛ وهي أقاليم تقع وسط و شمال غالة وقريبة من مركز السلطة. وحدث الاحتقان أيضا في إقليمي بروڤانسيا و اللانكدوك (*le Languedoc*) الواقعان في الجنوب و البعيدين نسبياً عن مركز السلطة. وحدثت نفس الحالة في إقليم اللاسيوم الايطالي البعيد عن التأثير المباشر للأحداث الجارية في غالة. وكذلك في أقاليم شبه جزيرة أيبيريا التي كان من المفترض أن تظل فيها جميع فئات المجتمع متماسكة، وأيديها في أيدي القائمين على الأمر بها، نظراً لوقوعها بمحاذاة مراكز وجود المسلمين الذين كانوا يهددونها باستمرار.

وعموماً، فان العنف أصبح منذ مطلع القرن الحادي عشر سلوك أفراد المجتمع عامته و خاصته. وكأنهم استشعروا جميعا بأن حدثا ما يلوح في الأفق كان يجب الاستعداد له. ما هو ذلك الحدث الذي كان يلوح في الأفق؟ أنه باختصار النهضة الاقتصادية التي بدأت مقدماتها منذ مطلع القرن التاسع[١]،

والتي ستتجلى في صورة أوضح بعد سنة ١٠٢٠ . وستستمر حتى حوالي سنة ١٣٢٠ . فقد أحس الفلاحون الذين بذلوا جهودا مضنية في استصلاح الأراضي و توسيع المساحات الصالحة للزراعة، بأن عوائق توضع أمامهم لمنعهم من الاستفادة من ثمار تلك النهضة. أما أفراد الأرستقراطية فأرادوا استباق الأحداث للاستفادة منها. ولذلك شرعوا في وضع "المسالك" و "القنوات" التي ارتأوا أن تعبرها النهضة الآتية.

١- عن مقدمات النهضة الاقتصادية أنظر كتاب جورج دوبي :
Guerries et paysants.VIIe-XIIe siècles. Premier essor de l’économie européenne, Paris,Gallimard,١٩٧٣.

وهكذا بدأت في أوساط الفلاحين إرهاصات الحركات الاحتجاجية التي ستندلع بعنف، متخذة تارة شكل حركات دينية كالحركات الهرطقية (*les hérésies*)[1] وتارة شكل انتفاضات اجتماعية عارمة.[2] اندلع بعضها بين سنتي ١٠٠٠ و ١٣٢٠، أي خلال العصر الوسيط الأوسط. بينما اندلعت سلسلة انتفاضات أخرى منذ سنة ١٣١٥ أو ١٣٢٠ واستمرت طيلة العصر الوسيط الأسفل؛ متزامنة مع الكوارث الطبيعية والديمغرافية والحروب التي شهدتها أقاليم غرب أوربا خلال هذه الفترة

أما أفراد الأرستقراطية، الذين يهمنا أمرهم في هذا المقام، فقد بدأوا يتلكئون في تقديم الولاء للأقماط كما رأينا في ما مضى. وأخذت العلاقات بينهم و بين الأقماط تميل نحو التشنج. ينطبق هذا الأمر أيضا على نفر من أفراد الأرستقراطية الذين ينتمون لأسر عريقة، والذين كانوا يشاركون في ممارسة السلطة في القرى بتفويض من الأقماط أو بتفويض مباشر من

١- أنظر عن هذه الحركات كتاب :

Régis Blanchet, Les hérésies médiévales face à l’inquisition, Paris, éd., du Prieuré, ١٩٩٥, ٢ Vol. et

و كتاب :

André Vauchez et Robert Fossier, Histoire du Moyen Age, Tome II (Xe-XIe siècles), Paris, A. Colin, ٢٠٠٥.

٢- تناول عدد كبير من الباحثين الانتفاضات الاجتماعية التي شهدها الغرب الأوربي خلال العصر الوسيط الأوسط و العصر الوسيط الأسفل. يمكن العودة إلى المؤلفات الآتية على سبيل المثال لا الحصر :

Rodney Howard Hilton, Bond men made free, medieval peasant movements and the English rising of ١٣٨١, London, éd., Maurice Temple Smith, Ltd.,١٩٧٣. ; Laurent Feller, Paysans et seigneurs au Moyen Age, VIIIe-Xve siècles, Paris, A. Colin, ٢٠٠٧. ; Flaran, Les luttes anti-seigneuriales dans l’Europe médiévales et moderne (Actes de journées d’études tenues à l’abaye de Flaran),Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, ٢٠٠٩.

الملوك. فقد أصيبوا هم الآخرين بالعدوى. وبموازاة هذه التطورات أخذ الفساد ينخر جسم مؤسسة القمطية. وتفشت الضغائن و الدسائس بين الأقماط و مساعديهم كما حدث في إقليم قطلونيا وفي قمطية اللانكدوك مثلاً حسب الإفادات التي يقدمها لنا كل من بيير بوناصي[1] وهلين ديباكس (*Hélène Débax*)[2] في الموضوع. وسرعان ما كانت هذه المشاكل تتحول إلى صراع مكشوف.

ومن البديهي في مثل هاته الحالة أن ينضم أرستقراطيون لهذا الطرف وآخرون لذاك الطرف. ثم يحدث الاقتتال.

والراجح أن هذه الظاهرة لم تقتصر على إقليمي قطلونيا و اللانكدوك، بل حدث ما يشبهها في أقاليم و قمطيات أخرى كما يتضح من المنغرافيات الإقليمية التي سبق أن أحلنا عليها. حيث خصص مؤلفوها صفحات مطولة للحديث عن الوقائع و الحروب التي دارت رحاها بين أفراد الأرستقراطية. إما بسبب اختلاف المواقف من مؤسسات القمطية و من شخص القمط ، أو لأسباب ودواعي مختلفة. وإن أهم ما يمكن استخلاصه من وراء هذا الحديث هو أن

١- Pierre Bonnassie , La Catalogne…, Op.Cit. Tome II, p.٥٣٩ et suivantes. Voir aussi les pages ٥٧٥-٥٨٠.

٢- Hélène débax, La féodalité languedocienne…, Op.Cit., pp. ٢٣٣-٢٦٨.

وقائع الحروب لم تعد تجري فقط على مستويات جهوية أو إقليمية كما كان يحدث في الماضي، بل أصبحت كذلك عبارة عن وقائع شبه يومية تحتدم على المستوى المحلي. أي في حدود القمطية، وأحياناً في حدود القرية الواحدة على مشارف القصر أو الحصن.

وانطلاقاً من هذا الاعتبار ذهبت دومنيك بارثلمي (*Dominique Barthélemy*) إلى القول بأن الحروب و عمليات القرصنة و عمليات السلب والنهب (*les rapines*) وجميع أشكال العنف الأخرى غدت بعد مطلع القرن الحادي عشر إحدى ظواهر المجتمع الأوربي.(١) بينما ذهبت هلين ديباكس إلى التأكيد بأن العنف غدا أحد مكونات الفيودالية.(٢)

وكان من الطبيعي في مثل هاته الأجواء أن يتصدر حملة السيف واجهة الأحداث. فعليهم أخذ يعول أفراد الأرستقراطية في خوض الوقائع الدائرة بين بعضهم؛ أو الدائرة بينهم و بين الأقماط. وعليهم كذلك أخذ يعول أفراد الأرستقراطية لإخماد انتفاضات الفلاحين. ومن ثم، تكاثرت المليشيات العسكرية التي كانت عبارة عن فرق تتشكل من فرسان (*les milites*) ومن محاربين مرابطين في الحصون (*les milites castri*). وقد قدر بيير بوناصي بأن الفرقة الواحدة من تلك المليشيات كانت تتألف أحياناً من مائة محارب.(٣) وفي

١- Dominique Barthélemy, Les deux age de la seigneurie banale…, Op.Cit., pp. ٥٣٩-٥٤١.

٢- Hélène Débax, La féodalité…, Op.Cit., p. ٢٣٣

٣- Pierre Bonnassie, « du Rône à la Galice genése et modalité du régime féodale », in Structures féodales et féodalisme…, Op.Cit. p. ٣٢. Voir aussi du même auteur, Les milites en pays d' Oc au XIe siècle, dans son recueil d'articles intitulé : Les sociétés de l'an mil un monde entre deux ages, Bruxelles, De Bœck Université, ٢٠٠١, p.٤٥٣ et suivantes.

نفــس الســياق خلــص فليــب دوران (*Philippe Durand*)[1] إلى القول، بعد تحريـات ميدانيـة، بـأن عـدد المحـاربين المـرابطين في القصـور المنتشـرة هنا وهناك في غرب أوربا كان مختلفاً، ولكنه كان يصل عمومـاً إلى المائة محارب. ولكن هذا العـدد كـان يرتفـع تبعـاً للظـروف والمسـتجدات العسكرية.[2] ومن هنا نستطيع أن نتصور بأن مجمـل عـدد المحـاربين كـان يقدر بالآلاف. بعضهم كان يحارب تحت إمرة الأقـماط ،و بعضـهم الآخـر تحت إمرة المؤسسات الدينية، وبعضهم تحت إمرة كبار الملاكين العقـاريين. وكانت تربط بين كل واحد منهم وبين سيده القمط أو المؤسسـة الدينيـة أو الأرستقراطي روابط فيودو – فصلية. كانت تقضـي بأن يقوم بخدمة سيده السنيور٣ مقابل قطعة أرض (الفيف).

ومن المفيد الإشارة إلى أن خصوصـيات المرحلـة اقتضـت في بعـض القمطيات لجوء أفراد الأرستقراطية إلى الوسائل السلمية لفـض النزاعـات القائمة بينهم والتحالف لمجابهة التحـديات المشـتركة، وأهمهـا انتفاضـات الفلاحين. لذلك نشأت في تلك القمطيات، إلى جانب الـروابط الفيـودو- فصلية التي تربط بين كل سنيور وأفصـاله، روابـط فيـودو – فصـلية بـين بعض "السنايرة"، وخاصة بين متوسطي وكبار الملاكين العقـاريين أو بـين هؤلاء والبابوية كما حدث مثلاً في قمطية بروڤانسيا أو في إقليم اللاسـيوم. ويبدو أن هذه الروابط تجاوزت مستوى "المجموعات"ونحت نحو

١- Philippe Durand, Le château fort, Paris, éd., J.P. Gisserot, ١٩٩٩.

٢- Ibid., p. ٨.

٣- كانت الخدمة العسكرية (ما يسمى بالفرنسية le servisse d'ost)تمثل أهم خدمة على الإطلاق.

"المركزية" في إقليم قطلونيا. فقد استطاع قمط برشلونة ريموند برنجر الأول أن يحسم سنة ١٠٧٠ الصراع الدائر بينه و بين الأرستقراطية المحلية لصالحه. فلجأ إلى"ترويض" الروابط الفيودو – فصلية القائمة بين أفراد الأرستقراطية والمليشيات التابعة لهم

بان سخر تلك الروابط لحسابه من خلال إقامة شبكة علاقات تبعية. وضع نفسه على رأسها، فغدا بذلك " سنيور السنايرة ". وتفادياً لأية ردة من جانب أحد عناصر الشبكة اقترح إبرام عقود أو مواثيق (*convenenientiae*) بينه وبين أفراد الأرستقراطية.[1] منح بمقتضاها لهؤلاء "أفيافا" تمثلت في قطع أرض وحصون نظير الالتزام بولائهم للقمط واحترام مؤسسات القمطية. و كأنه بهذا الإجراء ألهم الملوك و الأمراء الذين حكموا الكيانات المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا بعد القرن الثاني عشر. إذ أرسوا هم الآخرين حكمهم على العناصر الثلاث: الفصالة والفيف والمواثيق التي غدت هي العناصر الأساسية المعتمدة في الحكم وتدبير الشأن العام.

ويبدو أن هذا الإجراء كان ناجعاً ومنسجماً تماماً مع ما كان يعتمل في الواقع. بدليل أن بعض القائمين على الأمر في فرنسا " مهد الفيودالية " تبنوه هم الآخرين خلال القرن الثالث عشر و حتى أواخر القرن الموالي.

١- Pierre Bonnassie, « Les conventions féodales… », contribution déjà citée.

فبعد هذا التاريخ بدأ الوهن يدب في أوساط الأرستقراطية من جراء المصاعب الاقتصادية – المالية التي تفاقمت منذ سنة ١٣١٧ [١]. وتـداعيات حرب المائة سـنة التـي انـدلعت منـذ سـنة ١٣٣٧؛ بالإضـافة إلى طـاعون ١٣٤٨-١٣٤٩. فهيأت هذه العوامـل الظرفيـة المواتيـة لتشرـع "الدولـة" مجدداً في استعادة هيبتها على أسس قومية هذه المرة.

فكان ذلك يعنـي بدايـة تـلاشي الفيودالـيـة رغـم أن بعـض تجلياتهـا القانونية والمؤسساتية ظلت مستمرة في فرنسا "مهد الفيودالية " حتى سـنة ١٧٨٩. ولذلك ذهب جمهرة من الباحثين إلى نعت الثورة الفرنسية بكونهـا "ثورة ضد الفيودالية " (*une révolution anti-féodale*)[٢].

١- أنظر ما ذكرناه في مقدمة هذا البحث. و لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى كتاب گي بوا (Guy Bois) :

Crise du féodalisme, Paris, Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, ١٩٧٦.

و كتاب رودني هلتون (Rodney Howard Hilton) :

Class conflict and the crisis of feudalism.Essays in medieval social history, London, The Hambledon Press, ١٩٨٥.

٢- يمكن العودة بخصوص هذا الموضوع إلى الكتابين الآتيين :

L'abolition de la féodalité dans le monde occidental, (actes du colloque international tenu à Toulouse entre le ١٢ et le ١٦ novembre ١٩٦٨), éd., du C.N.R.S.,Paris, ١٩٧٢, ٢ Vol. et John Markoff, The aboli-tion of feudalism. Peasants, Lords and Legislations in the French Revolution, Pensylvania, The Pensylvania University Press, ١٩٩٦.

الفصل الخامس
الحروب والصراعات الدينية داخل أوروبا

١. **الحروب الدينية في فرنسا (١٥٦٠–١٥٩٨):**

استمرت الحروب الدينية في فرنسا زهاء أربعة عقود متتالية، خلال القرن السادس عشر. فقد اشتعلت سنة ١٥٦٠ ولم تنته إلا في سنة ١٥٩٨ .بدأت بمؤامرة حيث كان يقع قصر الملك الفرنسي فرانسوا الثاني.

✍ **حسب موسوعة الحروب، فإن الحروب الدينية في فرنسا أدت إلى مقتل ما بين ٢ إلى ٤ مليون نسمة.**

- **مؤامرة أمبواز** (١٥٦٠):

حاول الكليفينيون (جماعة بروتستانتية) أن يخلعوا الملك فرانسوا الثاني (كاثوليك) لتنصيب ملكاً أخر.في ١٧ مارس ١٥٦٠ جمع عقائدهم ٥٠٠ فارس في قصره استعداداً لبدء الهجوم.ابلغ أحدهم عن الخطة ، فقام جيش ملك فرنسا بتطويقهم وقتلهم داخل قصر شاتو-رينو إلا أن مائة منهم تمكنوا من الفرار والتحصن في قصر أخر شاتو-موزاي.وعدهم الملك بالعفو إن استسلموا ولكن بعد الاستسلام قام بشنقهم جميعا[أ] "أما قائد العملية الذي كان قد قُتل في المعركة فتم شنق جثته وقطع الرأسعلى جسر أمبواز.

- **الحرب الدينية الأولى** ١٥٦٢-١٥٦٣:

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز أحداثها مجزرة واسي، التي حصلت في الأول من مارس ١٥٦٢ حيث قتل رماة

السهام التابعين لدوق دي غيز الكاثوليكي ٧٠ بروتستانتيا وجرحوا ٢٠٠ مجتمعـين في إحـدى المـزارع، يسـتمعون لـوعظ أحـد المبشرـين البروتستانت .أبرز أحداث عام ١٥٦٣

هي التوقيع على اتفاقية سلام، سمحت السلطات الملكيـة بموجبهـا بإقامة شعائر البروتستانت داخـل قصـور النـبلاء فقـط، دون الانتشـار في الأحياء الشعبية وأوساط الحرفيين.

جاء عنها في موسـوعة قصـة الحضـارة:طلب الفريقـان المعونـة مـن الخارج وحصلا عليها، الكاثوليك من أسبانيا، والبروتستنت مـن إنجلـترا وألمانيـا، فأرسـلت اليزابـث ٦.٠٠٠ رجـل إذ أغراهـا وعـد البروتسـتنت بإعطائها كالية، واستولى ٢.٠٠٠ منهم على روان، ولكن جيز انتزع المدينـة ونهبها (٢٦ أكتـوبر ١٥٦٢)، ونهـب جنـده المتعطشـون للغنيمـة السـكان الكاثوليك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأي فريق.

- **الحرب الدينية الثانية ١٥٦٧ -١٥٦٨:**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليـك، ومـن أبـرز الأحـداث المحاولة الفاشلة للبروتستانت للاستيلاء على مدينة باريس عام ١٥٦٧. في عام ١٥٦٨ تم الاتفاق على شروط سلام مماثلة لشرـوط أمـبروز ويضـاف عليها الاعتراف بمدينة لاروشيل في شمال فرنسا كمدينـة تابعـة للمـذهب البروتستانتي .عُرفت هذه الاتفاقية باتفاقية لونجومو.

• الحرب الدينية الثالثة ١٥٦٨-١٥٧٠

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك ، ومن أبرز الأحداث هزيمة البروتستانت في منطقة جرناك حيث قُتل أمير آل كوندي . وهزيمة مونكونتور البروتستانتية، تبعها اتفاق قضى باعتراف البروتستانتية رسمياً في فرنسا والاعتراف لها بالنفوذ الشرعي في أربع مدن كبرى. غير أن مجزرة سان بارتيليمي

التي طالت عدداً كبيراً من البروتستانت في فرنسا بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ عادت فأشعلت الصراع مرة ثانية.

مجزرة سان بارتيملي (موسوعة قصة الحضارة):

وإذا كان المتآمرون (كاثوليك) قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت (بروتستانت)، فإنهم اغتنموا الآن فرصة هذا الأمر المجنون الذي نطق به الملك ليستأصلوا شافة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك. الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق في الثالثة من صباح ٢٤ أغسطس، وهو عيد القديس بارتولوميو. وأرسل هنري جيز (القائد) كلمة إلى ضباط المليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتي يعثرون عليه؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب.

وبينما كان الظلام لا يزال مخيماً قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندي إلى المبنى الذي ينام فيه كوليني (زعيم البروتستانت). وكان على مقربة منه باريه طبيبه، وميرلان سكرتيره، ونيقولا خادمه. وأيقظهم وقع أقدام جند

مقبلين، ثم سمعوا طلقات وصياح- كان حرس كوليني يقتلون. واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح "لقد قضي علينا! " وأجاب الأميرال: "إنني اعددت نفسي للموت منذ زمن طويل، فأنقذوا أنفسكم، لا أريد أن يلومني أحباؤكم على موتكم. أستودع روحي لرحمة الله". وهربوا واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كوليني راكعاً يصلي، وطعنه جندي بسيفه وشق وجهه، وطعنه آخرون، ثم قذف من النافذة وهو حي بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمي جيز. وبعد أن تأكد

الدوق من موت كوليني أمر رجاله بأن ينتشروا في باريس ويذيعوا هذه العبارة "اقتلوا! اقتلوا! هذا أمر الملك" وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر- وقيل إلى روما، أما الجسد فسلم للجماهير التي مثلت به تمثيلاً وحشياً فقطعت الأيدي والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع، وعلقت بقيته من عرقوبيه.

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشيء من الندم أو الخوف. وكان الجواب أن الأوان فات، أما وقد مات كوليني. فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون. وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر. وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى في جنون الحرب، واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل. فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عدداً يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف، ذكر السفير الأسباني في تقريره "إنهم يقتلونهم جميعاً وأنا أكتب هذا، إنهم يعرونهم. ولا يعفون أحداً

حتى الأطفال. تبارك الله! " أما وقد أصبح القانون ذاته خارجاً على القانون، فقد انطلق السلب والنهب في غير قيد، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا في نهب العاصمة. والتمس منه بعض المواطنين المروعين عندما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن. فأصدر الأوامر بوقف المذبحة، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستنت حماية لهم؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء، وأغرق غيرهم بأمره في السين. وهدأت المذبحة هنيهة. ولكن حدث في يوم الاثنين

الخامس والعشرين من الشهر، أن شجيرات الشوك البري أزهرت في غير أوانها في مقبرة الأطفال؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة، وقرعت أجراس الكنائس في باريس احتفالاً به، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة، فأستؤنف القتل من جديد.

وفي يوم السادس والعشرين ذهب الملك في موكب رسمي هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترقاً الشوارع التي ما زالت الجثث مبعثرة فيها، وشهد لبرلمان باريس في فخر بأنه أمر بالمذبحة.

وحسب جاك دتو ٨٠٠ ضحية في ليون، ١.٠٠٠ ضحية في أورليان. أما الملك فقد شجع هذه الإبادة، ثم نهى عنها، ففي السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت، وفي السابع والعشرين أرسل اليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسالمين الممتثلين للقانون. وأغلب الظن أن الاقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية، وباريس بنحو ألفين، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف إلى ثلاثين ألفا". وأغضى الكاثوليك

عموماً عن المذبحة باعتبارها انفجاراً للغيظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك. أما فليب الثاني فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا في الأراضي المنخفضة. أما الممثل البابوي في باريس فكتب إلى روما يقول: "أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن يد الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيهاً غاية في التوفيق والنبل، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء

بكثير من الحكمة، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص. " وحين وصل النبأ إلى روما نفح كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طرباً. وسرعان ما أضيئت روما كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو، وقرعت الأجراس في ابتهاج، وحضر جريجوري الثالث وكرادلته قداساً مهيباً لشكر الله عليهذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم. وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكاراً لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم- وعهد إلى فازاري بأن يرسم في الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة- "البابا يوافق على قتل كوليني.

- **الحرب الدينية الرابعة ١٥٧٣ - ١٥٧٤:**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث الحصار الذي ضربته القوات الكاثوليكية على مدينة لاروشيل ، معقل البروتستانت ، ثم الإتفاقية التي عُقدت في هذه المدينة مكررة نقاط الاتفاقيات السابقة (أمبواز ولونجومو) وقد تم رفع الحصار العسكري بعد التوقيع على الاتفاق الجديد بتاريخ ٢٤ يونية ١٥٧٣ .غير أن المعارك استمرت في جنوب البلاد ، في منطقة لانغ دوك ، وفي ٢٩ مايو ١٥٧٤ تم التوصل إلى اتفاق بعد هزيمة البروتستانت.

- **الحرب الدينية الخامسة ١٥٧٦ :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك ، ومن أبرز الأحداث التوصل إلى اتفاقية بعد عدة معارك دامية ، كان من بنود الاتفاقية (٧٣ بنداً).

- حرية الممارسة الدينية البروتستانتية في الريف والمدن الفرنسية.
- تسليم السلطة للبروتستانت في ٨ مدن رئيسية عبر البلاد.

- **الحرب الدينية السادسة ١٥٧٧ :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث استيلاء أخ الملك على مركز لاشاريتي، المركز البروتستانتي العام بتاريخ ١ مايو ١٥٧٧، ثم تم عقد اتفاقية بعدها عرفت باتفاقية بيرجوراك في ١٥ سبتمير ١٥٧٧ وتسمح هذه الاتفاقية للبروتستانت بإقامة شعائرهم الدينية في جميع أنحاء المملكة.

- **الحرب الدينية السابعة ١٥٨٠ :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث استيلاء هنري دو نافار على مدينة كاهور في ٣٠ مايو ١٥٨٠ ، ثم عقد اتفاقية سلام في فليكس بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٥٨٠.

- **الحرب الدينية الثامنة ١٥٨٥ -١٥٩٨ :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك ، ومن أبرز الأحداث انتصار البروتستانت في معركة كوتراس في ٢٠ نوفمبر ١٥٨٧. في سنة ١٥٨٨ حدثت انتفاضة شعبية ضد الملك هنري الثالث، وبعد قمع الانتفاضةتحالف الملك هنري الثالث مع قائد البروتستانت هنري دو نافار وقاموا بمهاجمة وحصار باريس التي انتفضت مرة ثانية.تم اغتيال الملك هنري الثالث و رفض جنوده الكاثوليك قيادة هنري دو نافار الذي تم تتويجه ملكاً للبلاد باسم (هنري الرابع) بعد أن تحول للكاثوليكية.

الحروب الدينية لم تنته فعلا" إلا بعد توقيع اتفاقية نانت في ١٥ أبريل ١٥٩٨ التي اعترفت بحرية المعتقد في فرنسا.

٣. <u>الحروب الدينية في ألمانيا – حرب الثلاثين عاما" – ١٦١٨-١٦٤٨:</u>

أصدر الأمبراطور الهبسبورجي الألماني رودولف الثاني عام ١٦٠٩، ما يسمى بالرسالة السامية، وكانت تسمح هذه الرسالة للبروتستانت التشيكيين بتشييد المعابد وبنشر دعوة مارتن لوثر للبروتستانية بكل حرية.

- أثارت هذه الرسالة غضب الكاثوليك الذين كانوا يمسكون بزمام الأمور السياسية في الإمبراطورية الجرمانية.

- أمـر مطـران بـراغ الكـاثوليكي في مـارس ١٦١٨ بتـدمير معبـد بروتستانتي كان قد شُيد قبل سنة بموجب قانون الرسالة السامية.
- انتفض على الحادث بروتستانت بوهيميا كلها وعقدوا اجتماعـات برلمانية، حضر فيها ممثلي السلطة الكاثوليكية في مايو ١٦١٨ .
- تقرر في الأجتماع رمي مندوبي الإمبراطور الكـاثوليكي مـن نوافـذ الأطباق العليا، مما تسبب بوفاتهما.
- تخلى الإمبراطور عن رسالة التسامح التي كـان قـد أصـدرها مـن قبل.
- انقسم رعايا الإمبراطورية بين مناقض لرسالة التسامح و مؤيد لها.
- تابع البروتستانت تنظيم طاقاتهم في ألمانيا فبادروا إلى تنظيم دستور جديد لمملكة بوهيميا عام ١٦١٩، كما انتخبوا لأنفسهم ملكاً جديداً لهم بروتستانتياً ووهو الأمير فريدريك الخامس.
- في نفس الأثناء، تم تنصيب فرديناند الثاني، الكاثوليكي، أمبراطوراً لجرمانيا كلها والتي من ضمنها مملكة بوهيميا.
- عمد فرديناند إلى استعادة مملكته من الملك البروتستانتي ، فاستعان لهذا الغرض بالعصبة الكاثوليكية الذين كانوا يحكمون في أسبانيا.
- استعان البروتستانت بالعصبة الإنجيلية (البروتستانتية) التي كانت تضم هولندا والدانمارك وبريطانيا.

- في الثامن من نوفمبر عام ١٦٢٠ انتصر الإمبراطور فرديناند الثـاني بحالفه الجيش الأسباني الكـاثوليكي عـلى بروتسـتانت بوهيميـا في معركة الجبل الأبـيض، وتمـت مصـادرة أمـلاك ملكهـم فردريـك الخامس.
- بـادر الملـك كريسـتيان الخـامس الـدانمركي البروتسـتانتي ،عـام ١٦٢٥، إلى منــاصرة البروتســتانت الألمــان فاحتلــت جيــوش الدانمرك المنطقة الشمالية من الإمبراطورية الجرمانيـة حيـث كـان يكثر السكان البروتستانت.
- عام ١٦٣٠ و بتشجيع من فرنسـا وروسـيا، دخـل ملـك السـويد غوستافادولف إلى الأراضي الألمانية لدعم البروتستانت.
- شمل جيش السويد ٣٠ ألف جندي مشاة و ٦ آلاف خيال و ١٠٠ مدفع.، ازدادت القوات حتى بلغت في نهاية الحرب عام ١٦٤٧ ما يقرب من ١٧٠ ألف جندي معظمهـم مـن البروتسـتانت الألمـان والسويسريين.
- في ٢٤ أكتوبر عام ١٦٤٨ تم توقيع اتفاق وستفاليا للسـلام، ومـن ضمن بنوده الاعتراف بحرية الاعتقاد والعبادة للبروتستانت.
- نتيجة لإحراق المدن و القرى وقتـل المـدنيين، أدت الحـرب لمقتـل حوالي ٤٠ ٪ من سكان الريف وحوالي ٣٠ ٪ من سكان المدن.

✍ **حسب موسوعة الحروب يقدر عدد القتلى من ٣ إلى ٨ مليـون**

جاء في موسوعة قصة الحضارة:

"هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ إلى ١٣.٥٠٠.٠٠٠ . وبعد عام أفاقت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم.

ففي مؤتمر فرانكونيا المنعقد في فبرايـر ١٦٥٠ بمدينـة نـورمبرج اتخذوا القرار الآتي:-

"لا يقبـل في الأديـار الرجـال دون السـتين... وعـلى القساوسـة ومسـاعديهم (إذا لم يكونـوا قـد رسـموا)، وكهنـة المؤسسـات الدينيـة، أن يتزوجوا... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويذكر كل رجل تذكيراً جدياً، وينبه مراراً من منبر الكنيسة، إلى التصـرف على هـذا النحـو في هـذه المسألة".

٣. <u>إخضاع إنجلترا لايرلندا:</u>

❀ عمد الملك الإنجليزي هنـري الثـامن إلى محاولـة إخضـاع أيرلنـدا دينياً بفرض المذهب البروتستانتي اعتباراً من ١٥٣٦ إلا أن سكان الجزيرة رفضوا وبقوا متمسكين بالمذهب الكاثوليكي.

- حاول ملوك إنجلترا محاربة الكاثوليكية من خلال تنظيم عمليات استيطان إنجليزية –بروتستانتية في قلب الجزيرة وفي سنة ١٥٥٩ أُنشئت أول مستوطنة إنجليزية على الجزيرة.
- استغاث الايرلنديون بالأسبان (الكاثوليك) ، فذهب الأسطول الأسباني لمساعدة الأيرلنديين في الصراع المذهبي مع إنجلترا، هاجم الأيرلنديون سكان المستوطنة وقتلوا البعض وهجروا الآخرين.
- جهز البريطانيون جيشا" وانتصر على الأيرلنديين والأسبان في معركة كينسال سنة ١٦٠١ - أسست السلطات الإنجليزية العديد من المزارع الإنجليزية على الجزيرة اعتبارا" من سنة ١٦٠٧ وقامت بتوطين رعاياها البروتستانت في هذه المزارع التي صادرتها من الإيرلنديين الكاثوليك.
- بلغ عهد المستوطنين بعد ٢٠ عاماً مائة ألف نسمة تم زرعهم داخل الجسم الأيرلندي.
- في ١٦٤١ هاجم الأيرلنديون المستوطنين الإنجليز وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ثم أعلنوا إنشاء فيدرالية كاثوليكية مستقلة.
- سنة ١٦٩٠ وبعد حرب طويلة بين الإيرلنديين (الذين استعانوا بالاسكوتلنديين) هاجم الجيش الإنجليزي القوات الايرلندية في لابوين وانتصر عليهم في ١٢ يوليو ١٦٩٠.
- صادرت إنجلترا بعد ذلك المزيد من الأراضي لصالح مستوطنين إنجليز جدد.

- حدثت مجاعة في الجزيرة شتاء ١٧٣٩-١٧٤٠ خلفت ٤٠٠ ألف ضحية من الأيرلنديين.
- أسس أحد المحامين جمعية الإيرلنديين المتحدة القائلة بوحدة البروتستانت والكاثوليك على أرض الجزيرة وبالاستقلال التام عن بريطانيا عام ١٧٩١. وقد انبثق الجيش الجمهوري الأيرلندي من هذه الجمعية.
- حدثت مجاعة أخرى في الجزيرة شتاء ١٨٤٥- ١٨٤٦ ذهب ضحيتها ٧٠٠ ألف شخص. كما هاجر بسببها إلى أميركا ٨٠٠ ألف شخص آخر.

٤. حرب البوسنة:

- الحرب الأولى ١٩٤١ - ١٩٤٥:

في الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥ وتحت مظلة الاحتلال الألماني النازي ليوغسلافيا أباد الكروات الكاثوليك ٤٠٠ ألف صربي أرثوذكسي إضافة إلى ٣٥ ألف يهودي و ٢٥ ألف غجري، كلهم من أهل البلاد ومن سكانها الشرعيين.

تفصيل الأحداث:

بعد أن انتصرت جيوش هتلر على جيش المملكة اليوغوسلافية في أبريل ١٩٤١ أنشأت السلطات الألمانية دولة كرواتيا المستقلة على كامل الأراضي السلافونية والكرواتية والبوسنية وقسم من إقليم فويفودين. وأسندت قيادة هذه الدولة للفاشي الكرواتي "انتي بافيليتش". الذي كان زعيماً لميلشيا "الأوستاشي". كانت الدولة تضم ٣ مليون كرواتي وأقل من ٢ مليون صربي

و٧٠٠ ألف مسلم و ٤٠٠ ألف من الأقليات المتفرقة.

تصور الجيش الوطني الكرواتي الكاثوليكي (على أساس نظرية أنتي ستارفيتش رئيس الدولة) هو: "أن الصرب الأرثوذكس دخلاء على الأمة، وأن المسلمين هم أقدم نبالة كرواتية أسلم أصحابها في القرن السادس عشر". وضعت الحكومة الجديدة الصرب أمام خيارات ثلاثة: إما اعتناق المذهب الكاثوليكي، وأما الهجرة الطوعية أو التهجير، وأما الإبادة الجسدية بحسب تصريح وزير الخارجية الكرواتي ميلوفان زانتيش في مايو ١٩٤١.

وحسب الوثائق المحفوظة في أرشف مدينة بانيالوكا (البوسنية حالياً) والوقائع التي أوردتها، مطلع التسعينات المؤرخة الكرواتية فيكريتا جيليتش: في ٢٧ و ٢٨ أبريل ١٩٤١ قُتل ١٤٨ مزارعاً صربياً رمياً بالرصاص في قرية غودوفاك ، وفي قرية بلاغاج قُتل ٢٥٠ صربياً رمياً بالرصاص أيضاً .في ١١ و١٢ مايو قُتل ٣٠٠ صربياً في مدينة غلينيا رمياً بالرصاص.أما في ٢ يونية ١٩٤١ فقد بدأت الجازر في قلب مدينة البوسنة، ففي قرية ليوبيني قُتل ١٤٠ مزارعاً صربياً . وفي ٥ يونية ذُبح ١٨٠ مزارعاً صربياً في قرية كوريتا. ثم في ٢٣ يونية قتل ٢٤٠ رجلاً وامرأة وطفلاً صربياً في قرى متفرقة.وفي ٢٥ يونية، في منطقة ستولاك ، ذُبح ٢٦٠ صربياً. في ٣٠ يونية، في قرية ليوبوسكو، قُتل ٩٠ صربياً رمياً بالرصاص.

بعدها بدات عمليات خطف لمزارعين صرب من القرى المتاخمة للشاطئ الأدرياتيكي فكانوا يُقتادون إلى قرية كنين حيث كانوا يُذبحون توفيراً للرصاص.في يوليو ١٩٤١ بلغت المجازر أوجها، وأصبحت تطال في كل دفعة، آلاف الضحايا.

أنشأت الميليشيات الأوستاشية، اعتباراً من صيف ١٩٤١، مخيمات ترانزيت للمساجين الصرب سرعان ما تحولت إلى معسكرات إبادة في جازينوفاك وجادوفنو وستاراغراديسكا وجاستريباكو.وقد قدرت لجنة كرواتية محايدة، مطلع التسعينات أن بين ٥٠٠ ألف و ٦٠٠ ألف شخص (معظمهم من الصرب) قد قُتلوا ذبحاً في مخيم جازينزفاك .وفي ١٩٤٢، خلال عملية مشتركة للجيشين الكرواتي والألماني، تم تطويق منطقة كوزارا في البوسنة، وقتل عشرات الآلاف من الصرب، رجالاً ونساءً وأطفالاً.كما تم قتل ثلاثة مطارين أرثوذكس وتم إعدام ما يقرب من ٣٠٠ كاهن أرثوذكس وطرد عدد كبير من الذين بقوا أحياءً.

وتذكر التقارير أن ١٧٥ كنيسة أرثوذكسية أُحرقت أو دُمرت في منطقة كارلوفاك وحدها. وفي أبرشية باكراك دُمرت ٥٣ كنيسة ، وفي أبرشية والماتيا دُمرت ١٨ كنيسة. وهكذا دواليك. حتى بلغت الحصيلة النهائية للكنائس الصربية المدمرة بعد ٥ سنوات من الحكم مايقرب من ٤٠٠ كنيسة ودير أرثوذكسي.

حولت الميلشيات هذه الكنائس إلى مستودعات، وبعضها إلى مسالخ لذبح الأبقار وبعضها إلى مراحيض عامة. كما أن الكثير من المدافن الصربية دُمر وفُلحت أراضيه في بانالوكا وكاينيتشي- وبركو وترافنيك وموستار وبوروفو وتنجا وغيرها من البلدان والمدن ذات الأغلبية السكانية الصربية الأرثوذكسية. وقد ترافقت المجازر الكرواتية التي حصلت بين ١٩٤١ و ١٩٤٥، مع عمليات فرض اعتناق المذهب الكاثوليكي على الصرب بالقوة، وكان بطلها

رهبان الفرانسيسكان الكروات الذين رافقوا العسكر خلال تنقلاته، مباركين الأعمال الوحشية للجنود ومساندين لهم في إجبار السجناء الصرب على تغيير المذهب وكان الموت البديل الوحيد المطروح أمامهم.

وإذا كان الصرب يرفضون اعتناق الكاثوليكية راحت تحصل أشرس المجازر، كما حصل في منطقة بانيالوكا في فبراير ١٩٤٢، فيما أُجبر ٢٤٠ ألف صربي على اعتناق الكاثوليكية خلال العامين ١٩٤١ و ١٩٤٢، حسب المؤرخة جيليتش .

- **حرب البوسنة الثانية ١٩٩١ – ١٩٩٥ :**

- في ٢٥ يونية ١٩٩١ تم الإعلان عن استقلال كرواتيا وسلوفينيا بضغط من ألمانيا خاصة والمجموعة الأوربية عامة.
- ابتداء من ٢٧ يونية وحتى ٣ يوليو ١٩٩١ حصل تدخل للجيش اليوغسلافي (حيث الأكثرية صربية) في سلوفينيا فتم احتلالها وتسليمها إلى بعض الميلشيات الصربية المحلية. (ذهب الجيش الفيدرالي وترك السلاح في يد الميلشيات الصربية).

- في الأول من أكتوبر ١٩٩١ شنت بعض وحدات الجيش الفيدرالي هجوماً على شرق كرواتيا وعلى منطقة دوبرفنيك.
- في ١٨ نوفمبر ١٩٩١ تمكن الصرب مـن إسـقاط مدينـة فوكوفـار التي كانـت تشـكل رمـزا" للمقاومـة الكرواتيـة فسـقطت معهـا سلافونيا الشرقية والطرف الشرقي من كرواتيا بين أيدي الصرـب بعد ثلاثة أشهر من الحصار و المعارك الضارية.
- في ٤ فبراير ١٩٩٢ بدأت أول المواجهـات في البوسـنة –الهرسـك في منطقة موستار حيث الغالبية السكانية من الكروات والمسلمين.
- في ٢١ فبراير ١٩٩٢ قررت الأمم المتحدة إرسال ١٤ ألف جنـدي من جنسيات مختلفة.
- في ٢٩ فبرايـر ١٩٩٢ أعلــن النــواب المســلمين والكــروات في جمهورية البوسنة والهرسك تأييدهم لاستقلال البوسنة.
- بـدأ الجـيش الفيـدرالي (التـابع للصرـب) عملياتـه الحربيـة ضـد الكروات والمسلمين على حد سواء. فكان حصاره لمدينـة سراييفـو في ٥ أبريـل ١٩٩٢ والـذي بقـى قـائماً حتـى نهايـة الحـرب عـام ١٩٩٥ .
- في ٦ أبريل ١٩٩٢ اعترفت مجموعـة الـدول الأوربيـة بجمهوريـة البوسنة المستقلة كما اتفق الكروات والمسلمين. أما صرب البوسـنة فقد أعلنوا إنشاء جمهورية صرب البوسنة.

- في ١٣ أغسطس ١٩٩٢ دانت الأمم المتحدة، التطهير الأثني الذي يمارسه الصرب الأرثوذكس ضد المسلمين والتواء (حسب تعبير كتاب معجم الحروب- د.فريدريك) الميليشيات الكرواتية.
- في ٢٦ و٢٧ أغسطس أدان مؤتمر لندن الاعتداء الصربي على دولة البوسنة.
- في ٢٥ مارس ١٩٩٣ وقع المسلمون والكروات على خطة فانس اوين للسلام والتي تقضي بتقسيم البوسنة على أساس أثني. أما الطرف الصربي الذي كان يحتل ٧٠٪ من الأراضي في البوسنة فرفض الخطة لأنها ستجعله ينسحب من حوالي ٢٠٪ من الأراضي التي يحتلها.
- في ١٧ نوفمبر ١أ٩٣ يعلن وسيط الأمم المتحدة تورقالد ستولتنبرج أن حرب البوسنة قد أوقعت ٢٠٠ ألف قتيل في ١٩ شهراً.
- في العام ١٩٩٤ و ١٩٩٥ زاد تدخل قوات حلف الأطلسي ضد الصرب ودائماً كان الرد الصربي قذف المدنيين من أهل البوسنة وزيادة المذابح والاغتصاب للمدنيين .**وكمثال:**
  - ✓ في ٢٥ مايو وبعد ضربات جوية قامت بها قوات الحلف الأطلسي قرب معقل الصرب في بالي، قصفت القوات الصربية مدينة توزلا فتوقع ٧٦ قتيلا".

✓ وبين ١١ و ٢٥ يونية ١٩٩٥ سيطرت قوات صرب البوسنة على جيب سريبرينتسا المسلم (الواقع تحت الحماية الدولية) وفتكت به وبأهله فتكا" وحشياً".

- استمر الحصار واستمرت المجازر الجماعية والاغتصاب والقتل للمسلمين ولبعض الكروات الكاثوليك حتى تم توقيع اتفاق دايتون للسلام في الأول من نوفمبر عام ١٩٩٥، الذي أوقف الحرب.

✍ **حسب موسوعة الحروب فإن قتلى حرب البوسنة من ١٩٩٢-١٩٩٥ حوالي ٢٧٨ ألف قتيل.**

٥. <u>الحرب الأهلية في أسبانيا (١٩٣٦-١٩٣٩):</u>

- نشأت حرب أسبانيا من وقود الفكر الديني فلم يتمكن الأسبان من مجابهة مسائل الحريات الديموقراطية ولا من مواجهة أفكار العدالة الاجتماعية التي طرحت نفسها على باقي الأوروبيين منذ مطلع القرن
- السابع عشر (انتشار المذهب البروتستانتي). فقد بقيت أسبانيا معزولة عن هذا المسار العام عبر الانتماء إلى عالم الأفكار الكاثوليكية والبابوية.
- بدأ الصراع المستميت بين أسبانيا الحمراء (الاشتراكية – الشيوعية) وأسبانيا السوداء (الكاثوليكية التقليدية) اعتباراً منذ ١٩٣٠.
- فاز الجمهوريون على الملكيين في الانتخابات البلدية في ١٢ أبريل ١٩٣١ وانسحب أثر ذلك الملك من الحياة السياسية.

- تم إعلان جمهورية أسبانيا في ١٤ أبريل ١٩٣١.
- في نفس العام تمت الموافقة على مادة في الدستور (مادة ٢٦) تنص على فصل الدين عن الدولة ، وإلغاء الجمعيات الدينية.
- تم تأسيس حزب يميني انضم له غالبية الشباب الكاثوليكي والملكي عام ١٩٣٣.
- حصل الحزب اليميني على الغالبية بالبرلمان.
- حدثت انتفاضة لعمال المناجم في مقاطعة استورياس عام ١٩٣٤ ، قام الجيش بقمعها مخلفاً ١٣٠٠ قتيل و ٣٠٠٠ جريح .
- تمكن اليسار مجدداً من الفوز بالانتخابات في فبراير ١٩٣٦. وعاد الثوري مانول أزانيا إلى رئاسة الجمهورية.
- نظم الجنرال فرانكو انتفاضة وتشابكت الأطراف بسرعة.
- القوى الجمهورية أو الحكومية من جهة ضد القوى الوطنية أو المنتفضة من جهة أخرى.
- انقسم الجيش من طائرات (٣٥٠ طائرة) و مشاة على بعضه.
- من مجموع ٥٠ مقاطعة أسبانية انضم ٢٠ مقاطعة للجمهوريين و ١٦ للوطنيين و بقيت ١٤ مقاطعة مختلطة.
- اشترى الجمهوريون العديد من الطائرات من فرنسا عام ١٩٣٦ والدبابات من روسيا عام ١٩٣٧ من مخزون الذهب المخزن منذ استعمار القارة الأمريكية.
- اشترى الجمهوريون خلال الحرب ١٤٧٥ طائرة من الإتحاد السوفيتي وفرنسا.

- اشترى الوطنيون ١٢٥٣ طائرة من إيطاليا وألمانيا.
- اعترفت دولة الفاتيكان رسمياً بقائد الثورة وبحكومته، الجنرال فرانكو في أغسطس ١٩٣٧.
- استقدمت حكومة الجنرال فرانكو ٦٢٢٧٠ جندياً مغربياً كانوا يعملون في الجيش الوطني الأسباني وضمتهم للمعركة.
- انضم أيضاً ما يقرب من ١٥٠٠٠ جندي وطيار ألماني للجنرال فرانكو.
- قتل خلال حرب أسبانيا ٢٧١ ألمانياً و ٧٠٠٠ مغربي.
- أصدر مطارنة أسبانيا الكاثوليك في الأول من تموز ١٩٣٧ رسالة مفتوحة، وقع عليها ٣٥ مطراناً من مناطق الجنرال فرانكو و ١٢٠٠ مطران أخر في العالم الكاثوليكي، بإيعاز من الفاتيكان يعلنون فيها عن بدء حملة صليبية ضد الجمهوريين.
- رد الجمهوريين بذبح رجال الدين الكاثوليك فقتل في الحرب ٦٨٤٥ رجل دين كاثوليك ، بينهم ١٣ مطراناً و ٤١٨٤ كاهناً و ٢٣٦٥ راهبا" و ٢٨٣ راهبة.

❀ الضحايا ١٥٤ ألف من الجانب الوطني ، و ١٥٢ ألف من الطرف الجمهوري.

✍ **الضحايا حسب موسوعة الحروب ٣٦٠ ألف إلى مليون قتيل.**

الصراعات الدينية والحروب الدموية في أوربا

حرب الثلاثين عامًا(١٦١٨ – ١٦٤٨م):

آخر الحروب الدينية النصرانية المريرة في أوروبا. وقد كان هذا الصراع في الواقع سلسلة من الحروب، بدأت كحرب أهلية بين البروتستانت والرومان الكاثوليك في الولايات الألمانية. ولكن قبل انتهاء الصراع، كانت معظم الدول الأوروبية قد تورطت فيه، وأصبحت الحرب نزاعًا عامًا من أجل الأرض والسلطة السياسية.

- **أسباب الحرب:**

كان السبب الأساسي للحرب العداء المتأصل بين الألمان البروتستانت والألمان الكاثوليك، فالمجموعتان اختلفتا في تفسيرهما لسلام أوجسبرج (١٥٥٥م) الذي كان الغرض منه تسوية المسألة الدينية في ألمانيا. وقد خرقت المجموعتان الصلح.

بالإضافة إلى ذلك، فقد اعترف سلام أوجسبرج بالكاثوليكيين واللوثريين فقط وكان هناك الكثير من الكالفنيين في جنوب ألمانيا الذين طالبوا أيضًا بالاعتراف بهم.

- **الفترة البوهيمية** (١٦١٨ - ١٦٢٠م):

أقـام البروتسـتانت، في عـام ١٦٠٨م، الاتحـاد الإنجـيلي وفي عـام ١٦٠٩م، أسس الكاثوليك العصبة المقدسة.

وقد انطلقت الشرارة التي اشعلت الحرب عندما أمر رئـيس أسـاقفة براغ بتحطيم كنيسة بروتستانتية. ولجأ الناس وهم غاضبون إلى الإمبراطور ماتياس الذي تجاهل احتجاجهم. فانتفض البروتسـتانت ثـائرين. وتعـرف تلك الحادثة التي حددت البداية الفعلية لحرب الثلاثـين عامًـا، في التـاريخ القذف من النافذة في براغ.

وكانت هي عادة قديمـة لـدى النـاس في بوهيميـا لمعاقبـة المـوظفين المذنبين بقذفهم من النافذة. وقد عاقب البروتسـتانت الثـائرون اثنـين مـن وزراء حـاكمهم بهـذه الطريقـة. وقـد بـدأت الحـرب الأهليـة في بوهيميـا وانتشـرت في جميع أنحاء غربي أوروبا.

خلع البروتسـتانت في بوهيميـا الملـك الكـاثوليكي، فيردينانـد مـن العرش، واختاروا فريدريك البروتستانتي، حاكم ولاية البلاتين بدلاً عنـه. لجعل الأمور أكثر سوءًا بالنسـبة للبـوهيميين، اختـير فردينانـد إمبراطـورًا رومانيًا مقدسًا. وقد كان لفرديناند، الذي اتخذ لقب فرديناند الثـاني، نفـوذ كبير في هذا الموقـع. وفي عـام ١٦٢٠م هـزم لـواؤه، يوهـان تسـيركلايس، كونت تيلي، البوهيميين هزيمة نكراء في معركة الجبل الأبيض.

وقد كلفت هذه الهزيمة البوهيميين استقلالهم. فأخمدت ثورة البروتستانت وأصبحت الكاثوليكية الديانة الرسمية للدولة مرة أخرى.

- **الفترة الدنماركية** (١٦٢٥ - ١٦٢٩م) :

بعد هزيمة بوهيميا بدأت الأقطار البروتستانتية تدرك خطر الكاثوليك. اعترض ملك الدنمارك البروتستانتي، كريستيان الرابع قوات فريدريك في سكسونيا، وذلك بمساعدة عدة دول أخرى ولكن الإمبراطور كان قد تلقى مساعدة غير متوقعة من اللواء ألبرخت، فنزل أويزيبيوس فالنشتين الشهير الذي كان يملك جيشًا عظيمًا من الجنود والمغامرين المرتزقة. وهزم جيش فالنشتين، تساعده قوات الحلف المقدس بقيادة الجنرال تيلي، الملك الدنماركي عدة مرات. وفي النهاية وقَّع كريستيان الرابع معاهدة لوبيك (١٦٢٩م) وانسحب من سكسونيا. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور قد أصدر مرسومًا بإعادة الأملاك وقد نصت هذه الوثيقة على أن تعاد كل ممتلكات الكنيسة التي استولى عليها البروتستانت إلى الكاثوليك. وبذلك أضاف المرسوم مصدرًا جديدًا للخلاف في ألمانيا.

- **الفترة السويدية** (١٦٣٠ - ١٦٣٥م):

بعد ذلك دخل الملك السويدي جستافس أدولفس الذي كان يعرف بأسد الشمال الحرب. وقد كان لديه سببان لدخول الصراع. فقد كان مخلصًا للغاية للقضية البروتستانتية، وكانت لديه طموحات لأجل السويد، وهي طموحات ستكون في خطر إذ أصبح فرديناد أقوى مما ينبغي. وهكذا لأول مرة تُقْحم مسألة سياسية في الحرب.

وفي عام ١٦٣٠م، أبحر جستافس أدولفس من السويد بـ ١٣٠٠٠ رجل ليحرر مدينة ماغديبورغ التي كان يحاصرها تيلي. وقد كان جيش ملك السويد من أفضل الجيوش تدريبًا وانضباطًا في أوروبا ولكنه وصل متأخرًا جدًا، ولم يتمكن من احتلال ماغديبورغ ونهبها وتدميرها. وفي عام ١٦٣١م، هزم الجيش السويدي تيلي في معركة بريتنفلد وفي عام ١٦٣٢م انتصرت القوات السويدية في معركة مهمة أخرى وقُتل تيلي أثناء القتال. في ظل هذه الظروف، استدعى الإمبراطور فرديناند، فالنشتين الذي كان قد أبعده قبل ذلك. ثم حشد جيشًا آخر من المجندين الجدد من عدة جهات من أوروبا ووضعوا تحت قيادة فالنشتين وعقد فرديناند تحالفًا أيضًا مع فيليب الرابع ملك أسبانيا. التقى جيش فالنشتين بالقوات السويدية في معركة لوتزن الشهيرة (١٦٣٢م).

انتصر السويديون، ولكن جستافس أدولفس قُتل في المعركة. استمر السويديون في القتال حتى عام ١٦٣٤م، حيث دُمِّر جيشهم في معركة نوردلينغن. شك الإمبراطور في أن فالنشتين كان يتفاوض مع البروتستانت وأمر باعتقاله. حاول فالنشتين أن يهرب، إلا أنه اغتيل.

- **الفترة السويدية الفرنسية (١٦٣٥ - ١٦٤٨م):**

في هذه المرحلة، كانت الحرب قد فقدت سمتها الدينية تمامًا وأصبحت سياسية محضة وقرر الكاردينال ريشيليو الذي كان الحاكم الفعلي لفرنسا أن يعوق تزايد نفوذ الهابسبيرج بالتدخل إلى جانب البروتستانت. فأصبحت الحرب صراعًا بين البوربون الفرنسيين

والهابسبيرج النمساويين وفي عام ١٦٣٥، أرسل ريشيليو جيشًا فرنسيًا إلى ألمانيا، فانضم إليه جيش سويدي جديد. وقد كان

للبروتستانت وحلفائهم الفرنسيين قادة ممتازون، منهم الفيكونت دوتورين الفرنسي، ولويس الثاني، أمير كوندا. وقد حقق الجيشان الفرنسي والسويدي سلسلة طويلة من الانتصارات، أعطت البروتستانت الذين يعيشون في ألمانيا أملاً جديدًا.

- **صلح وستفاليا** (١٦٤٨م):

عانى الشعب الألماني لعدة سنوات من البؤس والحرمان بسبب حرب الثلاثين عامًا. وفي عام ١٦٤٤م، أرسلت الدول الأوروبية ممثلين لعقد مؤتمر صلح. التقى الوفدان الكاثوليكي والبروتستانتي منفردين في مدينتين مختلفتين في وستفاليا، وهو أقليم من أقاليم بروسيا. استمرت المفاوضات أربع سنوات إلى أن وُقِّع صلح وستفاليا في عام ١٦٤٨م. وحصلت فرنسا بموجب هذه المعاهدة على الألزاس واللورين وسيطرت السويد على مصبات أنهار أودر، وإلبة وفيسر ووضعت الكالفينية في منزلة متساوية مع الكاثوليكية واللوثرية.

- **نتائج الحرب:**

كانت ألمانيا في حالة يُرثى لها عندما انتهت الحرب أخيرًا. فقد قتل الكثير من الألمان. ولم ير أولئك الذين بقوا على قيد الحياة سوى الخراب في كل مكان؛ فقد اختفت مدن، وقرى ومزارع كاملة ودُمّرت معظم الممتلكات. وتدهورت الفنون والعلوم والتجارة والصناعة، مما تطلب من

ألمانيا نحو مائتي عام لتستعيد نشاطها من آثار حرب الثلاثـين عامًـا. فغادر آلاف الناس أوروبا، بخاصة ألمانيا، وذهبـوا إلى أمريكـا ليبنـوا حيـاة جديدة.

هي سلسـلة صراعـات داميـة مزقـت أوروبـا بـين عـامي ١٦١٨ و ١٦٤٨ م ، وقعت بين البروتستان والكاثوليـك والـدول المتحالفـة معهـم، وكلفت الاوربيين الملايين من الضحايا، وخصوصاً في المانيا التـي خسرـت حوالي نصف سـكانها، وكانـت المجـازر تشـمل عمليـات القتـل والحـرق والتهجير بين القرى المتجاورة، بل داخل البلدة الواحدة. وقد اشـتركت في هذه الحرب الوحشية تباعاً معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر فيما عدا إنكلترا وروسيا .

تنقسـم حـرب الثلاثـين عـام إلى أربـع مراحـل رئيسـية : الثـورة البوهيمية. التـدخل الـدنماركي. التـدخل السـويدي. التـدخل الفرنسيـ . بدأت اولا كمواجهة دينية اندلعت عام ١٦٠٦ في مدينة دوناوفورت الحرة إحدى مدن ألمانيا التابعة للإمبراطور الروماني الكاثوليكي، حيث حاولـت الأغلبيـة البروتسـتانتية منـع الكاثوليـك مـن أداء موكـب دينـي مسـببين اضطرابات عنيفة، مما دعـى تـدخل ماكسـيمليان الأول حـاكم (بافاريـا ـ جنوب المانيا) مساندا الكاثوليك لاعادة الوضع إلى حاله. هذه السلسة مـن الأحداث أوجدت لدى البروتستان (الذين ظلوا أقلية في المنطقـة) شـعورا بوجود مـؤامرة كاثوليكيـة لاجتثـاثهم، وإزاء هـذا التهديـد قـاموا في عـام ١٦٠٨ بتأسيس الإتحاد الإنجيلي بقيادة(فريدريك الرابع) ملك اسبانيا

الذي كان يحكم أجزاء من المانيا ووسط اوربا. فرد الألمان الكاثوليك عام ١٦٠٩ بانشاء الرابطة الكاثوليكية تحت قيادة الامير ماكسيمليان الأول. عند هذه النقطة أصبح الوضع السياسي في ألمانيا على استعداد للدخول في مواجهة الطائفية.

عام ١٦١٧ حاول (فيرديناند) حاكم بوهيميا(جيكيا الحالية) الذي كان كان كاثوليكياً متعصباً أن يفرض العقيدة الكاثوليكية على السكان الذين كانوا بغالبية بروتستانتية. تسبب منعهم لبناء عدد من الكنائس البروتستانتية في ثورة عنيفة عام ١٦١٨ بلغت ذروتها عندما تم إلقاء اثنين من ممثلي الإمبراطور من نوافذ القصر الملكي في براغ، وأشعل هذا الحدث شرارة حرب الأعوام الثلاثين.

في الجزء الثاني من فترة الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضي المنخفضة وشمال إيطاليا وكاتالونيا . خلال سنواتها الثلاثين تغيرت تدريجيا طبيعة ودوافع الحرب : فقد اندلعت الحرب في البداية كصراع ديني بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسي من أجل السيطرة على الدول الأخرى بين فرنسا والنمسا، بل ويعد السبب الرئيسي- في نظر البعض، ففرنسا الكاثوليكية تحت حكم الكردينال ريشيليو في ذلك الوقت ساندت الجانب البروتستانتي في الحرب لإضعاف منافسيهم آل هابسبورغ لتعزيز موقف فرنسا كقوة أوروبية بارزة، فزاد هذا من حدة التناحر بينهما، مما أدى لاحقا إلى حرب مباشرة بين فرنسا وإسبانيا.

كان الأثر الرئيسي لحرب الثلاثين عاما والتي استخدمت فيها جيوش مرتزقة على نطاق واسع ، تدمير مناطق بأكملها تركت جرداء من نهب الجيوش . وانتشرت خلالها المجاعات والأمراض وهلاك العديد من سكان الولايات الألمانية وبشكل أقل حدة الأراضي المنخفضة وإيطاليا، بينما أُفقرت العديد من القوى المتورطة في الصراع . استمرت الحرب ثلاثين عاما ولكن الصراعات التي فجرتها ظلت قائمة بدون حل لزمن أطول بكثير. انتهت الحرب بمعاهدة

مونستر وهي جزء من صلح فستفاليا الأوسع عام ١٦٤٨ م . وخلال الحرب انخفض عدد سكان ألمانيا بمقدار ٣٠ ٪ في المتوسط؛ و في أراضي براندنبورغ بلغت الخسائر النصف، في حين أنه في بعض المناطق مات مايقدر بثلثي السكان وانخفض عدد سكان ألمانيا من الذكور بمقدار النصف تقريباً. كما انخفض عدد سكان الأراضي التشيكية بمقدار الثلث. وقد دمر الجيش السويدي(البروتستاني) لوحده اثناء تغلغله في المناطق الالمانية الكاثوليكية ٢٠٠٠ قلعة مع سكانها ، ١٨٠٠٠ قرية و ١٥٠٠ مدينة في ألمانيا، أي ثلث عدد جميع المدن الالمانية .هبطت حرب الثلاثون عام بسكان ألمانيا من عشرين مليوناً إلى ثلاثة عشر ونصف مليوناً، وبعد عام أفاقت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم. ففي مؤتمر فرانكونيا المنعقد في فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورنبيرغ

اتخذوا القرار الآتي:- "لا يقبـل في الأديـار الرجـال دون السـتين... وعلى القساوسة ومساعديهم (إذا لم يكونوا قد رسموا)، وكهنة المؤسسـات الدينية، أن يتزوجوا... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويـذكر كـل رجل تذكيراً جدياً، وينبه مراراً من منـبر الكنيسـة، إلى التصرـف عـلى هـذا النحو في هذه المسألة".

الفصل السادس
شعب الفايكنـج

الفايكينج هم شعب شرس غـير متحضرـ وبسـبب المنـاخ البـارد في بلادهـم وجـدب الأرض كانـت الزراعـة وتربيـة المـواشي عمليـة صـعبة وعسيرة، ولذا فقد اتجهوا إلى البحر طلباً للرزق وأسباب العـيش. ولم يطـل الوقت بالفايكينج حتى أصبحوا ملاحين ذوي براعة فائقة فهجروا أرضهم بكاملها وانتشروا في مختلف الانحاء حتى شواطئ أوروبا الشرقية.

في تلك الآونة من القرن الثامن الميلادي، أصـبح الفـايكينج مبعـث الرعب على امتداد تلك الشواطئ إذ كـانوا ينهبـون ويسـلبون المـدن التـي يهبطون فيها على البر ويشرعون في القتل وجمع الغنائم ثم يعاودون الكرة في بلد آخر.

من صفاتهم بـأنهم كانوا طـوال القامـة ذوي شـعور شـقراء وكـانوا يتميزون بشواربهم الطويلة.

الأسلاف والسكان:

كلمة فايكينج تأتي من الكلمة النرويجية القديمة "فايكينجر" والتـي تعني "شخص قادم من المضايق"، ومـن كلمـة "فيـك" وتعنـي خلـيج أو مضيق .

والفايكينج مصطلح يُطلق في الغالب على ملاحـي السـفن والتجـار والمحاربين الذين نشئوا في المناطق الإسكندنافية والذين هـاجموا السـواحل البريطانية والفرنسية وأجزاء أخرى من أوروبا وتسمى الفترة بـين٧٩٣ م- ١٠٦٦م بحقبة الفايكينج، كما يستخدم هذا المصطلح بصورة أقل للإشـارة إلى سكان المناطق الإسكندنافية عموماً. وتشمل الدول الإسكندنافية كلا من

السويد و الدنمارك و النرويج و إيسلندا. يُعرف الفايكينج أيضاً بتسميات أخرى مثل "النورديين" أو "النورمانديين" (أي الشماليين)، وإلى هذا يُنسب تسمية منطقة النورماندي الفرنسية التي أعطاها الملك شارل الثالث عام ٩١١م لأحد زعماء الفايكينج المسمى رولو.

ومـن هـذه المنطقـة انطلـق الغـزو النورمانـدي للجـزر البريطانيـة عام١٠٦٦ م بقيادة الدوق النورماندي وِلْيَم (الملـك ولـيم الأول لاحقـاً) كان أسلاف الفـايكينج مـن الشـعوب الجرمانيـة التـي سـكنت ذات مـرة في شمال غرب أوروبا و هي تحركت ابتداءً من العام ٢٠٠ق. م في اتجـاه مـا يعرف اليوم بالدنمارك و النروج و السويد .

حيث طورت كل مجموعة حياتها الخاصة بينما تقاسمت المجموعات الثلاث الثقافة العامة عينها . تكلم الفايكينج لغة جرمانية تتكون من لهجتين رئيسيتين كان الجميع يفهمونها و استعملوا أبجدية قوامها حروف تسمى"رونيّة" يتألف الواحد منها غالباً من خطوط مستقيمة مرتبة بمفردها أو مركبة من اثنين أو أكثر وهم عاشوا في تجمعات أو قرى صغيرة يحكم كلاً منها ملك أو رئيس .

وكان الشعب ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية: النبلاء، الأحرار، العبيد: وضم النبلاء: الملوك والرؤساء وسواهم من كبار الأثرياء أو المنحدرين من أسلاف ذوي نسب رفيع . وضم الأحرار: المزارعين و التجار وغيرهم ممن أدوا خدمة للحاكم أو عملوا لحسابهم أما العبيد فكان الكثير منهم اسكندنافيين استعبد أسلافهم أو أوروبيين سقطوا في الأسر. و تألف لكل تجمع مجلس حاكم

من نبلاء و أحرار يسن القوانين و يقرر ما إذا كان التجمع سيمضي إلى الحرب أو يلتئم لمحاكمة المجرمين . و كانت قراراته تعتبر أهم من أحكام الملك و الرئيس.

تحدث الفايكينج باللغة النوردية، وهي لغة جرمانية قديمة خاصة بالبلدان الإسكندنافية. وفي الواقع لم تندثر اللغة النورديةالقديمة تماماً،إذ تفرعت منها اللغة الايسلندية، وهي الآن اللغة الرسمية في ايسلندا التي غزاها الفايكينج بين٨٧٥-٨٥٠ م، وأسسوا فيها عام٩٣٠ م مجلساً عمومياً يُسمى "أولْثِنج" الذي يُعد أول هيئة برلمانية في العالم. لم يكن الفايكينج يعرفون الكتابة بمعناها المألوف، لكنهم دونوا ما يريدون على منقوشات حجرية تدعى الرونات(جمع رونة) التي هي أساس الأبجدية الجرمانية القديمة جذبت الرونات اهتمام الباحثين في الماضي لحل ألغازها، مما أسفر عن إضاءات جديدة فيما يتعلق بالأبجدية الرونية واستخداماتها .

وكانت السنوات الخمسون الأخيرة من التنقيبات الأثرية - ولاسيما ما تم اكتشافه في بيرغن عام١٩٥٦ م - مثمرة جداً، حيث بينت لعلماء الرونات مدى أهمية النقوش الرونية في الحياة اليومية للناس وما يتخللها من معاملات.

منازل الفايكينج تتكون بمعظمها من طابق واحد بسطح منحن يستخدم في بناءه الخشب أو القش في حين أن الجدران تكون إما من الخشب أو الحجر، يتألف المنزل من غرفة واحدة الى ثلاث بالإضافة الى موقد يوفر النور والدفء ويكون مكاناً للطبخ ومما يُلاحظ على بيوتهم هو خلوها تماماً من النوافذ يستخدم الزوج أو رب الأسرة كرسياً يطلق عليه المقعد العالي بينما يجلس سائر أفراد

العائلة على مصطبات أرضية تستعمل للنوم والراحة، يُمضى أفراد الأسرة أوقات فراغهم بصورة خاصة في التجديف والتزلج والسباحة والمصارعة ومشاهدة سباق الخيل كما عرف عنهم لعبهم الشطرنج وغيرها من العاب النرد .

الحياة العائلية:

تولى الوالدان ترتيب معظم زيجات الفايكينج و اعتبر الزوج رب الأسرة في حين تمتعت النساء بحقوق تفوق مثيلاتها لدى نساء مجتمعات أوروبية أخرى معاصرة لها فعلى سبيل المثال كان في مقدور امرأة من الفايكينج امتلاك قطعة أرض أو غيرها كما كان من حق الزوجة أن تقاسم زوجها ثروته كذلك أتاحت قوانينهم للمرأة المتزوجة الحصول

على الطلاق متى شاءت أما الرجال فقد امتلكوا حق أن تكون لهم زوجتان أو أكثر في آن واحد و هو تقليد ساد بين الأثرياء فقد كان لكثير من النبلاء ثلاث زوجات أو أكثر و عائلات عدة ساعدت في الانتعاش السكاني الذي بات واحداً من أهم أسباب حركة الفايكينجروابط متينة بين بعضهم بعضا بينما استحالت الصراعات بين أفراد من الأسر المختلفة منازعات بين العائلات. اشتهر الفايكينج بعادات دفن تميزت بمراسم ضخمة فكان الكثير من الرجال والنساء الأغنياء يدفنون في سفن إعتقاداً منهم بأن مقابر كهذه توفر رحلة آمنة ومريحة إلى بلاد الموت. وكانت ممتلكات الأشخاص المتوفين بما فيها أسرّة ومجوهرات وأسلحة تودع في السفينة وفي بعض الحالات كانت الكلاب العائدة للميت وحتى العبيد يدفنون أحياء في السفينة القبر.

تناول الفايكينج وجبتين يومياً، واحدة في الصباح وأخرى في المساء واستخدموا الملاعق والسكاكين و لكنهم لم يعرفواالشوك.

وكان معظم طعامهم من لحوم البقر والماعز والبيض واللبن يأتي من مزارعهم وهم تعاطوا الصيد البري والبحريلتلبية حاجاتهم الغذائية فكان الصيادون يزودون بلحوم الأيل والعلند (ظبي ضخم) والدب القطبي و عجل البحر والحوت. أما صيد الأسماك فقد شمل المورة والرنكة و السلمون والتروتة.

اقتصر لباس معظم رجال الفايكينج على بنطال يصل إلى الركبة أو الكاحل وقميص ذات كمين طويلين وتتجاوز الخصر وتميزت ثياب نسائهم بفساتين فضفاضة مصنوعة من الكتان أو الصوف بلغت عادة الكاحلين وانتعل الجميع أحذية جلدية.

الاعتقادات الفكرية و الدينية

عرف عن شعب الفايكينج أنهم من الوثنيين، فلم يعتنقوا المسيحية إلا في وقت متأخر نسبياً قياساً إلى بقية البلدان الأوربية.

تعتقد قبائل الفايكنج والساكسون *saxons* أن الشمس هي الفتاة والقمر هو الفتى وهما يقودان عرباتهم التي تجرها الخيول بخفة ورشاقة عبر السماء في كل يوم . **وتلاحق الذئاب الشمس والقمر حتى راناروك *Ragnarok* وهي نهاية الأكون، عندما ستقبض الذئاب على الشمس والقمر وينتهي العالم .**

- وظن الفايكينج والساكسون أن الذئب يقضم القمر في كل شهر ثم يفر، ولذلك يخافون كسوف الشمس لأنه قد يكون نهاية العالم.
- يعتقد الفايكينج بأن سبب ملوحة البحر هو أن الملح يخرج من طاحونة ملح سحرية عملاقة تدور في أعماق البحر.
- في الميثولوجيا الإسكندنافية كان "اليمير" أول كائن حي ولد من جليد ذائب ورضع حليب البقرة "أودومولا" وبعد موته
  أصبح جسده الأرض ودمه البحار وجمجمته السماء وعظامه الجبال وشعره الأشجار.

- بحسب موسوعة الكتاب العالمي فإن بعض صفات سانتا كلوز وخصوصا الإعتقاد بأنه يدخل من مدخنة مأخوذة من الأساطير النرويجية القديمة حيث تقول الأساطير أن أحد الألهة الوثنية القديمة للبلاد الاسكندنافية في شمال أوربا - وهو اماالإله ثور أو الإله أودن - يعيش في القطب الشمالي ، يلبس الفرو ويجلس على مزلاج تجره الغزلان ..
- من شمال أوربا نفسها أخذ الأوربيين بعض أسماء أيام الاسبوع التي تمثل اسماء ألهتهم القديمة (تير، أودن ، ثور ، فرايا)
  - ✓ تيوزداي (*Tuesday*) أي يوم تير.
  - ✓ وينسداي (*wednesday*) أي يوم أودين.
  - ✓ ثرسداي (*Thursday*) أي يوم ثور.
  - ✓ فرايدي (*Friday*) أي يوم فرايا.
- بحسب الميثولوجيا الرومانية فإن كل يوم مخصص لإله وبالتالي مخصص لأحد الكواكب والنيرين: (الأحد للشمس) سول، (الاثنين للقمر)لونا، (الثلاثاء للمريخ) مارس، (الاربعاء لعطارد) مركوريوس، (الخميس للمشتري) جوبيتريوس (الجمعة للزهرة) فينوس، (السبت لزحل) ساتورنوس.

- شجرة العيد تعود أيضاً إلى البلاد الاسكندنافية ، حيث تغيب الشمس لشهور عديدة في الشتاء ، فيرسلون رجالا ليستكشفوا وصول نور الشمس الى ارضهم وبعد ٥٣ يوماً يصعدون إلى القمم العالية ويبحثوا عن أول نور شمس يروه ليعودوا ويزفوا الخبر، وعندما تصل أخبار وصول أشعة الشمس يقيمون احتفالاً كبيرًا بعودة الإله "يول"، يشعلون النيران خلاله ويزيّنون الأشجار بالتفاح كرمز فرحة بعودة فصلّ الصيف والربيع.

يغدراسل (شجرة الكون) :

يغدراسل هي شجرة دردار في وسط الأكوان، وهي شجرة الكون للحياة والمعرفة والمكان والزمان، يجلس عقاب على أعلى الأغصان فيها وتجلس أفعى ملتوية عند جذورها في الأسفل تقرض من الشجرة، كان العقاب والأفعى يكرهان (يمقتان) بعضهما، وكان سنجاب يتنقل بينهما ويروي لكل منهما ما يقوله الآخر عنه من كلام بذيء.

تحت جذور هذه الشجرة يوجد ينبوع ميمير ، كنت إذا شربت منه أصبحت حكيماً وفهيماً ، فكّر أودين بأهمية الحكمة وتنازل عن إحدى مقلتاه ليشرب من الينبوع ومن حينها وله عين واحدة ولكنه كان أذكى الآلهة ، اخترع الأحرف الرونيّة) أي أحرف لغة أهل الشمال) ، تدعى المنحوتات القديمة على الحجارة باسم نماذج يغدراسل *Yggrasil* .

سغارد Asgard :

بنى أودين موطن الآلهة وهي اسغارد بعد ما قام بخلق الكون ، كان هناك قصور كثيرة في اسغارد لجميع الآلهة ، وكان لقصر أودين سقفاً فضياً يمكنه من رؤية الأكوان كلها ، وكان هناك جسراً ممدوداً
من أسغارد إلى يغدراسل

(شجرة الكون) (اسمه بايفروست) (جسر الوهم) .

وكان هناك قاعة في أسغارد تسمى فالهالا ، وكانت للمقاتلين الـذين لقوا حتفهم في المعارك ، كان الفالكيريز) النساء المـدرعات اللـوات يقـدنَ جيادهن في الأرض والبحر بسرعة ورشاقة) ويخترن ويقـررن أيضـاً مـن الذي سيكسب المعركة.

هنـاك مقطوعـة موسـيقية (*Wagner– Cicle of the Valkyries*) ألّفهـا فـاجنر *Wagner* عنوانهـا فارسـات فـالكيريز *The ride of the Valkyries* .

كان أهم القصص الميثولوجية لدى الفايكينج هـي المتعلقـة بـوحش بحـر الشمال" الكراكن "الذي كانوا يعتقدون في كون أودينأرسلته كى ينذر البشر من المعاصى فقد صورته لوحاتهم يهاجم الفايكينج ليلا في بحر الشـمال لـذا فقد نحتوا وجهه على مقدمة سفنهم معتقدين بأنهم هكذا يتقون شروره كما صـورت لوحـاتهم ضرورة التضـحية بفتـاة عنـد صـخور بحـيرة نـس باسكتلندا من أجل إرضاء الوحش.

الكراكن Kraken:

الوصف لهذا الكائن غير دقيق وناقص ربما لأن هذا الكائن أضخم من اللازم لكي تكون عنه فكرة أو دراسة لائقة (إلا اذا أخذنا الرؤية من الجو بعين الاعتبار)، أو ربما لأن البحارة البؤساء الذين تقاطعوا مع هذا الكائن قد مروا

بتجربة غاية بالسوء! إلا ان بعض الكتب و الأقاويل تصفه بأشكال مختلفة.. اما كحوت عملاق أو كائناً يشبه السلحفاة! الا ان الغالبية أجمعت على أنه كائن ذو مجسات هائلة، جسده يصل لطول ميل ٦,١) كم (دائري الشكل .. أي بصورة أقرب لخيالنا العصري فهو
يبدو كأخطبوط أو حبار مهول الحجم!

كانت بعض الفايكينج من المزارعين الذين استنبتوا الشعير و الشوفان والخودر) الحنطة السوداء (وأنواعاً من الفواكه و الخضار واقتنوا المواشي من ماعز و خنازير و أغنام و عمل آخرون في صيد الأسماك وتصنيع المعادن و بناء السفن والحفر في الخشب أما في التجمعات الكبرى فقد امتهن كثيرون التجارة التي أدت ببعضهم إلى السفر بعيداً فبلغوا في سفنهم الشراعية معظم أجزاء العالم المعروف حاملين معهم منتجات زراعية وفراء وجلود وسواها من السلع المتنوعة بينماانحصر عمل العبيد في صناعة الذهب والحرير والفضة والسلاح.

عرف الخبراء وعلماء الآثار الكثير عن سفن الفايكينج الفخمة لأن كثيراً من زعماء شعوب الفايكينج أعدوا مراكبهم لدفنهم فيها لاحقاً. وعثر

علماء الآثار على عدداً من هذه المقابر المتحركة. في عام١٨٨٠ م أُمِيط اللثام عن سفينة حربية بحالة جيدة تخص هذا الشعب، عُثر عليها بـالقرب من جوكسـتاد جنـوب شرقـي النـرويج . يبلـغ طـول هـذه السـفينة التـي بناهاالفايكينج في القرن العاشر الميلادي نحو٢٤ م أما عرضها فيبلـغ نحـو خمسة أمتار وككل سفن الفايكينج هيكل هذه السـفينةمتراكب الألـواح - أي أن الألواح الخشبية التي يتألف منها يركب بعضها فوق الآخر - وهـي تحمل ١٦ مجدافًا على كل جانب ، ولها شراع مربع الشكل مثبت على صارية يبلغ ارتفاعها١٢ م تقريباً، كما

أن لها مجداف تشغيل بالقرب من المؤخرة.

سفينة جوكستاد تُعتبر صغيرة نسبياً، فأغلب سفن الفايكينج تحتـوي على ٢٠ مجدافاً على كل جانب ولبعضها الآخر٣٠ مجدافاً.

الرمح والدرع من الأسلحة الأساسية بالنسبة لمحاربي الفايكينج . ومعظم المحاربين يحمل سكيناً ذات أوصاف محددة - خاصة سكين من نوع سياكس وهي أحد أنواع السكاكين الألمانية ذات النصل الواحد — كبديل في بعض الأحيان أو كإضافة إلى الرمح. كذلك قد يحمل المحارب فأس أو قوس.

بَدأ الفايكينج بمُهَاجَمَة جيرانِهم الجنوبِيين بجدية حـوالي عـام.٨٠٠ هذه الهجمات والغـزوات اتّخـذَت أشـكالاً عديـدة وامتـدَّت للعديـد مِـنْ الاتّجاهاتِ، فقد شملت الجُزُرِ البريطانيةِ والأجزاءِ الفرنسيةِ للإمبراطوريـةِ الكارولنجية، وفي الإندلس (اسبانيا حالياً).

كان هناك تطور مثير جداً، تَغيّرتْ الهجماتُ بشكل تدريجي مِنْ هجمات الضرب والهروبِ إلى الغزواتِ الأكبرِ والأكثر طموحاً والتي أسست فيها فِرقَ البحّارِة المهاجمين القواعدَ التي قضوا فيها فصل الشتاءَ، وفي النهاية، في أواسط القرن التاسعِ، نَمت الجيوش في الحجمِ وأصبحَ العديد مِنْ الرجالِ مستعمرين في الأراضي التي ظَهروا فيها أولاً كلصوص ومهاجمين ثم بَدأوا بالتَحول إلى المسيحيةِ وجَلبوا عائلاتهم من الوطن الأم أو تَزاوجوا مَع السكان المحليّينِ.

في مناطق مثل شمال إنجلترا، ونورماندي على الساحل الشمالي فيما يعرف الآن بفرنسا، أدى الاختلاط بالسكان والثقافاتِالذي نتج مِنْ هذه المستوطناتِ إلى مزيج جديد مِنْ المجموعات العرقيةِ، اللغات، والمؤسسات. وبسبب اهتمامِهم بالتجارةِ، شجّع الفايكينج النمو الحضاري وأسسوا العديد مِنْ المُدنِ والبلدات، مثل يورك في إنجلترا ودبلن في إيرلندا، والتي ظَهرت كمراكز تجارية بارزة.

أهم غزوات الفايكينج:

- في عام ٧٩٣ م : أول غارات الفايكينج على بريطانيا
- في عام ٨٤٤ م : غارة الفايكينج علي سيفيل في أسبانيا
- في عام ٨٤٥ م : الفايكينج يصلون أعالي نهر السين في فرنسا
- في عام ٨٤٥ م : ملك فرنسا يدفع الجزية ليمنع اقتحام الفايكينج لباريس
- في عام ٨٦٠ م : الفايكينج يهاجمون القسطنطينية
- في عام ٨٦٢ م : تأسيس الفايكينج بلدة نوفجورود في روسيا

- في عام ٨٧٤ م : أقام الفايكينج في آيسلندا
- في عام ٩٠٠ م : الفايكنج يغيرون على شواطئ البحر المتوسط
- في عام ٩١١ م : أقام الفايكينج تحت حكم رولو في نورماندي
- في عام٩٨٥ م: اكتشف الفايكنج جزيرة غرينلاند بقيادة أريك الأحمر (وفي عام ١٤١٠ م كان هنالك ١٠٠ ألف شخص من الفايكنج على شواطئ غرينلاند وكان هذا هوا التاريخ الأخير الذي سجل تواجدهم في تلك المستعمرة ومنذ ذالك الوقت لم يرى أحد منهم

في جزيرة غرينلاند ولم يسمع بهم خبر. حيث دخلت النرويج و آيسلاندا مثل كامل أوروبا في متاهة حروب والأمراض الفتاكة و هنا إنقطع كل تواصل مع أهل غرينلاند البعيدين عن أوربا، وكانت آخر إتصال بين الطرفين سنة ١٤١٠ برحلة سفينة
من غرينلاد ألى النرويج)

في عام ٩٨٦ م: هبوط الفايكينج علي أرض كندا

- في عام ١٠٠٠ م: تحويل جرينلاند وآيسلاند إلى المسيحية بواسطة الفايكينج
- في عام ١٠٠١ م : وصول (لايف إريكسون) إلى الشاطئ الأمريكي
- في عام ١٠٥٠ م : تأسيس الفايكينج بلدة أوسلو
  في النرويج كمركز تجاري كبير

تمثل رسالة ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان عن حياة الفايكينج ومجتمعهم.

وتعتبر وثيقة بارزة، في وصفهلحوادث وقعت منذ ما يزيد عن ألف سنة بتفصيل مميز. ترجمت إلى عدة لغات، وقد اهتم بها المستشرقون وعلماء التاريخ وعلماء النفس الإنسانية، وكُتب عنها في الكتب وفي المجلات العلمية والأدبية وغيرها ...

فتنفيذا لأوامر الخليفة المقتدر بالله -وبعد وصول كتاب المش بن يلطوار ملك الصقالب- طالباً الدعم والمساعدة بأن يرسل إليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً تم تشكيل وفد من عند الخليفة المقتدر بالله متضمنا أحمد بن فضلان، لتكون مهمته ضمن الوفد قراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين غادر الوفد المذكور، مدينة السلام بغداد يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة تسع

وثلاثمائة هجرية الموافق حزيران ٩٢١ميلادية، متوجهاً نحو البلغار عاصمة ملك الصقالبة، أطلق ابن فضلان اسم الروسية على السكان الذين التقى بهم في بلاد روسيا الحالية ولكن الاسم كان قد أطلق على البلاد نسبة إلي قبيلة روس الفايكينجية التي استوطنت تلك البلاد قديماً ، وهي القبيلة الاسكندنافية الأولى التي التقى بها ابن فضلان.

✍ أهم انطباعات ابن فضلان عن شعب الفايكينج:

عن رجالهم وثيابهم قال:

رأيت الروسية وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا علي نهر إتـل، فلـم أرى أتم أبداناً منهم كأنهم النخل، شقر حمر، لا يلبسون القـراقط ولا الخفـاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شـقيه، ويخـرج إحـدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسـكين، لا يفارقـه جميـع مـا ذكرناه وسيوفهم صفائح مشطبة إفرنجية، ومن حد ظفر الواحـد مـنهم إلى عنقه مخضـر شجر وصور وغير ذلك .(يقصد أنهم مزينون بالوشم).

عن نسائهم قال:

"إن نساء أهل الشمال شقراوات كرجالهم، ويعادلنهم في طول القامة ولهن عيون زرقاء وشعورهن طويلة جداً وناعمة تتشابك بسهولة ... كما لا تظهر النساء أي مراعاة أو سلوك للاحتشام، فلا يتحجبن مطلقاً، ويفـرجن عـن أنفسـهن في الأمـاكن العامـة كلـما ألحـت علـيهن الحاجـة، كـذلك يتقدمن بجرأة نحو أي رجل يستحوذ علي إعجابهن".

قال أيضاً: كل امرأة منهم على صدرها حقة (نـوع مـن الأوعيـة) أو وعاء معدني أو خشبي مشدود إما من حديد وإما من فضة أو من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره، وفي كل حقـة حلقـة فيهـا سـكين مشـدود، وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة، لأن الرجل إذا ملك عشرـة آلاف درهـم صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكذلك

كل عشـرة ألاف درهم يزداد طوقاً، فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة وأجملّ الحلي عندهم الخرز الأخضـــر مـن الخـزف الـذي يكون على السفن يبالغون فيه، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونـه عقـوداً لنسائهم

✍ عن اكرام الضيف قال:

يعير أهل الشمال أهمية كبرى لواجب المضيف، فهم يحيون كـل زائـر بحرارة ويحسنون وفادته ويقدمون له الكثير من الطعام والثيـاب، ويتبـارى الأعيان والنبلاء من أجل الحصول علي هذا الشـرف، وقد مثّل فريقنا أمام "بوليويف "حيث أولمت لنا وليمـة عظيمـة، وقـد أشرف بيوليويـف بنفسـه عليها. تظاهر فريقنا بالاستمتاع بالطعام، تقديراً لشرـف الوليمـة، رغـم أن الطعام كان رديئاً، وتخلل الحفل كثير مـن قـذف الطعـام والشرـاب، ومـن الضحك والمرح.

✍ عن مراسم الموت ودفن الميت قال:

عندما يموت رجل جليل منهم، أو أحد رؤسائهم يقومـون بوضـعه في قبره ويقفلون عليه القـبر لمـدة عشرـة أيـام، حتـى يفرغـوا مـن تفصـيل وحياكة الملابس اللازمة لهذه المراسم، مراسم حرق الميت، ومن ضمن هذه المراسم أن تحرق معه إحدى جواريه "من مـنكن يمـوت معـه؟" فوافقـت واحدة منهن

طائعة راضية بمحض إرادتها، فهذا حسب معتقداتهم شرف لها، ومن لحظة موافقتها، تسهر بقية الجواري على خدمتها في كل أمور حياتها ومتطلباتها، لدرجة أنهن يغسلن رجليها بأيديهن وهم يستعدون لتفصيل وحياكة الملابس اللازمة للحرق والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة ولما كان اليوم الذي سيحرق فيه الميت وجاريته، تقوم الاستعدادات لذلك أمام النهر الذي ترسوا فيه سفينته، التي يجري إعدادها بشكل فائق الجودة والبذخ بها فيه السرير الذي سوف يمدد عليه الرجل -الرئيس- المتوفى، وتشارك في هذه المراسم، امرأة عجوز شمطاء، تسمي عندهم ملك الموت وهي التي تتولي قتل الجارية التي وافقت على الموت مع سيدها وفي اللحظة المحددة يخرجون الميت من قبره، ويلبسونه سراويل جديدة، وخف له أزرار من ذهب ويجعلون علي رأسه قلنسوة من ديباج ويضعونه في الخيمة التي على السفينة، ويجلسونه وقد أسندوه بالمساند، ووضعوا أمامه الفاكهة والريحان والنبيذ والخبز واللحم والبصل، ثم يقطعون كلباً إلى نصفين ويلقونه في السفينة، ويضعون بجانب المتوفى جميع أسلحته، ثم يجيئونبفرسين، يذبحونهما بعد الغرق ويقطعون لحمهم بالسيف ويلقونه بالسفينة، ثم يفعلون الشيء ذاته ببقرتين وديك ودجاجة. وأثناء ذلك تقوم الجارية التي سوف تحرق معه بالمرور داخل الخيام المنصوبة على شاطئ النهر أمام السفينة. فينكحها كل صاحب خيمة ويقول لها "قولي لمولاك إنما فعلت هذا حباً لك"وبعد حركات متعددة تقوم الجارية أمام الحضور، ومع العجوز

(ملك الموت) تصعد إلى السفينة، فتشـرب النبيذ، قدحاً بعد قدح، وملك الموت تقتلها بخنجر عريض النصل، والرجال يضـربون بالخشب على

الترَاس، لئلاً يسمع صوت صراخهـا، فتجـزع بقيـة الجـواري، فـلا يوافقن بعد ذلك على الموت مع أسيادهن، ثم يتم حـرق السـفينة بكـل مـا فيها: الرجل المتوفى وجاريته المتوفـاة، وكـل الأشـياء والحاجـات التـي تـم جمعها في السفينة، أثناء تلك المراسم العجائبية.

كثـيراً مـا تـم اسـتخدام اسـم الفـايكينج في كثـير مـن الجوانـب وخاصة الافلام والكارتون والالعاب فأصبحت حضارة الفايكينج وجبـة دسمة للمؤلفين في الابداع في شتى الوسائل متخذين مـن طريقـة عيشـهم ولبسهم والفترة إلي عاشوا بها وسيلة لاظهار نتاجهم الفني.

الفصل السابع
أوربا في القرن التاسع عشر

أولاً:الثورة الفرنسية:

تفجرت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، نتيجة مجموعة من العوامل التي تراكمت وأدت إلى انطلاقتها في النهاية، وتعتبر هذه الثورة من أهم الثورات في العصر الحديث؛ حيث جاءت بمفاهيم جديدة للعصر الحديث؛ أثرت في المبادئ والنظم السياسية والاقتصادية وأجرت تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا بوجه عام. ابتدأت الثورة عام ١٧٨٩ وانتهت تقريباً عام ١٧٩٩. وقد عملت حكومات الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، ونفوذ رجال الدين.

١- أسباب الثورة وتطوراتها:

أ- الاسباب غير المباشرة:

- أولاً: العامل السياسي:

ويتمثل بالنظام السياسي السيئ جدا والمتمثل بالحكم الملكي المطلق المستبد، واستغلال إرادة الملك من قبل حاشيته وزوجته وكبار النبلاء ورجال الدين وغير ذلك من أفراد القصر الملكي، بحيث أصبح الناس غير آمنين على حياتهم. فمنذ النصف الثاني من القرن السابع عشر (عصر لويس الرابع عشر)، ساد الحكم الملكي المطلق المستند للحق الإلهي أو ما عرف بنظرية الحكم الالهي للملوك في فرنسا، وكان لويس الرابع عشر يقول الدولة أنا، وامتدت هذه

الفكرة إلى خلفائه فكان نظام الحكم في فرنسا قبل الثورة استبداديا مطلقاً وقد عرف لويس السادس عشر الذي عاصر الثورة (١٧٧٤-١٧٩٣) بضعف الشخصية وبسيطرة الحاشية عليه ورغم ذلك كان شديد التمسك بالنفوذ المطلق رافضاً لكل أنواع التطوير السياسي .

ومن مساوئ الحكم المطلق التي عانت منها فرنسا الرسائل المختومة التي كان يصدرها لويس الـ ١٦ للانتقام من منتقدي حكمه وكذلك إقحام البلاد في حروب لا فائدة منها سوى إشباع رغبة الملك ، وقد بلغ عدد حاشية الملك ١٨ ألف يتقاضون مرتبات عالية، ويعيشون حياة البذخ في القصور في حين كان غالبية الشعب يعيشون حالة من البؤس والشقاء.

أما النظام الإداري فقد اتسم بالفساد بسبب غياب الوحدة الإدارية وارتفاع الأداءات الجمركية بين المناطق وانتشار الرشوة . كل ذلك حال دون توثيق الروابط الوطنية بين مختلف جهات فرنسا وقد اتبعه من جاء بعده حتى أطاحت الثورة بالنظام الملكي المطلق في عهد لويس السادس عشر.

- **ثانياً: العامل الاجتماعي**

كان المجتمع الفرنسيِ مقسم إلى ثلاث طبقات هي طبقة النبلاء المرتبطة بالقصر والمتمتعة بكافة الامتيازات بما فيها حق الوظائف الحكومية والاعفاء من الضرائب وكانوا يطلقون على انفسهم تسمية (أصحاب الدماء الزرقاء) تمييزاً لهم عن باقي الشعب، وطبقة رجال الدين (الاكليروس) التي تمثل السلطة الدينية المرتبطة بالملك الفرنسي والتي

تمتعت بحقوق وامتيـازات ورثتهـا هـي وطبقـة النـبلاء مـن عصر الاقطاع ويعيشون حياة الترف والمجون، ونتيجة لذلك

كرههم الناس حيث كان عدد قليل من الشعب ينتمون إلى الطبقتين الأولى والثانية إلا أنهم كانوا يمتلكون النصيب الأكبر مـن الثـراء والنفـوذ والامتيازات.

والطبقة الأخـيرة هـي طبقـة العامـة أو عامـة الشـعب المكونـة مـن الفلاحين والبرجوازية الصـغيرة وكانـت اوسـع طبقـة في المجتمـع اذ بلـغ تعـدادها آنـذاك ٢٥ مليـون نسـمة، الـثلاث وكانـت محرومـة مـن كافـة الامتيازات وتعاني من الحرمـان ودفـع الضرـائب وأعـمال السـخرة وكـان أبناؤها يستغلون في الحروب مما كان له اثره في نقمة المجتمع الفرنسي على السلطة السياسية والوضع الاجتماعي .

- **ثالثاً: العامل الاقتصادي:**

وهي من أبرز العوامل الرئيسية التـي اججـت الثـورة ، فقـد كانـت خزينة الدولة تعاني من عجز كبير في الموارد منـذ أيـام لـويس الرابـع عشر بسبب حروبه المتواصلة، وكذلك بسبب تمويـل فرنسـا لحـرب الاسـتقلال الأمريكية، إضـافة إلى إسراف بـلاط الملـك وامتيـازات النـبلاء ، وحـاول لويس السادس عشر إصلاح وضع الخزينـة؛ فعـين خـبراء مـاليين لمعالجـة الأزمة ومنهم (تركوا) و(نيكر) و(كالون) إلاّ أنهم فشلوا جميعاً في مهمـتهم نتيجة لمعارضة الطبقة الأرستقراطية لمشاريع الاصلاح، اضـافة الى الازمـة الاقتصادية وارتفاع الاسعار بشكل خيالي والتي أثرت على حياة الشعب

الفرنسي الذي لم يكن بإمكانه شراء رغيف الخبز لا سيما خلال المجاعة التي اجتاحت فرنسا عام ١٧٨٨ .

- **رابعاً: العامل الفكري:**

سبق الثورة نصف قرن حافل بالتطور الفكري والثقافي في فرنسا فيما عرف بعصر التنوير، وقد أثر هذا الفكر على قيام الثورة بكشفه للأوضاع المتردية

التي كانت تعيشها فرنسا وكان معظم النقد موجه للكنيسة والحكومة ومساوئهما، ويُعتبر كل من فولتير ومونتسيكيو وروسو من أبرز الرواد لهذه الحركة الفكرية، فقد ايقظت أفكار فولتيير الطبقات المظلومة وتقبل الناس بسرعة أسلوبه الساخر ونقده اللاذع ولغته الواضحة، أما مونتسيكيو ١٦٨٩-١٧٥٥م فقد كتب عن العدالة والدستور وضرورة فصل السلطات الثلاث (التنفيذية والتشريعية والقضائية)متأثراً بالدستور الانكليزي ، وبالنسبة لـ جان جاك روسو ١٧١٢-١٧٧٨م فقد بقيت كتاباته تؤثر في الفرنسيين من جيل إلى جيل حيث عرف روسو الحكومة بأنها عقد اجتماعي يضمن للشعب حمايته ويقوم بموافقة الشعب والحاكم هنا يحكم بصفته وكيلاً عن الأمة، وعليه أن يلتزم بما تريده الأمة، وإذا انحرف عن ذلك عُزل من منصبه، ومن ثمّ فإن روسو ينكر أن يكون هناك حاكم يستمد سلطاته من مصدر غير الأمة.

ب- الأسباب المباشرة للثورة الفرنسية:

- **اجتماع مجلس طبقات الأمة:**

بعد أن ساءت الأحوال الاقتصادية، وزادت الضرائب المفروضة قرر الملك عقد مجلس طبقات الامة والذي كان يجتمع في حالة الازمات الشديدة في (٥ ايار ١٧٨٩م) وهو ما أرادته الطبقة الأرستقراطية لمنع محاولات الاصلاح. فقد كانت التقاليد تقضي بأن يتألف المجلس من ثلاث هيئات منتخبة تمثل إحداها "الإقليدوس" (الملك- الكنيسة)، وتمثل الثانية "النبلاء"، والثالثة تمثل "الشعب". وكان الاقتراع يتم على هيئة ثلاث وحدات منفصلة وليس طبقًا لعدد الأعضاء. وحيث كانت طبقة رجال الكنيسة خاضعة لسيطرة النبلاء الذين يتقلدون المناصب الرفيعة في الكنيسة لقاء الخدمات التي يقدمونها، فقد كانت الطبقتان الأوليان على يقين دائم من الحصول على أغلبية الأصوات، وبالتالي يقوم أبناء الطبقة الثالثة –الشعب- بتحمل عبء الضرائب المفروضة وحدهم. وقد فطن أبناء هذه الطبقة لهذا الأمر، وطالبوا بأن يكون التصويت في المجلس طبقًا لعدد الأعضاء لا طبقًا للطبقة، ثم طالبوا بأن يكون للمجلس السلطة في تنفيذ المشاريع. ثم اعلن قادة الطبقة العامة العصيان والاعتصام في أحد ملاعب التنس القريبة من قصر فرساي لحين تنفيذ مطالبهم وأطلقوا على انفسهم (الجمعية الوطنية) وقرروا وضع دستور للبلاد لا سيما بعد ان انضم لهم البعض من أبناء طبقتي النبلاء ورجال الدين.

كان لهذه التطورات وخوف لويس السادس عشر واستدعاءه بعض فرق الجيش لحماية مقره والبذخ والاسراف الذي ظهر في حفل استقبال هذه القوات رغم المجاعة التي كان يعاني منها الشعب اثره في تأجيج الشارع والخوف من وجود مؤامرة ملكية ضد الجمعية الوطنية، فاندلعت ثورة شعبية في باريس وفي ١٤ تموز ١٧٨٩ هاجمت الجماهير الثائرة مخازن السلاح واستولوا على ما بها ثم هاجموا سجن الباستيل الرهيب والذي كان ينظر إليه كرمز للسلطة الملكية في البلاد. وبعد عدة ساعات من القتال، ومعركة حامية أبيد فيها حراس السجن عن آخرهم، سقط السجن في يد الثوار الذين قاموا بتخريبه وإطلاق سراح من كان به من المسجونين، وأمام هذه الثورة العارمة تراجع الملك واعترف بالجمعية الوطنية ووافق على رفع علم الثورة المثلث الالوان، وأصبح هذا اليوم عيد فرنسا.

- **الجمعية الوطنية ١٧٨٩-١٧٩١:**

وجهت الجمعية الوطنية في الوقت نفسه جهودها لوضع دستور فرنسا ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بوقف تيار الفوضى وامتصاص نقمة الشارع فكان من أبرز اعمال الجمعية إعلان لائحة حقوق الانسان في ٤ آب ١٧٨٩ التي حاول الملك رفضها الا أنه جوبه بمقاومة عنيفة من الشعب، وكذلك عملت على إلغاء الحقوق الإقطاعية، وتوزيع الضرائب بالتساوي بين أفراد الشعب ودون تمييز طبقي، وتأميم اموال الكنيسة واراضيها باعتبارها ملكاً للشعب واصدرت دستوراً خاصاً برجال الدين وهو الأمر الذي ازعج لويس ١٦ باعتباره متديناً فهرب الى شمال البلاد، أملاً في

العودة مع الجيش الملكي الموجود هناك وبالتنسيق مع النبلاء المهاجرين خارج فرنسا الا انه اكتشف أمره واعيد مع عائلته الى باريس، وفي مطلع شهر أيلول، انتهت الجمعية الوطنية من مهمة صياغة الدستور التي كرست نفسها من أجلها في أيام الثورة الأولى وهي إعطاء فرنسا دستوراً ديموقراطياً يضمن الحريات العامة ويوزع السلطات توزيعاً عادلاً.

وقد أقرت الجمعية هذا الدستور في ٣ أيلول ١٧٩١ وأكد الدستور مبدأ فصل السلطات، أي فصل السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية وأبقى على النظام الملكي مع تحديد سلطات لويس ١٦ ثم أعلنت الجمعية عن حل نفسها وإجراء انتخابات جديدة.

- **الجمعية التشريعية:١٧٩١-١٧٩٢:**

عقدت الجمعية التشريعية أولى جلساتها. وكانت اولى مهماتها تنفيذ مواد الدستور وحماية نتائج الثورة وقد تكونت الجمعية من عدة قوى سياسية منها قوى اليمين وهم من النبلاء ذوي الاتجاه التحرري الذي يؤمن بالملكية الدستورية وقوى الوسط وهم الاكثرية التي تؤمن بالثورة والدستور وقوى اليسار وهم الجيرونديون(نسبة لمقاطعة جيروند) واليعاقبة (نسبة لدير يعقوب) وهم يؤمنون بالنظام الجمهوري والى جانب هذه القوى كانت هناك قوى معادية للثورة خارج الجمعية تتكون من المهاجرين والنبلاء ويقف معهم اباطرة اوربا الذين وجدوا في شعارات الثورة خطرا على عروشهم فكان على الجمعية ترك كل شئ ومواجهة الخطر الخارجي الذي ظهرت بوادره باعلان (بلنتز) الذي اصدره امبراطور

النمسا وملك بروسيا وابديا فيه رغبتهما بإعادة النظام الى فرنسا والقضاء على الثورة.

في نيسان ١٧٨٩م أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ودخلت جيوشها بلجيكا، إلا ان الفرنسين هزموا أمام النمساويين ثم هددت جيوش النمسا وبروسيا العاصمة باريس فانتفض الشعب الفرنسي بكل حماس لحماية ثورته واخذ الشباب يتدفق للتطوع في الجيش حتى تمكن القوات الفرنسية بقيادة ديمورييه من تحقيق الانتصار وصد قوات النمسا وبروسيا في معركة فالمي.

- **المؤتمر الوطني ١٧٩٢-١٧٩٥:**

بعد وصول انباء أنتصارات فرنسية في فالمي أنهت الجمعية التشريعية أعمالها ، وحل محلها المؤتمر الوطني الذي كانت أعماله ألغاء الملكية وإعلان الجمهورية ثم محاكمة لويس السادس عشر وأعدامه في كانون الثاني ١٧٩٣م ، ثم أعلن المؤتمر عن أستعداد فرنسا لمساعدة كل أمة تطالب بحريتها وتريد التخلص من حكامها ، وهو الامر الذي أثار الدول الاوربية التي رأت في ذلك تهديد لإنظمة الحكم فيها ،لاسيما بعد أعلنت فرنسا تبنيها نظرية الحدود الطبيعية، لذا أعلنت الدول الأوربية عن تشكيل التحالف الاوربي الأول ضد فرنسا، الذي تكون من (بريطانيا، النمسا، بروسيا، هولندا، اسبانيا والبرتغال، وسردينا).

وقد تمكن هذا التحالف من ألحاق الجيوش الفرنسية، وصاحب ذلك تمردات وعصيان داخلي قاده أنصار الملكية، مما تطلب من قادة الثورة أتخاذ موقف صلب لمواجهة هذة التحديات وظهر ما أطلق عليه (العهد الارهابي) ورغم ما قيل عن هذا العهد إلا إنه أنقذ فرنسا من أخطار داخلية وخارجية كان من الممكن من أن تؤدي الى انهيار الجمهورية.

كما أن المؤتمر أنجز الكثير من الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فقد وضع قانون المدني الفرنسي وأنشاء المدارس وتأسيس متحف اللوفر وضع نظام جديد للمكاييل والمقاييس وهو النظام العشري، وعمل على سن الدستور وأنجز أواخر ١٧٩٥م وعرف بدستور العام الثالث للجمهورية. كما جرت محاوله أنقلابية فاشلة قادها أنصار الملكية لمهاجمة مقر المؤتمر الوطني إلا أن تدخل نابليون بونابرت الذي كان ضابطا شاباً في المدفعية، وبمهارته وخبرته العسكرية أستطاع إفشال هذ المؤامرة فرقي على أثرها إلى (قائد للجيوش الداخلية).

نتائج الثورة الفرنسية:

جاءت الثورة بنتائج آنية وأخرى على المدى الطويل كما أن نتائجها لم تقتصر على فرنسا بل عبرت الحدود إلى دول اخرى استنارت بقبس الثورة الفرنسية وما حققه الشعب الفرنسي خلالها من انجازات، **وأهمها**:

أولاً: ظهور نظام جمهوري بشكل عصري حديث يختلف عن اشكال النظم الجمهورية التي سبقته وانتشر هذا الشكل بين دول العالم وانتهى معه عهد الملكية المطلقة.

□

ثانياً: كتابة اول دستور للبلاد اقر بفصل السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية مما يحجم ويقلل من امكانية هيمنة سلطة على السلطات الاخرى رغم الانقلابات اللاحقة على الدستور الفرنسي .كما اقر الدستور بفصل الدين عن الدولة ومباديء سامية لم يسبقه لها دستور اخر من قبيل المساواة وحرية التعبير عن الراي والتفكير وعدم التمييز بين المواطنين بسبب الدين.

ثالثاً: تحررت السياسة الفرنسية من سلطة الكنيسة ورجال الدين كما الغيت امتيازات النبلاء ورجال الدين هؤلاء وهو الامر الذي استغلته البرجوازية المتوسطة للصعود خصوصا وان من نتاجات هذه الثورة هو تحرر النظام الاقتصادي للدولة ويتجه نحو الرأسمالية والاقتصاد الحر.

رابعاً: جاءت بمفاهيم جديدة وأحيت أخرى مثل الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية والتعليم المجاني واعتماد اللغة الفرنسية كلغة رسمية للدولة بأكملها مما أوجد لاحقاً عاملاً من عوامل الوحدة.

خامساً: يحدد كثير من المختصين السياسيين تاريخ الثورة الفرنسية كتاريخ لنشوء الدول القومية الحديثة التي تمثل الانظمة فيها إرادة شعوبها ورغم التعثر الذي أصاب مسار هذه الثورة والعقبات التي اعترتها لكنها دقت ناقوس الخطر ولحظة انطلاق زلزلت عروش ملوك أوروبا المستبدين مما جعلهم يناصبون العداء لهذه الثورة ويحاولون إجهاضها وفعلاً نجحوا بأعادة الملكية لكن لمدة قصيرة فأرادات كل حكام أوروبا لم تستطع الحيلولة

دون تحرر الشعب الفرنسي وقلب العروش على أصحابها لا بل أن الثورة الفرنسية امتد تأثيرها خارجا فأن لم تطح بالملوك فقد أطاحت بسلطتهم المطلقة وصلاحياتهم وأصبحوا مجرد حكام شكليين وتمكنت الشعوب من أن تحكم نفسها بنفسها.

٢- حكومة الادارة وظهور نابليون بونابرت:

- **حكومة الادارة ١٧٩٥م:**

بعد أن أجريت الانتخابات وفق الدستور الجديد أنفض المؤتمر الوطني لتحل محله حكومة الإدارة وتكونت هذه الحكومة من خمسة أعضاء يتم انتخابهم من المجلس النيابي ، وبدأت حكومة الإدارة عهدها بالإعلان عن برنامج شددت فيه على التزامها بالنظام الجمهوري وإنعاش الروح الوطنية والقضاء على التعصب لحزب معين، والوقوف بشدة وحزم بوجه أثارة الاضطرابات.

كان على هذه الحكومة أن تعالج الحالة الاقتصادية المتدهورة وأن تحصل على النصر النهائي في حروبها الخارجية واختارت نابليون لقيادة أحد جيوشها الثلاث، فتمكن من هزيمة الجيوش النمساوية والايطالية وحقق انتصارات باهرة عليها حتى اضطرت النمسا إلى طلب الصلح.

وخلال هذه المدة مرت فرنسا بأزمات سياسية بين حكومة الإدارة والمجلس التشريعي لاسيما بعد وصول أنصار الملكية والكاثوليكية الى هذا إلى المجلس فوجدت حكومة الإدارة أن القوة هي السبيل الوحيد لإنهاء هذه الازمة لصالحها وكان نابليون المنتصر في ايطاليا على استعداد لإمداد

حكومة الإدارة بالقوة اللازمة ضد السلطة التشريعية، فأرسل أحد ضباطه على رأس قوة عسكرية الى باريس في آب ١٧٩٧م وقامت بانقلاب ضمن لحكومة الادارة بموجبه السيطرة على الموقف ومنع الملكيين من القيام بأي عملية انقلابية ضد حكومة الادارة.

أدت هذه العملية لان يصبح نابليون رجل الساعة وسيد الموقف في فرنسا ثم حقق نابليون انتصاراً نهائياً على النمسا بعد أن تقدم إلى جبال الألب مهدداً فيينا في أوائل عام ١٧٩٧م، وفي ١٧ أكتوبر من العام نفسه وقّعت فرنسا معاهدة (كومبوفورميو)، التي بموجبها توسعت أراضي فرنسا، وعاد نابليون إلى باريس فاستقبل استقبال الأبطال. بقيت بريطانيا وحدها شاهرة السلاح بوجه فرنسا فوضع نابليون مع حكومة الإدارة خطة لضرب بريطانيا في الشرق باحتلال مصر لتهديد طريق بريطانيا إلى الهند فاحتل مصر عام ١٧٩٨، وقد واجه عدداً من المشاكل في مصر وسوريا، لا سيما بعد تدمير الأسطول الفرنسي من قبل نظيره البريطاني في معركة أبي قير البحرية مما ادى الى انقطاع الامدادات عن القوات الفرنسية في مصر، وكانت الأوضاع في فرنسا نفسها قد عادت إلى التدهور من جديد في شتى المجالات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية، وانتشرت الفوضى فقرر نابليون العودة إلى فرنسا تاركاً الجنرال كليبر محله في قيادة القوات الفرنسية في مصر.

٣-امبراطورية نابليون بونابرت:

كانت الظروف التي وصل فيها نابليون إلى فرنسا من مصر شبيه بتلك التي كانت سائدة قبل تدخله لإنقاذ حكومة الإدارة بل يمكن اعتبارها امتداداً لها، إذ عادت القوى السياسية بمختلف اتجاهاتها تهدد حكومة الادارة وتتنافس للسيطرة على الدولة، بينما سئم الشعب الفرنسي حالة الفوضى السائدة في المجتمع، حيث انعدم الأمن وانتشر اللصوص والسلب في الطرقات وأصبحت المدارس بلا معملين والمستشفيات بلا ممرضات ناهيك عن العجز المالي والتدهور الاقتصادي والخطر الخارجي المتمثل بالتحالف الأوروبي الثاني، لذلك أخذ الناس يتطلعون بعد عشر سنوات من الثورة والحرب إلى إقرار السلم وإقامة حكومة قوية.

وقد وجد بعض الساسة أن الجيش المتمثل بشخص نابليون هو الأداة التي تعيد الأمور إلى نصابها وفي مقدمة هؤلاء الاب (سييز).

أما عن نابليون فقد دخل باريس فإستقبله الشعب الفرنسي بحماسة بالغة مما جعل نابليون يدرك أن الناس والسياسيون لا يعتبرونه مسؤولاً عن الهزيمة في مصر، وإنما يقع عبئ ذلك على السلطة الحاكمة في باريس ومن هنا التقت القيادات السياسية مع نابليون ليمهدوا طريق صعوده إلى الحكم .

انقلاب بريمر:

مهّدت لهذا الانقلاب فكرة إقامة حكومة مستقرة، وكـان لا بـد مـن اعادة النظر في الدستور لتحقيـق ذلـك، وكـان هنـاك رفـض واضـح مـن المجلس التشريعي وبعض أعضاء الإدارة لإجراء مثل هذا التعـديل ، وقـد رأى مؤيدو نابليون أن

الجيش هو السبيل الوحيد لتحقيق ما يريدون فأخذوا يخططون بدقـة لقلب السلطة وقاد نابليون وأعوانه السياسيون حملة إعلاميـة كـان الهـدف منها إقناع الاطراف السياسية لفكـرة التعـديل الدسـتوري، طلـب أعـوان نابليون من أعضاء المجلس نقِـلَ إجـتماعهم إلى خـارج بـاريس مـدّعين أن مؤامرة تحاك من قِبَلْ اليعاقبة لقلب السلطة ،وهناك تقدم نـابليون ليعـرض على النواب برنامجه وأهدافه لإصلاح البلاد والقى بهذا الشأن خطاباً إلا انه فوجئ بنداءات مضادة تحذر من ظهور دكتاتور جديد في شخص نابليون، عندها طلب رئيس المجلـس لوسيان(شـقيق نـابليون) مـن الجنـود الـذين طوقوا مكان الاجتماع بتفريق المعارضين بالقوة ولم يبق سـوى المـواليين لـه الذين صوتوا لصالح التعديلات الجديدة، والتي قررت استلام السلطة من قبل ٣ قناصل: (نابليون و سيز وديكو) بدلاً من حكومة الادارة.

قابل عموم الناس هـذا التغيـير الـذي عـرف بـإنقلاب بريمـر عـام ١٧٩٩ بهدوء تام ولم يظهر أي أسف على حكومـة الإدارة الضـعيفة بـل أن الكثير من الفرنسيين استبشروا خيراً بالسـلطة الجديـدة التـي يقـف عـلى رأسها نابليون معتبرين ان عهد جديدا قد بدأ في فرنسا، إلا ان هذا لا يعنـي أن البعض لم يجد في ذلك بداية لعهد الدكتاتورية العسكرية.

ولإعطاء الانقلاب صفة شرعية، فقد وضع في عـام ١٧٩٩ دسـتور جديد لفرنسا نص على وضع السلطة التنفيذية بيد ثلاث قناصـل ينتخـبهم مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات. وقد انتخب المجلس ثلاث قناصل، وهم (نابليون بونابرت و سييس و ديكو)، لتولي السلطة عـلى أن يكـون نـابليون القنصل الأول

ومنحـه سـلطات واسـعة، حـق إعـلان الحـرب وعقـد المعاهـدات وإصدار القوانين وتعيـين الـوزراء وكبـار المـوظفين ورئاسـة الجـيش، أمـا القنصلان الآخران فكانـا مسـاعدين لـه وكانـت الهيئـة التشرـيعية، طبـق لدستور سنة ١٧٩٩ مكونة من ثلاث مجالس، مجلس الشيوخ الذين يعينون أعضائه مدى الحياة مـن قبـل القناصـل وكانـت مهمتـه انتخـاب أعضـاء المجلسين الآخرين، ومجلس التربيون الذي يتكون من مائـة عضـو وتكـون مهمته دراسة مشروعات القوانين التي يقدمها مجلس الدولة، أمـا المجلـس الثالث هو المجلس التشرـيعي الـذي يتكـون مـن ثلاثمائـة عضـو ومهمتـه التصويت على مشرـوعات القـوانين. وبهـذا الشـكل المعقـد مـن السـلطة التشريعية سيطر نابليون ووزرائه على السلطة.

السياسة الخارجية:

ورث نابليون عن حكومة الإدارة مشاكل خارجية تتعلق بالتحـالف الاوربي الثاني المكون من (بريطانيا النمسا، روسيا، الدولة العثمانيـة) وقـد أنسحبت روسيا من هـذا التحـالف بعـد هزيمتهـا مـن القـوات الفرنسـية وكذلك أن بـول الاول (إمبراطـور روسـيا) كـان مـن المعجبـين بنـابليون وأصبح صديقا له.

ثم تمكن نابليون من هزيمة النمسا في معركة حاسمة في حزيران ١٨٠٠ وهددت قواته فينيا مما دفع بالنمسا الى طلب الصلح مع نابليون فعقد صلح (لونفيل) عام ١٨٠١م والذي انسحبت فيه النمسا نهائياً من أيطاليا واعترفت بالجمهوريات التي أقامها نابليون فيها، وبذلك أنهار التحالف الاوربي الثاني ولم يبق صامداً أمام نابليون سوى بريطانيا، وكان نابليون يدرك استحالة الانتصار على لبريطانيا ما دامت السيادة للأسطول البريطاني في البحر لذا قرر

فرض حصار بحري على بريطانيا بمساعدة حلفائه الأوربيين، فكون في كانون ١٨٠٠ حلفاً ضم روسيا والدنمارك والسويد وبروسيا عرف بـ(عصبة الحياد المسلح) لتضيق الخناق على بريطانيا والاضرار بمصالحها التجارية وعزلها عن أوربا، الا أن هذا الحلف فشل في تحقيق أهدافه لقوة الاسطول البريطاني من جهة، واغتيال القيصر الروسي من جهة أخرى مما أدى الى أنفراط عقد هذا التحالف.

وعلى الرغم من من فشل مشروع الحصار القاري على بريطانيا إلا أن الاوضاع الداخلية فيها أدت الى قبولها عقد الصلح مع فرنسا والذي عرف بصلح (أميان) عام ١٨٠٢م ، والذي أعترفت بموجبه بريطانيا بالتغيرات التي أجراه نابليون في أوربا وقد عد هذا الصلح نصراً كبيراً لقنصلية نابليون لحصولها على أعتراف بريطاني بالتغيرات التي حدثت في فرنسا أثر الثورة الفرنسية.

الامبراطورية النابليونية:

ظهرت الامبراطورية الفرنسية للوجود مع تتويج نـابليون بونـابرت إمبراطورا لفرنسا في الثاني من كانون الاول ١٨٠٤م وقـد مهـدت لظهـور الامبراطورية النابليونية عوامل خارجية وداخلية هي:

أولاً: العوامل الخارجية:

١. عدم التزام بريطانيا ولفرنسـا بصـلح أميـان حيـث بـدأ كـل طـرف يتصـرف وفق مصالحه الخاصة دون الاهتمام بمعاهدة الصلح.

٢. أظهرت تحركات نابيلون لبريطانيـا عـن تصـميمه لتحويـل مـوازين القوى أوربا والشرق لصالح فرنسا حيث بدا يتطلع لترسـيخ أقـدام فرنسا في المستعمرات وعقده معاهدات صداقة مع دول الشرق وهو الأمر الذي رات فيه بريطانيا تهديداً لمصـالحها ممـا دفعهـا إلى معـاداة فرنسا وأصبحت ملجا لأنصار الملكية الهاربين من فرنسا.

٣. رأى الشعب الفرنسي في هذه الاحداث والموقف البريطـاني المعـادي للثورة والمؤيد لعودة ال بوربون للحكـم تهديـدا لفرنسـا ، ممـا دفـع بالشـعب إلى التفكـير بتعزيـز مكانـة نـابليون مـن خـلال اعلانـه امبراطورا للبلاد .

ثانيا: العوامل الداخلية :

١- ظهور عدد من المؤامرات الداخلية المدعومة من بريطانيا للإطاحـة بحكم نابليون من خلال محاولات اغتياله.

٢- كشفت هذه المؤامرات للشعب الفرنسي جسامة الخطر المحدق بفرنسا لا سيما وأن عدد من القادة السياسيين والعسكريين كانوا ضالعين فيها .

٣- وجد الشعب والمجلس التشريعي أن أفضل حل لقطع دابر هذه المؤامرات وتقوية النظام هو جعل الحكم وراثياً مما يفقد الملكيين كل أمل في استعادة العرش .

٤- وفي اقتراح من احد اعضاء المجلس التشريعي تم ادخال المبدأ الوراثي في الحكم في عام ١٨٠٤ وفي السنة نفسها منح نابليون لقب الامبراطور وجرى تتويجه في كانون الاول ١٨٠٤ من قبل البابا بيوس الثاني عشر.

٥- سقوط نابليون.

حروب الامبراطورية النابليونية :

لم يستمر صلح اميان بين فرنسا وبريطانيا طويلاً وأخذت العلاقة بينهما تزداد سوءاً لاسيما بعد احتلال فرنسا لبعض الموانئ ذات الاهمية التجارية لبريطانيا في هولندا وايطاليا وسواحل هانوفر، وأخذ نابليون يعد العدة لغزو الجزيرة البريطانية وكانت خطته تقوم على اساس أبعاد الاسطول البريطاني والقيام بأنزال سريع على الشواطئ البريطانية بعد ان يقوم الاسطولان الفرنسي والأسباني باستدراج الاسطول البريطاني بعيدا عن الساحل البريطانية إلا أن هذه الخطة فشلت عندما انتصر الاسطول

البريطاني على الاسطولين الفرنسي والاسباني في معركة (الطرف الاغر) بالقرب من السواحل الاسبانية في تشرين الاول ١٨٠٥ وكانت بريطانيا قد اقنعت النمسا وروسيا بالدخول في حلف معها ضد نابليون عرف ب(التحالف الأوربي الثالث).

وقبل محاولة غزو بريطانيا، أمر نابليون جيشه المتمركز بشمال فرنسا بالزحف سرًّا على ألمانيا، فأحاط الجيش الفرنسي بالقوات النمساوية التي كانت على وشك أن تُهاجم فرنسا، قاطعًا بذلك خطوط التواصل بينها، وهزمها هزيمة كبيرة بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥ في معركة" أولم".

وبعد ستة أسابيع من هذه الحادثة، وفي اليوم الذي يوافق الذكرى الأولى لتربع بونابرت على العرش، هزم الجيش الفرنسي الجيشين النمساوي والروسي في واحدة من اشهر معارك التاريخ "معركة أوسترليتز". كانت نتيجة هذا الانتصار أن انتهت حرب التحالف الثالث، فأمر نابليون عند ذلك بالبدء ببناء

قوس النصر في وسط مدينة باريس لتخليد ذكرى هذا النصر، ثم توجه إلى مدينة ؟يينا عاصمة النمسا، وفرض عليها شروطًا قاسية للصلح. اضطرت النمسا إلى أن تتنازل عن المزيد من الأراضي لصالح فرنسا، وأن توقع على معاهدة سلام پراسبورغ التي قضت نهائيًا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأدّت لولادة "اتحاد الراين الذي سُمي نابليون "مرشدًا" و"حاميًا" له.

التحالف الاوربي الرابع

تشكل التحالف الرابع لمحاربة فرنسا في سنة ١٨٠٦، بعد هزيمة النمسا وروسيا في معركة أوسترليتز، وضمّ كل من:(بروسيا، روسيا، بريطانيا، ساكسونيا، السويد، وصقلية) وفي ذات السنة وقع خلاف بين نابليون وبروسيا، فتقدمت الجيوش الفرنسية بسرعة خاطفة وهزمت البروسيين في "معركة يينا" واحتلت عاصمتهم برلين، فانسحب "فريدريك وليم الثالث" ملك بروسيا إلى ناحية الشرق كي ينضم لحليفته روسيا التي أرسلت جيشًا لنجدته..

فالتقى نابليون بالجيشين الروسي والبروسي معًا في معركة (فريدلاند)، وبعد هذا النصر الحاسم، أبرم نابليون معاهدة عُرفتا باسم "معاهدة تلست" ، فاقتسم بموجب إحداها السلطة في أوروبا مع القيصر الروسي "ألكسندر الأول"؛ أما الثانية التي أُبرمت مع بروسيا، فقد اقتطع جزء من اراضيها وفرض عليها تعويضات حربية باهظة وهكذا انتهى التحالف الأوربي الرابع.

أما أهم أسباب انتصار نابليون في معاركه أمام الجيوش الأوربية فيمكن إجمالها بما يلي:

١- ضعف التحالفات الأوربية نتيجة الخلافات السياسية بين الدول الأوربية.

٢- عدم وجود قيادة موحدة عسكرية للجيوش المتحالفة.

٣- إيمان الجيش الفرنسي بأنه يحمل رسالة سامية فضلاً عن تناسقه وانضباطه العالي.

٤- قوة الجبهة الداخلية في فرنسا.

٥- كان لذكاء نابليون وقدراته ومهارته العسكرية الفائقة وشعبيته الواسعة آثر كبير في الانتصارات الفرنسية.

الحصار القاري:

لمّا أخضع نابليون أوروبا كلها تقريباً لسيطرته وعجز عن بريطانيا، عمد إلى محاربتها اقتصادياً. فحرّم على جميع الدول الأوروبية المتاجرة معها، عن طريق إصداره لـ(مرسوم برلين)، حرم بموجبه جميع أعمال التجارة كالاستيراد والتصدير مع بريطانيا كما حرم على السفن البريطانية الرسو في الموانئ الاوربية وستصادر بضائعها واعلنت كل من روسيا وبروسيا والنمسا والسويد والدنمارك التزامها بمراسيم الحصار القاري. إلا أن هذه الحرب الاقتصادية لم يُكتب لها النجاح، إذ أن بريطانيا ردّت عليه بالمثل، فمنعت المتاجرة مع فرنسا، وضربت حصارًا على القارة الأوروبية، كذلك نشطت أعمال التهريب من وإلى بريطانيا، ولم يستطع ضبّاط الجمارك الفرنسيون أن يفعلوا شيئاً لإيقافها، كما

واجهت نابليون مشكلة عدم التزام بعض الدول الاوربية بالحصار ومنها البرتغال التي قرر نابليون مهاجمتها بالاتفاق مع اسبانيا فاحتلها بسهولة ثم قرر احتلال اسبانيا ايضا فابقى جيشه فيها بحجة الحلف القائم بين الدولتين، وأجبر ملكها "كارلوس الرابع" على التنازل عن العرش، وتوّج أخاه "جوزيف" ملكًا عليها في سنة ١٨٠٨ الا ان هذه المسالة كانت بداية النهاية لنابليون فقد ثار عليه الشعب الاسباني الذي حصل على مساعدة بريطانيا ومن ثم تبعه شعب البرتغال في الثورة المسلحة وتمكن

الثوار من تحقيق الانتصارات على القوات الفرنسية وكانت هذه الانتفاضة بداية لانتفاضات قومية في جميع أنحاء أوربا ضد نابليون أدت إلى فشل الحصار القاري.

✍ عوامل الضعف في امبراطورية نابليون وسقوطها:

ا. بدايات الضعف:

كانت معركة بايلن التي انهزم فيها الفرنسيون أمام المقاومة الاسبانية في تموز ١٨٠٨ وخروجهم من العاصمة مدريد تمثل الصدع الأول في امبراطورية نابليون حيث كان لها صدى واسع في أوربا شجع الدول الاوربية على التخلص من حكم نابليون. فعندما كان نابليون منهمكاً في إخضاع الثورة الإسبانية، قامت النمسا فجأة بفض تحالفها مع فرنسا وبدعم من بريطانيا بعد أن تحالفت معها في التحالف الأوربي الخامس، وذلك في شهر أبريل من عام ١٨٠٩، وهبت للانقضاض على بونابرت بتحريض من بريطانيا، فاضطر نابليون إلى أن يترك إسبانيا ويقود الجيش الفرنسي ليقهر الجيش النمساوي في "معركة وگرام".

توجه نابليون بعد انتصاره إلى مدينة؟يينا، عاصمة النمسا، حيث أملى شروط الصلح ووقع مع النمساويين "معاهدة فيينا" في تشرين أول ١٨٠٩، التي قضت بسلخ أجزاء مهمة أخرى من الإمبراطورية النمساوية المجرية وكانت انتصارات نابليون هذه المرة غاية في الصعوبة ولم يتمكنمن التوغل في النمسا.

كما أن تذمر الشعوب الأوربية من الضائقة الاقتصادية التي كانت تعيشها نتيجة الحصار القاري، فضلاً عن مطالبات نابليون بالأموال اللازمة لحملاته العسكرية، دفعها للتحرك من أجل التخلص من قيود ذلك الحصار.

٢. حملة روسيا ومعركة الأمم:

بدأت العلاقات تتدهور بين نابليون وقيصر روسيا الكسندر الأول لأسباب منها عدم ايفاء نابليون بوعوده للقيصر الروسي بتحقيق مطامعه بالسيطرة على الأستانة ومضائق البسفور والدردنيل للوصول الى المياه الدافئة وكذلك فإن الحصار القاري قد أضر بروسيا كثيراً باعتبارها بلدا زراعياً وبحاجة الى المواد الصناعية فاضطر القيصر الى السماح بدخول البضائع الانكليزية عام ١٨١١ فاعتبر نابليون ذلك عملاً عدائياً وخروجاً على صلح تلست ثم طالب القيصر من نابليون بالتخلي عن تنظيماته في ألمانيا (اتحاد الراين) وأن يجلو بجيوشه عن بروسيا فكان رد نابليون أن هيأ جيشاً تعداده ٧٠٠٠٠٠مقاتل من مختلف القوميات الأوربية لغزو روسيا عام ١٨١٢ فانتصر على الجيش الروسي في معركة سمولنسك وانسحب الروس الى داخل أراضيهم الواسعة وتبعهم

نابليون حتى دخل موسكو فوجدها خالية مـن السـكان وأنتظـر أن يعرض عليه القيصر الصـلح لكنـه لم يفعـل وبعـد شـهر انسـحب الجـيش الفرنسي من موسكو بعـد أن بلغـت نـابليون أنبـاء مقلقـة عـن اضـطراب الأوضاع في فرنسا وخوفه من فقدان سلطته.

عانى الفرنسيون معاناة كبـيرة أثنـاء انسـحابهم وذاقـوا الأمـرّين، إذ تعاون برد الشتاء الروسي القارس حليف روسيا الصامد والمرض وهجمات الفلاحين القوقاز عليهم على إفناء الجيش فلم يسلم منه إلا عدد قليل حيث لم يصل منهم الا ١٠٠٠٠٠ جنـدي. ثـم شـكلت الـدول الاوربيـة تحالفـاً جديـد ضـد نـابليون عـرف (بالتحـالف الاوربي الخـامس) وتكـون (مـن بريطانيا روسيا وبروسيا النمسا) وقد واجه نابليون هـذا التحـالف بقـوات قليلة الخبرة لأن أغلبها كانوا شباباً صغار السن.

وفي تشـرين الاول ١٨١٣م ، وقعت معركة (لا يبزك) أو مـا يعـرف بمعركة الأمم ودامت أربعة ايام وانتهت بهزيمة نابليون وتراجعه إلى داخل حدود فرنسا القديمة فتواصلت الجيوش الأوربية تقدمها واحتلت بـاريس في آذار ١٨١٤م حيث أعلن نـابليون عـن تنازلـه عـن العـرش وسـافر الى جزيرة البا.

ثم عقدت معاهدة باريس الاولى في أيار ١٨١٤م والتي تم فيها أعادة النظام الملكي إلى فرنسا بزعامة لـويس الثـاني عشرـ ولم تكـن شروط هـذه المعاهدة قاسية لأن الحلفاء لم يرغبوا بإثارة الشعب الفرنسي ضد ال بوربون

ولم يـراع لـويس الثـامن عشرـ مشـاعر الشـعب الفرنسيـ وعقائـده الجديدة التي أنتجتها الثورة الفرنسية إذ وضع دستوراً أعلن نفسة بموجبـه ملكاً وفق نظرية الحـق الإلهـي ومـنح النـبلاء مناصـب وامتيـازات كبـيرة وفرض الرقابة على الصحافة واعاد علم البوربون الأبيض .

أما في المجال الاقتصادي فقـط تأزمـت الامـور وانتشـــرت البطالـة وصار الشعب يتمنى عودة نابليون وكانت الـدول المنتصرـة قـد فشـلت في التوافق في مؤتمر فينيا عام١٨١٤م ، ودب الخلاف فيما بينها فشجعت هـذه الأوضاع نابليون على العودة إلى فرنسا فدخل باريس في أذار ١٨١٥م وعاد إلى اسـتلام إلى السـلطة بعـد هـروب لـويس السـادس عشرـ الى بلجيكـا فسارعت الدول الاوربية إلى نسيان خلافاتها لتجهيز حملة عسكرية لإسقاط نابليون وقد التقت هـذة القـوات مـع الجـيش الفرنسيـ في معركـة واترلـو الفاصلة في حزيران ١٨١٥م والتي انتهت بهزيمة نابليون وانتهى عهـده إلى الابد بنهاية المائة اليوم الأخيرة من حكمه حيث حملته إلى منفاه في جزيـرة (سانت هيلانة)والتي توفي فيها ١٨٢١م .

أما الحلفاء فقد دخلوا باريس في تمـوز ١٨١٥ وفرضـوا عـلى فرنسـا معاهدة باريس الثانية والتي نصت على أن تدفع فرنسا غرامة فرنسية واعيد جدودها إلى حدود عام ١٧٩٠ وأعيد لويس الثامن عشر الى الحكم.

✍ **أسباب سقوط نابليون:**

١. كان نابليون شديد الاعتماد على نفسه مؤمناً بذاته ولم يكن يثق بأقرب رجاله ولاتساع إمبراطورتيه فقد كان من الصعب عليه إدارتها بأكمل وجه.

٢. حمل نابيون الشعوب الخاضعة له أكثر من طاقتها حيث استنزفت حروبه الكثير من أموالها ورجالها كما أن طول فترة الحرب أدت الى تذمر الجيش الفرنسي وانعدام الحماسة لدية.

٣. كان للحصار القاري وما أفرزه من نتائج من العوامل المهمة في سقوط نابليون.

٤. الانتفاضات القومية للشعوب القومية .

٥. عدم أهتمام نابليون في مشاعر الشعوب وتنصيب قاربه ملوكا عليه أدى الى سخط هذه الشعوب عليه وسقوطه.

ثانياً: العلاقات الدولية بين ١٨١٥-١٨٣٠:

- **مؤتمر فيينا لسنة ١٨١٥م:**

أ- الظروف الممهدة لمؤتمر فيينا: في فترة ١٧٩٩ – ١٨١٤م، توسعت فرنسا بقيادة نابليون بونابرت على حساب الدول الأوربية المجاورة، فتحالفت عسكريا كل من الإمبراطورية النمساوية المجرية وبريطانيا وروسيا القيصرية وبروسيا ضد فرنسا، مما ادة الى انهزام فرنسا، وتمت بذلك الإطاحة بحكم نابليون.

ب- **قرارات مؤتمر فيينا:** انعقد مؤتمر فيينا وجمع الدول المنتصـرة لإعـادة ترتيب أوضاع القارة الأوربية ودعم الأنظمة المحافظة بها ما بـين شتنبر ١٨١٤ وإلى غاية يونيو ١٨١٥م، حيث اجتمع ملوك أوربا ومعهم

ت- عشرات الوزراء والدبلوماسيين بفيينا بهدف إحقاق السـلم داخـل أوربا بعد الاضطرابات التي خلفتها الثورة الفرنسـية والحـروب النابوليونيـة، وقـد هيمنـت القـوى الكـبرى (بروسـيا، روسـيا، النمسا، بريطانيا) على أشغال المؤتمر بقيـادة المستشـار النمسـاوي مترنيخ، **وكرست مقرراته المبادئ الآتية:**

١. **الشرعية:** إعادة الأنظمة التقليدية التي كانت سائدة قبـل الثورة الفرنسية.
٢. **التوازن الأوروبي:** إعادة فرنسا إلى حدودها الدوليـة مقابـل توسع الدول المنتصرة عليها.
٣. **التحالف المحافظ أو الحلف المقدس:** وتـألف مـن أربـع دول هي: روسيا – بروسيا – النمسا – فرنسا.

وقد دأبت الدول الاوربية بعد فترة الحـروب النابليونيـة الى تكـوين عصبة دولية تنظم علاقات الشعوب المختلفة واقامة السلام دائـم في اوربـا واقامة جهاز تحكيم لمنع اسباب الحرب ولكن هذه الجهود لم تلق الا نجـاح يسير ، وقد دفع استقرار الاحوال في فرنسا وقيـام انتفاضـات وثـورات في الدول الاوربية المتضر ـرة مـن قـرارات مـؤتمر فيينـا الى عقـد سلسـلة مـن المؤتمرات لمتابعة تطبيق قرارات مؤتمر فيينا.

- **الحلف المقدس ١٨١٥ :**

اقترح قيصر روسيا الاسكندر الاول في ٢٦ ايلـول ١٨١٥ تشـكيل تحالف مقدس وفـق تعـاليم الـدين المسـيحي وان يتبـادل الملـوك المشـورة والمعونة فيما بينهم لكن مشروع القيصر المتدين لم يلقى التاييد من باقي دول اوربا لغموض فكرة تنظيم العلاقات الدولية انـذاك وقـد أثـارت المحالفـة المقدسة دهشة رجال السياسة ورجال الدين على السواء، وعلى سبيل المثـال فقد وصفها"مترنيخ" بأنهـا: "طبـل أجـوف وفـيض مـن عواطـف التقـى والورع التي تجيش في صدر القيصر- إسـكندر"، كـما وصـفها "كاسـلريه" وزيـر خارجيـة إنجلـترا بأنهـا "تمثِّـل خليطـا.(مـن الصـوفية والكـلام الفارغ"وقد امتنعت بريطانيا عـن التوقيـع عـلى وثيقـة المحالفـة المقدسـة؛ بدعوى أن الدستور يمنع الملك أو الوصي على العـرش مـن ذلـك وبـذلك قتلت الفكرة في مهدها دون ان تعمل أي فرصة لتنفيذها ، وفي المقابل فقـد انضمت دول عديدة إلى المحالفة مراعاة لشـعور الإسـكندر، كـما انضـمت إليها فرنسـافي محاولـة للخـروج مـن عزلتهـا وظهـر ان قيصر- روسـيا قـد اصدرهذا الحلف لهوى في نفسه وقدم له بمظهر ديني تصوفي مدعيا انه يريد ان يطبق المبادىء المسيحية على ما يدور في اوربا مـن امـور سياسـية بهـدف خلق ضمير سياسي بـين حكـام القـارة وان تسـود روح الاخـوة بيـنهم في اتصالاتهم ولكن وزير خارجية بريطانيا اعتبر ذلـك مظهـرا زائفـا يكسـوه لباس التصوف البراق وبذلك فشل هذا الحلف.

- **مؤتمر اكس لاشابيل ايلول ١٨١٨:**

عقدت الدول الأربع الكبرى (إنجلترا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا) هذا المؤتمر في ايلول عام ١٨١٨ والهدف الاساس من عقد هذا المؤتمر مناقشة

العقوبات التي فرضتها معاهدة باريس الثانية على فرنسا ذلك لأنها أظهرت تقييداً لمقدرات مؤتمر فينا ورغبة واضحة في السلام وحفظ التوازن الدولي وتمسك بالنظم التقليدية الملكية كما أن لظهور أفكار ثورية مناهضة للحكم الإستبدادي القائم دفع حكام الدول الاستبدادية إلى مقاومة هذه الحركات الثورية التي تهدد استقرار الأنظمة الإستبدادية القائمة. وقد اجتمع في اكس لاشابيل (وهي أحد مدن وستفاليا في ألمانيا) أمبراطور النمسا يرافقه وزير الخارجية مترنيخ وقيصر روسيا الاسكندر الأول وفرودريك وليم الثالث ملك الدولة المضيفة بروسيا وقام بتمثيل بريطانيا وزير خارجيتها كاسلريه وعن فرنسا ريشيليو رئيس وزرائها وقد وافق المندوبون عن الجلاء عن الأراضي الفرنسية قبل نهاية شهر تشرين الثاني ١٨١٨ على ان تقوم فرنسا بدفع جميع ما تبقى عليها من تعويضات وغرامات مرة واحدة .

✍ **وأهم قراراته ما يلي:**

١. حل لجنة المراقبة الدولية، وسحب جيوش الحلفاء من الأراضي الفرنسية المحتلة بعد أن دفعت فرنسا التعويضات المقررة عليها إلى الحلفاء.

٢. السماح لفرنسا بالانضمام إلى الحلف الرباعي الذي تحول إلى حلف خماسي.
٣. أقر المؤتمر إلغاء تجارة الرقيق و ذلك باقتراح من بريطانيا(كاسلري) لكن رغم التحالفات والمؤتمرات التي عقدت ب هدف وضع حد للتيار الحر المتصاعد بأوربا إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام رغبة
٤. الشعوب في الحرية واندلعت نتيجة تطور الوعي عدة ثورات تستهدف القضاء على الحكم الأجنبي وعلى النظام الإستبدادي .

- **مؤتمر تروباو (تشرين الثاني ١٨٢٠):**

كان قيصر روسيا قد اقترح على المؤتمرين في إكس لاشابيل إنشاء تحالف أوروبي عام تُخول بمقتضاه القوى الكبرى حقَّ التدخُّل لقمع أية ثورة تندلع في مواجهة أي من العروش الأوروبية، غير أن هذا الاقتراح قوبل بالرفض من جانب القوى الأربع الأخرى ولا سيما إنجلترا؛ حيث كان "كاسلريه" يؤكِّد دوما رفض بلاده لمبدأ التدخُّل في الشئون الداخلية للدول الأخرى. ومع إندلاع الثورة في إسبانيا وقيام النظام الدستوري بها في يناير ١٨٢٠ أصاب الخوف القيصر الروسي؛ حيث خشي إسكندر الأول من انتقال عدوى الثورة إلى بلاده لا سيما وأنها كانت تعيش في ظروف مماثلة لتلك التي كانت سائدة في إسبانيا عشية الثورة. ومن هنا فقد هب القيصر إسكندر الأول مطالبا بعقد مؤتمر يضم سائر ملوك أوروبا لاستنكار المستجدات التي شهدها الصعيد الإسباني، والمطالبة بالتدخُّل

لإلغاء الدستور الإسباني ولو بقوة السلاح، غير أن "كاسلريه" أعلن – أيضاً هذه المرة– رفض بلاده لمبدأ التدخُّل بالقوة في الشئون الداخلية للدول الأخرى قائلاً: إنه ما من بلد ذي نظام حكم نيابي يوافق على التصرف وفقاً لذلك المبدأ، وأضاف "كاسلريه" أنه يعتبر الثورة الإسبانية مسألة داخلية لا تشكِّل خطراً على البلاد الأخرى؛ وبالتالي فانه لا يرى مبرراً لتأييد إنجلترا أية محاولة لقمع تلك الثورة بالقوة، كما أوضح "كاسلريه" لدبلوماسيي أوروبا أن إنجلترا تدين بأسرتها المالكة الحالية ودستورها لثورة داخلية، وبالتالي فإنها لا تستطيع أن تنكر على البلاد الأخرى هذا الحق نفسه في تغيير شكل حكوماتها.

أما بصدد الموقف النمساوي من مبدأ التدخُّل فإن"مترنيخ" كان في بداية الأمر يرفض هذا المبدأ، غير أنه عاد ووافق على المبدأ غداة اندلاع الثورة في نابولي في يوليو ١٨٢٠، أما فرنسا فقد كانت ترفض مبدأ التدخُّل شأنها في ذلك شأن إنجلترا، وعلى ذلك فقد تعددت اجتماعات ممثلي الأوتوقراطيات الثلاث الكبرى الأخرى (النمسا – روسيا – بروسيا) حيث أسفرت هذه الاجتماعات عن عقد بروتوكول تروباو، الذي تم التوقيع عليه في ١٩ تشرين ثاني١٨٢٠ ، وفي حين رفضت إنجلترا التوقيع على هذا البروتوكول انضمت إليه فرنسا؛ خشية العزلة وهكذا فقد أقرت القوى الأربع الموقِّعة على بروتوكول تروباو (النمسا – روسيا – بروسيا – فرنسا) مبدأ التدخُّل لقمع الثورات وحماية العروش، كما اتَّفقت هذه

القوى–بمقتضى البروتوكول ذاته– على استبعاد أية دولة طرف في الحلف منه إذا ما اندلعت فيها ثورة أحدثت تغييرا في نظامها السياسي الداخلي، كما أنه يحقُّ للحلفاء التدخُّل لإعادة هذه الدولة إلى حظيرة التحالف بالوسائل الودية، فإن لم تفلح هذه الوسائل في بلوغ هدفها لجأ الحلفاء إلى القوة.

- **مؤتمر لايباخ (كانون الثاني ١٨٢١) :**

كان المؤتمرون في تروباو قد اتَّفقوا على عقد مؤتمر في ليباخ؛ بغية الاتفاق على الإجراءات الكفيلة بتنفيذ مقررات تروباو فيما يتَّصل بالمسألة الإيطالية، وبالفعل فقد عقِدَ مؤتمر لا يباخ بدءا من كانون الثاني عام ١٨٢١ وحضره إمبراطور النمسا وقيصر روسيا و"مترنيخ" و"فرديناند الأول" ملك نابولي،حيث تم الاتفاق على إلغاء دستور نابولي، وأُنِيط بالنمسا مهمة تنفيذ هذا الإلغاء بالقوة العسكرية.

وهكذا فقد تحقق للنمسا ما كانت تصبو إليه؛ فتحت غطاء التكليف الأوروبي راح الجيش النمساوي يتدخَّل في نابولي – مع نهاية فبراير ١٨٢١ – حيث تمكَّن من إخماد الثورة الدستورية، وإعادة سلطة "فرديناند الأول"المطَلقة .وقبل أن يختتم المؤتمرون في ليباخ أعمال مؤتمرهم استنجد بهم ملك سردينيا ضد رعاياه الثائرين؛ فسارعت النمسا بإرسال جيشها لإخماد الثورة في بيدمونت، وإعادة النظام القديم إلى سردينيا.

يبقى أن نشير إلى أن مؤتمر ليباخ قد انفض في ايار١٨٢١ حيث أصدر بياناً ختامياً جاء فيه: "إن الهدفمن التحالف الأوروبي إنما هو تأييد المعاهدات القائمة،والمحافظة على السلام العام وتحقيق سعادة الأمم، وأن

التغييرات التشريعية والإدارية داخل الدول يجب أن تأتي من جانب أولئك الذين أعطاهم الله مسئولية الحكم في هذه الدول". وهكذا يكون مؤتمر لايباخ قد أكَّد على مبدأين رئيسيين أعلن المؤتمرون تمسكهم بهما، **ويتمثَّل هذان المبدآن في:**

١. مبدأ شرعية تدخُّل الكبار لإخماد الثورات الدستورية وحماية العروش داخل كافَّة الدول الأوروبية، وهو المبدأ الذي بمقتضاه سمِحَ للنمسا بإخماد الحركات الثورية الدستورية في الأراضي الإيطالية.

٢. مبدأ الحق الإلهي للعروش في تقرير مصائرالشعوب، وهو المبدأ الذي ورد بارزاً في البيان الختامي لمؤتمر ليباخ، والذي جاءفيه أن أية تغييرات تشريعية أو إدارية داخل أية دولة هي بيد ملكها، وملكها وحده.

ونظراً لارتباط المؤتمرين في ليباخ بهذين المبدأين فقد أعلنت الحكومة الإنجليزية استنكارها لمقررات المؤتمر، وعدم اعترافها به، وتنصلها من تبعاته.

• **مؤتمر فيرونا (تشرين الاول ١٨٢٢):**

حضر هذا المؤتمر كلٌّ من إمبراطور النمسا، وقيصر روسيا، وملوك بروسيا وسردينيا ونابولي، فضلاً عن "مترنيخ"، ووزير خارجية فرنسا، وممثّلين لإنجلترا، ولقد انصب اهتمام المؤتمر على مناقشة المسألة الإسبانية، ففي ٣٠ تشرين الأول ١٨٢٢ قرر المؤتمر التدخُّل المسلَّح في شئون إسبانيا برغم رفض إنجلترا لهذا العمل، وتأكيد ممثِّليها رفض بلدهما لمبدأ التدخُّل في الشئون الداخلية للدول الأخرى. غير أن أعضاء المؤتمر فشلوا في أن يتدخَّلوا جماعيا لإخماد الثورة الإسبانية ،وإذا ب "فرنسا" تقرر أن تتدخَّل منفردة في إسبانيا، ويعود إقدام فرنسا على هذا الإجراء إلى اعتبارات تتعلَّق بسياستها الداخلية، ذلك بأن – الملكية الفرنسية العائدة إلى العرش كانت في حاجة إلى انتصارات عسكرية لتحل صورتها في أذهان الشعب الفرنسي محلَّ صور الانتصارات النابليونية .

على أية حال فقد كان انتصار الجيش الفرنسيفي إسبانيا أمراً ميسوراً؛ إذ سرعان ما تمت الإطاحة بالنظام الثوري، وإعادة الملك الإسباني إلى عرشه، ولم يكتفِ الفرنسيون بذلك وإنما أعلنوا عزمهم على التدخُّل لإخماد الثورات في المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد، غير أن انجلترا وقفت ل "فرنسا" بالمرصاد، وأعلن الإنجليز تصميمهم على استخدام القوة في مواجهة الجيوش الفرنسية إن هي حاولت عبور الأطلنطي، والتدخُّل في شئون أمريكا الجنوبية والحق أن هذا الموقف الإنجليزي المتشدد من فرنسا بصدد المسألة الإسبانية إنما كان يرتد إلى سببين، أولهما أن الإنجليز كانوا يرفضون مبدأ التدخُّل في الشئون

الداخلية للدول الأخرى، وهـو المبـدأ الـذي كـان وزيـر الخارجيـة الإنجليزي الجديد كانتج أشد من سلفه المنتحر "كاسلريه"تمسـكا بـه، أمـا السبب الثاني وراء الاستياء الإنجليزي من الموقف الفرنسـي بصدد المسـألة الإسبانية فيتمثَّل في أن مستعمرات إسبانيا في العالم الجديـد كانـت تربطهـا بإنجلترا علاقات تجارية عظيمة الشأن.

وبالإضافة إلى رفض إنجلـترا فكـرة تـدخُّل فرنسـا في المسـتعمرات الإسبانية كانت الولايات المتَّحدة الأمريكية قـد أكَّـدت – هـي الأخـرى- رفضها التام لتدخل أية دولة أوروبية في شـئون العـالم الجديـد، وقـد تمـت صياغة هذا الموقف الأمريكي بمقتضى مبدأ "مونرو" .

- **ثورات ١٨١٥ – ١٨٣٠ :**

أثارت مقررات مؤتمر فيينـا ردود فعـل قويـة مـن طـرف الشـعوب الأوربية، حيث انـدلعت عـدة ثـورات مسـتلهمة مـن مبـادئ وشـعارات وأفكار الثورة الفرنسية، هدفها إسقاط مقررات هذا المؤتمر، وقد شمل المـد الثوري دولاً مختلفة، ابتداء من ألمانيا التـي عرفـت انتفاضـة طلابيـة نـادت بالحد من سلطة الملكية وطالبت بوضع دستور للبلاد سنة ١٨١٧م، والتـي وجهـت بـالقمع العسـكري، أمـا بإيطاليـا فقـد انـدلعت انتفاضـة جمعيـة الكاربوناري سـنة ١٨٢٠م ضـد النظـام والاحـتلال النمسـاوي واجههـا الجيش النمساوي، وفي نفس السنة عرفت إسبانيا تحركا للجـيش الإسـباني مطالبا بوضع دسـتور للـبلاد فقمعـت مـن طـرف الجـيش الفرنسي سـنة ١٨٢٩م، وعرفت اليونان ثورة قومية تحررية ضد النظـام العـثماني توجـت بالحصول على الاستقلال، كما عاشت فرنسا سنة ١٨٣٠م ثورة الأيام

الثلاث (ثورة بورجوازية ليبرالية ضد الملك شارل العاشر الذي انحاز للمحافظين)، هذه الثورة أجهضت بعد تحالف البورجوازية الكبرى مع الملك لويس فليب، وعرفت بلجيكا ثورة قومية تحررية ضد هولندا انتهت باستقلال وحياد بلجيكا، وأخيراً عرفت بولونيا سنة ١٨٣١م ثورة تحررية ضد الهيمنة الروسية انتهت بقمعها على يد الجيش القيصري.

- **ثورات أوربا ١٨٤٨م (ربيع الشعوب) :**

انطلقت ثورات شعوب أوربا لسنة ١٨٤٨م من باريس (فرنسا) إلى روما وفيينا، ومن هذه الأخيرة امتدت إلى شمال ايطاليا وألمانيا وإلى القوميات الخاضعة للحكم النمساوي، في فرنسا أدت الأزمة الاقتصادية ورفض الحكومة لإصلاح نظام الانتخابات إلى صراع سياسي بين الأحزاب فتم إسقاط حكم لويس فليب وإعلان الإمبراطورية سنة ١٨٥١م، وبإيطاليا أعلن النظام الجمهوري يروما وطردت القوات النمساوية من المدن التي كانت تحتلها والتي طبقت بها دساتير محلية إلا أن النمسا قمعت هذه الثورات، كما تدخلت فرنسا لإعادة البابا لروما، أما بألمانيا كانت للثورة مطالب قومية (توحيد البلاد)، لكنها فشلت بسبب رفض ملك بروسيا الانضمام إليها خوفا من الاصطدام مع النمسا وروسيا، وبالنمسا قامت الثورة كرد فعل على استبداد ميترنيخ، وحققت بعض المكاسب لكنها قمعت بشدة.

ثالثاً :الدول الأوربية في القرن التاسع عشر:

أولا: ألمانيا بين ١٨١٥ – ١٨٧٠:

لقد ساعدت الثورة الفرنسية على نشر المبادئ القومية ومبادئ الحرية بين الشعوب، وعندما أراد نابليون بونابرت فيما بعد تحري تلك المشاعر القومية ثارت الشعوب الأوربية حدة، فكانت القومية أحد أسباب سقوط أمبراطوريته.

فلم يتعظ الذين انتصروا على نابليون بذلك الدرس فحاولوا قمع الحقوق للشعوب الأوربية في مؤتمر فيينا لكنهم فشلوا أيضاً.

ونُلاحظ في المانيا ظهور النزعة القومية وتعالي الاصوات إلى اتحاد المدن الالمانية ودور القادة الالمان في تحقيق الأماني القومية الالمانية ويُمكن توضيح ذلك من خلال المحاور التالية:

ظهور النزعة القومية الألمانية:

تأثرت الحركة القومية الألمانية بشكل كبير بالثورة الفرنسية وشعاراتها القومية ، ودعوتها للشعوب إلى ممارسة حقها في حكم نفسها، حيث كانت هذه الحركة تسعى لإيجاد دولة ألمانية موحدة، بدلاً من مجموعة الدويلات الألمانية التي وصلت أبان معاهدة وستفاليا إلى ما يقارب ٣٦٠ دويلة، ثم انخفضت في فترة حكم نابليون إلى ٣٨ دويلة ،وعند قيام الوحدة الألمانية كان عددها ٢٥ دويلة ، وقد أثارت الثورة الفرنسية لدى الألمان كما الشعوب الأخرى، التفكير في الأقلية التي تتحكم في تلك الشعوب وممن تتكون، وانتهى هذا التفكير إلى فحص جنسية هذه الأقلية

وما إذا كانت تنتمي إلى نفس الشعب الذي تحكمه أم أنها أجنبية عنه، وهذا السؤال يثير بطبيعته التفكير في من هو الأجنبي وما هي

الأمة وقد بدأ التنظير لفكرة القومية الألمانية عن طريق المفكرين جيته وشيلر حيث بدءوا بالمناداة إلى أن لكل شعب عبقريته الخاصة في فهم الحرية والمساواة، وان للشعب الألماني بحكم ثقافته وعبقريته المختلفة أن يشكل آراءه الخاصة في ذلك .

والمدرسة الالمانية في القومية فتُعرف بالمدرسة التاريخية وهي تختلف عن المدرسة الفرنسية بسبب الظروف التاريخية التي مر بها كل من البلدين فقد اتخذت فكرة السيادة في ألمانيا شكل الامبراطورية التي لا ترتبط بالدولة ولا بالأرض وهي إضافة إلى ذلك تمتد بحدودها إلى ما وراء ألمانيا نفسها وكان هناك تعقيد واضح في النظام السياسي الألماني لا يتفق مع المفهوم الفرنسي بالأمة.

لذلك فأن التركيز في المانيا القومية كان على اللغة وليس على الأرض حيث أُعتُبِرت القومية كائن عضوي في ظاهرته الأساسية اللغة. يُضاف الى ذلك أن المانيا عاشت تجربة سياسية أخرى مضادة نوعاً ما لشكل الأمبراطورية الالمانية الكبيرة تلك هي الدولة البروسية التي تشكلت على يد آل هوهنزلون الذين دعا ملوكهم السكان من مختلف أنحاء أوربا بزراعة الاراضي المتروكة في بروسيا ثم قاموا بصهر هذه العناصر المختلفة ليظهر السكان البروس الذين أصبحوا في تشكيلهم يختلفون عن تشكيل الامة الفرنسية أو الانجليزية اللتان وُجِدتا قبل وبعد الدولة. ومع ذلك فان أي

نقاش أو جدل في سبيل التغييرأو الاصلاح كان يدعوا إلى الخوف في ألمانيا من الوحدة القومية، لذلك كانت الثغرة الانفصالية سائدة في كل دولة من دول ألمانيا. ولم يكن بين هذه الدول وحدة في القوانين او المقاييس او النفوذ، إلا انه ظهر في اواخر القرن الثامن عشر نوع من وحدة المانية على أساس فكري يتركز حول طبيعة اللغة حيث انتشرت المحلات و أُصلحت الجامعات وسادت حرية الفكر والتوثيق والتوسع في الاطلاع والمعرفة وظهر الكتّاب والمفكرين الألمان فنشأ ما يُعرف بالقومية الأدبية.

الإتحاد الالماني والحقبة الوطنية

كانت ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر في حالة شبيهة بإقطاعيات القرون الوسطى؛ حيث كانت مقسمة إلى أكثر من (٣٠٠) مقاطعة بين كبيرة وصغيرة من الدول والدويلات والمدن الحرة، وكان يعتلي سدة الحكم في بعضها رؤساء دينيون، في حين كان يحكم البعض الآخر رؤساء زمنيون، وكان بين هؤلاء الحكام من يحمل لقب ملك، ومنهم من كان أميراً، كما كان من بينهم دوقات وجراندوقات، وكان إلى جانب ذلك كله ثمة مدن حرة عديدة تتمتَّع بسيادة تامة فيما يتَّصل بإدارة كافَّة شئونها الداخلية وعلاقاتها الخارجية على السواء، وعلى الرغم من وجود ما يسمى بالإمبراطورية المقدسةإلاَّ أن هذه الإمبراطورية كانت لا تتمتَّع بأية سلطة حقيقية، فكانت كلُّ واحدة من الوحدات السياسية الكبيرة والصغيرة مستقلَّة في شئونها استقلا لاً تاماً، حيث كان لكلِّ واحدة منها حكومة خاصة وجيش خاص وقوانين خاصة، وباستثناء مملكة بروسيا كانت جميع الوحدات الألمانية – على كثرتها– شديدة الضعف من جميع الوجوه السياسية والعسكرية.

ولكن كان للثورة الفرنسية وحروب نابليون اثر كبير في المانيا حيث تم زوال مائة من الولايات الصغرى. إذ نمت بعض الولايات الثانوية مثل بافاريا وسكسونيا وتحولت الى ممالك على حساب النمسا وظهور اتحاد الراين ١٨٠٦م الذي ضم ستة عشر ولاية تحت رئاسة نابليون وبذلك زالت الامبراطورية الرومانية المقدسة عن عالم الوجود نتيجة لتقسيم ألمانيا إلى ثلاث وحدات هي: النمسا وبروسيا واتحاد الراين وبذلك يُعتبر نابليون البادئ بعملية توحيد ألمانيا، هذا الى جانب ان سياسته التعسفية وكبريائه قد ساعد على اثارة الروح القومية في الشعوب الالمانية، ولقد كان لاكتساح نابليون للأراضي الألمانية أبلغ الأثر في نفوس الألمان؛ إذ باتوا يدركون تمام الإدراك أن فقدان الوحدة القومية هو السبب في ما أصاب بلادهم، ونظرا لذلك فقد امتلأ جو القرن التاسع عشر في ألمانيا على وجه الخصوص بفلسفة القومية والعصبية العنصرية، وسيادة الجنس الألماني، ورسالته السامية التي تقع على عاتقه نحو البشرية بأسرها.

ولقد سرى هذا التيار القومي في نفوس الألمان بسرعة كبيرة واستثار – بوجه خاص – همم رجال الفكر والسياسة ودفعهم إلى العمل عملاً متواصلاً في سبيل تخليص البلاد من ربقة فرنسا، وقد تمثَّل مركز هذه المساعي والحركات في بروسيا التي اجتمع فيها كبار رجال الفكر والأدب والسياسة من جميع أنحاء ألمانيا وتضافروا على خلق روح جديدة في البلاد.

وفي مؤتمر فيينا ١٨١٥ ظهرت رغبة مترنيخ في الاحتفاظ بألمانيا ضعيفة حتى تستطيع النمسا ان تفرض سيطرتها الكاملة على ألمانيا، لذلك فضلت النمسا ايجاد اتحاد ضعيف من أعضاء مستقلين نفوذه هي وتتلاعب به. فكانت

لها ما ارادت. وتكون اتحاد جميع الأمراء لا الشعوب ودخله كل من له في أرض ألمانيا حصة أو نصيب، فاشترك فيه ملكا بروسيا والنمسا لأن بعض أراضيها كانت داخلة في الامبراطورية الرومانية المقدسة ودخله ملك الدانمارك لأنه كان يحكم هولشتاين. كما دخله ملك الاراضي المنخفضة بصفته دوقاً على لكسمبرك. وهكذا نجد أن بعض الملوك الاجانب اشتركوا في هذا الاتحاد مع أن بعض الاراضي الألمانية بقيت خارجة عنه.

الملك وليم والمستشار بسمارك وتحقيق الوحدة الالمانية:

تعتبر بروسيا أهم الإمارات الألمانية جميعا قوة ومساحة وسكانا ، وقد كانت ولاية صغيرة ثم أصبحت مملكة عام ١٧٠١م وبرز فيها ملوك مصلحون أمثال "فريدريك وليم الأول"و"الثاني" واشتركت في محاربة نابليون عام ١٨١٣م ، واهتمت بالإصلاح الإداري و الاقتصادي والعسكري وتزعمت بروسيا حركة الوحدة الألمانية وسعت بكل قوة الى حمل الولايات الالمانية على الدخول في اتحاد يجمع فيما بينها.

وقد مرت عملية توحيد ألمانيا بعدة مراحل أبرزها:

١. الاتحاد الكمركي (الزولفرين):

كان إنشاء نظام الزولفرين الجمركي أولى المراحل التي قطعتها ألمانيا في سبيل الوحدة من خلال "توحيد الجمارك" بين مختلف أقاليم البلاد الألمانية، وذلك لما حدث الانقلاب الصناعي في أوروبا أدرك رجال الفكر والمال في مختلف أقسام ألمانيا أن بلادهم لا يمكن أن تساير هذه التطورات مادامت منقسمة إلى دويلات ينفصل بعضها عن بعض بسلسلة من الحواجز الجمركية فأخذ العديد من المفكرين يدعون إلى توحيد الجمارك بين البلاد الألمانية. **فصدر**

عام ١٨١٩م نظام الزولفرين الجمركي ونص على ما يلي:

١- إلغاء المناطق الجمركية في بروسيا كلها واعتبارها منطقة جمركية واحدة

٢- إعفاء المواد الأولية المستوردة إليها من الرسوم الجمركية لتشجيع الصناعة المحلية .

٣- وضع تعريفة جمركية منخفضة على المصنوعات، وتعريفة جمركية عالية على ا لمواد الكمالية المستوردة كالشاي والبن والسكر.

وقد أدى نجاح هذا النظام الجمركي إلى إسراع الولايات الألمانية لإنخراط فيه وكان ذلك خطوة هامة في تحقيق الوحدة السياسية فيما بينها وكسبت بروسيا من وراء ذلك الزعامة الاقتصادية والسياسية والتفوق العسكري في ألمانيا كلها ثم في أوربا بعد الوحدة.

٢. سياسة الملك وليم الاول ومستشاره الحديدي بسمارك:

أما المرحلة الخرى المهمة في توحيد الماني فهي سياسة الملك وليم الأول ومستشاره الحديدي بسمارك، فعلى أثر ثورة ١٨٤٨ م تم انتخاب فريدريك وليم الرابع ملك بروسيا إمبراطوراً على ألمانيا ، إلا أنه رفض التاج خوفاً من رد فعل النمسا وبعض الأمراء المعارضين ، وعندما خلفه وليام الأول، وكان ساخطاً على النمسا، استعان بمستشاره بسمارك الذي قاد ألمانيا إلى وحدتها القومية، **واتبع في سبيل ذلك الخطوات التالية:**

١- إقامة اتحاد ألمانيا كلها بزعامة بروسيا .

٢- إبعاد النمسا عن التدخل في شؤون ألمانيا وإجبارها على التخلي عن معاداتها لوحدتها .

٣- القضاء على التدخل ا؟جنبي في شؤون ألمانيا الداخلية خاصة فرنسا.

٤- الإهتمام بالجيش وتطويره في التدريب والتسليح باعتباره ا؟داة ا؟ساسية لتحقيق الوحدة .

٣. حروب الوحدة:

خاض بسمارك ثلاث حروب ضد ثلاث دول من أجل تحقيق وحدة ألمانيا:

١- الحرب ضد الدنمارك ١٨٦٤م: كان السبب في إثارتها دوقيتي: شلزفيك، وهولشتاين الألمانيين اللتين كان يحكمها ملوك الدنمارك منذ ١٨١٥ م ، وقد أرغمت الدنمارك في نهاية هذه الحرب على

التخلي عنهما فسيطرت بروسيا على شلزفيك والنمسا على هولتشاين .

٢- **الحرب ضد النمسا عام ١٨٦٦ م**: كان من أهداف بسمارك عزل النمسا دولياً، والقضاء على نفوذها بألمانيا وقبول وحدتها. فاستمال إليه نابليون وبيدمونت وروسيا ثم دخل معها في حرب، وانتصر عليها في معركة "سادوا" يوم ١٨٦٦م وأرغمها على توقيع صلح براغ ١٨٦٦م **التزمت فيه بما يلي**:

✓ ضم عدة مقاطعات ألمانية إلى بروسيا منها هانوفر،هس، مدينة فرانكفورت.

✓ الاعتراف بإنشاء اتحاد ألماني يضم كل الولايات الواقعة شمال نهر (مين) بزعامة بروسيا.

✓ التنازل لايطاليا عن البندقية .

وكان من نتيجة هذا الصلح اتساع مساحة بروسيا وتحول ميزان القوى إليها في وسط أوروبا خاصة بعد أن وافقت الولايات الجنوبية على الانضمام إلى "اتحاد الزولفرين".

٣- **الحرب ضد فرنسا عام ١٨٧٠م** : بعد التغلب على الدنمارك والنمسا لم تبق عقبة في وجه وحدة ألمانيا سوى فرنسا التي تحتل الالزاس واللو رين ورأت فرنسا وجوب استعمال كل الوسائل لمنع إتحاد ألمانيا، ومن أجل ذلك صمم بسمارك على محاربتها، وجاءت أزمة خلو العرش الاسباني لتشعل نيران الحرب التي أعلنتها فرنسا دون الاستعداد لها في تموز ١٨٧٠م ، وهو ما كان ينتظره بسمارك .

٤- ونظراً للتباين الموجو د بين الجيشين فقد إنهزم الجـيش الفرنسي- في معركـــة (ســيدان) *sedan* يـــوم ١٨٧٠-٠٩-٢م واستســـلم الامبراطور "نابليون" ، **وأرغمت فرنـسا علـى توقيـع الـصلح فـي فرانكوفورت يوم ١٠ ماي ١٨٧١م نص على:**

- ✓ أن تستولي ألمانيا على مبتز وستراسبورغ و الالزاس و اللورين.
- ✓ أن تدفع فرنسا غرامة ماليةلألمانيا مقدارها ٥٠٠٠ مليون فرنك.
- ✓ أن تحتل جيوش بروسـيا بعـض أراضي فرنسـا حتـى تـدفع تلـك الغرامة .

إتمام الوحدة:

بعد هذه الانتصارات الساحقة على فرنسا، فاوض بسـمارك و؟يـات الجنوب الألمانيـة فـي أمـر الوحدة، وتم إنشاء الاتحاد الألماني، و توج الملك وليم إمبراطوراً لألمانيا بقصر فرساي عام ١٨٧١ م وعُرِفَ بلقب القيصـــر الالماني ،

وأعلن دستور جديد نظـم شـؤون الحكـم في ألمانيـا وسرى مفعـول دستور الامبراطورية الالمانية اعتباراً من ١٦نيسان ١٨٧١م وأُطلقت تسمية الرايخ الثاني على الامبراطورية التي دامت حتى دحر المانيا فيالحرب العالمية الأولى في تشرين الثاني ١٩١٨.

١- ثانياً: بريطانيا بين ١٨١٥ – ١٨٧٠:

قيام الثورة الصناعية:

الثورة الصناعية هي مُصطلح يُشير إلى التغيُّر الجذري الذي حدث في حياة الناس خصوصاً في أوربا وفي مقدمتها بريطانيا، خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين حيث تحولت المجتمعات الزراعية إلى مجتمعات صناعية فنشأت مدن صناعية جديدة و توسعت مدن أخرى بفعل الإختراعات ونظام المعمل، وظهرت طبقات إجتماعية وقيم وتقاليد لم تكن موجودة من قبل.

بدأت الثورة الصناعية في بريطانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي، وانتقلت إلى أجزاء من أوروبا وأمريكا الشمالية في بداية القرن التاسع عشر الميلادي. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، انتشر التصنيع في أوروبا الغربية وشمال شرقي الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أدت الثورة الصناعية إلى زيادة عظيمة في الإنتاج. كما أخرجت التصنيع من نطاق المنزل والورشة الصغيرة، وأحلَّت الآلات ذوات المحركات محل العمل اليدوي، وطُورت المصانع لتصبح أفضل وسيلة للجمع بين الآلات والعمال لتشغيلها. ومع ان الثورة الصناعية تقترن بالقرن التاسع عشر إلا انها

استمرت في عطاءها وتطورها حتى عصرنا هذا، فهي اذن ليست مجرد ثورة وقتية انما هي ثورة دائمة من خلال التطور الذي طرأ على المخترعات والصناعات والمجتمعات في عصرنا الحالي، والذي تعود جذوره الى عصر الثورة الصناعية. ولا يمكن تشبيه تلك الثورة بالتحولات التدريجية او المفاجئة التي عرفتها القرون السابقة منذ العصور الحديثة بل وحتى الوسيطة والقديمة منها، ويعود ذلك الى طابعها الاكثر تعقيداً وشمولية فقد ادت الثورة الصناعية إلى الاستعاضة عن الجهود البشرية بالآلة على نطاق واسع، وفرضت المصنع الكبير على حساب المعمل الحرفي الصغير، وبذلك غيرت العلاقات الانتاجية بشكل جذري، وتميزت في زيادة هائلة في الانتاج وتمكنت من ايجاد وسائل نقل ومبادلات سريعة لم يعرفها الانسان من قبل.

كما تطلبت الثورة الصناعية اعادت النظر بشكل شامل في العوائد النقدية والقروض وعموم الحالة الاقتصادية ان الأوصاف والتعريفات التي أعطيت الثورة الصناعية من قبل الذين كتبوا عنها بعد ان شعروا بها تظهر، أن الثورة الصناعية كانت حركة عميقة قلبت الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والسياسية في بريطانيا وبقية الدول العربية بل والعالم. وبقدر تعلق الامر بتاريخ محدد للثورة الصناعية كظاهرة اقتصادية إجتماعية ذات آثار تدريجية فإنه من الصعب تحديد بدايتها ونهايتها ومع ذلك فان بعض الباحثين يعود بها الى حوالي القرن السادس عشر أي أنهم يربطوها

بالاستكشافات الجغرافية والثورة التجارية وعصر النهضة. إلا أن المؤلفات والبحوث الاساسية تتفق على حصر حدودها بين ١٧٦٦_١٨٣٠م لكننا نتفق مع الباحثين الذين يعتبرون أن الثورة الصناعية لا نهاية لها وأن التطور الذي يعيشه عالمنا المعاصر هو امتداد طبيعي لها.

عوامل قيام النهضة في بريطانيا:

كانت بريطانيا أول الدول الاوربية التي ظهرت فيها الاختراعات وقد تنبهت الدول البريطانية والبرجوازية العقارية والتجارية الى الفوائد المرتقبة من هذه الاختراعات مما أدى إلى توفير رؤوس الأموال والعناية بها إلا أن الثورة الصناعية في بريطانيا لم تلعب دوراً حاسماً في الحياة اليومية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بالتحديد في حدود سنة ١٧٨٠ ولكن التحولات التقنية الكثيرة المرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً كانت خلال هذا التاريخ جارية وبدأت بريطانيا تقدم للعالم الدليل على أن نوعاً جديد من النمو الاقتصادي المحول ذاتياً والمتسارع ذاتياً قد أصبح منذ الآن في متناول بعض الامم المتطورة بداوات الصناعات النسيجية وبخاصة معامل صناعة القطن تشهد ثورة في التطور وتحسين نوعية النتاج وحجمه؛ **ويمكن ان نحدد الاسباب التي أدت إلى سبق بريطانيا غيرها من دول أوربا في الثورة الصناعية:**

✓ أولاً: أسباب طبيعية:

١- رطوبة الجو في بعض جهات إنجلترا، مما شجع على قيام صناعة غزل القطن في منطقة لانكشير وخاصة في ليفربول ومانشستر.

٢- وجود بعض الأنهار سريعة الجريان، فاستخدمت مساقط المياه بها لإدارة آلات المصانع.

٣- مجاورة مناطق الفحم لمناطق الحديد، وفي مناطق بها موانئ صالحة للملاحة.

✓ **ثانياً: أسباب سياسية:**

١. أدت ثورات وحركات القرن السابع عشر في بريطانيا وخصوصاً الثورة الجليلة سنة ١٦٨٨ الى استقرار الملكية والبرلمان والكنيسة مما أدى إلى ابتعاد بريطانيا عن التقلبات والتغييرات السياسية .

٢. فتحت التطورات الدستورية في بريطانيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الباب واسعاً لحكم طموحات البرجوازية والبريطانية في تسيير شؤون السلطة خصوصاً بعد توحيد الجزر البريطانية الذي هو في الواقع لا يمثل مجرد توحيد سياسي بل أيضاً توحيد للسوق الاقتصادية البريطانية.

٣. عدم تعرض إنجلترا للغزو الخارجي مثل باقي دول أوروبا (لم يستطع نابوليون بونابرت غزوها)، فتوفر لها الاطمئنان مما ساعد على تقدمها الاقتصادي والصناعي كما ساعد الموقع الجغرافي للجزر البريطانية في الابتعاد عن ويلات الحرب التي عاشتها أوربا خلال القرن السابع عشر حتى قيام الثورة الفرنسية من ظهور نابليون فلم تجر على الأرض البريطانية أية حروب أو معارك كالتي شهدتها أوربا. وهكذا استقرت الاحوال في الجزر البريطانية مما

٤. ساعد البريطانيين على الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والصناعية بينما كانت أوربا تعاني من ويلات الحروب.
٥. قوة أسطولها واتساع مستعمراتها حيث راجت مصنوعاتها وتوفرت لها الاسواق ومصادر المواد الأولية ذات الأهمية الكبرى في تطور الصناعة.

✓ ثالثاً: اسباب اقتصادية:

١. **الحركة التجارية ونمو الرأسمالية البريطانية:** انعكس استقرار الحالة السياسية في بريطانيا على الحركة التجارية فيها بشكل ايجابي ومؤثر نقصد بهذه الحركة (التجارة الخارجية) التي أولتها الحكومة البريطانية عناية فائقة منذ بدايات القرن السادس عشر؛ لأنها تدر ثروات كبيرة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة مما أدى الى تراكم رأس المال الهام في قيام الصناعة، ولذلك قامت ببناء الأساطيل البحرية والتجارية وأصدرت مجموعة من القوانين التي نظمت عمليات التبادل التجاري لصالح بريطانيا.
٢. **توفر اليد العاملة الرخيص:** لقد ادى انتقال المخترعات في بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من مجال البحث الى حيز الانتاج الاقتصادي الى نشوء العمل وظهور الحاجة لليد العاملة التي كانت ترتبط بالزراعة والريف وقد كانت بريطانيا من الدول التي شهدت زيادة في السكان زيادة والتي نتج عنها استهلاك متزايد للسلع الغذائية والمواد الأولية مما ساعد على تقدم كبير في التقنيات الزراعية وقد حدث هذا بشكل خاص في بريطانيا.

□

٣. **تطور صناعة النسيج**: ارتبطت صناعة النسيج التي هي أقدم الصناعات في بريطانيا بالنشاط الزراعي وبالمناخ البريطاني الذي تتلائم رطوبته مع هذه الصناعة وصناعة الغزل والنسيج كانت من أولى الصناعات التي تطورت عن كونها صناعات حرفية واسعة إلى صناعات مصنعية كبيرة.

٤. **وفرة مصادر الطاقة وتطورها**: أن تطور عمليات استخراج الفحم الحجري في بريطانيا والذي كان يمثل مصدر الطاقة الاساسي قد ساعد على توفير الطاقة المستعملة في التعدين وانتاج الحديد دون حاجة الاستيراد والتي كانت بريطانيا تعتمدها من روسيا والسويد مقابل تصدير الحديد المهم في الصناعة سابقاً.

✓ رابعاً: أسباب اجتماعية:

١. إتجاه إنجلترا على العناية بالعلوم الطبيعية.

٢. لم يترفع نبلاء إنجلترا عن كسب المال عن طريق المصانع والمناجم (بعكس نبلاء فرنسا). فظهر من بينهم العلماء والمخترعون أمثال (جيمس وات).

٣. قيام حركة الاختراعات: المقصود بها ابتكار مجموعة من الآلات ووسائل الانتاج لكي تحل الأدوات والوسائل القديمة وكانت أول الدول التي شهدت هذه الظاهرة هي بريطانيا فأصدرت قانون براءة الاختراع الذي يحفظ للمخترع حق استعمال اختراعه.

نتائج الثورة الصناعية:

١. بروز الطبقة العاملة الكادحة: والتي كانت تستغل بشكل كبير حيثادى تطور المصانع الى الحاجة الى المزيد من العمال، مما زاد في تركز السكان بالمدن وتخليهم عن أملاكهم وأراضيهم الفلاحية مقابل مبالغ لا تعبر عن قيمها الحقيقية.
٢. ظهور الطبقة البرجوازية: وهي الطبقة المالكة لرؤوس الأموال التي تدعم المصانع والشركات، ومنه فقد احتلت هذه الطبقة مكانة اجتماعية واقتصادية مرموقة و أصبحت تملك النفوذ و السلطة.
٣. زيادة كمية الإنتاج بنسب كبيرة و تنوع المنتجات و الابتكارات.
٤. ارتفاع مستوى المعيشة و ظهور ضروريات جديدة كالحاجة للكهرباء والنقل بالوسائل المبتكرة آنذاك.
٥. ظهور النقابات العمالية المطالبة بحقوق العمال.
٦. نمو التجارة الخارجية و امتدادها لأقطار عديدة من العالم.

لائحة الاصلاح الدستوري لسنة ١٨٣٢م:

لقد لعبت الثورة الصناعية دوراً كبيراً في تطور نظام الحكم في بريطانيا، ويعود ذلك للتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع الانكليزي، حيث نمت الطبقة الوسطى، والتي تركت أثراً واضحاً في تغيير الواقع الإجتماعي والإقتصادي في المدن والأرياف، وحدث تغيير في حجم المدن واضمحلال بعضها وظهور أخرى وتراجع دور الريف، مما أدى إلى تغيير حجم التمثيل البرلماني لمجلس العموم، وساهمت تلك

المتغيرات في إصدار لائحة الإصلاح (*Bill Reform*) لسنة ١٨٣٢، وقد عالجت اللائحة مشكلة الانتخابات التي كانت تجرى في إطار ضيق، وضمنت للطبقة الوسطى بعض الحقوق إذ توسع حجم الانتخابات، لكنها في الوقت نفسه أهملت حقوق الطبقة العاملة.

✍ **وأبرز ما يميز لائحة الاصلاح من أهمية هي ما يلي:**

١. ازدياد عدد الناخبين في انجلترا بعد توسيع حقوق الانتخابات.

٢. ازدياد الأهمية السياسية للطبقة الوسطى وأصبحت المحور الذي تتقرب إليه جميع الأحزاب السياسية وبذلك استطاعت الطبقة الوسطى أن تشارك في حكم البلاد دون استثناء ديني أو مذهبي.

انقسم المجتمع الانكليزي على نفسه بين مؤيد ومعارض ومتردد حول لائحة سنة ١٨٣٢، وقد عارض الراديكاليون (*Radical*)، الذين يمثلون الطبقة الكادحة اللائحة على اعتبارها لا تحقق مبتغاهم وأهدافهم، فعمدوا إلى تأسيس الجمعيات والنقابات، وقادوا حركات عديدة للوصول إلى حقوقهم، وكانت أهمها الحركة الجارتية (*Chairitism*)، أي التعاهدية، واعتبرت السلطة متعهدة في تنفيذ رغبات الشعب ومصالحه، وقد قدمت الحركة لائحة لإصلاح الأحوال السياسية والاجتماعية في البلاد إلى الملكة فكتوريا، **جاء فيها:**

١. شمول جميع الذكور الراشدين في عملية الانتخاب.

٢. أن يكون التصويت بشكل سري لضمان عدم تعرض المصوتين للضغط أو الخوف ولضمان إعطاء صوته بحرية وعدم تعرضه للأذى من قبل السلطة أو المتنفذين.

٣. أن تكون الدورة البرلمانية لسنة واحدة .

٤. منح النواب الرواتب والمخصصات بهدف انصرافهم إلى خدمة البلاد بإخلاص.

٥. إلغاء الشرط القاضي بامتلاك الناخب لملك خاص.

٦. تقسيم المملكة إلى مناطق انتخابية وتمثيلها حسب السكان وبشكل عادل .لم تلق اللائحة قبولاً، ليس من قبل حزب المحافظين فحسب، بل حتى من قبل حزب الأحرار، فماتت الحركة في مهدها.

لم ينته دور الراديكاليين بنهاية الحركة الجارتية ، بل ظهرت عدة حركات أخرى بين الحين والآخر ، أعطت دفعة قوية للديمقراطية بشكل خاص وحقوق الإنسان بشكل عام في بريطانيا ، وكانت تلك الحركات تبني أهدافها على أفكار عدد من المفكرين الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر .

وقد صدرت نتيجة لتلك الأفكار والحركات عدة لوائح قانونية في السنوات ١٨٦٧ و١٨٨٤ و١٨٨٥ ، وقد أكدت تلك اللوائح على توسيع المشاركة في التصويت ، وأصبح مجلس العموم بموجبها أكثر فاعلية في الساحة السياسية البريطانية وعلى أساسها بدأت المؤسسات الحكومية تتبلور على أساس ديمقراطي مع بداية قرن العشرين .

الملكة فكتوريا وسياستها الداخلية والخارجية:

كانت أعظم من اشتهر في تاريخ إنجلترا. ولدت فيكتوريا في قصر كنسينغتون في لندن في ٢٤ ماي عام ١٨١٩، وعندما تُوفي عم فكتوريا،

الملك وليام الرابع، ولم يكن له وريث، خلفته فكتوريا على العرش وتُوجت ملكة في كنيسة وستمنستر في عام ١٨٣٨، كان اللورد ملبورن أول رئيس للوزراء في عهدها وقام بتعليمها شؤون السياسة والحكم.

تزوجت الملكة فكتوريا عام ١٨٤٠ من ابن خالها ألبرت، أمير ساكس وأنجبت منه أربعة أبناء وخمس بنات، كان الأمير عالماً ورجل أعمال محباً للخير وكان الشعب يُكن له حباً واحتراماً كبيرين. ساعد الأمير ألبرت زوجته بهمة ونشاط في القيام بتصريف واجباتها الملكية، وشاءت الأقدار أن تُوفي الأمير

ألبرت عام ١٨٦١، فلم تستطع الملكة التخلص من أحزانها على فقدانه، إذ اعتزلت الحياة العامة وأنشطتها ولبست ثياب الحداد السوداء لسنين عديدة.

شغلت حياتها القرن التاسع عشر كله تقريباً، وشهدت انتقال انجلترا من ظلمة العصور الوسطى إلى الحضارة الحديثة، فلا غرابة إذا عد عصرها أجل عصر عرفته المملكة البريطانية، إذ عرفت فترة حكمها كثيراً من الأحداث المهمة، حيث خاضت بريطانيا حرب الأفيون في الفترة الممتدة بين ١٨٣٩و١٨٤٢ ضد الصين واحتلت جزيرة هونغ كونغ، كما شنت بريطانيا الحرب المعروفة باسم حرب القرم ضد روسيا في الفترة الممتدة من عام ١٨٥٣ وحتى عام ١٨٥٦، وشهدت سنوات حكمها الأخيرة اندلاع حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢) لحماية مصالح بريطانيا في جنوب إفريقيا.

نقلت الملكة فيكتوريا السلطة على الهند في عام ١٨٥٨ من شركة الهند الشرقية وهي شركة تجارية إلى الحكومة البريطانية ونُصِّبت فيكتوريا إمبراطورة على الهند ، كما احكمت بريطانيا في عهدها قبضتها على مصر ومناطق أخرى كثيرة ووحّدت مستعمراتها في أستراليا وكندا.

أدى التوسع الكبير في رقعة الإمبراطورية إلى جعل بريطانيا أغنى دولة في العالم، بعد أن أنهت بريطانيا فرض القيود على التجارة الخارجية وأصبحت مستعمراتها مصدراً للمواد الخام وأسواقا لمنتجاتها في الوقت نفسه، وشملت الإمبراطورية البريطانية ربع مساحة العالم وربع سكانه.

كانت الملكة فيكتوريا متزنة التفكير تتمتع بقدرات جيدة، ورغم ذلك فإن قوة بريطانيا ترجع أساساً إلى رؤساء وزرائها القادرين، وهم: اللورد ملبورن والسير روبرت بيل والفيكونت بالمرستون وبنجامين ديزرائيلي ووليم غلادستون وماركيز سالزبري، إذ أدركت الملكة فيكتوريا تدريجياً أنه من أجل بقاء الملكية في بريطانيا يتحتم عليها أن تتنازل عن بعض صلاحيتها وتنقلهاإلى وزرائها ليقوموا بتصريفها من داخل المجلس التشريعي، فقبلت فيكتوريا أن تتحوّل من حاكم سياسي وتنفيذي إلى حاكم رمزي وهذا هو السبب الرئيسي في بقاء الملكية في بريطانيا.

ورغم ذلك حافظت الإمبراطورة فيكتوريا على دور فعال في الحياة السياسية، فشاركت رؤساء الوزارة في اتخاذ القرارات، بينما لم يكن لها موقف معلن إزاء الأحزاب والقوى السياسية في البلاد، فكانت تحاول دائماً الظهور كطرف محايد. حكمت هذه الملكة بريطانيا العظمى مدّة أربعة وستّين عاماً وتوفّيت عام ١٩٠١م .

□

ثالثا: روسيا بين عامي (١٨١٥-١٨٥٦):

على الرغم من أن الإمبراطورية الروسية لعبـت دوراً قيادياً هاماً في سياسية القرن التاسع عشر، بفعل هزيمة الإمبراطورية الفرنسـية والقضـاء على نابليون راسم الخريطة الجغرافية والسياسية الأوروبيـة، إلا أن الإبقـاء على نظام الاستعباد حال دون أي تقدم اقتصادي ملحوظ.

وفي الفـترة التـي أخـذت دول أوروبـا الغربيـة تحقـق خلالهـا نمـواً اقتصادياً مطرداً بفعل الثورة الصناعية، التي كانـت قـد بـدأت في النصـف الثاني من القرن الثامن عشر، أخذت روسيا تظهر تخلفاً وتراجعاً أكثـر مـن أي وقت مضى، الأمر الذي خلق لها مشاكل جديدة، وهدد مركزهـا كقـوة عظمى، نتيجـة عـدم كفـاءة حكومتهـا، وعزلتهـا عـن الشـعب، وتخلفهـا الاقتصادي.

إلا أنه رغم ذلك فقد جرت محاولات للإصـلاح في عهـد الكسـندر الأول، واقتربت روسيا اقتراباً كبيراً من المدينة الاوربية خلال القرن التاسع عشـر وحاولت رغم تأخرها ان تتحين الفرص لإجـراء الاصـلاح وتفـتح ذراعها لتلقي التطور، ثم صارت هي بدورها تقوم بقسط وافر من الإنتـاج في حقول الأدب والموسيقى والاجتماع.

الكسندر الأول وسياسة روسيا الداخلية والخارجية:

تولى الكسندر الأول مقاليد الحكم بعد يوم واحد من اغتيـال والـده في سنة ١٨٠١ م وكـان حـاكماً محبوبـاً ولـه جماهيريـة وحضـور في أوسـاط الشعب بسبب أفكاره الليبرالية التحررية واهتمامه بطبقة الفلاحين كما أنه

أسس نظاماً تعليمياً شاملاً وناهض القنانة (عبودية الأرض) لكنـه لم يكن قادراً على إلغائها وكانت أغلبية الفلاحين لاتزال مستعبدة جاهلـة لا تفرق حالتها عن حالت الفلاح الانكليزي أو الفرنسي.

وفي عهد الكسندر الأول ترافقت محاولات تحديث الدولـة الروسـية مع تضخم الجهاز الإداري للدولة وإحلال النظام البوليسـي في البلاد. وفي عام ١٨٢٢ أصدر مرسوماً بمنع نشاط المحافل الماسونية بعـد أن أصـبحت منظمة شبه حكومية في البلاد بفضل دعمه الشخصي لها، كما نـص المرسـوم على حظر نشاط الجمعيات السرية الأخرى، ولم يتسن له طيلة حكمه تذليل مشاكل البلاد عن طريق إجراء الإصـلاحات فقـد بقيـت معظـم القضـايا السياسية والاجتماعية في روسيا بدون حل.

وفي عهده ايضا تمّ السماح باستيراد الكتب من أوروبا وإنشاء مطـابع خاصة، كما أُسّس مجلس الشيوخ الذي كان بمثابة هيئة رقابيـة وقضـائية في منظومة إدارة الدولـة، كـما تـم تكليـف أحـد كبـار المسـؤولين (نيكـولاي نوفوسيلتسيف) بإعداد مسودة الدستور الروسي. ولكن بعد الانتهـاء مـن إعداد هذا الدستور تقرر تأجيل إصداره.

كان الاسكندر الأول يعين الوزراء ويطردهم متى يشاء ويأمر بالقـاء القبض او السجن أو ينفي أو يعدم من يريد دون أن يستشير أحد وكانت له السلطة الشخصية حتى على الكنيسة الروسية القديمة نفسـها وكـان يـؤمن بالافكار الحرة في شبابه ولكنه بعد أن عاد من مؤتمر فينا أخذ يطرد الأمراء

من مستشاريه ويكره كل شيء جديد ويسمح لموظفيه بفعل كل ما يرونه لازماً للقضاء على الآراء الحرة التي ناصرها شاباً وحاربها كهلاً، فشدد الرقابة على الصحف حتى خنق الجرائد الحرة، وطرد اساتذة العلوم الحديثة من الجامعات .

أما سياسته الخارجية فقد كانت معتدلة وحاول إقامات علاقة صداقة مع فرنسا وبريطانيا لكنه أعلن الحرب على نابليون سنة ١٨٠٤ م ودفع الغزو الفرنسي لروسيا عام ١٨١٢ م المعارضة إلى الالتحاق بالقوات الثورية.

في النهاية عمل ألكسندر مع حلفاءه على هزيمة نابليون وهذا ما تم له في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ م. إذ رجع القيصر اسكندر الأول من مؤتمر فينا إلى عاصمته بطرسبورغ وهو يتباهى بكبرياء وعظمة فقد اشترك في إسقاط نابليون ونجح في تكوين اتحاد مقدس بين ملوك أوربا وصار يحكم نصف القارة الاوربية بنفسه، أما العناصر الداخلية في إمبراطوريته هذه فكانت مختلفة متباينة في لغاتها وآدابها وتقاليدها، فمنهم الفنلنديون والألمان والبولنديون واليهود التتر والأرمن والمغول وغيرهم.

إن العنصر الروسي نفسه امتد حتى استولى على سهول روسيا الأوربية والجنوبية وانتشر نحو الشمال الشرقي حتى وصل سيبيريا وكون كتلة كبيرة من سكان الإمبراطورية الواسعة فكانت اللغة الروسية تدرس في المدارس وتستعمل في دوائر الحكومة، وكان أهل دوقية فنلندا العظمى

يكرهون الخضوع لسيدتهم روسيا، كما كان البولونيـون ينظـرون إلى اليوم الذي يتخلصون فيه من الاستعمار الروسي ويكونون دولة مستقلة لها دستورها ولغتها، توفي بعدها بعشر سنين وخلفه شقيقه القيصر ـ نيكـولاي الأول.

نيقولا الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥):

خطفت يد الموت اسكندر الأول بغتـة في ديسـمبر١٨٢٥ فاغتنمـت الجمعيات الثورية هذه الفرصة وأولعت نار الثورة المعروفة باسم (مـؤامرة ديسمبر) ولكن الحركة لم تكن منظمة فقضت عليها بضع طلقات وأركعتها على ركبتيها ثم تم شنق بعض زعمائها. أعلن نيقولاي نفسـه إمبراطـوراً في كانون الأول عام ١٨٢٥، وقد استهلّ عمله بالقضاء على الثـورة، وإعـدام خمسة من قادتها، ونفي الآخرين إلى سيبريا، أو إيداعهم السجن.

لم ينس نيقولا الأول الذي خلف اسكندر الأول الثورة التـي كانـت فاتحة عهده بالملك لذلك عمل على أن لا يترك مجالاً للحرية وأن يحكم بكل شدة وطغيان فكان من أظلم الملوك الذين ورد ذكرهم في تاريخ روسيا .

✓ اصلاحاته الداخلية:

نمّى نيقولا الأوّل الجيش حتـى اسـتهلك نحـو ٤٠٪ مـن الموازنـة، وحاول إدارة روسيا كما لو كانت وحدة عسكرية. وعلى الرغم من أنّ حرية الفكر كانت منتشرة بشكل واسعٍ، فقد عمل منذ عام ١٨٢٦م على تأسـيس «الفرع الثالث» الخاص بمكتب القيصـر مـن أجـل القضـاء عـلى الحركـة الثورية، والمعارضة الجماهيرية، وملاحقة الأفكار التقدمية المتزايدة

للمثقفين. وأنشأ شرطة سريّة لمنع أي نشاط معادٍ للحكومـة. وعـزّز الجهاز العسكري البيروقراطي، وركّز السلطات في يده، ووضـع الصـحف تحت الرقابة، واضطهد الكتّاب الروس، وسيطر عـلى الجامعـات، وطالـب الجميع بالولاء للقيصر والكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية والأمـة الروسـية. فعرف بحكمه القاسي، وتميّز عهده بالتنكيـل الـدموي للحركـات المطالبـة بالحرية، وحركات الاستقلال في المناطق البعيدة، ومطاردة اليهود، فكانـت ضحايا حكمه الاستبدادي كثيرة، وحَكَمَ على كثير منهم بـالنفي والأعـمال الشاقة. وفي عهده تفاقمت أزمة نظام الرق الإقطاعي؛ لكنه بالمقابل أدخـل العديد من الإصلاحات والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية. ففي عهده

صدرت أوّل مجموعة قانونيـة روسـية حديثـة عـام ١٨٣٥م، وتمّـت الموافقة على تحسين مستوى حياة الفلاحين العاملين في أراضي الدولـة، مـع الإشارة إلى واجباتهم، وعمـل عـلى إصـلاح إدارة الدولـة، ومـع أنـه كـان حريصاً على عدم مسِّ مصالح طبقة النبلاء (الأشراف) بـأذى، لا بـل كـان اتجاهه الأسـاسي في إدارة الحكـم هـو حرصـه عـلى ترسـيخ دولـة النـبلاء الإقطاعيين، فإن تطور النظام الرأسمالي وضغط البرجوازية الناشئة، دفعتـه إلى التساهل والنزول عن كثير لمصلحة طبقة الصنّاع والتجّار (البرجوازية)، ففي سنة ١٨٢٨م أنشأ مجلس مصانع النسيج، وافتتح معهداً تقنيـاً لتجهيـز فنيين مختصين، نظموا فيها بعد معـارض صـناعية، ووافـق عـلى بنـاء سـكة حديد روسيا.

✓ سياسته الخارجية:

ركزت سياسة روسيا الخارجية في عهده على ثلاثة محاور: محاربة الدولة العثمانية، وقمع الحركات الثورية في أوربا، وتوسيع الإمبراطورية الروسية. حاول نيقولا زيادة قوة روسيا في آسيا وجنوب شرقي أوروبا وخاضت روسيا في عهده عدة حروب ضد الدولة العثمانية، أوّلها: بين عامي ١٨٢٨ - ١٨٢٩م حيث تمكنت الامبراطورية الروسية في عهد نيقولا الأول من إضعاف مواقع الدولة العثمانية في الحرب الروسية التركية ١٨٢٨-١٨٢٩ التي أسفرت عن الزام السلطان العثماني بالاعتراف باستقلال اليونان وبمنح الحكم الذاتي لصربيا. وأعلنت روسيا نفسها راعية لرعايا السلطان المسيحيين ، وثانيتها: حرب القرم بين عامي ١٨٥٣- ١٨٥٦م. وفي كلتا الحربين تدخلت الدول الغربية وخاصة بريطانيا وفرنسا إلى جانب الأتراك لمنع روسيا من القضاء على الدولة العثمانية،

وعدم السماح لها بالوصول إلى البحر المتوسط وتهديد مصالحهم. وفوق هذا كانت روسيا تدعم وتساند حركات التحرر الوطني في البلقان ضد السلطنة العثمانية.

اتسم نيقولاي الأول بمقاومته لروح التغيرات في أوروبا، لذا فإنه قمع الثورتين البولندية عام ١٨٣١ والمجرية عام ١٨٤٨ بكل شدة وكانت بولندا عندئذ جزءاً من الإمبراطورية الروسية الواسعة، وألغى الحكم الذاتي البولندي وتقسيم البلاد الى محافظات. واستعد نيقولاي في مطلع الخمسينات من القرن التاسع عشر لتوجيه ضربة قاسية اخيرة الى الدولة

العثمانية وبدأت الحرب معها بالنصر اللامع للاسطول الروسي في خليج سينوب التركي والذي حققه الاميرال بافل ناخيموف.

وأثارت نجاحات روسيا العسكرية الاستياء لدى الغرب الذي لم يرغب في زيادة نفوذ روسيا في الشرق على حساب الدولة العثمانية المنهارة، مما شكل أساسا لتشكيل التحالف بين بريطانيا وفرنسا. وأدت سياسة وزير الخارجية الروسي نيسيلرودي الى عزلة روسيا على الصعيد الدولي. ودخلت بريطانيا وفرنسا عام ١٨٥٤ في الحرب ضد روسيا الى جانب الدولة العثمانية وقامتا بالانزال البحري في شبه جزيرة القرم وحاصرتا مدينة سواستوبول.

حرب القرم (١٨٥٣ – ١٨٥٦):

ترجع الأسباب العامة لهذه الحرب، التي قامت بين روسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وبيدمونت من ناحية أخرى، إلى المسألة الشرقية التي ظلت دون حل وكانت ذريعتها المباشرة النزاع بين روسيا وفرنسا

حول الإشراف على الأماكن المقدسة بفلسطين، إذ تحدت فرنسا ادعاء روسيا حق الوصاية على تلك الأماكن. فحصلت ١٨٥٢ من السلطان عبد المجيد على بعض الامتيازات للكنائس اللاتينية. ورفضت الدولة العثمانية ١٨٥٣ المطالب المماثلة التي تقدمت بها روسيا وذلك بتأثير السفير الإنجليزي سترتفورد دي رادكليف. وفي حزيران ١٨٥٣ ردت روسيا على ذلك الرفض باحتلال البغدان والأفلاق.

كما حاولت روسيا السيطرة على الأقاليم التابعة للدولة العثمانية مستغلة ضعف الدولة العثمانية، وفعرضت مشروعها التقسيمي على الدول الأوربية، متخذة من الدين ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية إلا أن هذه الدول رفضت ذلك. كما كانت مصالح روسيا الجغرافية و المادية و الاستراتيجية تقتضي منها ضرورة سيطرتها على المضايق وتحديدا مضيقي البوسفور و الدردنيل -اللذان يمثلان المنفذ الوحيد لروسيا والممر الوحيد لسفنها نحو المياه الدافئة- إما عن طريق القضاء على الدولة العثمانية المالكة لهذه المضائق، أو التغلغل في أوصالها لتحريك سياساتها، أو على الأقل ضمان حرية المرور لسفنها التجارية والحربية في كل الأوقات بهذه الممرات، وإغلاقها أمام السفن المعادية لروسيا.

بدات روسيا الحرب باحتلال إقليمي: الافلاق، و البغدان (رومانيا الحالية) التابعتين للدولة العثمانية عام ١٨٥٣ م، وتقدمت جيوشه جنوباً أمام ضعف الجيش الإنكشاري الأمر الذي دفع بريطانيا وفرنسا إلى التدخل لحماية ممتلكات الدولة العثمانية ومن خلالها حماية مصالحهما، فأرسلتا أسطولاً مشتركاً إلى المياه العثمانية، ليقف إلى جانب الدولة العثمانية ضد التحدي الروسي. فتشجع

الباب العالي و أعلن الحرب على روسيا في ٤ نوفمبر ١٨٥٣ م و لكن أسطوله انهزم في ميناء "سينوب" على البحر الأسود في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٣ م على يد الأسطول الروسي، و عندئذ اقتحم أسطول الحلفاء البحر الأسود لمحاصرة القوات الروسية، وقامت فرنسا وانجلترا بإعلان الحرب على روسيا، و هاجمت القوات الروسية في "الأفلاق و البغدان " وأرغمتها على

الانسحاب، ووضع الإقليمين تحت إدارة النمسا مؤقتا، و حاولت روسيا أن تستدرج قوات الحلفاء إلى داخل روسيا للقضاء عليها، و لكن الحلفاء تفطنوا للمكيدة و نقلوا الحرب إلى "شبه جزيرة القرم" اتجاه ميناء سيباستوبول ،حيث كان يرابط جزء من الجيش الروسي، فأرغموه على الانسحاب منها بعد هزيمته في معركة " ألما" في سبتمبر ١٨٥٤ م ، ثم فرضوا حصارا على ميناء سيباستيول، وانضمت مملكة بيدمونت إلى فرنسا وبريطانيا ضد روسيا لكسب عطف الدولتين إزاء تطلعاتها الوحدوية.

وفي ايلول ١٨٥٥ تمكنت قوات الحلفاء من احتلال ميناء سيباستيول فاضطرت روسيا الى القبول بالصلح واجبرت على توقيع معاهدة باريس.

معاهدة باريس ١٨٥٦ :

بعد سقوط ميناء سباستيول بفترة قصيرة توفي نيقولا الأول وخلفه الكسندر الثاني وكان أكثر اهتماماً بأمور روسيا الداخلية ولذا قرر الموافقة على الدعوة الى مؤتمر سلام عقد في مدينة باريس وانتهى بمعاهدة الصلح التي تعرف بمعاهدة باريس عام ١٨٥٦، وشاركت فيها فرنسا، بريطانيا، الدولة العثمانية، بيدمونت، النمسا و روسيا، **ومن أهم نصوصها النقاط الآتية:**

١. منع روسيا من استخدام البحر الأسود لأغراض عسكرية و عدم السماح لسفنها الحربية بعبورمضيق البوسفور و الدردنيل.
٢. تنازل روسيا عن جنوب بسارابيا لرومانيا.
٣. منح الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية صربيا و رومانيا.
٤. تعهد فرنسا و بريطانيا بضمان و حماية استقلال الدولة العثمانية ووحدتها.
٥. حرية الملاحة في نهر الدانوب لجميع الدول الأوربية.

نتائج حرب القدم:

لا شك ان المطابع والمخاوف والنزعات القومية تعتبر من ضمن العوامل التي دفعت بالدول الى حرب القرم وقد كان من أبرز النتائج التي ترتبت عن هذه الحرب أنها حطمت التحالف الروسي النمساوي الذي كان بمثابة الضمان للأنظمة التقليدية في أوربا فبعد سنة ١٨٦٠ وجدت كل من ايطاليا وألمانيا أوضاعاً أكثر ملائمة لتحقيق الوحدتين الايطالية والألمانية.

ومن ناحية أخرى أصبحت روسيا بعد الحرب أكثر اهتماماً بشؤونها الداخلية وأهملت لفترة من الزمن شؤون القارة الاوربية إضافة الى ذلك فإن البيان الذي صدر عن معاهدة باريس في سنة ١٨٥٦ قد وضع الأسس والقواعد الدولية للحصار البحري وشروط حماية الدول المحايدة، ومن نتائج هذه الحرب من الناحية الطبية ظهور منظمة الصليب الاحمر التي تأسست رسميا بموجب اتفاقية جنيف.

□

رابعاً: فرنسا بين (١٨١٥ـ ١٨٤٨):

أعيد لويس الثامن عشر الى عرش أجداده في فرنسا على أسنة حراب جيوش الحلفاء التي احتلت فرنسا فكانت بعيدة عن المجد والعز اللذين تتعطش إليهم الأمة الفرنسية إلا أن عودة الملكية إلى فرنسا لم يؤد إلى إعادة عجلة التاريخ الى الوراء خصوصاً بعد درس حكم المائة يوم الذي أقنع لويس الثامن عشر وأوربا أنه لابد من إتباع سياسة الموازنة بين الواقع ومتطلبات السياسة الجديدة وذلك لأن التحول الذي أوجدته الثورة الفرنسية ونابليون كان عميق الجذور في المجتمع الفرنسي مما يصعب إعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل سنة ١٧٨٩ لهذا بقيت قوانين المساواة والحرية الشخصية سارية المفعول.

شارل العاشر وقيام ثورة تموز ١٨٣٠ :

أقدم شارل العاشر على حل البرلمان الفرنسي لرفضه فرض مزيد من الرقابة على أقدم الصحف وفي الانتخابات التي جرت سنة ١٨٢٨ فاز تحالف الملكيين الدستوريين وبعض الأحرار والجمهوريين المعتدلين بالأغلبية ومع ذلك استمر شارل العاشر ينتهج سياسة متطرفة فعين كولنياك المعروف بعدائه للتحرر رئيساً للوزراء فحكم البلاد بلا برلمان لمدة سبعة شهور متحدياً المعارضة العنيفة للغاية التي وقفت ضده وقد بدأت بوادر الثورة في الجلسة الأولى لمجلس النواب التي عقدها في ٣٠ آذار ١٨٣٠ حينما طالب المجلس المشاركة في الحكم ونزع الثقة عن الحكومة فغضب الملك وحل البرلمان لكن الانتخابات الجديدة اعطت نصراً قوياً

للأحرار وزاد عدد نوابهم في مجلس النواب ومع ذلك لم يكف شارل العاشر محاولاته في إعادة السلطة المطلقة لعرش ال يوريون وقد توزقع أن نجاح

الغزو الفرنسي الاستعماري للجزائر سنة ١٨٣٠ واقيلاء الحزينة الفرنسية الفارغة بحوالي خمسين مليون فرينك ذهبي سلبت من أموال الشعب العربي في الجزائر سيمكنه من تنفيذ أحلامه فتحدى المعارضة باصدار أربعة مراسيم في ٢٥ تموز ١٨٣٩ مضت بحل المجلس الجديد وتقيد حرية الصحافة وتعديل الانتخابات لصالح الفئات المساندة له وكان من الواضح أن شارل العاشر وبوليناك لم يبغيا من تعديل القانون رفض المطلب الخاص بتوسيع دائرة الناخبين وهو المطلب الذي كانت تتصاعد ويزداد شدة خلال تلك السنة بل انهما قصدا مؤتمر تمزيق الدستور ذاته.

أدركت المعارضة نوايا التوجه الجديد لشارل العاشر فكان الرد اندلعت الثورة في باريس يوم ٢٧ تموز ١٨٣٠ أي بعد يومين من صدور المراسم ودار قتال في شوارع باريس حتى ٢٩ تموز احتلت الجماهير في نهاية قصر الملك شارل العاشر وسيطرت على العاصمة كلها وقد حاول الملك استرضاء الجماهير بالتراجع عن مدارسه الأربعة، لكن ذلك لم ينفع ما اضطر شارل العاشر إلى الحرب الى خارج البلاد وقضي بذلك على حكم ال بوريون في فرنسا إلى الأبد.

حكم لويس فيليب (١٨٣٠ـ ١٨٤٨)

لقد قررت باريس مصير فرنسا واختفى العلم الملكي الأبيض قبل أن يستفيق أنصار شارل العاشر في الأقاليم من غفوتهم فدعى دوق دورليان ليصبح ملكاً باسم فيليب كان دورليان زعيماً لعائلة اورليان العريقة وابن الدوق فيليب الذي ناصر الثورة الفرنسية منذ أيامها الأولى رغم قرابته للويس السادس عشر بل أنه صوت في حينها إلى جانب إعدامه قبل أن يفصل رأسه عن المفصلة في

عهد الإرهاب ومع ذلك بقي ابنه دوليان بعيداً عن أوساط المهاجرين فلم يتأمر معهم ولم يعاد الشعب أو حكم الإمبراطور وبقيت علاقته ممتازة بالأوساط التحررية بعد سقوط نابليون لقد كانت ثورة تموز ١٨٣٠ ضربة خطيرة لمقررات أوربا في مؤتمر فينا، ففيها انهار جزء أساسي من النظام الاوربي وهم سلالة الـبوربون، أن حكم لويس فيليب في سنواته الأولى كان ناجحاً في جلب الاستقرار إلى فرنسا ووضع حد للشهوات الفرنسية في الثورة أو المغامرة في حرب خارجية، ويعود هذا النجاح إلى قدرة لويس فيليب في إدارة دفة الحكم ووجود ساسة أذكياء تعاونوا معه في خدمة الدول مثل جيزو والذي اشتهر بايجاد نظام تعليم الدولة.

إلا أنه مع تقدم السنين ظهرت عوامل أضعفت حكم لويس فيليب منها أن نظام الحكم لم يكن جمهورياً ولا ملكياً، ولم تكن تحيط به تلك الأبهة التي رآها الشعب الفرنسي عند أصحاب ايتجان. كما أن النظام كان باهتاً لا

يمتلك الصرامة وذلك الصبت الحذلي المجيد الذي تميز به نابليون بل عن العكس كانت سياسته الخارجية تمتاز بالتساهل والتسوية مع بريطانيا ورغبته في تجنب أية مخاطرات أو مجازفات براقة من جانب أخر أغضب سياسة التعليم التي اعتمدت على مبادئ غير مذهبية ومما زاد في غضب الكنيسة أن حكومة فيليب لم تحفل بأمر رجال الدين تماماً وفي مجال الحرية والانتخابات رفضت الحكومة أية مطالبة بتطوير وإصلاح الأنظمة الانتخابية.

وسط هذا التوتر السياسي العام واضطراب الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية بدأت بوادر ثورة ١٨٤٨ بباريس منذ صيف ١٨٤٧ أخفق الاحرار في اجبار الحكومة على إعطاء بعض المنح فدعى زعيمهم بارد إلى حملة جماهيرية في طول البلاد وعرضها للمطالبة بإصلاح وتوسيع دائرة حق الانتخابات لم تستجب الحكومة للمطالب ومنعت عقد مأدبة كان من المقرر إقامتها في ٢٢ فبراير شباط ١٨٤٨ ومنعت الاجتماعات السياسية مما ادى إلى اصطدام القوات الحكومية مع الشعب ليلة ٢٢ــــ ٢٣ شباط بباريس وتسقط عدد من الضحايا فتطور الأمراء إلى عصيان، وانتصب المتاريس في شوارع باريس وارتفع علم الثورة صبيحة يوم ٢٣ شباط واستمر القتال الى اليوم التالي وتحصن الثوار المثقفين والعمال خلف المتاربس واستبدل الهتاف بالإصلاح إلى الهتاف بالحياة الجمهورية.

□

خامساً: إيطاليا [١٨١٥ - ١٨٧٠]:

كانت ثورات وانتفاضات ١٨٣٠ و١٨٤٣ طريقاً للوصول الى الوحدة القومية والحرية في الدول الأوربية غير الموحدة والتي كانت تتمثل فيها مقومات الامة في اللغة الواحدة والأرض الواحدة والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد والشعور بالمصير الواحد. وكلما نجحت الدول الاخرى في تحقيق حريتها أو الاصلاحات الدستورية نجحت الامتان الايطالية والألمانية في تحقيق وحدتها وحريتها وكان لكل منهما طريقه الخاص الذي اظهر الى الوجود وإلى أول مرة في تاريخ أوربا الدولة القومية الحديثة التي تقوم على أساس الوحدة بعد التجزئة.

الدويلات الإيطالية:

كانت ايطاليا في عام ١٧٨٩ وقبل اشتعال الثورة الفرنسية الكبرى مقسمة الى عدة إمارات مثل:

١. ممالك: مملكة نابولي، مملكة بيدمونت.

٢. دوقيات مثل: ميلان، ووسكانية، بارما، فيورنتينا، لوكا.

٣. جمهوريات مثل، البندقية، جنوى، دومانكو، سان مارينو.

٤. الولايات البابوية: منطقة المارشى، واميريا، وروما.

وهكذا كانت ايطاليا حتى ذلك العهد مقطعة الأوصال يقف دون تحقيق وحدتها عدة عوامل منها وجود أسرة نمساوية في الشمال وملوك الـ بوربون الأسبان في الجنوب ورغبة البابا كرئيس ديني للحفاظ على سلطاته الدنيوية وتفكك الإيطاليين السياسي والمنافسة القديمة بين الإيطاليين .

وما كـادت الثـورة الفرنسـية تشـتعل وتنشرـ أفكارهـا عـن الحريـة والمساواة والإخاء حتى أثر ذلك في ايطاليا بـل خطـا بهـا الخطـوة الأولى في سبيل وحدتها القومية لاسيما في عهد نـابليون حيـث قضىـ عـلى الولايـات العديدة التي كانت قائمة بها **وأوجد ثلاث ممالك هي**:

١. **مملكة ايطاليا ١٨٠٥**: وكانت تشتمل لمبارديا والبندقية والجزء الشمالي مـن ساحل الادرياتيك كان هو ملكاً عليها ثم جعـل يوحنـا بوهاتيـة ابـن زوجته نائباً عنه.

٢. **مملكة نابولي١٨٠٦**: وشملت الجزء الجنوبي مـن شـبه الجزيـرة وحكمهـا جوزيف بونابرت ثم مورا صهر نابليون.

٣. **مملكة بيرمنت**: شملت جزءاً كبيراً من الساحل الغـربي لشـبه الجزيـرة وضمت الى فرنسا في المدة ١٨٠٢ــ ١٨٠٩.

ويعتـبر نـابليون أحـد الـذين انشـأوا ايطاليـا الحديثـة، حيـث نبـه الإيطاليين إلى أهمية الحكومة الصالحة بطرد الحكام القـدامى وإقامتـه نظـام اداري صالح ساوى فيه بين المجتمع مما آثـار في نفـوس الايطـاليين الرغبـة القومية في تأليف أمة قوية موحدة بحيث يمكن القول أن نظم قواعد الحياة القومية في ايطاليا قد وجدت اثناء الاحتلال الفرنسي كذلك كـان مـن آثـار نابليون الحسنة على ايطاليا أن يقضي عـلى بقايـا الاقطـاع وحـد مـن سـلطة الكنيسة وجعل البابا رئيساً دينياً فقط، وليس سياسياً وأصلح قوانين الـنظم إلا إن الدول المجتمعة في فيينا في ١٨١٥ لم تراع هذه التطورات، وأعادت

النظام القديم في كل الولايات والإمارات، حيث أعـاد مـؤتمر فيينـا تقسيم ايطاليا إلى عشرـة أقسـام لا يوجـد مـن بينهـا قسـم قـوي يسـتطيع السيطرة على بقية الأقسام الأخرى، ويوحد ايطاليا وارتبطـت معظـم هـذه الاقسام بالنمسا التي أصبحت صاحبة النفوذ الأكبر في ايطاليا.

الجمعيات الايطالية:

- ثورات الكاربوناري:

كان الشعب الأيطالي بعد أن هزت مشاعره مبادئ الثورة الفرنسـية، أحس بمزايا الوحدة، لم يقبل للخضوع لحالة التمزق، وفي مواجهـة بطـش الحكومات

المتحالفة معاً النمسا، لجـأ الشـعب الأيطـالي إلي تكـوين الجمعيـات السـرية التي تسعى إلي تحقيق أهدافه القومية، مـن أشـهر هـذه الجمعيـات جمعية الكاربوناري أي حارقو الفحم وهي جمعية سريـة تشـبه في مراسـمها وتشكيلاتها تشكيلات الماسونية ، وظهرت في نابولي و في سنة ١٨٢٠ تمكن الكاريوناري من إشعال الثورة في نابولي وارغمت الملك على إنشاء دسـتور جديد وسرعان ما انتقلت إلي بيدمونت وجعلت الملك يتانزل عن حكمـه لولي عهده ولكن تحركة جيوش النمسا وسرعان ما استعادت زمام الأمـور وأخمدت نيران الثورة في كل مكـان. وعـلى اثـر قيـام ثـورة سـنة ١٨٣٠ في فرنسـا تجـددت ثـورات الكاربونـاري، وتركـزت في الولايـات البابويـة ودوقيات الوسط، وتمكن الثوار من السيطرة على بعض هذه الدوقيات

لكن سرعان ما أن تحرك الجيش النمساوي وقضى على تجمعاتهم، ولم تقدم فرنسا بعد نجاح الثورة فيها على المساعدة التي كان ينتظرونها الأيطاليين لكن ساعدت في قمع الثورة بعد تجددها في الولايات البابوية في عام ١٨٣٢ .

وكان سبب فشل ثورات الكاربوناري ترجع اخفاقها بسبب عدم انتشارها بين صفوف الشعب وطبقاته المختلفه، وأيضاً عدم وضو أفكارها.

- **جمعية إيطاليا الفتاة :**

ومن بين أعضاء الكاربوناري السابقين برزت شخصية جوزيف ماتزيني (١٨٠٥-١٧٨٢) الذي كرس حياته لتحقيق الوحدة الأيطالية، وتعرض في سبيل ذالك إلي السجن والنفي و صدر عليه حكم غيابي بالأعدام و أسس ماتزيني ١٨٣١ وهو في المنفى في مارسيليا جمعية ايطاليا الفتاة، واشعل في قلوب

مواطنيهنار الوطنية وزودهم بقوة الأمل بأن ((أيطاليا ملكة العالم، وأرض دانتي، مركز البابا وية، مهد النهضة، ومبعث النور والحرية لن تموت، بل ستبعث و تعيد سيرتها الأولى) وقال ذالك لن يحدث إلى إذا قدم الأيطاليون أرواحهم فداء للوطن وعانوا من النفي والسجن بسبب المعتدي الغاصب النمسا وحدد ماتزيني الهدف الذي يسعى إليه وهو إقامة الجمهورية في ايطاليا الموحدة.

وهكذا لم تكن إيطاليا الفتاة مجرد حزب أو جمعية إنما كانت روح سرت في إيطاليا بعثت فيها الحيوية والأقدام و لهذا اطلق على ماتزيني (روح الثورة الايطالية ونبي الوحدة الايطالية).

إلي جانب إيطالية الفتاة ظهرت بعض الأحزاب الأخرى التي سعت أيضاً إلي توحيد إيطاليا و النهوض بأبنائها، وأن اختلفت في ايطاليا الفتاة عن عدم إيمانها بالاتجاه الجمهوري ومن أهم هذه الاحزاب:الحزب البابا وي الاتحادي: الذي تزعمه البابا بيوس التاسع الذي قام بإطلاق سراح المعتقلين السياسين، ووافق على انشاء مجلس استشاري من العلمانيين، وجيش أهلي يحل محل المرتزقه، وأنشأ مجلساً بلدياً لمدينة روما، وساوى القساوسة بالأهالي في دفع الضرائب وقد ازعجت هذه الأصلاحات طاغيت النمسا مترنيخ وصرح قائلاً: لقد كنا نتوقع كل شيء ماعدا ظهور بابا حر، والآن قد ظهر فلا حد لما سنراه في المستقبل.

الحزب الملكي: الذي تزعمه المللك شارل ألبرت بيدمونت منذ ١٨٣١ وهو الذي اخذ يتجاوب مع الحركات الحرة ووافق على مراجعة القانون الجنائي وتخفيض الرقابة على المطبوعات، وتعديل قانون الأجتماعات العامة، وأعلن استعداده لخوض حرب ضد النمسا لتحرير إيطاليا.

- **ثورة ١٨٤٨ والحرب مع النمسا:**

اندلعت ثورات عام ١٨٤٨ في أماكن عديدة من إيطاليا وكذلك في أجزاء أخرى كثيرة من أوروبا. نتيجة لذلك اضطر تشارلز ألبرت ملك بيدمونت وليوبولدو الثاني دوق توسكانا الأكبر لتقديم تنازلات للديموقراطيين. شملت الثورات فيينا نفسها، وميلانو (خمسة أيام من ميلان) والبندقية (جمهورية سان ماركو، التي أعاد النمساويون السيطرة

عليها في ١٨٤٩) المدينتان الرئيسيتان في مملكة لومبارديا فينيشيا التابعة حينها للحكم النمساوي. طردت الثورة في صقلية (عدا ميسينا) جيوش البوربون. كما اضطر تشارلز الثاني من البوربون أيضاً لمغادرة دوقية بارما.

قررت مملكة سردينيا استغلال ما يبدو لحظة مواتية وأعلنت الحرب على النمسا في تحالف مع الولايات البابوية ومملكة الصقليتين وهاجموا ممتلكات النمسا الضعيفة في إيطاليا.

نجم عن الحرب فشل سردينيا في هزيمة النمسا بمفردها. دفع هذا سردينيا إلى التماس حلفاء ضد النمسا، و وجدت مبتغاها في فرنسا (١٨٥٩) وبروسيا في (١٨٦٦) حيث تمكنت في النهاية من طرد النمساويين من شمال إيطاليا.

مملكة سردينيا وتحقيق الوحدة الإيطالية:

ظلت مملكة سردينيا او بيدمونت معقد الآمال في تحقيق الغاية العظمى للإيطاليين وهي الوحدة القومية ، وقد توفرت لهذه المملكة عدة عوامل جعلتها في مركز أفضل من سائر الولايات الإيطالية لتحمل هذه المسؤولية:

١. فعلى الرغم من هزيمتها كانت تملك جيشاً حسن التنظيم والقيادة .
٢. كان لها دستور يقوم على المبادئ الحرة .
٣. ظهرت فيها شخصية سياسية فذة هي شخصية (كافور) الذي استطاع أن يوفر لها الخطط والأسباب التي جمعت إيطاليا في النهاية في وحدتها المنشودة، **واتبع في سياسته الخطوات التالية:**

- ✓ اعتنى كافور بالناحية الإقتصادية للإمارة، فطور الصناعة والزراعة، وفرض الضرائب عليممتلكات الكنيسة، ودعم الحياة النيابية، وحرر القوانين من التقاليد الدينية، ووضع ميزانية، واهتم بإصلاح الطرق ومد السكك الحديدية، وأبرم سلسلة من المعاهدات التجارية مع بعض البلدان.
- ✓ إعتنى بالناحية العسكرية، فدرب الجيش وسلحه ونظمه وطور أساليبه الحربية وفقاً للتطورات الجديدة .
- ✓ اهتم بإيجاد حلفاء له يقفون إلى جانبه عندما يحين الوقت لمحاربة النمسا، فاشترك بجيوشه في حرب القرم(١٨٥٤ م- ١٨٥٦ م) ضد روسيا، وضمن بذلك صداقة فرنسا وانجلترا.

- ✓ استمال إليه نابليون بعد وقوفه إلى جانب فرنسا في مؤتمر الصلح ١٨٥٦م، واتفق معه في بلومبير١٨٥٨ قرب الحدود الفرنسية أن تقف إلى جانبه فرنسا ضد النمسا **وفق الشروط التالية بعد الإنتصار**
  - ✓ تضم لمبارديا والبندقية إلى بيدمونت، وتكون منها مملكة إيطالية.
  - ✓ تبقى الولايات الوسطى والجنوبية وأملاك البابا مستقلة.
  - ✓ يكون إتحاد إيطالي من كل الولايات تحت زعامة البابا.
  - ✓ ضم سافوا و نيس إلى فرنسا.

حروب الوحدة:

١. الحرب ضد النمسا:

أخذ كافور يقوي الجيش ويمده بالأسلحة، ويقوم بمناورات على الحدود، فأثار ذلك النمسا ضده ،وأرسلت إليه إنذار بتجريد الجيش من السلاح، فرفض كافور، وأعلنت النمسا الحرب عليه في ١٨٥٩م فوقفت فرنسا إلى جانب بيدمونت، وتوالت هزائم النمسا ، وفجأة توقف نابليون عن مواصلة الحرب، **وعقدت هدنة مؤقتة ثم أبرم صلح بين الفريقين المتحاربين في (زيوريخ) بدون رضا كافور نص على ما يلي:**

- ✓ تنازل النمسا لبيدمونت عن مقاطعة لمبارديا فقط على أن تحتفظ بالبندقية.
- ✓ يتنازل نابليون عن نصيبه في سافوي ونيس.

- ✓ اضطر ملك بيدمونت إلى الرضوخ للأمر الواقع، واعتبر ذلك إهانـة له، فاستقال من منصبه، غير أنه سرعان ما عاد إليه بعد أن تبينـت لـه حكمة الملـك (ايـما نويـل الثـاني)، ورأى أن المعاهـدة لا تحـول دون الوصول إلى هدفـه خاصـة بعـد إجمـاع السـكان عـلى الانضـمام إلى بيدمونت.

٢. حركة غاريبالدي وانضمام الجنوب :

كانت الخطوة التالية إلى الوحدة الإيطالية هي ضم (نابولي) وقد قـام بذلك غاريبالدي الذي استماله كافور وأمده بالمال والسلاح فكـون لنفسـه جيشاً عرف (بذوي القمصان الحمر)، اتجه إلى مساندة الثورة التي قامت في (بالرمو) عاصمة صقلية سنة ١٨٦٠ م وهزم ملك نابلي وصـقلية و سـيطر على الجزيرة، ثم قطع مضيق مسينا إلى نابلي نفسها واستولى عـلى عاصـمتها بسهولة، وهناك وافاه ملك بيدمونت (ايمانويل الثاني) بجيشه وقرر شـعب الإمارة بالإجماع الانضمام إلى بيدمونت ثم نصب ايمانويل الثاني نفسه ملكـا إيطاليا الموحدة.

قيام الوحدة :

لم يبق من الولايات الإيطالية خارجاً عن نطاق الوحـدة إلا البندقيـة وروما.وكلاهما تمثل مشكلة وتتطلب جهداً وعناءً، ويتوقـف ضـمهما عـلى التغيرات التي تطرأ على التوازن الدولى في أوروبا. وعنـدما قامـت الحـرب بين النمسا وبروسـيا عـام ١٨٦٦ م. إسـتغلت إيطاليـا الفرصـة وضـمت البندقية إليها، وعند قيام الحرب بين بروسـيا وفرنسـا ١٨٧٠ م. إسـتغلت إيطاليا الفرصة وضمت روما، وحولت إلى عاصمة إيطاليا استجابة لرغبـة الشعب.

الفصل الثامن
الانفجار التجاري الإسلامي في القرون الوسطى المسيحية

- **شارلمان:**

الأمبراطور (شارلمان) ملك الفرنجة وفاتح سكسونيا ومؤسس الأمبراطورية الرومانية المقدسة وأحد الحكام الأوائل في تاريخ أوروبا.

ولد عام ٧٤٢ قرب مدينة اخن الالمانية التي أصبحت عاصمته فيما بعد ، وكان والده يدعى (بيبن القصير) وكان جده (شارل مارتيل) زعيم الفرنجة العظيم الذي أنتصر على العرب عام ٧٣٢ في معركة بواتيه أو (بلاط الشهداء).

وقد أسس والده (بيبن) أسرة مالكة جديدة سميت بأسم (العائلة الكارولنجية)، بعد أن توفي (بيبن) عام ٧٦٨ قسمت مملكتة الفرنجية بين (شارل) وأخيه (كارلومان) ولحسن حظ (شارل) فأن أخيه توفي فجأة عام ٧٧١ وبذلك أصبح وهو في التاسة والعشرين الحاكم المطلق لمملكة الفرنجة جميعها التي كانت أقوى مملكة في أوروبا الغربية.

عند أعتلاء (شارلمان) العرش كانت مملكة الفرنجة تتألف مما يدعى الآن فرنسا وبلجيكا وسويسرا وبعض مناطق هولندا وألمانيا.

حاول (شارلمان) توسيع رقعتة مملكته، وقد كانت زوجة أخيه المتوفي (كارلومان) قد ألتجأت الى مملكة اللومبارد ، فطلق (شارلمان) زوجته اللومباردية وقاد جيشه الى لومبارديا وشمال أيطاليا وفي عام ٧٧٤ كان اللومبارد قد هزموا جميعاً، وضم شمالي أيطاليا الى أملاكه وقد وقعت زوجة أخيه وأطفالها أسرى بين يديه ولم يرهم أحد بعد ذلك!

مـن أهـم وأصـعب الأعـمال التـي قـام بهـا (شـارلمان) هـو هزيمـة السكسـون في شـمال ألمانيـا وقـد أحتـاج فـتح تلـك الـبلاد الى ١٨ حملـة عسكرية وكانت العوامل الدينية تلعب دورها في هـذه الحـرب، فقـد كـان السكسـون وثنيـين أمـا (شـارلمان) فـأراد أن يـدخل الكاثوليكيـة الى بـلاد السكسون وكان يقتل كل وثني يرفض الدخول في المسيحية.

حارب (شـارلمان) أيضـاً في جنـوب ألمانيـا وجنـوب غـرب فرنسـا للسيطرة على تلك المناطق ، وأخر المناطق التي فتحها كانـت منطقـة افـار) وكانوا شعبا أسيويا قريبين من (الهون) يشـغلون أرضـاً كبـيرة فـيما نـدعوه اليوم هنغاريا وصربيا وأستطاع قهرهم والقضاء على جيشهم .

حاول (شارلمان) غزوا أسبانيا حيـث كـان يحكـم قسـماً كبـيراً منهـا العرب لكنه فشل ونتيجـة لحروبـه الكثـيرة فقـد حـاول أن يوحـد أوروبـا الغربية، وقـد حـارب في ٥٤ حملـة خـلال الخمـس والأربعـين سـنة التـي حكمها.

كانت بينه وبين (هارون الرشيد) في بغداد مراسـلات، وقـد أرسـل (الرشيد) هدايا (لشارلمان) منها ساعة مائية كلما مرت ساعة تخـرج جنـوداً بعدد الساعة المطلوبة وتدق وقد كان لهذه الساعة وقـع عـلى الحضـور مـن حاشية (شارلمان) ووزرائه لدرجة أنهم هربوا وأعتبروا أن ذلـك مـن عمـل الجن.توفي (شارلمان) عام ٨١٤ بعد أن أكمل الثانية والسبعين من العمر.

تعد أطروحة العالم البلجيكي هنري بيرين «محمد وشارلمان»، واحدة من أهم الأطروحـات الاستشرـاقية التـي زعزعـت عـالم المتخصصـين في القرون

الوسطى المسيحية، ولا سيما فيما يتعلق بالكشف عن ظهور مجتمع جديد في القرن الثامن الميلادي داخل أوروبا قائم على الاكتفاء الذاتي، وهو مجتمع سوف يعبر عن نفسه لاحقاً من خلال أشكال موهنة من الإقطاعية.

وبرأي بيرين فإن ظهور هذا النظام الإقطاعي الذي ساهم في تراجع أوروبا، لم يكن نتيجة عوامل داخلية فحسب، بل يعود في أساسه إلى ظهور قوة غريبة – الدولة الإسلامية– على الشواطئ الشرقية للمتوسط، ما أدى إلى قطع الطرق القديمة للتبادل التجاري التقليدي بين الدول الأوروبية وآسيا، وترك أوروبا الغربية من دون أسواق لتصريف البضائع، الأمر الذي سبب تراجع اقتصادها ليصبح نظاماً اقطاعياً يتميز بمقايضة السلع، وهو ما كان سائداً في القرون الوسطى (في الغرب). وهذا ما أخذ يمهد لمجموعة من الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى تغيير شكل العلاقة بين الكنيسة والدولة تغييراً جذرياً من خلال تتويج شارلمان إمبراطوراً مقدساً عام ٨٠٠. وقدعبر بيرين عن ذلك بقوله «إنه من غير محمد ﷺ لم يكن من الممكن تصور شارلمان».

في هذا السياق، يرى جين هيك استاذ التاريخ في جامعة ميرلاند في كتابه «شارلمان ومحمد، والجذور العربية للرأسمالية» الذي ترجم للعربية بعنوان «الجذور العربية للرأسمالية الأوروبية»، أن أطروحة بيرين السابقة تبقى غير متماسكة نظرياً، ذلك أن الوجود الإسلامي على شواطئ المتوسط، لم يكن يعبر عن عداء صريح لأوروبا، بل على العكس من ذلك، فقد ساهم هذا الوجود بعد

ثلاثـة أو أربعـة قـرون في تـوفير منـاخ اقتصـادي جديـد. فنتيجـة احتكاكهم المباشر مـع المـدن الإيطاليـة، نقلـوا الكثـير مـن تكنولوجيـاتهم العلمية المبتكرة والمتطورة إلى البندقية وأمالفي ومرسيليا، وهي المدن ذاتها التي قال الكثير من المؤرخين الاقتصاديين الحـديثين أن الرأسـمالية الغربيـة نشأت فيها.

• جـذور الركـود في أوروبـا المسـيحيـة:

من جانب آخر، يـرى هيـك أن بدايـة العصـور المظلمـة في أوروبـا المسيحية لم تكن أبداً نتيجة عوامل خارجية، بل نابعة من تطورات اجتماعية اقتصـادية داخليـة، حيـث نجـد أن علامـات ضـعف البنيـة التحتيـة للإمبرطورية الرومانية ظهرت منذ القرن الثالث الميلادي، أي قبل أربعمئة سنة من بدء التاجر الشاب محمد ﷺ مهمته الدينية.

فعلى الصعيد الاجتماعي الاقتصادي بدأت أوروبا تشهد فترة جديدة رثاها معظم المؤرخين الغربيين عبر تسميتها بـ"محنة القرن الثالـث"، حيـث أخذ الوهن والطاعون والحرب الأهلية والتعـديات البربريـة تضـعف مـن البنى الإجتماعية والإقتصادية في كل مقاطعات الإمبراطورية تقريباً، إلا أن اقتصاد الإمبراطورية الرومانية تلقى الضـربة القاضية عندما قرر قسطنطين الأول في أواسـط القـرن الرابـع المـيلادي إنشـاء عاصـمة جديـدة في القسطنطينية، الأمر الذي قسم الإمبراطوريـة السـابقة إلى قسـمين، عنـدها أصبح سقوط روما مسألة وقت لا أكثر.

أما التطور الآخر الذي سرع النهاية التدريجية لاقتصاد بلاد الغال فهو التدخل المتزايد للكنيسة في الشؤون الدينية، الذي بدأ مع حدث مفصلي تعرضت له أوروبا، وهو معركة تورز (سنة ٧٣٢) ذائعة الصيت في تاريخ الغرب المسيحي. ففي هذه المعركة أنقذ تشارلز مارتيل (عمدة باريس) أوروبا من الخطر الكاسح للإخضاع الإسلامي السياسي، وقد كان مارتيل مقرباً من الأسقف بونفيس وسان ويلفرد اللذين استفادا من موقعه الجديد، فقاما بجلب العديد من الرهبان للقيام بحركة إصلاحية كبرى من خلال الدعوة لتعاليم الكنيسة الأرذثوذكسية بما فيها العودة إلى عقائدها الاقتصادية الأساسية المتعلقة بالفقر المدقع.

فعلى سبيل المثال كان ثمة تحذير إنجيلي من لعنة الغني «ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم نلتم عزاءكم، فمرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»، ووصلوا إلى حد التأكيد أن التجارة بالكاد تستطيع أن ترضي الله. وبالتالي نجد – بحسب هيك- أن الكنيسة منعت دافع الربح والقدرة على أخذ فائدة على رأسمال والسعي الفطري وراء الربح المادي الذي يميز الاقتصادي في نظام السوق الحرة، فكان من ذلك أنها أدت إلى دمار روح العمل الحر في بلاد الغال، لتتحول بذلك أوروبا إلى قربان على مذبح الفقر. ومع ذلك، فان الآباء المؤسسين المبكرين أكدوا أن اليهود وحدهم هم الذين يحق لهم الانخراط في عمليات تتضمن الفائدة، وذلك بسبب شرط في سفر التثنية للعهد القديم ينص «للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا»، ومن هنا يمكن تفسير كيف أن اليهود

أصبحوا الوسطاء الأساسيين في تجارة أوروبا المسيحية خلال القرون الوسطى.

في الطرف المقابل، يرى هيك أن نشوء المستوطنات المدينية خلال الفتوحات الإسلامية الأولى كان عاملاً رئيسياً ساهم في تجديد الشرق الأدنى اقتصاديا خلال القرون الثلاثة الأولى من الهيمنة الإسلامية. فقد تأسست هذه المدن في البداية كمواقع عسكرية بهدف ترسيخ الفتوحات الإسلامية، كالبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر التي تأسست جميعها بين عامي ١٤ و٢٠ الهجري، وكانت هذه البلدات بحد ذاتها محفزات قوية للنمو الاقتصادي، فلم تسرّع فقط البناء على نطاق واسع، بل سرّعت أيضاً تطور وسائل نقل واسعة الانتشار من أجل الربط في ما بينها عبر شبكة عسكرية، بالإضافة لوجود جيش يضم عدداً كبيراً من المحاربين المتفرغين للفتوحات والذين يتلقون دخولهم من الغنائم الوفيرة التي غنمها المسلمون، وخلِق نظام خدمات عرف باسم العطاء مؤلف من رواتب نقدية أساسية تدفع إلى المسلمين كلهم بمبالغ متفاوتة، مما أدى إلى تطور شعب مديني استهلاكي ضخم، واستقرار اقتصادي نتيجة لطلب المستهلك.

كما تزامن هذا التراكم للرأسمال السائل داخل الأراضي التي تم فتحها، مع سياسة عدم تدخل كانت تتبع جدياً داخل أسواق الدولة الإسلامية، كما تؤكد أدلة في مصادر موثقة أن دافع الربح كان القوة الفعلية الأولى خلف النجاح المنقطع النظير للهجوم التجاري الإسلامي العالمي.

وفقاً للمؤرخ هيك، فإن هذه الرؤية الاقتصادية داخل دار الإسلام، كانت تعود بالأساس إلى ذكاء العديد من العلماء فائقي الموهبة، كأبي الفضل الدمشقي مؤلف كتاب: «الإشارة إلى محاسن التجارة»، والشيباني «الإقتصاد في الرزق المستطاب»، إضافة لمجموعة

من الأعمال المالية والإدارية التي ساهمت مساهمة كبرى في صياغة الصفة التجارية للدولة الإسلامية.

ويقول العالم الفقيه الشهير الذي عاش في القرن الخامس الهجري أبو الفضل الدمشقي في كتابه "الإشارة إلى محاسن التجارة": «التجارة إذا ميزت من جميع المعايش كلها وجدتها أفضل واسعد للناس في الدنيا». وبالتالي تثبت المصادر أن البحث عن الربح عبر التجارة كان في طليعة الطموحات الاقتصادية للمسلمين الأتقياء، وبلغت مثل هذه المحاولات المبكرة في تأويل السوق الحرة ذروتها في الأبحاث البارزة للمؤرخ الاقتصادي ابن خلدون خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري.

إلا أن تساؤلات جوهرية حول الفائدة تطلبت على وجه الخصوص نقاشاً وجدالاً مطولين، فقد كان النبي محمد ﷺ مهتماً للغاية بضمان تحقيق الإنصاف داخل سوق المستهلك مما أجبر الفقهاء المسلمين على البحث عن حلول بارعة لتحريم الدين بالربا، من خلال ظهور أعمال تأويلية خلاقة تحت اسم «كتب الحيل والمخارج» التي نشرتها المدرسة الفقهية الحنفية المنتشرة آنذاك في جميع أنحاء البلاد، حيث تحوي هذه الكتب على ممارسات خاصة لبعض الأعمال التي يبدو أنها تخالف في

ظاهرها التحريم الديني، وكمثال على ذلك كان يمكن استبدال قنطار تفاح بقنطارين من البرتقال إنما ليس بقنطارين من التفاح. كما تركز على وجوب تحقيق ربح أكبر في معاملات الدين «يباع شيء بالقرض مقابل مبلغ أكبر من بيعه مقابل مبلغ نقدي».

- **الإسلام والانتعاش المسيحي:**

وأمام هذه التطورات في الضفة المتوسطية الإسلامية، يرى هيك أن هذه الأحداث الاقتصادية لم تتطور في حالة من الخواء الثقافي، بل على العكس من ذلك، كانت مرتبطة بشبكة معقدة من التجارة الدولية، فقد استفاد اقتصاد أوروبا من التوسع السريع لدار الإسلام في القرن الثالث والرابع الهجري والتي استخدمت مواردها المعدنية الثمينة لشراء الأخشاب والأسلحة الحديدية، والمعادن الأولية وغيرها من المنتجات الأساسية الأوروبية الأصل التي احتاجت إليها للدفاع عن نفسها، وهو ما أدى لاحقا إلى بروز طبقة جديدة من التجار والحرفيين الذين يسعون إلى الاستفادة من فرص السوق الجديدة مشكلين بذلك طبقة برجوازية ذات ثروة سائلة لم تكن نتيجة الأرض بل من التجارة الخارجية، الأمر الذي قوض من تفوق الكنيسة والنبالة الإقطاعية المالكة للأراضي.

وقد رافق هذا التشكل البرجوازي، ابتداع بعض الأساليب التجارية ونقل بعض التقنيات الاقتصادية كعقد المضاربة وعقد البيع المزدوج الإسلامي الذي أعطاه تجار أوروبا اسماً لاتينياً (موهاترا) المشتق من المصطلح العربي (مخاطرة)، بالإضافة إلى اشتقاق بعض أدوات التسليف التي تحتال على قضية الربا والتي ابتكرها الفقهاء المسلمين. وبرأي هيك، لم

يكن هذا التشابه محض صدفة، لكون ذلك العصر قد شـهد اختـماراً فكرياً اقتصادياً إسلامياً عظيماً. فقد بدا بعض الفقهاء المسـلمين عـلى غـرار محمد بن حسن الشـيباني في كتابـه «الاقتصـاد في الـرزق المسـتطاب» وأبـو الفضل الدمشقي في «الإشارة إلى محاسن التجارة» بصياغة مبادئ اقتصادية شديدة الحداثة والعمق للسـوق الحـرة، لتتجـذر في تربـة خصـبة وضـمن اقتصاد قوي في تأثيره على عقائد التجارة وإدارة الاعمال في

المناطق التجارية القريبة والبعيدة، والتي أجمـع المؤرخـون عـلى أنهـا تطورت لاحقـا لتصـبح المبـادئ والممارسـات التجاريـة الخاصـة في المـدن الإيطالية، التي انطلق منها الانبعاث الرأسمالي الاوروبي.

• تَوْسِيْعُ المَمْلَكة الفَرَنْجِيَّة وتَطْوِيْرُ نُظُمِها:

بعد أن اسْتَأْثَر بيبين الثالث بـالحُكْم في بـلاد الفَرَنْجَـة، مُنْهِيًـا حُكْـمَ الأُسْرة الميروفنجية، ومؤسِساً الأُسْرة الكارولنجية الحاكمة فيها، وَطَّد وَلَدُه شارلمان – ومعناها شارل الأَكْبر – دَعائِمَ هذه المَمْلَكة، ووَسَّعَ دائرتَها بضَمِّ العديد من البلاد إليها، وصَيَّرَها إمبراطورية ضَـخْمة، شَـمَلَت مسـاحات شاسعة من غرب أوروبا، ووَسَطها، وشَمالها، لا تَقِلُّ عن المسـاحات التـي كانت تُسَيْطِرُ عليها الإمبراطورية الرُّوْمانِيَّـة الغَرْبِيَّـة، فصـار أَقْـوَى مُلـوك أوروبا النَّصارى في عَصْره، بل هو أَعْظَم مُلُوْكِهم فـيما يُسَـمَّى بالعُصُـور الوُسْطى؛ نَظَرًا لما قام به من إصْلاحات كثيرة في مَجالات شَـتَّى، كـالقَوانِيْن الإدارية، والقَضاء، والنُّظُم الكَنَسِيَّة، والتَّعْلِيْم، وغير ذلك.

✓ جُهُودُه في نشْر النَّصْرانيَّة في أوروبا:

كان لشارلمان دَوْرٌ كبير في نَشْر النَّصْـرانِيَّة بين العديد من أُمَم أوروبـا الواقعة تحت سُلْطانه، كالآفار، والبافار، والفريز، والسكسـون، واسـتخدم في ذلك شَتَّى الوسائل بما فيها الإكراه والقَسْر، ونَكَّل بالقبائل الوَثَنِيَّـة التـي أَبَت اعْتناق النَّصْرانِيَّة أَشَدَّ التَنْكِيْل، وأَجْبَرَهم على التَّنَصُّر بوَحْشِيَّة فَظِيْعـة، تَمامًا كما فَعَل جَدُّه شارل مارتل، وكان شارلمان يَصْـطَحِب معـه في جُيوشـه القُسُسَ والرُّهْبان دائمًا لنَشْر التَنْصِيْر بين القَبائل الوَثَنِيَّة، وقد كان هذا دَأْبُ أَبِيْه بيبين من قَبْل.

✓ مُناصَرتُه للكَنِيْسة الكاثولِيْكِيَّة الرُّوْمانِيَّة:

نـاصَرَ شـارلمان الكَنِيْسـة الكاثولِيْكِيَّـة الرُّوْمانِيَّـة ضـد أَعـدائها مـن اللومبارديين، وآزَرَ بابا روما ليون الثالث في صِراعه مع نُبَلاء رومـا، ذلـك الصِراعُ الذي آلَ به إلى الفِرار من مَقَـرِّ البابَوِيَّـة، فتَوَجَّـه شـارلمان إلى رومـا بمُجَرَّد سَماع الخَبَر، وبَرَّأ البابا، ونَفَى أَعْداءَه.

✓ تتويْجُه كإمبراطور رُوْماني مُقَدَّس وبَدْء عَصْر جديد من التَحالُف الإمبراطوري الكَنَسِي:

وقد دَفَعَت جُهُـود شـارلمان في نُصْرَـة البابَوِيَّـة، ونَشْرـ النَّصْـرانِيَّة، وتَوْسِيْع دائرة المَمْلَكـة الفَرَنْجِيَّـة بابـا رُوْمـا إلى تَتْوِيْجـه إمبرطـورًا رُوْمانِيًّـا مُقَدَّسًا على حَدِّ وَصْفِهم، مُفْتَتِحًا بذلك عَصْرًا جديدًا على القارَّة الأوروبِيَّة، تَعاضَدَت فيه سُلْطَتا الكَنِيْسة الكاثولِيْكِيَّة، والإمبراطورية الرُّوْمانِيَّة المُسَـمَّاة بالمُقَدَّسَة، وصارت الأُولى تُضْفِي على الثانية الهَيْبة والقَداسة، وتَسْتَمِدُّ منها

القُوَّةَ والسُّلْطان في نفس الوقت، وظَلَّت القارَّة الأوروبِيَّة تُعانِي من هذا الحِلْف الكَنَسِي المَلَكِي، حتى مَجِيء ما يُسَمَّى بعَصْر التَّنْوِيْر.

وقد كان شارلمان يَحْمِلُ أَلْقابًا كثيرة، كرئيس الدَّوْلة والكَنِيْسة، ورَئِيْس الأَساقِفة والكونتيات.

✓ نجاح شارلمان في انتِزاع بعض أراضِي المسلمين بالأندَلُس:

واصَل شارلمان سياسةَ والدِه وجَدِّه في قتال مُسْلِمي الأَنْدَلُس، وسَعَى لإخْراجهم منها بعد أن نَجَح جَدُّه في إيْقاف الزَّحْف الإسْلامي المُتَصاعِد في فرنسا، ونَجَح والدُه في القَضاء على الوجود الإسلامي في جَنُوب فرنسا،

وواصَلَ شارلمان ما بَدَأ في عَصْر والدِه من دَعْم أُمَراء شَمال الأَنْدَلُس الثَّائِرِيْن على أُمَراء الأَنْدَلُس من بَنِي أُمَيَّة.

وقد فَشَل شارلمان في حَمَلاته الضَّخْمة التي قادَها على الأَنْدَلُس غير مَرَّة، إلى أن اسْتطاع انْتِهاز فُرْصة الصِّراع الدَّائر على الإمارة في الأَنْدَلُس عَقِب وَفاة هشام بن عبد الرحمن الدَّاخل، وتَمَكَّن من السَّيْطرة على بعض مَناطق في الشَّرِيْط الضَّيِّق بشَمال الأَنْدَلُس، مثل إقليم كاتالونيا، وكانت قاعِدَتُها مدينة برشلونة التي اسْتَسْلَمَت بعد حِصار طَوِيل شاق، وإقليم جاسكونيا الذي كان يَشْمَل أَراغون، ونافار، كما حاول شارلمان اقْتِحام مدينة سَرَقُسْطة، ولكنه أَقْلَع عنها بعد حِصار طويل.

لكن أَغْلَب المناطق الحُدُوْدِيَّة ظَلَّت مَناطق مُلْتَهِبة، يَسُوْدُها القَلَق، والتَّرَقُّب، ولم يَحْدُث حَسْمٌ عَسْكَرِيٌّ فيها لصالح أَيٍّ من الفَرِيْقَيْن، وتَتابَعَت غَزَواتُ المسلمين إلى جَنُوب فرنسا بعد سُقُوط قَواعِدِهم فيها فَتْرة من الزمن، حتى أن جَيْشًا إسلاميًّا أَرْسَلَه هشام بن عبد الرحمن الدَّاخل قد عَبَر جبال البرانس، واجْتاح العديد من المدن الجَنوبِيَّة الفَرَنْسِيَّة، وهَزَم جُيوشَ الفَرَنْجة، وواصَلَ تَوَغُّلَه في أَراضِيْهم، حتى بَلَغ إقليمَ برطانية [بريتاني] بشَمال غَرْب فرنسا، وعاد مُثْقَلًا بغَنائم وَفِيْرة، كما وَصَلتها فيما بعدُ غَزواتُ المَنْصُور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى في النِّصْف الثاني من القَرْن الرَّابع الهِجْري، بَيْدَ أن تلك الغَزَوات لم يَنْتُج عنها شيءٌ من عَوْدة الجَنُوب الفَرَنْسِي إلى حَوْزة المسلمين، وإنما كانت للنِّكايَة، وقَطْع الإمْدادت عن نَصارى الشَّمال، وحِيازَة الغَنائم الوَفِيْرة.

كما سَعَت بعضُ الجُزُر النَّصْرانِيَّة بالبحر المتوسط مثل كورسيكا، وسَرْدانِيَة، وجُزُر البليار الواقعة شرق الأَنْدَلُس إلى الدُّخُول في طاعة الإمبراطور الفَرَنْجِي شارلمان؛ لحِمايَتها من الغَزْو الإسلامي، ووَقَعَت وَقائِعُ بَحْرِيَّةٌ كثيرة بين المسلمين والفَرَنْجَة في نِطاق تلك الجُزُر.

- ✓ **دَوْرُه في دَعْم الكاثُوْلِيْك في الأَراضِي المُقَدَّسَة:**

مارَسَ الإمبراطورُ شارلمان دَوْرَ الحامِي للنَّصارى الكاثُوْلِيْك في أَراضِي بَيْت المَقْدِس، وكان يُرْسِلُ الأَمْوالَ الضَّخْمة للحِفاظ على كَنائِسهم، وأَدْيرَتِهم، والأَماكن التي يُقَدِّسُونها، وشَيَّد العديدَ من الأَبْنِيَة لرِعايَة الحُجَّاج النَّصارى القادِمِيْن من مَمْلَكته إلى تلك الأَراضِي، وأَسَّسَ كَنِيْسة

قُرْب مستشفى جريجوري الأول المُلَقَّب بالعَظِيْم، ورَدَّ المستشـفى إلى الحُجَّـاج اللَّاتِـيْن، وعَهِـد لمجموعـة مـن الرُّهْبـان بخِدْمـة المستشـفى والكنيسة، وتُعَدُّ تلك الكنيسة في نَظَر بعـض المـؤرِّخِيْن النَّـواة الأُولى لهَيْئـة الفُرْسان الاسبتارية، أَقْـدَم الهَيْئـات الصَّـلِيْبِيَّة التـي جَمَعـت بـين الرَّهْبَنـة، والفُرُوْسِيَّة.

كان هذا الصنيع من بابا روما على غير اتفاق مع شارلمان، وجاء عـلى غير رغبة منه؛ فقد كان لا يريد أن يكون هذا التتـويج منحـة مـن البابويـة، وكان يرى نفسه أهلًا للحصول عليه بمحض جهوده، ومقدراته، كـما كـان التتويج بهذه الصورة مستفزًا للإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، والذي يعتبر نفسه الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطورية الرومانية، مما قـد يـؤذن بشقاق، وشرخ في العلاقات بين الإمبراطوريتين.

الفصل التاسع
التأثير العربي الإسلامي على الغرب الأوربي
الأندلس وصقلية:

طريق الأندلس:

وصل المسلمون الى الأندلس سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م، وفي سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م استطاعوا السيطرة على المدن الرئيسية فيها فأصبحت إقليماً تابعاً للدولة العربية الإسلامية يديرها والي أفريقية (تونس)، وسادها السلام مدة طويلة(٦)، وفي عام ١٣٨هـ/ ٧٥٥م عبر الأمير عبد الرحمن الداخل(٧) الى الأندلس هارباً من بني العباس فابتدأ عهد الدولة الأندلسية المستقلة، وبدأ عهد قرطبة عاصمة لها، اذ وصلت الى أوج ازدهارها في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث(٨) (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢م ـ ٩٦١م) الذي مد نفوذه الى كل شبه الجزيرة الايبرية، واستمر الازدهار في عهد ابنه وحفيده إلا أن الأخير سمح بانتقال السلطة الى يد الحاجب المنصور(٩)، وبعد وفاة ابن المنصور عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م لم يتول الحكم رجل قادر على الاحتفاظ بوحدة الأندلس؛ لذا تفككت الدولة الأموية وبدأت مرحلة دويلات الطوائف(١٠) ومع ذلك فان الازدهار الفني والأدبي كان مستمرا رغم مشاكل السياسة وتنافس الحكام(١١).

إن الازدهار الثقافي العربي السريع في الأنـدلس قـد سـاعدت عليـه عوامل عدة، منها: الاستقلال السياسي المبكـر الـذي نالتـه الأنـدلس بعـد أربعين سنة من الفتح العربي فكانت أسبق من أقطار الـدول الإسـلامية في الإحساس بشعور قومي نتيجـة لـذلك الاسـتقلال السـياسي، وقـد أتـيح للأندلس أمراء كانوا من

عباقرة السياسة وتدبير الملك تعاقبوا على الحكم طوال ثلاثـة قـرون، وهي مدة طويلة لم يتح لها مثيل من الاستقرار والدوام لأي قطر إسـلامي، فاذا أضفنا الى لذلك تنوع العناصر الاجتماعيـة التـي تـألف منهـا الشـعب الأندلسـي أمكننا ان نلمح طرفاً من أسـباب النضـج السريـع الـذي قـدر للشعب الأندلسي، فضلاً عن ان بعد الأندلس عن مراكز الثقافة العربيـة في الشرق أرهف فيهم الحساسية الثقافية والفكرية فجعلهم أكثر تطلعا للأخذ بأسباب الثقافة كل هذه العوامل تفسر كيف بلغ الشعب الأندلس ي درجة من الرقي والنضج السريع وكيف كان للثقافة الأندلسـية في الإطـار العـام للحضارة كثيراً من مظاهر الأصالة والتميز(١٢).

ومن جانب آخر فان موقع الأندلس وانفصالها عن العالم الإسـلامي معظم عصر الأمويين وملوك الطوائف واتصالها بالشعوب المسيحية جعـل مجـال النقـل الحضـاري بيـنهما واسـعا. وكانـت المحالفـات والمصـاهرات والسفارات تـتم جنبـاً الى جنـب، فتقـوى الوشـائج وتـدوم المـودة ويعـم السلام، وحتى في أوقات الحرب لم يكن هناك ما يمنـع مـن الاتصـال بـين الشعبين بسبب التجاور والملاصقة والعيش على ارض واحدة، وبسبب

التداخل السياسي والعسكري والبشري في شبه الجزيرة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالذات(١٣).

ففي عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م سقطت طليطلة بأيدي الأسبان، فالتجأ أهل الأندلس الى المرابطين حكام المغرب(١٤) فأمدوهم بجيش استطاع الانتصار على الأسبان(١٥) وحكم المرابطون الأندلس حتى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م، ثم أعقبهم الموحدون حتى سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، ونتيجة للصراعات السياسية

استطاعت الدويلات الشمالية الأسبانية السيطرة على قرطبة سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م، ثم على اشبيلية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، وبعد أن استتب الأمر للأسبان ما يقرب من عشرين سنة لم يبق من دويلات الأندلس سوى مملكة غرناطة يحكمها بنو نصر الذين فقدوا استقلالهم عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م حين ضمت الى مملكة أراغون وقشتالة المتحدة(١٦).

بيد أن التبادل الحضاري والثقافي لا يخضع بالضرورة للموقف السياسي أو العسكري، فقد كان للأندلس الإسلامية حتى في عصور ضعفها واضمحلالها نفوذ هائل على اسبانيا المسيحية ولم يمنع تغير ميزان القوى لصالح الممالك النصرانية في اسبانيا والبرتغال استمرارها من الاستفادة من ثقافة المسلمين الأندلسيين والاضطلاع بدور حمل عناصرها ونقلها الى مختلف بلاد أوربا(١٧)، فالأسبان الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من الأندلس عندما اخلد العرب الى أرض الترف والبذخ

وانحسروا في النصف الجنوبي لم يبقوا جامدين لاشعور لهم بثقافة جيرانهم التي أخذوا يقتبسونها، وكان السياح والمسافرون من النصارى الذين يزورون مدن العرب يعودون إلى أوطانهم فيقصون من أخبار العرب وعلومهم وحضارتهم الجميلة ما يهز النفوس ويشّوقها[١٨].

كانت الأندلس تثير بحضارتها وعلومها وفنونها اهتمام الأمم الأوربية، وكانت جامعاتها المزدهرة مقصد طلاب العلم من كل مكان، وكانت مدارس الترجمة الأندلسية وبخاصة مدرسة طليطلة تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم الإسلامية الى اللغة اللاتينية، التي كانت لغة العلم في سائر أنحاء أوربا،

والتي ظلت لغة التخاطب عند الأغلبية الساحقة من أهالي اسبانيا وان كانت العربية هي لغة العلم وإدارة، وبدأت منذ ذلك الحين مساهمة الحضارة العربية في تكوين حضارة أوربا وقد امتدت هذه المساهمة نحو ثلاثة قرون وكان لها أثرها الواضح العميق[١٩].

طريق صقلية[٢٠]:

كانت صقلية الجسر الثاني الذي اجتازته الحضارة العربية في طريقها إلى أوربا، وكان العرب قد خلصوها من الحكم البيزنطي عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م[٢١]، ثم هاجمها النورمانديون عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦٠م، وبسطوا كامل نفوذهم عليها عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م[٢٢]، وبسبب سياسة اللين التي اتبعها النورمانديون في صقلية، شهد القرن الثاني عشر الميلادي ظهور حضارة

مسيحية إسلامية في صقلية، إذ اخذ النورمانديون عن العرب أصول احتفالات البلاط، واخـذوا عـنهم آدابهـم وعلـومهم واسـتخدمت اللغـة العربية لغة رسمية الى جانب اللاتينية واليونانية وضربت النقود على النمط العربي[٢٣].

بقيت صقلية المركز الخصيب لانتشار العلوم العربية، وكانت اللغات التي يتخاطب بها سكانها بلهجاتها الدارجة اليونانية، والعربيـة، واللاتينيـة ولكن بعض مثقفيها كانوا يتقنون الفصيح منها، وكان ملوكهـا مـن روجـر الأول حتى فريدريك الثاني، وما نفرد، وشارل الأول يستقدمون العلماء الى بالرمو مهما كان دينهم ولسانهم فشرع جمهرة مـن العلـماء في بـالرمو كـما في طليطلة ينقلون من العربيـة واليونانيـة الى اللاتينيـة[٢٤]. وكـان فريـدريك الثاني وابنه مانفرد يعرفان العربية قراءة وكتابة، وقد ألفـا الكتـب بالعربيـة، وترجمت مؤلفاتهما الى اللاتينية

وانشأ فريـدريك جامعـة نـابولي عـام ٦٢١هــ/ ١٢٢٤م وأهـداها مجموعة من الكتب العربية، وكان للفلاسفة العرب مكانتهم في بلاطه كـما قامت علاقات ودية سياسية بينه وبين السلطان الكامـل محمـد (٦١٥هــ ـ ٦٣٦هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٨م) ابن اخي صلاح الدين، وقد تراسلا في أمـور فلسفية ورياضية مما جعل المجمع المسكوني للكنيسة في ليون عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م يتهمهُ باعتناق الإسلام سراً[٢٥].

لقد هيأ وجود الثقافة الإسلامية في صقلية ورعايـة ملـوك النورمـان للعلم وأهله نوعا من الدعم الدولي لرقي المعرفة، وأدى وجود اللغتين

العربية واللاتينية جنبا الى جنب وقيام صلات ودية بين المسلمين والمسيحيين الى ذيوع المعرفة على نطاق واسع [٢٦].

• مجالات التأثير الإسلامي في الأندلس وصقلية على الغرب الأوربي:

الترجمة:

إن منجزات الحضارة الإسلامية التي انتقلت الى الغرب عبر وسائل الاتصال والترجمة، كانت أساساً للنهضة الأوربية في مختلف مجالات العلوم والأدب.

لقد حفظ العرب مؤلفات اليونان، وفي قرنين من الزمان نقل الى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي تقريباً، وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب الى أوربا الغربية في أواخر القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وقد جاء تسربها عن طريق

صقلية الى ايطاليا، ومن الأندلس الإسلامي الى اسبانيا المسيحية ثم الى فرنسا وغيرها من البلدان الأوربية، فكان العرب رابطة بين عصرين وبذا يثبت فضلهم على الغرب الذين حاول بعضهم خفض فضائل العرب الواضحة كالشمس في رابعة النهار[٢٧].

غدت الأندلس منطلقا لترجمات في الفلسفة والعلوم العربية على نطاق واسع وذلك في مدينة طليطلة، وصقلية، فقد وقعت بحوزة المسيحيين كنوز المكتبات العربية وشرعوا ينقلونها الى اللغات التي يفهمونها

فأثيرت حركة واسعة في ترجمة العلوم العربية في أقطار أوربا، ومما يلفت النظر هو اندفاع المتعلمين الشديد الى دراسة مترجمات الكتب العربية التي انتشرت مخطوطاتها فيما بينهم، وتبني أفكارها برغبة وتصميم فكثرت لغات الترجمة وصيغها وطبعت كتبها بتكرار في العديد من المدن الأوربية وترجم الكتاب الواحد أكثر من مترجم واحد والى أكثر من لغة أوربية واحدة (٢٨).

كانت أولى الكتب العربية التي ترجمت الى اللاتينية هي الكتب الطبية والعلمية وكان المترجم قسطنطين الإغريقي(٢٩) قد بدأ عمله كمترجم منذ سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م واستمر فيه حتى وفاته سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م(٣٠)، وقد ترجم عن العربية كتباً كثيرة ولا سيما الكتب الطبية فأثر ذلك في مدرسة سالرنو(٣١) تأثيراً كبيراً، وتعرف الأوربيون اذ ذاك على وجوه الطب العربي(٣٢).

وعلى الرغم من ان الترجمات اللاتينية كانت غارقة في الفوضى والأغلاط إلا إنها أصبحت بداية لنشاط واسع دام عدة قرون في ميدان الترجمة(٣٣).

كانت طليطلة وبالرمو اكبر مركزين للترجمة في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فأما الأولى فهي المركز الأول الذي جمعت فيه الكثير من المصادر العربية، وتوافر لها بعض كبار المترجمين، فنظمت فيها جماعات للترجمة فينقل أولاً من العربية الى العبرية او القشتالية ثم منها الى اللاتينية، وقد مرّ بطليطلة اغلب المشتغلين

بالترجمة ومنهم من استقر فأقام فيها، ومنهم جيرارد الكريموني (٥٠٨ ـ ٥٨٣هـ/ ١١١٤م ـ ١١٨٧م)[٣٤] ذلك الايطالي الذي اجتذبته الترجمة، فقصد طليطلة والى جانبه المطران دومنيك الذي عني بالناحية الفلسفية واليه يرجع الفضل في إدخال عدد من فلاسفة الإسلام الى العالم اللاتيني[٣٥].

لقد ترجم الكريموني عن العربية كتبا لابقراط، وجالينوس كما ترجم كتابين أصيلين في العربية هما: (القانون في الطب) لابن سينا، والتصريف للزهراوي الذي يعد القسم الأخير منه اشهر بحث في الجراحة، وهذان الكتابان لهما أهمية خاصة في تاريخ الطب[٣٦]، وكان للمستشرقين الانجليز دور في الترجمة ومنهم اديلارد من باث الذي طاف بلادا كثيرة في طلب العلم، ووصل الأندلس وصقلية وسورية في زمن الصليبيين ، وترجم فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات في سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، وكان لكتبه تأثير كبير في روجر بيكون الذي أسس الطريقة التجريبية المنسوبة إليه[٣٧].

أما بالرمو عاصمة صقلية فقد نشطت فيها حركة الترجمة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تحت رعاية الإمبراطور فريد ريك الثاني الذي شاء أن ينشر الحكمة اليونانية والعلوم الإسلامية، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة

من المؤلفات العربية ودعا إليه كبار المترجمين وفي مقدمتهم سكوت (عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)، تلك الشخصية التي كانت مملؤة نشاطاً وحركة والتي عُزي إليها عدد غير قليل من الترجمات، فكان يوزع العمل على عدد من التلاميذ والأعوان ثم يتابع نشاطهم ويراجع إعمالهم، وبذلك استطاعت بالرمو أن تترجم أحسن مؤلفات العرب، وقد حرص الإمبراطور أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوربية رغبة منه في نشر العلم، وبدافع منافسة البابا في الغالب(٣٨).

الأثر العربي والإسلامي في نشوء الجامعات الأوربية:

هناك أدلة واضحة تشير الى مؤسسة الجامعة وهي من المبتكرات الخالصة للحضارة العربية(٣٩) وقد أنشأت المدارس على هذا الشكل بعد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأشهر مدارس بغداد، المدرسة النظامية، والمدرسة المستنصرية التي شيدها المستنصر بالله في النصف الأول من القرن السابع الهجري (٦٢٢هـ/ ١٢٢٦م)، وكانت جامعة بمعنى الكلمة، إذ حوت اربع كليات أو مدارس مستقلة، اختصت كل واحدة منها بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة(٤٠).

إن وجود الشبه بين الجامعات الاسلامية والجامعات الاوربية لم يكن وليد صدفة، إذ تدل الحقائق على أن القرون الوسطى الاسلامية مهدت لنشوء الجامعات في أوربا الوسطى(٤١).

لقد اشتهرت مدارس الأندلس بكثير من أساتذتها الاختصاصيين الذين كانت لهم شهرة عالمية، ولم تكن خاصة بالمسلمين بل كان يؤمها الطلاب من جميع الأجناس والأديان، ومنهم الباب سيلفستر الثاني الذي أقام في أشبيليه

ثلاث سنوات يغترف من علوم مدارسها،(٤٢) فكانت الحركة العلمية في الأندلس الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في أوربا، ولم تكن حرية الفكر فيها وحدها التي تغذي حب العلم والولع بل كان يثيره إجلال العلماء فيها أيضاً(٤٣).

ولم يكن بلد يحوي خزائن الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة وجمعا عظيما من خيرة الكتاب البلغاء وذوقا عاما في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس، وما الحلقات والدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين في ايطاليا الذين كانوا يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة الا تقليداً ضئيلاً للعرب(٤٤).

ولا شك أن ذلك التفوق العلمي الاسلامي كان حافزاً لعدد من البعثات الاوربية التي باتت تترى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى حتى بلغت سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م زهاء سبعمائة طالب وطالبة، وكانت إحدى هذه البعثات من فرنسا برئاسة الاميرة اليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا، وبعث فيليب ملك بافاريا الى هشام الثاني (ت٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) بكتاب يطلب اليه ان يأذن له بارسال بعثة من بلاده إلى الأندلس؛ للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها

والاستفادة منها، فوافق هشام الثاني، وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره ويل مبين[٤٥].

وسار ملوك اخرون من أوربا على هذا النهج، فأوفد ملك ويلز بعثة برئاسة ابنة اخيه كانت تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الاشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة اشبيلية برفقة رئيس موظفي القصر في ويلز، وقد استقبل حاكم الأندلس البعثة أحسن استقبال، ورد على رسالة ملك ويلز، وحظيت هذه البعثة بإهتمام رجال الدولة الذين قرروا أن يتم الانفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين[٤٦].

لقد انشأ عدد من الوافدين على الأندلس وصقلية المدارس والجامعات في أوربا بتأثير المدارس والجامعات العربية، وكان أول ما أسسوه من المدارس لاحياء العلوم: كلية سالرنو الشهيرة في ايطاليا، وكلية مونبيليه في جنوب فرنسا، وبعد ذلك أسست كليتي باريس واكسفورد وغيرها من الكليات والجامعات مثل تارانت، وباري، ونابولي في ايطاليا، كما شاد الباب سلفستر الثاني بعد عودته الى دياره مدرستين للعلم احداهما في ايطاليا والأخرى في ريمز[٤٧]، وكان فريد ريك الثاني ملك صقلية مُنشىء جامعة نابولي عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م قد أهداها مجموعة كبيرة من الكتب العربية[٤٨]، كما بقيت الترجمات العربية المصدر الوحيد تقريبا للتدريسيين في جامعات أوربا خمسة او ستة قرون[٤٩].

ومن الجدير ذكره أن الاوربيين قد التفتوا إلى الأندلس ينتدبون أساتذتها للتدريس في جامعاتهم والقيام بأعباء الناحية التعليمية، من ذلك كلية الطب التي أنشأت في مرسيليا في جنوب فرنسا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فقد دعي إليها أساتذة من عرب الأندلس (٥٠).

وإلى جانب ذلك فقد تأثرت الجامعات الأوربية ببعض تقاليد الجامعات العربية لا سيما تلك التي كانت موجودة بالأندلس، فقد قلدتها في لبس الأردية الخاصة بالاساتذة، وقلدتها في تخصيص أروقة للطلاب حسب جنسياتهم تسهيلاً لاستيعابهم في الجامعة، وقلدتها في منح الإجازات (إجازة التدريس) وقد أكد بعض علماء أوربا أن كلمة بكالوريوس اللاتينية ليست إلا تحريفاً للعبارة العربية: (بحق الرواية) والتي تعني الحق في التعليم بإذن من الاستاذ، ولا تزال جامعة كمبرج تحتفظ باجازة جامعية عربية مبكرة تعود الى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م فيها عبارة: بحق الرواية، بينما لم تظهر كلمة بكالوريوس في الاجازات الاوربية قبل عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م (٥١).

ويبدو للباحث أن هذا التأثر الأوربي بالجامعات العربية لا يعود إلى عامل التقليد وحده بناءً على مشاهدات البعثات، أو الطلاب الأوربيين الذين زاروا بلاد الأندلس، وانما قد يكون بتأثير علماء الأندلس الذين استقدمهم بعض ملوك أوربا لتأسيس المدارس، ونشر ألوية العلم والعمران، ففي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وما بعده وقَّعت

حكومات هولنده وسكسونيا وانكلترا على عقود مع حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم، وقد أختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الأسبانية واللاتينية الى جانب اللغة العربية(٥٢)، فمن الطبيعي أن ينقل هؤلاء المؤسسون تقاليدهم الجامعية العربية إلى تلك البلدان الاوربية.

الأثر الاسلامي في الطب الاوربي:

اقتبس العرب عن الإغريق النظريات الطبية التي لا تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى، إلا انهم ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي، وقام العرب بكثير من الاستكشافات الطبية(٥٣)، واحرزوا تقدماً في فن الاستطباب، ومن أشهر الجراحين: أبو القاسم القرطبي خلف بن العباس الزهراوي (ت٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) الذي جعله كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) من أكبر جراحي العرب وأستاذ علم الجراحة في أوربا، في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي(٥٤).

واشتهر ابن البيطار (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) بكتاب (المغني في الادوية المفردة) الذي صنّفه بناءً على الاختبارات التي أجراها على النباتات التي جمعها من اسبانيا وبلاد الشام،(٥٥) وهذا دليل على مزية المؤلف الشخصية في البحث؛ ولهذا اشتهر ابن البيطار وما يزال يعرف في أوربا بلقب (أبو علم النبات)(٥٦).

كانت لدى الاطباء العرب موهبة نظرية وعملية في تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجها في كتب علمية واضحة للطلاب والأطباء معاً، وأشهر الكتب الطبية كتاب (القانون في الطب) لابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٩هـ/ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م)، وقد درس في أوربا بعد ترجمته الى اللاتينية، وأخذ العرب بنظام البيمارستانات (المستشفيات) فعني البابوات وملوك الغرب باقامة المستشفيات على النظام العربي[٥٧].

الاثر الاسلامي في الفلسفة:

شهد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ازدهارا للفلسفة الأرسطية في الأندلس فقد ظهر في هذا القرن ثلاثة فلاسفة عظام تركوا أثراً في تاريخ الفكر الانساني، وهم: ابن باجه (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م)، وابن طفيل (ت٥٨١هـ/ ١١٨٥م)، وابن رشد (ت٥٩٤هـ/ ١١٩٨م)[٥٨]، والأخير عده الاوربيون أكبر ممثل لحرية الفكر في العصور الوسطى، واعجبوا بشروحه لفلسفة أرسطو وفي ذلك يقول الفيلسوف الفرنسي ـ رينان: (ألقى ارسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة وشرح غامضها)[٥٩].

وقد خالفت شروح ابن رشد آراء الكنيسة في كثير من اتجاهاتها؛ مما أثار نقمة رجال الدين في أوربا على أرسطو وابن رشد، وصدرت عدة قرارات كنسية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بتحريم

آراء الرجلين في الجامعات الناشئة. وممن تأثر بفلسفة ابن رشد تأثرا واضحاً القديس توما الاكويني ٦٢٢هـ ـ ٦٧٣هـ/ ١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م(٦٠).

وقد عرفت كتب الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) في المنطق والفيزياء والميتافيزيقيا نتيجة لجهود مترجمي طليطلة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كما كانت كتب الكندي، والفارابي (ت٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، وابن سينا (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) مألوفة وقد تركت اثاراً بعيدة في الغرب(٦١).

وفي الأندلس كان ميلاد أبرز أعلام الفلسفة الصوفية عند المسلمين وهو ابن عربي، الذي ولد في مرسية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي

وانتهى الى القول بوحدة الأديان؛ مما جعل آراءه محببة إلى فلاسفة الغرب فنقلوا كثيرا من آرائه وأفكاره وخاصة فيما يتعلق بصلة الروح بالله وتجلي الخالق في مخلوقاته(٦٢)، وقد لخص الفرنسي- سيديو الأثر الفلسفي العربي بقوله: (إن جميع الدروس بمدارس أوربا في القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية)(٦٣).

الأثر الاسلامي في الجغرافيا:

حافظ العرب والمسلمون في العصور الوسطى على أروع مافي التراث القديم، وأضافوا إليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضاري ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية، عن طريق الرحلات الواسعة التي سجلوا مشاهداتهم فيها بدقة ووضوح، وعن طريق الاجهزة العلمية التي ابتكروها

وحسنوا فيها، وعن طريق التفكير الحر الذي لم تقيده اغـلال كتلـك التي فرضت على التفكير المسـيحي طـوال القـرون الوسـطى، واسـتمرت جهـودهم في تطـوير الفكـر الجغـرافي دون انقطـاع حتـى عصرـ النهضـة والكشوف الجغرافية(٦٤).

وقد عرف القرن السادس الهجري/ الثـاني عشـر المـيلادي أعظـم عمل جغرافي عربي منظم في الجغرافية وهو كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الافاق)، لابي عبد الله محمد الادريسي (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) الذي عمـل في بلاط الملك المسيحي روجر الثاني ملك صقلية في بالرمو، ويضم الكتاب أعمال الجغرافيين السابقين، والمعلومـات التـي رواهـا الرحالـة، ويشـير الى افتراض ان الأرض كروية(٦٥).

وعندما طلب روجـر الثـاني مـن الإدريسي- وضـع صـورة جامعـة للارض، أجاب الإدريسي بان الارض كروية، فصنع له الملـك كـرة كبـيرة من الفضة رسم عليها الإدريسي معالم الارض، ومـن المعـروف أن الرسـم على سطح الكرة يختلف في قواعده عن الرسم على سطح منبسط، لـذا فـإن علماء المسلمين هم باعتراف الغرب أول من وضع أصول الرسم على سطح كروي، مما كان له آثره جغرافيا في تحديد معالم الكرة الارضية تحديداً واقعيـاً سليماً(٦٦).

وقد أكثر الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق) من الخرائط التـي زادت عن أربعين خريطة، وبلغ من إعجاب الأوربيين به أنهم ترجموه الى اللاتينيـة في وقت مبكر، كما كان من أوائل الكتب التي طبعت(٦٧).

وما كان للعرب أن يقوموا بالأعمال الضخمة التي حفظتها الكتب في ميدان الجغرافية، لولا وجود أجهزة دقيقة اخترعوها او نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا وحسنوا فيها وفي مقدمتها الأبرة المغناطيسية أو البوصلة والاسطرلاب، وهو من مخترعات الأغريق حسنها الجغرافي الاسكندراني بطليموس ووصل بها المسلمون حد الكمال، وكان استعماله في الشرق لتعيين وقت الصلاة والقبلة وأغراض أخرى(٦٨).

وعن المسلمين عرف الاوربيون البوصلة واستخدامها، وما زالت البوصلة تحتفظ باسمها العربي في كثير من اللغات الاوربية، فهي بالفرنسية: (*Boussole*) وبالايطالية: (*Bossala*)(٦٩).

وفيما يتصل بفضل العرب على الأمم الأروبية في علم الفلك، يكفي للتدليل على ذلك أن الأسماء العربية باقية بلفظها في المعجمات الفلكية الأوربية سواء في أسماء الكواكب والنجوم أو أسماء المدارات والمصطلحات، ومن مئات هذه المفردات نكتفي بالقليل للدلالة على الكثير،(٧٠)

كالطرف: *Altaref*، وكرسي الجوزاء: *Cursa*، والكف: *Caph*، والارنب: *Arnab*، والعرقوب: *Arkab*، والسمت: *Azimuth*، وادحى النعام: *Azna*، والبطين: *Botein*، وزباني العقرب: *Zaben hakrabi*، والوزن: *Wezn*، والنسر الواقع: *Wega*، والساهور: *Saros*، والسيف: *Saif*، وصدر الدجاجة: *Sadr*، وسعد السعود: *Sad Alsud*، ورجل الجبار: *Rigel*، والزورق: *Zaurek*، وقرن الثور: *Tauri*، وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها كثير غير ما ترجموه بالمعاني دون الألفاظ.

الأثر الإسلامي في الأدب:

كان للأندلس الدور الأكبر في تعريف أوربا بالقصص العربي ونشره على أوسع نطاق، فالتراث القصصي القديم الإغريقي واللاتيني اندثر أثناء العصور الوسطى وكان أكثر ما عرف منه في أوربا إنما كان عن طريق ترجماته العربية التي عبرت القارة الأوربية خلال الأندلس، وممن يتمثل فيهم ما استفاده الفن القصصي الوليد في أوربا من التراث العربي الإسلامي شخصيتين أولهما: الكاتب دانتي الليجيري (٦٦٤ ـ ٧٢١هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) الذي يعد من أكبر مفاخر عصر النهضة، وقد اضطلع المستشرق الأسباني ميجيل بلاثيوس بنشر دراسة (قصة الاسراء والمعراج الاسلامية وآثرها في الكوميديا الإلهية)، وخلاصتها أن

دانتي استقى فكرة الكوميديا الإلهية من مصادر إسلامية[٧١]. أما الشخصية الثانية فهو جوماني بوكاتشو (٧١٣ ـ ٧٧٧هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٧٥م) الذي يمثل في النثر الأدبي الايطالي ما يمثله دانتي في الشعر، وقد ترك مجموعة (الليالي العشر) والذي يتأملها لا يسعه إلا ملاحظة التشابه الكبير بينه وبين مجموعات القصص العربية في الشكل العام والتفاصيل مثل قصة الوزراء السبعة في الف ليلة وليلة وهي قصة ذاعت في الأندلس[٧٢].

الروح الأندلسية تبدو واضحة في قصة (امادس دي جولا) التي كتبت في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كما تبدو في غيرها من القصص الأوربي الذي أُلِّف في القرنين التاسع والعاشر

الهجريين/ الخامس عشر ـ والسادس عشر ـ الميلاديين، وتعد هذه القصص صدىً للثقافة العربية والاسلامية في الفكر الأوربي الذي كان نذيراً بانقلاب مهم في تاريخ الأدب الغربي الحديث لأنه أدى إلى مولد القصة الحديثة(٧٣).

وفيما عدا الإقبال العظيم الذي لقيته قصص ألف ليلة وليلة من الجمهور الأوربي، منذ أن ترجمت سنة ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، حتى ظهر لها في القرن الثامن عشر وحده أكثر من ثلاثين طبعه ونشرت منذ ذلك الوقت أكثر من ثلثمائة مرة بمختلف اللغات الغربية، وإلى هذه القصص يرجع الفضل في أثارة روح المغامرة عند الاوربيين، تلك الروح التي لا بد منها لكل أدب شعبي، حتى اعترف المستشرق جب بأنه لو لا قصص ألف ليلة وليلة لما عرف الأوربيون قصة ربنسون كروزو، أو قصة رحلات جلفر، ويعتقد أن قصة روبنسون كروزو

مأخوذة عن قصة (حي بن يقظان) التي كتبها فيلسوف الأندلس ابن طفيل، والتي ترجمت الى اللاتينية سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م، والى الانجليزية سنة ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م(٧٤).

أما الشعر فيقول دانتي: (إنَّ الشعر الايطالي ولد في صقلية، وشاع نظمه باللغة العامية في إقليم بروفانس جنوب فرنسا حيث تلتقي الأمم اللاتينية في الجنوب، فانتشر من ذلك الأقليم أولئك الشعراء الجوالون الذين عرفوا باسم التروبادور التي قيل أنها مأخوذة من كلمة طرب أو طروب)(٧٥).

وقد رجح كثير من المستشرقين والباحثين أن شعر التروبادور مأخوذ عن مسلمي الأندلس ، أو أن هناك صلة بينهما على الأقل، ذلك أن هناك تشابهاً في موضوعات هذا الشعر وشعر الزجل الأندلسي، كما أن بعض أوزان هذا الشعر الإفرنجي قشتالي يساوي أوزان الموشحات والأزجال الأندلسية، فضلاً عن التماثل في ترتيب الأبيات وتعاقب القوافي، مما يدل على التأثر الذي لا شك فيه بين هذين النوعين من الشعر(٧٦).

وقد وجدت في أشعار الاوربيين في شمال الأندلس كلمات عربية وإشارات إلى عادات لا توجد بين قوم غير المسلمين، وهي: تخميس الغنائم، واختصاص الأمير بالخمس منها(٧٧).

التأثير الإسلامي في ميدان الحياة الاقتصادية:

ا. الزراعة:

إن الأندلس بطبيعتها بلداً يمكن أن يحقق الاكتفاء الذاتي لسكانه(٧٨)؛ بسبب تنوع موارده وتباين أقاليمه المناخية واختلاف مواسم سقوط المطر في

شرق الأندلس عن غربه، لذلك تنوعت المحاصيل الزراعية واستمر ظهور الفاكهة على مدار العام، وكثرت محاصيله وفاكهته حتى صدرت إلى ممالك اسبانيا النصرانية وغيرها من دول العالم الأخرى، وقد عمل حكام الأندلس اقصى مافي وسعهم لاستغلال ثروات البلاد، فاستصلحوا الأراضي وأقاموا المصانع وتبادلوا التجارة مع بلاد أوربا ودول حوض البحر المتوسط الأخرى(٧٩).

قد قام العرب في القرون الوسطى بإصدار الدراسات المهمة في موضوع الزراعة بأنواعها، ودراسات حول إدارة الاراضي الزراعية، وفي الأندلس ظهر عدد كبير من الكتب التي تعنى بالزراعة وقد ترجم منها الكثير إلى اللغات الاخرى، وظهر عدد من المهندسين الزراعيين في الأندلس كانت تحت تصرفهم حدائق يجرون فيها التجارب على النباتات المحلية والاجنبية ويحاولون تطعيم النباتات او تنمية أنواع جديدة من الفواكه والأزهار، وكانت أول حديقة لدراسة النباتات في طليطلة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ثم تبعتها عدة حدائق مماثلة في اشبيلية بينما لم تذكر أية حديقة لدراسة النبات في أوربا حتى عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م حيث أقيمت حديقة في بادوفا في ايطاليا(٨٠).

وقد ادخل العرب الى الأندلس زراعة الأرز والقطن وقصب السكر والتوت والنخيل، وأنواع الزهور التي انتشرت زراعتها في شمال اسبانيا النصرانية، بل في أوربا كلها(٨١)، وزرعوا الفستق والموز ودوحة الكاملياء الحمراء والبيضاء، وازهاراً وبقولا نقلت بعد الى جميع البلاد الغربية(٨٢).

٢. الصناعة:

اشتهرت الأندلس بصناعة المنسوجات الكتانية البديعة الغالية، التي لا يفرق بينها وبين الكاغد (الورق) الجيد الصقيل في الرقة والبياض، وتعد الأندلس من أهم البلاد التي ازدهرت فيها صناعة الحرير بأنواعه المختلفة(٨٣)، وكان حرير مدينة ألبيرة أجودها يصدر الى داخل الأندلس وخارجها، واشتهرت اشبيلية بالحلل الموشية، وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة واسعة في الأوساط الأوربية الراقية، ونجد ذلك واضحاً في سير الملوك والبابوات والقادة الذين حرصوا على اقتناء هذه الملابس الثمينة(٨٤).

وفي مجال صناعة الخزف فإن روعة الصناعة الإسلامية أدت إلى تقليدها في أوربا، وخصوصاً في ايطاليا بعد أن غزا المسيحيون الأندلس للمرة الثانية وازدهرت هناك الصناعة التي تحمل طابع الفكرة الأوربية الى جانب التقنية الاسلامية ويدعى هذا الفن بالخزف الأسباني المغربي(٨٥).

كان الخزف المزخرف في عصر الخلافة قد ازدهر ازدهاراً كبيراً، بحيث تجاوز في قيمته الفن المسيحي الاوربي بما في ذلك الفن البيزنطي وقد ادى ذلك الى نشاط تجارة الصادرات من هذا النوع من الصناعات الفنية إلى شمال اسبانيا والى دول حوض البحر المتوسط، كما ادى الى ظهور مصانع للخزف في اسبانيا النصرانية في ترويل ***Teruel*** وقطلونية ***Paterna*** وبروفانس جنوب فرنسا(٨٦).

اشتهر الفولاذ الأندلسي بجودته في أنحاء العالم ومن أهم مراكز صناعته طليطلة وغرناطة، واشبيلية حيث كانت تصنع السيوف والدروع والالات

الحربية(٨٧)، وقد توصل مسلمو الأندلس الى اكتشاف خاصية النفط كونها مادة مهمة متفجرة، إذا خلطت بملح البارود وحصى الحديد في درجة عالية، وأدى هذا الاكتشاف الى ظهور المدافع والأسلحة النارية التي اخذها الاوربيون عن العرب(٨٨).

ولا شك أن صناعة الورق وسعت آفاق الثقافة عند العرب، وتوسعت صناعة الكتب وعملية بيعها، وقد انتشرت صناعة الورق بين المسلمين في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وكان ذلك حدثاً حضاريا كبيراً سبقوا به أوربا عدة قرون، وغدت شاطبة وبلنسية وقسطيلة من أهم مراكز صناعة الورق في الأندلس ومنها ومن صقيلة انتقلت هذه الصناعة الى أوربا، إلا أن أقدم المصانع التي أنشأت لصناعة الورق في فرنسا وايطاليا وألمانيا ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ويبدو من المخطوطات المحفوظة في المكتبات الأسبانية أن ورقها مصنوع من القطن والكتان، وكان ورق الكتب العربية المكتوبة بخط اليد يفوق ورق الغرب لطافةً ولمعاناً، كما فاقه بما كانت العرب تختاره من تزويقها بأبهج الألوان والأحبار والأزهار، ويعد كتاب: (غريب الحديث) لابن سلام أقدم مخطوط عربي كتب على الورق، وما يزال محفوظاً في جامعة ليدن ويعود الى سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، بينما يعود أول مخطوط أوربي الى عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م ومصدره صقلية(٨٩).

٣. التجارة:

كانـت علاقـات العـرب والمسـلمين بأوربـا قديمـة بـدأت بشـكل علاقات تجارية، كان لها الاثر في احتكـاك الاوربيـين المتخلفـين بالحضـارة العربية وكانت

هناك ثلاثة طرق للاتصال هي: طريق جبال البرانس، وطريق البحر المتوسط، وطريق الفولغا المؤدي الى شمال أوربا باجتياز بلاد الروس وكـان الطريقان الأولان يسلكهما عرب الأندلس، أما الطريق الثالث فكان يسلكه عرب المشرق، وفيما يتعلق بالبحر المتوسط فقد كان خاضعا للسيادة العربية يرسل العرب من خلاله إلى جميع الموانئ الأوربية منتجـاتهم الصـناعية والزراعية، وتدل النقود المكتشفة في أوربا عـلى مسـالك الطـرق التجاريـة العربية في أوربا، وان التجارة قد بدأت في وقت مبكـر منـذ القـرن الثالـث الهجري/ التاسع الميلادي، وآخر تاريخ لتلك النقـود هـو سـنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، إذ ورد فيها ذكر حكام بني العباس(٩٠).

كان التجار الايطاليون هـم الوسـطاء بـين الشرـق والغـرب، ففـي كبريات المدن الساحلية مثل أمالفي وبيـزا وجنـوا والبندقيـة أنشـأ الأفـراد المغامرون شركات تجارية وجهت مراكبها شطر الاسكندرية، ويافا، وعكـا والقسطنطينية لتعود محملة بضرـوب الحريـر والجـواهر والعقـود الذهبيـة والعاج المنقوش. والحق أن الايطاليين الحاذقين أفادوا في السياق البعيد مـن كل طريق بري أو بحري فانتشرـوا بقـوافلهم في أوربـا ليعرضـوا بضـائع الشـرق على الاهالي الأجلاف الذين كانوا يفغرون أفواههم دهشةً واعجاباً

في وجه العجائب المنثورة أمام أعينهم فيقدموا نقودهم الذهبية والفضية وخامات الشمال من الكتان والصوف والجلد والفراء التي يحملها الايطاليون بعد تهذيبها على ظهر المراكب العائدة الى المشرق لاستكمال دورة التبادل الاقتصادي(٩١).

ومما يلفت النظر أن التجارة بين الأوربيين والمسلمين قد ولّدت في القرون الوسطى حالات شاذة حتى أن تجارة الاسلحة ظلت قائمة بين الطرفين خلال الحروب التي نشبت بينهما على الرغم من جهود الحكومات الأوربية لإيقاف ذلك، وقد منحت الامتيازات للتجار المسيحيين من قبل الحكام المسلمين لضمان وجود الأسلحة حتى أثناء الحروب الصليبية(٩٢)، ومن الأدلة الدامغة على تأثر الأوربيين بالعرب من طريق التجارة، والالتقاء بهم: شيوع ألفاظ عربية كثيرة باللغة الفرنسية والانجليزية وبعض اللغات الأوربية الاخرى مثل(٩٣): القطن: ***Cotton***، الحرير الموصلي:***Muslin***، والحرير الغزي: ***Cause*** والحرير الدمشقي: ***Damas***، والجلد القرطبي: ***Cordevan***، والجلد المراكشي: ***Morocco***، والجبة: ***Jupe***، والمسك: ***Musk***، والعطر: ***Attard***، والزعفران: ***Saffran***، والأرز: ***Rice***، والسكر: ***Sugar*** والليمون: ***Lemon***.

يتبين لنا مما تقدم أثر الفكر والحضارة العربية والاسلامية في أوربا لا سيما عبر الأندلس وصقلية، فأوربا مدينة بانطلاقها الفكري والعلمي الذي بدأ في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي إلى العرب والمسلمين، الذين كان لهم الريادة وقصب السبق في ميادين

الثقافة والحضارة، فما كان من الأوربيين إلا أن (تناولوا مشعل العلم من ايدي العرب فاستضاؤا به بعد ظلمة وبلغوا به بعد ذلك ما بلغوه من هذا الضياء العميم الذي انكشفت به احدث العلوم، ولو لم يحمل العرب ذلك المشعل شرقاً وغرباً لكان من أعسر الأمور أن يقدح الأوربيون نوره من جديد، وإذا أفلحوا في قدحه فقصاراه في ثلاثة قرون أن يقف دون الشأو الذي انتهى إليه جهد الانسان في عشرات القرون))[٩٤].

- **الخاتمة:**

بعد التطرق الى موضوع البحث استطاع الباحث التوصل الى بعض الاستنتاجات ومنها:

❋ أن الثقافة الاندلسية بلغت درجة عالية من الرقي وتميزت بمظاهر الأصالة والإبداع، وكانت الأندلس الاسلامية تثير بحضارتها وعلومها اهتمام الأمم الأوربية، لتغدوا مقصداً لطلبة العلم، إذ كانت مدارسها تنقل ثمار العلوم الإسلامية الى اللغة اللاتينية، اللغة السائدة في أوربا آنذاك.

❋ هيأ وجود الثقافة الإسلامية في صقلية، وتشجيع حكامها النورمانديون للعلم وأهله، نوعاً من الدعم لتقدم ورقي المعرفة.

❋ كانت الأندلس منطلقاً لترجمة الكتب المتنوعة في مدنها المهمة مثل طليطلة، صقلية، وكانت طليطلة بخاصة تمثل المركز الأول الذي جمعت فيه الكثير من المصادر العربية، فقام بترجمتها كبار المترجمين إلى اللاتينية، وفي بالرمو عاصمة صقلية ترجمت أفضل مؤلفات العرب، ثم وزعت الكتب المترجمة على الجامعات الأوربية.

❋ أُسست العديد من المدارس والكليات في أوربا بتأثير المدارس والجامعات العربية التي شاهدها أو درس فيها عدد من الوافدين على الأندلس وصقلية، وبتأثير عدد من الأساتذة العرب الذين أستقدمهم بعض ملوك أوربا لتأسيس المدارس فيها، فنقلوا تقاليدهم الجامعية العربية إلى تلك البلدان الأوربية.

- أحرز العرب تقدماً في العلوم الطبية فتُرجمت مصنفاتهم ودُرّست في أوربا، ونقل الأوربيون الكثير من آراء وأفكار الفلاسفة العرب فكانت دروس الأوربيين مستمدة من مؤلفات العرب في هذا المجال، وقد أُعجب الأوربيون بمؤلفات العرب الجغرافية فترجموها، وأفادوا من الآلات الجغرافية التي طورها العرب، ويدل على ذلك الكثير من المفردات والمصطلحات التي بقيت بلفظها العربي في المعاجم الأوربية.
- كان للعرب أثرهم على أوربا في ميادين الحياة الاقتصادية مثل الزراعة، إذ تُرجمت الكتب التي تعنى بالزراعة، واقتبس الأوربيون منهم هندسة الحدائق، ونقلت إلى البلاد الأوربية أنواع مختلفة من النباتات، ناهيك عن التأثير العربي في ميداني الصناعة والتجارة، كما كان للعرب الريادة في ميادين الثقافة والحضارة التي أساساً للنهضة الأوربية في مختلف مجالات العلم والمعرفة.

الهوامش والتعليقات:

١. القلماوي ومكي، في الادب ـ ضمن كتاب اثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، ص٤١ ـ ٤٢.
٢. هونكه، شمس العرب، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.
٣. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٢٦٨ ـ ٢٦٩.
٤. الأدهمي، تاريخ أوربا، ص١٥.
٥. سليمان، تاريخ الحضارة، ص٣٣ ـ ٣٤.
٦. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢/ ٨٥ ـ ٩٢، ١١٨ ـ ١١٩.
٧. هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ولد سنة ١١٣هـ/ ٧٣١م في بلاد الشام، وكانت أمه سبية بربرية من قبيلة نفزة تدعى راح، أما أبوه معاوية فقد توفي سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م، فكفله جده هشام، اضطرته ظروف أسرته بعد سقوط الدولة الأموية الى الهرب الى فلسطين، ثم إلى إفريقية، وتنقل في شمالها قرابة خمس سنوات ثم عبر إلى الأندلس، واستطاع أن يتسلم زمام السلطة فيها بعد جملة متاعب، فقامت الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م وبقي في السلطة حتى وفاته سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، للمزيد ينظر: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص٥٤ـ٥٦، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٢١ـ٢٥، ابن عذارى، البيان المغرب، ٢/ ٦٢ـ٦٣.

٨. هو عبد الرحمن بن محمد بـن عبـد الله، أحاطـه جـده الأمـير عبـد الله بالرعاية والاهتمام بعد وفاة والده، تفوق عـلى أقرانـه مـن الأمـراء في العلوم والآداب والفروسية والسياسـة التـي تـدرب عليهـا في بـلاط جده، تولى الحكم وتمت له البيعة في اليوم نفسه الـذي تـوفي فيـه جـده الأمير عبد الله سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، حكـم الأنـدلس بكفـاءة عاليـة واتخذ لقـب الخليفـة سـنة ٣١٦هــ/ ٩٢٩م وتسـمى بـأمير المـؤمنين الناصر لدين الله، وبدأت الدعوة منذ ذلك التاريخ لبني أميـة بألقـاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصـى، للمزيد ينظـر: ابـن عـذارى، البيان المغرب، ٢/ ١٥٧، ١٩٨، عنان، دولة الإسلام، ٢/ ٤٣٠.

٩. هو محمد بن أبي عامر، كان ناظر الخاص أيام الحكـم المستنصـر، كـان ومن الذين حافظوا على وصية المستنصر بتنصيب ولـده هشـام المؤيـد على السلطة في الأندلس ، وأصبح الرجل الأول في الدولة لا سيما وان هشام كان ما يزال صغيرا، فتخلص من مناوئيه واتخذ لقـب المنصـور، ودعي له على المنابر، كان آية في الدهاء والمكر، استطاع ان يسيطر عـلى الدولة وأن يحجر على هشام المؤيد بعد ان أشـاع ان السـلطان فـوض إليه أمر الملك وتخلى عنه لعبادة ربـه، وظـل متنفـذاً حتـى وفاتـه سـنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م، ابن عذارى، البيـان المغـرب، ٢/ ٢٦٠ــ٢٦٣، ٢٧٨ـ٢٧٩، ٣٠١.

١٠. ينظر: عنان، دول الطوائف.

١١. فكري، قرطبة، ص٣٦ـ٨٥.

١٢. القلماوي ومكي، في الأدب، ص٣٤ـ٣٥.

١٣. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصـرانية، ص٤٠٩ـ٤١٠.

١٤. ينظر: رسالة المعتمد بن عباد الى يوسف بـن تاشـفين يستصرـخه ضـد الفونش السادس، ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص٢٨ـ٢٩.

١٥. ابن بلقين، مذكرات، ص١٢٢.

١٦. ابـن الابـار، الحلـة السـيراء، ٢/ ٣١٨ــ٣١٩، ابـن الخطيـب، اعـمال الاعلام، ص٢٧٥ـ٢٧٧،الحجي، التاريخ الأندلس ي، ص٢٢ـ٣٦.

١٧. القلماوي ومكي، في الادب،ص٣١ـ٣٢.

١٨. كيب، مدنية العرب، ص٣١.

١٩. الصياد، في الجغرافية ـ ضمن كتاب اثر العـرب والاسـلام في النهضـة الاوربية، ص٣١٥.

٢٠. صقلية: من جزائر بحر المغرب مقابل افريقية (تونس)، وهـي جزيـرة خصيبة كثيرة البلدان والقرى والأمصـار، وبهـا عيـون غزيـرة وانهـار جارية ونزه عجيبة، ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٤١٦ ـ ٤١٩.

٢١. المالكي، رياض النفوس، ١/ ١٨٦-١٨٧.

٢٢. يونغ، العرب واوربا، ص١٢٠.

٢٣. المرجع نفسه، ص١٢٠ـ١٢١.

٢٤. ارنولد، تراث الإسلام، ص٤٩٨.

٢٥. يونغ، العرب وأوربا، ص١٢١.

٢٦. الصياد، في الجغرافية، ص٣١٥.

٢٧. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص٤٥؛ سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٢٦١.وينظر: ملخص الاستكشافات العظيمة التي جاء بها العرب في علم الفلك والعلوم الرياضية، وعلم الجغرافية الذي قدمه سيديو معلقا بنص له دلالة عميقة في هذا المجال، اذ يقول: ((...وإن الاصطلاحات العلمية التي جرت عليها المشارقة كان سائرها ألفاظاً عربية منذ تولى بنو العباس منصب الخلافة وظهر تحكم التمدن العربي المتسع به نطاق لسان العرب الذي أدخله مترجمو الكتب اليونانية في الاصطلاحات فسهل انطباقها على المعلومات التصورية التي عزا الفرنج اختراع أكثر استكشافاتها إلى علماء منهم كانوا بالقرن الخامس عشر والسادس عشر مع أن اختراع أكثرها ما كان إلا للعرب الذين اجتهدوا في تقدم العلوم...)) خلاصة تاريخ العرب، ص٣٣٢ـ٣٣٣.

٢٨. يونغ، العرب وأوربا، ص١١٩.

٢٩. من مترجمي مدرسة سالرنو، ولد في قرطاجة سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م، وساح في الشرق كثيراً وكان يعرف اللغة العربية واليونانية واللاتينية، ترجم عن العربية كتباً كثيرة لا سيما الكتب الطبية، وتوفي سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٣٠١.

٣٠. يونغ، العرب واوربا، ص١١٩.

٣١. نسبة الى مدنية سالرنو الواقعة في جنوبي ايطاليا على خليج سالرنو، ومدرسة سالرنو هي مدرسة للطب، سميت في اللاتينية بمدرسة ابقراط، وتدين هذه المدرسة للعرب من حيث التأسيس، والتدريس وقد اتضح ذلك منذ

٣٢. القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٣٠٠ـ٣٠١.

٣٣. المرجع نفسه، ص٣٠١.

٣٤. يونغ، العرب واوربا، ص١١ـ١٢.

٣٥. من أشهر المترجمين، ترجم عن العربية أكثر آثار الفلاسفة اليونان، وقسماً من المؤلفات العربية، وكان يحسن اختيار الكتب المفيدة ويشتغل بالترجمة في طليطلة، وربما كان رأس حركة كبيرة في الترجمة ترفدها الدولة بالمعونة انذاك. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٢٩٩.

٣٦. مدكور، في الفلسفة ـ ضمن كتاب أثر العرب والاسلام، ص١٦٦ـ١٦٧، وينظر: عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية، ص٤٥٣ـ٤٥٤.

٣٧. يونغ، العرب وأوربا، ص١١٢.

٣٨. المرجع نفسه، ص١١٢، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٣٠٠.

٣٩. مدكور، في الفلسفة، ص١٦٧، وينظر: الفلاحي، مآثر العرب، ص٢٦٧.

٤٠. يونغ، العرب واوربا، ص١٣٠ـ١٣١.

٤١. ابـن الفـوطي، الحـوادث الجامعـة، ص٥٨ــ٦١، الخطيـب، تـاريخ الحضارة، ص٢٣٧.

٤٢. يونغ، العرب واوربا، ص١٣٠ـ١٣١.

٤٣. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٢٣٧.

٤٤. كيب، مدنية العرب، ص٤٨.

٤٥. المرجع نفسه، ص٤١.

٤٦. السامرائي، تاريخ العرب، ص٣٧٦، كانت بعثة ملك بافاريـا تتـألف من ٢١٥ طالباً وطالبة، وزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلـوا مـن مواردها الثقافية، وقد بقي ثمانية من أفراد هذه البعثـة اعتنقـوا الـدين الاسلامي ومكثوا في الأنـدلس ، ورفضـوا العـودة الى بلادهـم ومـن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير مـن رجـال الأنـدلس في ذلك الوقت وانجبن عددا من العلماء كان مـنهم عبـاس بـن مـرداس الفلكي، التكريتي، أوربا ترسـل بعثاتهـا الى الأنـدلس ، ص٩٠ــ٩١، السامرائي، تاريخ العرب، ص٤٧٦.

٤٧. زود ملك ويلز هذه البعثة برسالة يدل مضمونها على ما وصـلت إليـه الأندلس في ذلك الوقت من رقي حضاري، جعلها محط أنظار الغرب الأوربي الذي وجد في حضارة العرب أملا للتخلص من غمرة الجهل والتخلف وللتدليل على ذلك نـورد بعـض مـا ورد في هـذه الرسـالة: ((فقد سمعنا عن الرقي العظيم الـذي تتمتـع بفيضـه الصـافي معاهـد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لابنائنا اقتباس نماذج هذه

٤٨. الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان...))، التكريتي، أوربا ترسل بعثاتها الى الأندلس ، ص٩٠، السامرائي، تاريخ العرب، ص٤٧٦.
٤٩. الفلاحي، مآثر العرب، ص٢٦٦، ص٢٧٣.
٥٠. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٢٣٤-٢٣٥، يونغ، العرب واوربا، ص١٢١.
٥١. الادهمي، تاريخ أوربا، ص١٦.
٥٢. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٢٣٧.
٥٣. يونغ، العرب وأوربا، ص١٣١-١٣٢، السامرائي، تاريخ العرب، ص٤٨٤.
٥٤. السامرائي، تاريخ العرب، ص٤٧٧.
٥٥. ينظر عن إبداعات بعض أطباء مدرسة الأندلس في مجال الجراحة والادوية: سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٢٣٩.
٥٦. كامل، في الطب والاقربازين، ص٥٤-٥٥، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٢٢٦.
٥٧. كامل، في الطب والاقربازين، ص٥٤.
٥٨. الخطيب، تاريخ الحضارة ، ص٢٣٥.
٥٩. كامل، في الطب والاقربازين، ص٥٤-٥٥.
٦٠. يونغ، العرب واوربا، ص٩٦.
٦١. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٢٠٤.
٦٢. عاشور، الحياة الفكرية، ص٩٦.

٦٣. يونغ، العرب واوربا، ص١٢٣ .
٦٤. عاشور، الحياة الفكرية، ص١٠٢ .
٦٥. خلاصة تاريخ العرب، ص٢٤٠.
٦٦. الصياد، في الجغرافية، ص٣٢٧.
٦٧. يونغ، العرب واوربا، ص١٠٢ـ١٠٣ .
٦٨. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص١٨٠ .
٦٩. المرجع نفسه، ص١٧٩ .
٧٠. كيب، مدنية العرب، ص٥٣، ارنولد، تراث الاسلام، ص١٧٧ .
٧١. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص١٨١ .
٧٢. العقاد، اثر العرب في الحضارة الأوربية، ص٦٠ـ٦١ .
٧٣. القلماوي ومكي، في الأدب، ص١١٤، وينظر رأي بدوي في ان دانتي قد استمد مادة غزيرة لكتابه (الكوميديا الألهية) من التصورات الأخروية الاسلامية ولا سيما ماورد منها عند ابن عربي، بينما يرى الفلاحي أن دانتي اخذ فكرة الكوميديا الألهية من (رسالة الغفران) للشاعر العربي أبي العلاء المعري الذي سبق دانتي بحوالي ٢٧١ عاماً، بدوي، دور العرب، ص٤٩ـ٥٠، الفلاحي، مآثر العرب، ص١٧٦ـ١٧٧ .
٧٤. القلماوي ومكي، في الادب، ص١١٤ـ١١٩ .
٧٥. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص٣٠٦.
٧٦. المرجع نفسه، ص٣٠٦ـ٣٠٧.

٧٧. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص٧٠ـ٧١.
٧٨. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص٤٥٨.
٧٩. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص/ ٧١.
٨٠. أشار الى ذلك الخليفة المنصور العباسي عندما قال عن عبد الرحمن الداخل: ((ماذا يقال في رجل يركب من إنتاجه، ويلبس من ديباجه، وينفق من خراجه))، ابن الخطيب، إعمال الإعلام، ٢/ ٥، المقري، نفح الطيب، ١/ ٦٥ـ٦٦.
٨١. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص٤٦٦.
٨٢. يونغ، العرب وأوربا، ص٦٤، سليمان، تاريخ الحضارة، ص٣٠.
٨٣. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص٤٦٧.
٨٤. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص١٦٥.
٨٥. كان يوجد في المرية ٨٠٠ نول لصناعة الملابس الحريرية، و(١.٠٠٠) نول لصناعة الحلل النفيسة والديباج الفاخر، وألف نول للاسقلاطون، والف نول للثياب الجرجانية، ومثلها للثياب الاصفهانية والعنابي والستور المكللة وقامت صناعة النسيج في قرطبة حيث كان بها ثلاثة عشر ألف حائك، لمزيد ينظر: الادريسي، صفة المغرب، ص١٩٢ـ١٩٣، ص١٩٧، المقري، نفح الطيب، ١/ ٧٨،٧٤، المطوي، الحروب الصليبية، ص١٧٤.

٨٦. العبادي، الحياة الاقتصادية، ص٣٣٤ـ٣٣٧.
٨٧. يونغ، العرب واوربا، ص١٣٤.
٨٨. مورينو، الفن الاسلامي في اسبانيا، ٣٦٩؛ عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية، ص٤٦٥.
٨٩. ينظر: المقري، نفح الطيب، ١/ ١٦٣، العبادي، نظم الحكم، ص١٨٠.
٩٠. عاشور، الحياة الفكرية، ص١١٩، سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٢٦٨.
٩١. ينظر: العبادي، الحياة الاقتصادية، ص٢٤٧ــ٢٤٨، الفلاحي، مآثر العرب، ص٢٤٨ــ٢٤٩، يونغ، العرب وأوربا، ص٧٠، سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٢٦٨.
٩٢. يونغ، العرب وأوربا، ص١٥ـ١٦.
٩٣. شيفل، الحضارة الأوربية، ص٤٧ـ٤٨.
٩٤. يونغ، العرب وأوربا، ص١٦٢.
٩٥. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص١٠٩ـ١١٠.
٩٦. المرجع نفسه، ص٤٧.

الفصل العاشر
مقدمة في تطور الفكر الغربي والحداثة

• مواجهة أوروبا للإسلام:

أما الإسلام فإنه لما كان الرومان عامة يعدون كل ما عداهم من الشعوب برابرة، ولما كان البابوات ورجال الكنيسة يعدون الإسلام وثنية فقد اتفق الموردان في النظرة القاتمة إلى العالم الإسلامي، وامتزجت العنصرية القديمة بالحقد الديني الجديد.

مقارنة بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية:

مع أننا لو انتقلنا إلى واقع الحياة الإسلامية حينئذ وعقدنا مقارنة بين الدينين والحضارتين لوجدنا البون شاسعاً والفرق بعيداً:

١. لم يكن لدى أوروبا مركز حضاري يمكن أن يسمى "مدينة" بالمفهوم السائد عن المدن فيما بعد، وأكبر ما كانت تعرفه هو بيزنطة وروما اللتان لم تكونا سوى قريتين متأخرتين؛ إذا قورنتا بالمدن العالمية آنذاك بغداد، دمشق، القاهرة، قرطبة... إلخ[١].

٢. لم يؤلف في أوروبا خلال تلك الحقبة الطويلة كتاب علمي على الإطلاق، في حين نجد الواحد من علماء المسلمين يكتب العشرات وربما المئات من المصنفات في فنون المعرفة جميعها.

١- لا يزال التعصب والعنصرية يجريان في عروق المفكرين الغربيين، حتى أن بول كيندي عندما عدد المدن العالمية في العصور السابقة؛ ذكر بعض مدن الحضارتين الإغريقية والرومانية ولم يذكر مدينة إسلامية واحدة (مستقبل القرن الحادي والعشرين) من الأصل الإنجليزي!

وإذا كانت أوروبا تعد ظهور ترجمة كتب أرسطو بداية الخروج من عصر الظلمات، فإن الفضل عليها في ذلك يرجع إلى رجل ليس أوروبياً ولا نصرانياً، بل هو ابن رشد المتوفى سنة (١١٩٨م).

ومن هذا المنطلق العنصري وبتلك الرواسب الجاهلية انتقلت أوروبا ببطء -في مرحلة مفعمة بالمفاجئات والانكسارات الحادة- من عصر الظلمات البربري إلى عصر الظلمات الصناعي، وصولاً إلى المرحلة المعاصرة من الظلمات المتراكمة المسماة "عصر ما بعد الحداثة".

واستمر القدر الإلهي ألا تعتنق أوروبا الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠٠] هذا مع أن أساس نهضتها كان إسلامياً، وأن العربية كانت لغة العلم فيها إلى القرن الثامن عشر، وأن جامعاتها إنما قامت محاكاة للجامعات الإسلامية.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد غير أن ما فعلته أوروبا كان أفظع من مجرد التعصب لوثنيتها وترك الاهتداء بهدى الله؛ فقد تعدى ذلك إلى العدوان العسكري المتواصل أبداً على الإسلام وأهله، والوقوف الدائم مع كل عدو لهم وإن كان عابد حجر أو بقر!!

لقد كان إجحافاً أن تنظر أوروبا للمسلمين النظرة إلى البرابرة، والقوط، والنورمانديين، والفايكنج، بلا أدنى اختلاف، لكن أنكى منه أن تتداعى القارة طولاً وعرضاً شرقاً وغرباً، وتهب هبة رجل واحد لتحرير الأراضي المقدسة من البرابرة الجدد زعمت!!

الصدمة الحضارية الأوروبية:

وهكذا كانت الحملات الصليبية، وكانت الصدمة الحضارية التي لم تنسها أوروبا لحظة واحدة من عمرها:

أوروبا التي لا تعرف التمدن تحاصر مدناً -هي صغرى في محيط الحضارة الإسلامية- لكن بعضها يبلغ عشرة أضعاف روما عاصمة المتحضرين المقدسة!!

أوروبا التي لم تعرف العلم قروناً، بل لم تعرف كتاباً إلا الإنجيل ولا قارئاً إلا القسيس، تذهل للمكتبات الهائلة التي تختزنها هذه المدن الصغرى من عامة وخاصة، وفي كل فنون المعرفة من الفلك إلى النقد الأدبي!!

أوروبا التي لا تستطيع أن تستغفر ربها أو تصلي له أو تقدم له قرباناً إلا بتوسط البابا وكهنته، ولا تستطيع أن تقرأ كتابها المقدس ولا تفسره أو تترجمه إلى لغة حية، تجد كتاب الله الأخير -القرآن- في الشرق الإسلامي المتحضر تتلوه الملايين في المساجد والبيوت، والكل يعبد رب العالمين بلا واسطة مخلوق!!

أوروبا التي يعيش (٩٩٪) من أهلها عبيداً ورقيق أرضٍ وفلاحين لا يستطيع أحدهم أن يتنفس الهواء خارج إقطاعيته، وإن حاول ذلك كان عقابه الكي بمياسم عريضة تطبع العبودية على جبينه مدى الحياة، تجد الناس في الشرق الإسلامي يعيشون ويتنقلون أحراراً في أرض الله الواسعة من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، ويتاجرون مع جنوب إفريقيا والدول الإسكندنافية وربما مع جزر الكاريبي!!

أوروبا التي كان أفضل نموذج لوحداتها الإدارية هو حكومات "الكوميون" في إيطاليا، تجد الشرق المسلم يعيش أرقى النظم الإدارية في ممالك تبلغ مساحتها مساحة القمر!!

أوروبا التي يحكمها الأباطرة حكماً استبدادياً مطلقاً، ويعتقد الرعايا أن القيصر من نسل الآلهة، وأن الله هو الذي أعطاه هذا الحق قدراً وشرعاً وأورثه لسلالته المقدسة، تفاجأ بالمسلمين وسلاطينهم من الترك تارة، ومن الكرد أخرى، ومن المماليك ثالثة، والكل بشر في نظر سائر البشر[1].

أوروبا الغارقة في الهمجية والوحشية التي تحرق المخالفين وهم أحياء، وتتفنن في تعذيب المنشقين وإذلال المقهورين، ولا تعرف عهداً ولا ميثاقاً، تبهرها الأخلاق الإسلامية في الحرب والسلم سواء[2].

أوروبا التي ما كانت تحسب العالم إلا أوروبا، والتي تسمي الوصول إلى شيء من أطراف الشرق اكتشافاً[3]، وظلت هكذا إلى القرن التاسع عشر، ففوجئت بالمسلمين يجوبون الدنيا شرقاً وغرباً تجاراً ورحالة ودعاة، بكل تواضع

١- ظهر في العالم الإسلامي من يدعي دعوى أباطرة أوروبا وبابواتها كالعبيديين المتلقبين "الفاطميين" وأشباههم، ولكنهم كانوا منبوذين من عامة الأمة؛ لأن نور الكتاب والسنة جعل العامة من المسلمين أرقى فكراً من كثير من فلاسفة أوروبا الذين يؤمنون بهذه الأساطير مثل ما كان يعتقد هيجل في طواغيت بروسيا!!

٢- حسب أي منصف أن يرى كيف يعيش النصارى في مصر والشام وغيرها حتى يومنا هذا، مع أنهم منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول حتى الآن ليسوا سوى أقلية ضئيلة في محيط إسلامي كبير، ويقارن ذلك بالإبادة المستأصلة التي نزلت بمسلمي الأندلس على يد أوروبا النصرانية في العصر المسمى عصر النهوض!!

٣- انظر مثلاً كتاب: اكتشاف جزيرة العرب، وقد أقر المحقق التسمية لا بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال وهذا حال من تقمص عدوه وذاب في حضارته!!

وهدوء، لقد وصلوا إلى أجزاء من شمال أوروبا قبل أن تعرفها أوروبا نفسها، هذا عدا العالم الشرقي الهائل السعة بالنسبة لها براً وبحراً[١]. وما المساجد التي اكتشفت في جزر الكاريبي وصرخ كولومبس حين رآها قائلاً: "يا إلهي!! حتى اليابان فيها مساجد؟!!" إلا أحد الشواهد الثابتة على هذا.

أوروبا التي كانت تتداوى بمركبات من الروث والبول وأشلاء الحشرات الميتة، تفاجأ بالعالم الإسلامي زاخراً بالمستشفيات والمعامل القائمة على منهج التجربة والاستقراء؛ مع الخبرة والحدس في التشريح والتشخيص والجراحة وتركيب الدواء، وكل ذلك مدون في موسوعات ضخمة ظلت المصدر الأول لنهضة الطب الحديث ولا تزال رافداً متجدداً له[٢].

وإجمالاً: ولدت أوروبا ولادة جديدة، ووجد لديها لأول مرة في تاريخها الشعور بأنها أمة واحدة تواجه عدواً أبدياً هو الإسلام، وكانت طفولتها في ذلك العصر الذي سمي "عصر النهضة" أو الانبعاث الذي

٤- هذه الفوارق -وغيرها كثير- مع أن المسلمين كانوا عند قيام الصليبيين بحركاتهم الاستكشافية مقصرين في العمل بأحكام الإسلام والتمسك بحقيقته، وفي اعتقادي أن أوروبا لو رأت أخلاق النبوة المتمثلة في الجيل الأول الذي شهدته مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية لأسلمت نفسها لله كما فعل أولئك، ولآمن كثير من الصليبيين ولو قطعهم البابا إرباً إرباً، ولكنها حكمة الله في عقوبة هؤلاء وإضلال أولئك.

١- عندما سقطت الأندلس في يد فرديناند ديزابيلا أصدر أمراً بهدم كل الحمامات، وسنت الكنيسة قانوناً يعتبر الاغتسال عادة إسلامية؛ وقرينة لمحاكم التفتيش على أن فاعله لم يتنصر على الحقيقة، وفي ظل هذا الحكم الكاثوليكي ازدهرت تجارة البول البشري للتداوي به ، فقد كان الغرب مبهوراً بالحضارة الأندلسية لدرجة أن أبوال الناس في الأندلس هي أفضل أنواع الدواء!!(كل هذا فصله أحد المستشرقين الأسبان المعاصرين، ولعل الله يهئ لإخراج مادة عن هذا الموضوع الصارخ الدلالة).

تعمّدت ألا تجعله يبدأ تاريخياً بمعرفة الدين الرباني واكتشاف حضارته العظمى، بل بلحظة الإبحار العكسي- إلى الجاهلية الإغريقية واكتشاف أرسطو.

التناقضات الصارخة في الفكر الأوروبي:

إن ولادة أوروبا في ظل الحروب الصليبية وشعورها بذاتها من خلالها هو الذي يفسر تلك التناقضات الصارخة التي يعيشها الفكر الغربي متمثلة في هذه المعادلات الصعبة:-

- تعصب صليبي على الإسلام من بطرس الناسك إلى كلاوس[1]. يوازيه داخلياً تمرد كامل على دين الصليب.
- ازدراء مطلق للعصور الوسطى باعتبارها عصور إيمان، يوازيه تحيز فاضح لها إذا قورنت بنظيرها التاريخي في الإسلام!!
- الحكم بالسذاجة والبدائية على الفكر الإغريقي باعتباره نقطة البداية في مسيرة الحضارة الغربية، يوازيه الحكم عليه بالعظمة والإبداع بالنسبة للحضارة الإسلامية.

ولقد صدق أحد المفكرين الغربيين حين قال في وصف هذه الحالة من التناقض: "كانت أوروبا تعبد أرسطو وتلعنه في آنٍ واحدٍ" وهو التناقض الذي يدفع المسلمون ثمنه للحضارة الغربية إلى الآن.

٢- الأمين العام لحلف الناتو الذي قال بكل وضوح:"إن العدو الذي يعمل الحلف لمواجهته بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو الإسلام.

ولئن كانت كتب أرسطو بمنزلة الكوة الصغيرة التي نفذت منها أوروبا في انفلاتها من سجن الكنيسة المظلم فإنها لم توصلها إلى بر الأمان، بل إلى نفق الجاهلية الإغريقية التي لم تخرج منه إلا إلى صحراء القلق والضياع التي يصطلي الإنسان الغربي المعاصر بلهيبها.

- **دعائم النهضة الأوروبية:**

ومع أننا لا ننسى إطلاقاً مسئولية الأمة الإسلامية في كل ما حدث ويحدث، فإننا سنتجاوز هذا لننظر نظرة مجردة كيف أصبح الوليد عملاقاً مارداً، أي: كيف تشكلت أوروبا الحديثة؟ **وللإجابة الإجمالية على هذا نقول:**

إن هناك اتفاقاً عاماً لدى مؤرخي الفكر الأوروبيين على أن النهضة الأوروبية قامت على دعائم -أو حركات- ثلاث:

١. النزعة الإنسانية (*Humanism*) وإحياء الآداب القديمة أي: الانتكاس للجاهلية الإغريقية.
٢. حركة الإصلاح الديني.
٣. النظرة التجريبية.

وفي كل هذه الحركات نجد الأثر الإسلامي ظاهراً يوازي إن لم يزد على الثورة العقلية الذاتية على خرافات الكنيسة، والرغبة الفطرية في التحرير من ظلمها واستبدادها، ومع هذا التوازي في الدوافع والأسباب

استطاعت أوروبا بدهاء شيطاني أن تحتفظ بأسبابها الذاتية وتمدها إلى نهايات بعيدة، أما الخط الآخر فأسدلت عليه حجباً كثيفة من الإهمال والتناسي.

تأثير الحضارة الإسلامية في النزعة الإنسانية:

فالنزعة الإنسانية مدينة كلياً للحضارة الإسلامية، ولا ينحصر ذلك في الأثر الأدبي -اقتباس أبرز ممثليها وهو دانتي من أبي العلاء وابن طفيل- بل يشمل العصر كله، حتى أن الامبراطور فردريك الثاني وهو أكبر أباطرة القرون الوسطى بإطلاق، ويعتبر لدى بعض المفكرين أول المحدثين ورائد النهضة،كان

يتكلم العربية وكان بلاطه عربي العلم واللسان، حتى أنه حينما قابل الملك الكامل الأيوبي للصلح لم يحتج إلى مترجم، ولهذا اتهمته الكنيسة بالإسلام وسمته الزنديق الأعظم!![1].

تأثر حركة الإصلاح الديني بالتعاليم الإسلامية:

أما حركة الإصلاح الديني فلم تولد مع "لوثر" و"كالفن"، بل لها جذور عميقة الصلة بالإسلام لا يستطيع أي باحث أوروبي أن يغفلها مهما قلل من شأنها، ومنها (حركة تحطيم الصور والتماثيل) التي اجتاحت

١- انظر كتاب جاديس (الزنديق الأعظم) معرّباً.

الامبراطورية البيزنطية في أوائل القرن الثامن الميلادي -أي بعد قرن تقريباً من ظهور الإسلام- وممن آمن بذلك وأصدر مرسوماً عاماً به الامبراطور "ليو الثالث"(١).

صحيح أن التوراة حرمت ذلك(٢)، ولكن الكنيسة أحلته فيما حرفت من شريعة الله ووصاياه، وكل ما فعلته تحويل الناس من تصوير العظماء الدنيويين إلى تصوير المسيح وأمه والقديسين عندها.

سبق المسلمين في المنهج التجريبي:

أما التجريب الذي تعزى إليه نهضة أوروبا العلمية عامة، فإن باعثه الظاهري هو التساؤل العقلي الذي افترقت عليه الفلسفة القديمة وهو: أيهما أصدق الفكر المجرد أم التجربة الحسية؟.

ولم يكن صعود "جاليليو" إلى البرج وإسقاط جسمين متماثلين في الوزن إلا تدليلاً على بطلان قول أرسطو في ذلك(٣).

ومن هنا فإن الفكر الإسلامي -السني خاصة- الذي رفض فكر أرسطو رفضاً مطلقاً، ودعا -وفقاً لصريح القرآن- إلى نبذ تقليد السالفين، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في آيات الله الآفاقية

٢- واستمرت الحركة إلى عهد الإمبراطورة إيريني التي كانت معاصرة لهارون الرشيد -رحمه الله- حيث انتصرت الدعوة إلى الوثنية وأقر مجمع "نيقيه" الثاني سنة ٧٨٧م التماثيل والتصوير، وهكذا أغرقت أوروبا في الوثنية ولا تزال.

٣- في سفر اللاَّويين الإصحاح التاسع عشر:(أنا الرب إلهكم، لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم)، وفي الإصحاح السادس والعشرين:(لا تصنعوا لكم أوثاناً، ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً، ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له)، ونحوه في سفر الملوك الأول الإصحاح الرابع عشر ومواضع كثيرة من أسفار الأنبياء.

١- يرى أرسطو حسب النظر العقلي المجرد أن أثقل الجسمين هو الذي يقع على الأرض أولاً، في حين أثبت جاليليو بالتجربة وصولهما معاً؛ وبذلك تبين أن عوامل غير الكثافة (فراغ الوسط أو تخلخله) هي المؤثرة في سرعة السقو.

والنفسية هو أصل تقدم الإنسانية الحالي كلها، وما فعله " جـاليليو" بالنسبة لحركة الأجرام السماوية ما هو إلا جزء من الأثر السني الذي شمل العالم، وصرع المنطق الصوري الإغريقي في الشرق قبل أن تتخلص أوروبـا منه بعدة قرون[1].

• الأدب في أوروبا:

وعلى أية حال انطلقت أوروبا في نهضتها بعيداً عن الـدين، وسـوف نتتبع خط سيرها مقتصرين على الجانـب المقصـود بالـذات وهـو: (الأدب والفن) الذي تـنعكس عـلى صـفحات محيطـه المتماوج الأوجـه المتعـاورة لأوروبا في مراحلها التاريخية المتتالية.

جمود الأدب في أوروبا:

كان جمود الآداب جزءاً من الجمود المطلـق في ظـل الكنيسـة، حيـث كان العلم -وبالأصح معرفة القراءة والكتابة- منحصراً في رجـال الـدين، وأسوأ من ذلك أنه كان بلغة ميتة "اللاتينية"، وهي لغة معقدة الأسـلوب والقواعد في حين كانت أوروبا تتكلم لهجات كثيرة متباينة.

٢- رغم الثورة العنيفة في الفكر الأوروبي على منطق أرسطو لم يستطع أي فيلسوف أوروبي ولا هيجل أو جون مل أن يكتب في "نقض المنطق" مثلما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وأنى لهم ذلك!

أما المعايير الفنية للأدب والبلاغة والشعر والمسرح فكلها مصفَّدة بآراء أرسطو ونظرياته، وغاية العبقرية والإبداع والتجديد أن يستنبط الأديب أو الناقد من كلام أرسطو شيئاً أو يفرع عليه آخر، أما الخروج عليه فهو المحال.

فالملحمة -وهي التي ينعى الأوروبيون على أدبنا العربي خلوّه منها- ظلت خلال القرون الوسطى والعصر الحديث محكومة بتلك القواعد المتزمتة والتقاليد الثابتة، ومنها ضرورة الاستهلال بالتضرع إلى أرباب الشعر مثل: كليوبي، فالشاعر الإغريقي هوميروس يتضرع إليها في ملحمته، وكذا تضرع صنوه هزيود، وعلى إثرهما نجد "دانتي" المسيحي يتضرع إلى أبولو (إله الشعر) في الكوميديا، وكذلك تضرع ميلتون إلى أورانيا (ربة علم الفلك) في ملحمته الفردوس المفقود!! تعالى الله عما يشركون.

وفي الشعر نجد التقيد المطلق بما ورثه القدماء في المضمون والشكل، ومن ذلك الالتزام بالمقاطع وعدد الأبيات في كل مقطع وعدد التفعيلات -أيضاً- أما النقد فكان ما قرره أرسطو هو المعيار الدقيق، وكانت المحاكمات الأدبية تتخذ كلامه دستوراً.

وهكذا لم تكن الكلاسيكية إلا تعبيراً واضحاً عن اعتقاد أوروبا الكمال المطلق لعمالقة الفكر الإغريقي، وعلى رأسهم أرسطو.

ظهور الحركة الأدبية ضد الكنيسة:

والمهم أن أوروبا النصرانية قدست اللاتينية تقديسها للنص الديني نفسه، وقدست معايير أرسطو الفنية تقديسها لعلم الكلام الكنسي المنقول عن الفكر الإغريقي.

ومن هنا كانت الحركة الأدبية المتحررة موسومة منذ البداية بالإلحاد والزندقة، وكان لابد لدعاتها من التسلح بقدر كبير من المغامرة والجرأة.

إنه ليس تحرراً من القيود الأدبية ولكنه تحرر من القبضة الكنسية الجائرة.

وكانت الزحزحة الأولى **حيث ظهر حدثان أدبيان كبيران**:-

أولهما: الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي (١٣٢١م) أبرز رواد عصر النهضة -معه مثل: بتراك، دافينشي، تشوسر، مايكل أنجلو-؛ وبذلك سجلت أوروبا كما يقول برتراند رسل: "وثيقة التحرر الأولى!!".

أما وثيقة التحرر الأخرى: وهي أعظم من الأولى فكانت على يد المصلح الكنسي " مارتن لوثر"، ذلك المتدين الثائر الذي هاله ما رأى من فظائع البابوية، فكتب وثيقة الاحتجاج المشهورة سنة (١٥١٧م) وجعلها خمسة وتسعين بنداً وعلقها على مدخل كنيسة ويتنبرج، وليست هذه هي وثيقة التحرر التي نريد هنا ولكنها انبثقت منها[1].

١- فقد ترجم لوثر الإنجيل إلى اللغة -اللهجة- الألمانية الدارجة، وكانت أوروبا قد عرفت المطبعة لأول مرة على يد جوتنبرج الألماني، فكانت طباعة الإنجيل مترجماً بلغة غير اللاتينية هي الوثيقة الأدبية الأم، وإن شئت فقل هي:(البيان الحداثي الأول).هذا الرأي الذي نقوله يبدو مخالفاً للسائد في تاريخ الحداثة عند كثيرين، لكن لا جرم أن البدايات الفكرية دائماً موضع اختلاف، على أن من تأمل ملياً ظهرت له وجهة نظرنا، انظر مثلاً: حكمة الغرب: برتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، ١٩٨٣م الكويت، ص ١٧-٤٢.

إلا أن أحداً من الناس حينئذ لم يطلق على هذا اسم الحداثة (موديرنزم) بمصطلحها الأدبي، ذلك أن الخلاف بين لوثر والكنيسة أكبر من أن يكون في الأدب أو اللغة.

وظهر بعد اللوثرية مذاهب وألوان دينية جديدة لاسيما في القرن السابع عشر، وكان من أهم أسباب ظهورها انتشار الإنجيل بلغات حية كثيرة، فدخل الجميع من الباب الذي فتحه لوثر ومنها (الكالفينية = كالفن) (الجزويت = أجناثيوس) (الكويكرز = جورج فوكس) (الويزلية = جون ويزلي)، ومع أنها اتجهت كلها تقريباً لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية أو مخالفتها، فقد برزت في المقابل محاولات لإعادة الوحدة الدينية لأوروبا.

• الثورات والتحولات العلمية والأدبية الكبرى في أوروبا:

ولكن حدث في المرحلة التالية من الدواهي ما أذهل الكنائس جميعها، وأنساها شيئاً من الخلافات فيما بينها، وإن شئت فقل غمرها إلى حين.

ونعني بذلك التحولات الكبرى في الحياة الأوروبية التي يسمونها جميعاً ثورات وأهمها:

١- الثورة العلمية.

٢- الثورة الفرنسية.

٣- الثورة الصناعية.

✍ **ويهمنا -الآن- الحديث عن الأولى منها:**

الثورة العلمية ضد الكنيسة:

لقد كان العلم -وبالدقة العلم- موقف الكنيسة الأحمق من العلماء- يمثل الثورة الكبرى التي نسفت خرافات الكنيسة، وأطاحت بعرشها وقوضت وجودها الطاغي إلى الأبد، كما نسفت في الوقت نفسه مكانة أرسطو ونظرياته في العلم والفن والحياة.

وقد صدرت بيانات هذه الثورة تباعاً:

١- نظرية كوبرنيج عن الأجرام السماوية عام (١٥٤٠م).

٢- تطوير النظرية على يد تيكو براهي عام (١٥٧٥م).

٣- نظرية جاليليو في الحركة وصنع المرقب عام (١٥٩٧م).

٤- قوانين كبلر الثلاثة عام (١٦٢٠م).

٥- نظرية الجاذبية وقوانين الحركة لنيوتن عام (١٦٨٧م).

٦- أول نظرية كونية وضعها لابلاس عام (١٧٨٠م).

٧- وصاحب ذلك متأثراً به نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية قدمت بيانات مساندة للثورة:

٨- المكيافيللية في السياسة: مكيافيللي يؤلف الأمير سنة (١٥١٣م).

٩- ظهور الفلسفة الحديثة على يد ديكارت سنة (١٦٥٠م).

١٠- النظرية الطبيعية للدولة والمجتمع " التنين" هوبز سنة (١٦٧٩م).

١١- سبينوزا عام (١٦٧٧م) يؤسس مدرسة النقد التاريخي للكتب النصرانية المقدسة[1]. ويجاهر بنبذ النصرانية في السياسة والأخلاق، والاعتقاد بوحدة الوجود.

١٢- تطوير نظرية هوبز وفلسفة ديكارت على يد لوك عام (١٧٠٤م).

١٣- فيكو ١٧٤٤م ينادي بإحلال الوضع الإنساني محل الوحي الإلهي.

١٤- آراء جديدة في المنطق: باركلي عام (١٧٥٣م).

١٥- رفض النصرانية والإيمان بالشك المطلق: هيوم عام (١٧٧٦م).

١٦- ولادة النظرية الرأسمالية في كتاب "ثروة الأمم" آدم سميث عام (١٧٧٦م).

١٧- نظرية العقد الاجتماعي وتقديس العاطفة لا العقل: روسو عام (١٧٧٨م).

١٨- فولتير (١٧٨٤م) يجاهر بالكفر بالأديان ويطالب بمجتمع علماني.

١٩- ديدرو (١٧٨٤م)، والموسوعيون الفرنسيون يضعون دائرة المعارف لتكون بديلاً عن الكتاب المقدس (كتبت بين عامي (١٧٥١م-١٧٧٧م).

التحول الأدبي من الكلاسيكية إلى الرومانسية بعد الثورة الفرنسية:

وهكذا نكون قد اقتربنا من الثورة الثانية التي هي نتيجة لهذه الأولى، ففي سنة (١٧٨٩م) حدثت الثورة الفرنسية فأضحت معلماً فاصلاً لا في تاريخ الفكر والأدب فحسب بل في التاريخ عامة.

١- لم يبق لدى الباحثين المعاصرين شك في أن سبينوزا - وهو يهودي أندلسي فر من الاضطهاد الكاثوليكي بعد سقوط الدويلات الإسلامية بالأندلس قد بنى نظريته على الأساس المنهجي الذي وضعه ابن حزم في الفصل.

ومنذ عصر النهضة حتى ظهور الثورة الفرنسية كانت الكلاسيكية هي السائدة على الأدب الأوروبي. وقيمة الأدب الكلاسيكي تتمثل في مضمونه الأخلاقي والتزامه المدرسي وحديثه الدائم عما ينبغي أن تكون عليه الحياة.

فالنهايات الكلاسيكية -في المسرحية والملحمة سواء- تأتي دائماً انتصاراً للحق والفضيلة، إنه دعوة إلى الحكمة العملية لكنها لا تخاطب الناس باسم الدين ضرورة، كما أنه كان في جوانب منه لا يهدف إلى أكثر من إعطاء أكبر قدر من المتعة للقارئ، ولو كانت متعة لغوية تقوم على أنواع المحسنات اللفظية وإثبات القدرة على الفذلكة، وكان المسرح من احتكار الطبقة الأرستقراطية -الملوك والنبلاء- تفوح منه روائح العهر والفحش والإباحية وغمزات دائمة للدين ورجاله.

ونتيجة التغييرات الطارئة، وجرياً على سنة التذبذب في التاريخ الأوروبي،تحول الأدب الأوروبي من الكلاسيكية إلى نقيضتها الرومانسية.

والرومانسية هي ارتداد صوفي، ولكن موضوعه ليس الرب كما في رهبانية النصارى بل الطبيعة، وهي لا تهدف إلى التوجيه العقلي للناس عن طريق حكمة القدماء، بل إلى الإشباع العاطفي الذي يجعل الذات محور العالم، إنها مزيج من اليأس الرهباني، والهروب من الواقع الذي كلما تقدمت المعرفة العقلية أظهرت أنه أكثر قتامة وكآبة.

وهكذا كان محورها الدائم هو البؤس -البؤس الديني- كما في الفردوس المفقود(١). أو البؤس العاطفي والنفسي الذي عبر عنه " روسو"!!

فلئن كان الأوروبيون قبل اعتناق النصرانية يعبدون الحجارة والأشجار والحيوان والكواكب، فإن الرومانسية الهاربة من النصرانية قد جمعت هذه الأوثان جميعاً في صنم واحد سمته "الطبيعة"، وجعلت محل التراتيل الكنسية تلك الأشعار الوجدانية التي تتعشق المعبود الجديد، كما فعل رمزها الكبير روسو في "راهب سافوي".

حقاً وجد الفكر الأوروبي في الرومانسية راحة من الكد المنطقي الذي أرهق مفكري عصر النهضة وما بعدها نتيجة البحث العقيم في الكليات والماهيات والعلاقة بين العقل والمادة والتطلع اليائس إلى معرفة كنه الأشياء منطقياً، واستطلاع الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة!!

كما وجدوا فيها مهرباً من الالتزام بالمعايير الخلقية عامة، واستطاعوا إحلال المعايير الجمالية المجردة محلها.

كما كانت الرومانسية ملاذاً لأولئك النفر الذين أزعجتهم الحروب القومية والدينية التي لم تهدأ قط(٢). حيث فتحت لهم مجال تعويض الذات القانطة المغتربة في صراع ليس له ما يبرره عندها، كما فعل "همنغواي" في "وداعاً أيها السلاح" بعد حوالي قرنين.

٢- مللتون أو البؤس الأخلاقي كما في البؤساء لفيكتور هوجو.

٣- الحرب هي شأن الحضارة الغربية الدائم، ومن أبرز الأمثلة عليها حرب المائة عام، وهي في الواقع أكثر من (١٣٣٧-١٤٥٣م) بين فرنسا وبريطانيا، أما الأسباب فكانت من التفاهة بحيث تثير الاشمئزاز مثل: تتويج طفل رضيع ليكون ملكاً، أو زواج أحد الملوك بملكة دولة أخرى فينتج عنه الاختلاف على ولاية العهد، ناهيك بما إذا اعتنق أحد الملكين مذهباً يخالف الآخر!!، وهكذا فإن الشعارات الجوفاء التي لا يمل الغرب من تكرارها عن السلام والاستقرار ما هي إلا تعبير عن الشعور بالذنب من تاريخ طويل لا يعرف الهدوء ولا الأمن.

التغيرات الكبرى بعد الثورة الصناعية:

ثم كان القرن التاسع عشر وهو قرن التغيرات الكبرى في كل مجالات الحياة الأوروبية:-

- الثورة الصناعية تعم أرجاء القارة، حاملة الكوارث الاجتماعية مع التقدم المادي الكبير.
- الرأسمالية بوجهها الكالح تسيطر على أوروبا وتحفز الأوروبيين للتنافس الضاري على خيرات العالم كلها، حيث كان العصر الذهبي للتوسع الاستعماري والاحتكار التجاري.
- الثورات السياسية تجتاح القارة مزلزلة بقايا الإقطاع والأنظمة الملكية.
- الفلسفة المثالية تسود القارة وخاصة ألمانيا، والمذهب النفعي يسيطر على إنجلترا.
- خارطة أوروبا تشهد تغييرات مفاجئة متلاحقة، فمثلاً: امبراطوريات تسقط وولايات تصبح امبراطوريات، دول تنكمش وأخرى تختفي!![1].
- التعصب القومي يبلغ ذروته (جذور الفاشية، جذور النازية، والحركة الصهيونية).

١- وهذا شأن أوروبا إلى اليوم، فخريطتها السياسية تتعرض لتحديث مستمر لا نظير له في أي مكان من العالم، وفي ذلك الدلالة الكافية على أنها أمم لا تعرف الطمأنينة والاستقرار لا على المستوى النفسي ولا على المستوى الاجتماعي.

ولعل أكبر الأحداث الفكرية في أول القرن هو ظهور الفلسفة الوضعية التي نادى بها كونت عام (١٨٥٧م) ديناً جديداً للإنسانية.

ثم تلاها البركان الذي تجاوبت أصداؤه في أنحاء القارة كلها، وأحدث انقلاباً عاماً في الأفكار والآراء والمعتقدات التي توارثتها أوروبا – بل الإنسانية– قروناً طويلة، وهو البركان الذي فجره "داروين" في كتابه: "أصل الأنواع" المشتمل على نظرية التطور العضوي والانتقاء الطبيعي.

وقد وصلت سيول الحمم التي قذفها البركان إلى أرجاء المعمورة كافة نتيجة جهود عظيمة قام بها أناس متعددو الاتجاهات، لكنهم متفقو الدوافع –على ما يبدو– ومن أبرزهم اليهود الثلاثة " ماركس، فرويد، دوركايم،[١] وتبعهم بالطبع جموع هائلة من المغررين أو المسيرين! في كل مكان.

هذا الحدث المذهل أثار حفيظة دعاة القديم، وبالأخص رجال الكنيسة فاستجمعوا قواهم واستنجدوا بكل حميم، وخاضوا معركة كان فيها حتفهم، وانقشع الغبار عن سقوط آخر قلاع الكنيسة وخروجها كلياً

٢- ورابعهم المتفلسف المعتوه "نيتشه" الذي استبطن عقيدة (الشعب المختار)، فنادى بنظرية الإنسان الأعلى سوبرمان واستظهر ب الداروينية ليقول:(ابن الرب قد مات -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً- وإنما كان الميت هو رب الكنيسة الذي لا وجود له إلا في أذهان عبدة الصليب) ولم يقبل عقل نيتشه -إن كان بقي لديه عقل- أن يدعو نفسه وقومه إلى دين الإسلام وهدي محمد -صلى الله عليه وسلم- بل دعا إلى المجوسية وألف هكذا تكلم زرادشت" وصدق الله تعالى حين قال عنهم:!!

عن ميدان الصراع الفكري العام، واندحار الدعاة الأخلاقيين ودعاة الالتزام عامة، ولم يبق لهم إلا شراذم في (حزام الإنجيل)[1] وشبهه.

وهكذا كان الغرور الهائل الذي أوحت به النظرية، والثقة في التقدم المطلق في كل المجالات التي أسهمت فيها الاكتشافات العلمية المذهلة حينئذٍ، وكانت نهاية المطاف ظهور النظرية النسبية في أوائل القرن العشرين عام (١٩٠٥م).

ونتج عن ذلك تنكر مخيف للماضي بكل ما فيه، وقطع متعمد للأواصر الرابطة به، وثورة شاملة على الأخلاق والتقاليد، لم يسبق لها نظير من قبل.

استقرار الأدب على المذهب الواقعي:

في هذا الجو المحموم تأرجح الأدب واستقر في اتجاه مضاد هو "الواقعية".

والواقعية تعني: السقوط من خيال الرومانسية إلى أرض الواقع، فالمحور ليس الشاعر بل العامل والفلاح والموظف الصغير، والنزول من برج اللغة المعقدة المتأنقة إلى احتضان اللهجات المبتذلة، والصراحة في عرض ما يدور في النفس الإنسانية بلا مواربة، فالحبيبة -هنا- ليست ملاكاً تحوم حوله الأشواق

٣- الولايات المتعصبة في الجنوب الأمريكي، وهي لا تزال حتى اليوم ترفض نظرية داروين، وليس هذا هو المشكل في ذاته؛ ولكنها تقر أن الله خلق الكون كله حوالي سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد-حسب تقاويم التوراة المختلفة!!، وأشهر من دخل معهم في صراع حول تدريس هذه النظرية الرئيس الأمريكي كلينتون حين كان حاكماً لإحدى الولايات المذكورة (انظر التفصيل في كتاب: بيل كلنتون) ومع هذا فالعلمانيون العرب لا يجدون مثالاً للتعصب الفكري والجمود العقلي؛ إلا بعض الخطباء أو العلماء الذين يعترضون على الروايات التي تفيض بالزندقة والإلحاد سباً وشتماً لا فكراً وبحثاً!!

المثالية بل هي جسد تظمأ له رغبات الجوارح، والقضايا الكلية ليست ما يتعلق بحقيقة الوجود وغاية الإنسان فيه، وإنما هي الهدف اليومي للفرد العادي.

- **وضع القارة الأوروبية في مطلع القرن العشرين:**

وعلى المستوى العام بقيت في أوروبا إلى مطلع القرن العشرين بقايا من الأوضاع الاجتماعية الموروثة وشيء من القيم الشاحبة (الأسرة، الرابطة القومية، احترام ظاهري للعهود والمواثيق، نوع من الالتزام بالمبادئ الأخلاقية)، وهذه البقايا عصفت بها الرياح الهوجاء التي حملت دخان الحرب العالمية الأولى إلى أرجاء القارة، ومنها إلى أطراف العالم الأخرى.

انهيار حلم اليتوبيا مع الحرب العالمية الأولى:

وأسفرت تلك الحرب -مما أسفرت عنه- عن انكسار حاد في نظرة الإنسانية إلى مصيرها وانقلبت الثقة والتفاؤل خيبة وتشاؤماً، وأفاق الإنسان الأوروبي المخدر بنشوة التقدم المطلق؛ على المدافع وهي تدمر مع القلاع والمدن أحلامه بيوتوبيا[1]. علمية إنسانية، لقد كان فصلاً جديداً من مسرحية التاريخ الأوروبي حيث اختفى مشهد " بروميثوس" وظهر مشهد " سيزيف "[2].

١- اليوتوبيا = مصطلح فلسفي يقابل "المدنية الفاضلة" عند المتفلسفة الإسلاميين، وهي تعبير عن أحلام وخيالات الفلاسفة المثاليين القانطين من صلاح البشرية والرافضين لهدى الله وشريعته، كما أن متفلسفة رجال الدين مثل أوغسطين حلموا بمدنية تجسد خيالاتهم.

٢- بروميثوس الرمز الأسطوري للإنسان الذي سرق النار من الآلهة!(وهو ينطبق على أوروبا في مرحلة النشوة بالانتصار على الكنيسة بواسطة العلم)، وسيزيف أسطورة إغريقية أخرى مضمونها أن الأرباب حكمت على سيزيف بأن يحمل صخرة إلى قمة الجبل، وكلما وصل القمة تدحرجت، ثم عاد ليحملها إليها مرة أخرى فتتدحرج من جديد وهكذا دواليك، وقد جعلها ألبير كامو رمزاً لفلسفته العبثية.

التحولات المأساوية النفسية والفلسفية والأدبية خلال وبعد الحربين العالميتين:

في هذا الوضع الخانق تنادت الأصوات للعودة إلى شيء من المسلمات الثابتة والالتزامات الإنسانية، وظهرت نقاط "ويلسون" الأربع عشرة، ثم الالتفات حول شبح عصبة الأمم.

وكانت فترة مابين الحربين من أعظم الأحقاب في التاريخ الأوروبي هيجاناً وصراعاً، ولاسيما في الميدان الفكري حيث تضاربت الدعاوى والاتجاهات وظهرت مذاهب جديدة في كل فن، ومعايير جديدة في كل علم، ومجموعات اجتماعية غريبة.

وفي ظل هذا الهيجان نمت ظاهرة الشعر الإنجليزي الحر وتألق "إليوت"[1]. أبرز شعراء الحداثة، أما الشعر الفرنسي الحر فقد ظهر قبل ذلك بكثير.

وفي الجانب الآخر قفز العلم التجريبي قفزات هائلة، كان من أعظمها ما سمي اكتشاف الذرة سنة (١٩٣٨م).

وتدور السنون ولم يدرك أكثر الناس مغزى هذا الاكتشاف حتى انفجرت أعنف حروب التاريخ وأشدها هولاً -الحرب العالمية الثانية- هناك ذهلت

٣- وقد ارتد إليوت إلى الكاثوليكية وأصبح يكتب كأشد القساوسة تعصباً، ولكن الداخلين في جحر الضب من الحداثيين العرب يتغافلون عن هذا، ونظيره في ذلك الكاتب "جراهام جرين" الذي ارتد عن الاشتراكية إلى الكاثوليكية، وهكذا نجد العودة إلى الدين الباطل غير مستنكرة في الغرب، أما العودة إلى دين الله فهي في نظر المتعلمنين ظلامية ونكوص وتخلف.

أوروبا بجحافل هتلر وهي تدك باريس، وقذائفه وهي تغطي سماء لندن، وكتائبه وهي تسحق لينينجراد، ولكن الذهول الأكبر كان ساعة الانتصار حيث سقطت القنبلة الذرية على هيروشيما[١]. كان إعلان انتصار الحلفاء، وفي الوقت نفسه إعلان وقوف الإنسانية على حافة الهاوية الكبرى.

وفي هذه الأجواء الخانقة والمشاهد الفظيعة ظهرت ألوان من الآراء والمذاهب أكثر قتامة وعبوساً، وأكثر شعوراً بتفاهة الحياة وعبثها. لقد انهارت الآمال الكبرى في التقدم والثقة في عقل الإنسان!!

أما الآلة التي أراحت الإنسان من عناء العمل اليدوي المرهق، فقد أصبحت صنماً يسحق إنسانية الإنسان، بل معبوداً جباراً ينتقم من الجنس الإنساني بوحشية لا نظير لها في التاريخ كله!!

لم تعد المأساة تتمثل في "أرضٍ يباب" فحسب، بل أصبحت "طاعوناً"[٢]. واتسعت دائرة البلاء بواسطة وسائل الاتصال المتقدمة والتدفق المسيطر للمعلومات ليصبح الإنسان في جزر الهند السحيقة وحوض الأمازون وأحراش أفريقية يعيش مأساة الوجود الحائر والمستقبل المعتم، ويرى هذا الشبح الرهيب معلقاً فوق رأسه.

أما داخل أوروبا نفسها فقد أصبح الفرد العادي يحمل الهموم الكبرى التي ما كان يكابدها في عصور خلت إلا قلة من الفلاسفة التشاؤميين أمثال

١- حيث ألقت أمريكا -التي لا تفتأ تتهم المسلمين بالإرهاب وتتشدق بحظر أسلحة الدمار الشامل- تلك القنبلة الجهنمية على المستشفى العام في المدينة، فتبخر مثل نقطة ماء على صفيح ملتهب وتفحم ما حوله من المدينة، حيث لم يكن أي قاعدة عسكرية، ولم يكن من بين مئات من الضحايا عسكريون إلا من كان موجوداً اتفاقاً أو في إجازة!!

٢- "اليباب" قصيدة إليوت المشهورة فيما بين الحربين، و"الطاعون" رواية كامو عن الحرب الثانية.

شبنجلر وأرويل ويعيش الأزمة الخانقة التي ذهبت بعقل نيتشه، ودمرت نفسية شوبنهاور، وألجأت تولستوي إلى المنفى، حتى المسرح الذي كان وسيلة الناس للهروب من الواقع الكالح إلى ميادين من المتعة واللهو وإشغال الوقت تحول -ومعه السينما- إلى مسرح عبث ووجودية وفوضوية وعدمية. إلخ.

لم يعد أحد يتحدث عن "طرطوف"؛ بل عن "دماء الخنازير" وأمثالها[1]. إنها بأصرح عبارة مأساة أمة لم تسلم وجهها إلى الله، ولم تعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

إن الذنوب والمعاصي تدمر الأمة، وتنزل بها من موجبات العقوبة ما لا يعلمه إلا الله، فكيف بالإلحاد الصريح المتدفق موجات أثر موجات في ذلك المحيط الهائج المضطرب؟!

ومع اتساع الهوة بين الواقع المعاصر -بيأسه وقنوطه ومعضلاته المستعصية- وبين النظريات الوضعية -الشمولي منها والنسبي- ظهر جلياً عقم الفلسفة، وارتدت في كرة خاسرة يصدق عليها قول أحد كبارها: (إنها ثرثرة تهدف إلى التخلص من الثرثرة)، وتسرب فراغ المضمون هذا إلى الملجأ الهش الذي هرب إليه فلاسفة اللامعقول وهو "الأدب"، وكان الدخول من باب "النقد" الذي باسمه تحولت اللغة إلى موضوع رئيس لجدل فلسفي عقيم، وكان استدراج فروع الأدب كافة إلى هذا المستنقع

١- طرطوف: ملهاة لموليير، ودماء الخنازير مسرحية عبثية كان لها دوي كبير في الستينيات وأمثالها -الآن- كثير.

متلاحقاً وسريعاً، ولعل أوضح الأدلة على ذلك انسياق الماركسية لـه رغم شموليتها المغالية واعتسافها المطلق

للأدب في إطار "الواقعية الاشتراكية"، التي لا تزيد عن كونها نموذجاً مدرسياً معاصراً -كما عبر جارودي -.

وهكذا تحول الاهتمام -وبخاصة في فرنسا- عن موضوع "الأنا والعالم، والوجود، والمادة، والعقل. إلخ"، إلى "النص، الشكل، التركيب، البنية، الرمز، الأسطورة. " إلخ كما تحولت الأفكار من المعارك التقليدية بين الفلسفات المنهجية كالحال بين الماركسية والوجودية؛ إلى ضروب جديدة متنافرة من التقلبات الفكرية والجدل غير ذي الموضوع، وهو ما شهده العقد السادس الميلادي الذي يمكن أن يوصف بأنه "عقد البنيوية "!!

- **ظهور البنيوية في الستينات الميلادية في أوروبا وتطورها:**

ففي الستينيات برزت البنيوية، منافساً للوجودية من جهة، وتطويراً للمادية الجدلية من جهة أخرى، وتغلغلت في كثير من العلوم حتى ظهر منافسها " التفكيكية" في السبعينيات.

واختلفت آراء البنيويين في البنيوية وذهب بها كل منهم مذهبه، وحدثت نتيجة لذلك فوضى فكرية لا تزال تغمر الفكر الغربي، وقد جلبها اليسار العربي ومؤسساته، وبعض الاتجاهات الوجودية الملفقة إلى العالم العربي، حتى اكتظت بها الملاحق الأدبية في الجرائد اليومية، فضلاً عما عداها، هذا في حين أن الزمن قد عفى عليها في بلادها.

ونظراً لما حظيت به النظرية -ولا تزال- في عالمنا العربي، ولكونها تمثل المعلم الفاصل بين مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة، فسوف ينحصر جل اهتمامنا هنا بها مع شيء من التفصيل عن مدارسها وحلقاتها وتطبيقاتها في فروع المعرفة.

✓ مدرسة جنيف:

في القرن التاسع عشر نادى الباحث الاجتماعي اليهودي دوركايم بالنظرية المسماة "العقل الجمعي"، ودعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها "أشياء مستقلة"، وتبعاً لذلك ظهر الباحث اللغوي السويسري "فرديناد دي سوسيور" بنظريته في "ظاهرة اللغة"، حيث جرد اللغة من دلالاتها الإشارية المألوفة وعدها نظاماً من الرموز يقوم على علاقات ثنائية، ومن هنا ظهرت فكرة "البنية".

ومن أبرز ما قرره سوسيور بقوة مبدأ "اعتباطية الرمز اللغوي"[1]. وهو ما يعني أن أشكال التواصل الإنساني ما هي إلا أنظمة تتكون من مجموعة من العلاقات التعسفية أي: العلاقات التي لا ترتبط ارتباطاً طبيعياً أو منطقياً أو وظيفياً بمدلولات العالم الطبيعي"[2]. وأن "كل نظام لغوي يعتمد على مبدأ لا معقول من اعتباطية الرمز وتعسفه" أي: تماماً كما يعتبط

١- انظر البنائية، د. صلاح فضل:(ص:٣٩) ومن هنا ينكر الحداثيون المجاز، وقد خدعوا بذلك بعض طلبة العلم إذ تمسحوا بموافقة شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله، وإنما شيخهم سوسيور!! وكلام شيخ الإسلام في اللغة أجل من هذه النظريات وأعمق، وهو جدير بأن تفرد له رسائل علمية من المتخصصين في هذا الميدان.

٢- انظر مجلة الفصول م:٥، ع:٤، ص:١٤٤.

العقل الجمعي عند "دوركايم" ويتعسف فيفرض على الناس ما هـو خارج عن ذواتهم، ومن هنا انبعثت فكرة "السيمولوجيا" أي علم الدلالة، أو العلامة والإيحاء، وتطورت فيما بعد.

- ✓ المدرسة الشكلية الروسية:

ويرجع أصلها إلى "حلقة موسكو اللغوية" وهي نوع من الإلحاد غير الماركسي في روسيا وقد أدمجها استالين قسـراً ضـمن الواقعيـة الاشـتراكية، لكن

نفراً من روادها هاجروا إلى الغرب وهناك طـوروا الفكـرة، ومـنهم معلمها الشهير "جاكوبسون"، ومن أهم آرائها "تحرير الكلمة الشعرية من الاتجاهات الفلسفية والدينية[1]. والانطلاق مـن "دراسـة العمـل الأدبي في ذاته"، فهي تؤكد "أن العمل الأدبي يتجاوز نفسية مبدعه، ويكتسب خلال عملية الموضعة الفنية وجوده الخاص المستقل"[2].

وتؤكد أن "العمل الفني لا يتطابق بشكل كامل مـع الهيكـل العقـلي للمؤلف ولا المتلقي"، أو كما يقول: " موخارو فسكي: "فإن الأنـا الشـاعر لا ينطبق على أية شخصية فعلية ملموسة، ولا حتى شخصية المؤلف نفسه، إنه محور تركيب القصيدة الموضوع"[3].

٣- البنائية (ص:٦، ٥٥، ٦١).

١- البنائية (ص:٦، ٥٥، ٦١).

٢- البنائية (ص:٦، ٥٥، ٦١).

هذا هو الأساس الذي بالاعتماد عليه يحمل البنيويون النصوص فلسفات وأفكاراً ورؤى لم تخطر لقائلها ببال، بل لم تظهر في عصره -إن كان قديماً- وعليه نادى " رولان بارت" أكبر ناقد في أوروبا كما وصفه الدكتور الغذامي بنظرية "موت المؤلف"!! "وهكذا ابتدأت الشكلية الروسية من دعوتها إلى استقلال الكلمة الشعرية كشيء قائمٍ بذاته، وانتهت إلى استقلال العمل الأدبي عن نفسية مؤلفه من ناحية، وعن الموضوع الاجتماعي الذي يشير إليه بأدواته وإجراءاته الخاصة من ناحية أخرى".

وأكدت هذه المدرسة ضمن استقلالية العمل الأدبي أن لهذا العمل زمنه الخاص، وعارضت "الأفكار الأكاديمية التقليدية" عن تطور الأدب ومساره التقدمي المطرد، وأنكرت فكرة التوالي الطبيعي للمذاهب الأدبية أو توالدها فيما بينها، وحرصت على إبراز حقيقة عدم الاستقرار في الأشكال الأدبية[1].

وغايرت المدرسة الشكلية الاتجاهات النقدية الأخرى التي تهتم بالمضمون حيث صرفت الاهتمام الأكبر إلى الشكل، جاعلة إياه وسيلة للوعي وتجديد الرؤية، فوظيفة الفن عندها ليس إعطاء رؤية ولا تصوير الواقع أو التعبير عن العالم الطبيعي الموضوعي، وإنما هي " استخدام اللغة بطريقة جديدة بحيث يثير لدينا وعياً باللغة من حيث هي لغة، ومن خلال هذا الوعي يتجدد الوعي بدلالات اللغة، هذا الوعي الذي تطمسه العادة والرتابة على حد تعبير "جورج لوكاش"[2].

٣- البنائية:(ص:١٠١).

١- انظر مجلة الفصول م:٥، ع:٤، ص:١٤٤.

وهكذا نصل إلى الفكرة نفسها "موت المؤلف" كما نادى بها "رولات بارت"[1].

✓ حلقات "براغ، كوبنهاجن، نيويورك" اللغوية:

✍ **ويهمنا منها أمور نوجزها ما أمكن:**

أ- إن أصلها جميعاً هو الشكلية الروسية نفسها:

وخصوصاً " جاكوبسون" المحرك الأساسي لحركة براغ؛ حيث كان يعمل ملحقاً ثقافياً روسيا بها[2]. ثم أسست على منوالها مدرسة " كوبنهاجن"[3].

ثم حلقة "نيويورك" التي أسست بعد هجرة "جاكوبسون" إليها، حيث التقى بـ"كلود ليفي شتراوس"[4]. وهناك نبت من علاقتهما الفكرية الكثير من عناصر البنيوية الحديثة وأركانها، ثم ما لبث شتراوس أن أصبح زعيم البنيوية الفرنسية، كما سيأتي.

ونبغ من هذه الحلقة "نعوم شومسكي" أبرز ممثلي البنيوية الأمريكية!! وهنا لابد أن يستوقفنا دور "جاكوبسون" الكبير في تأسيس وتطوير البنيوية، حتى أن بعض الباحثين يلخص تاريخ نشأة البنائية وتشكلاتها المختلفة في شخصيته ومغامراته العلمية ابتداءً من مطلع شبابه في موسكو حتى تخرج على يديه أجيال من الباحثين في أوروبا وأمريكا،

٢- واحتذاها عبد الله الغذامي ثم تلميذه السريحي صاحب الكتابة خارج الأقواس، حيث دعا إلى تفجير اللغة، ومضى على اعتبار الشاعر مفعولاً به واللغة هي الفاعل.

٣- انظر البنائية (ص:١٠٩) ومجلة الفصول العدد السابق (ص:١٤٥).

٤- البنائية (ص:١٢٣).

٥- البنائية (ص:١٤).

وأصبح الحجة الأولى والمرجع الأخير في علم اللغة الحديث[1].

فهل الأمر مصادفة، أم عبقرية فردية، أم أن هذه الحركة والشهرة الواسعة وراءها ما وراءها؟!

لعل الإجابة تأتينا من معرفة أن كلاً من زعيمي المدرستين الأمريكية والفرنسية جومسكي وشتراوس يهوديان، بل إن شومسكي تربى في الأرض المحتلة[2].

ومع أنني لم أجد من خلال بحثي المحدود ما يدل على دين "جاكوبسون"، لكن ما علمناه عن دوره وما نعلمه عن دور المؤسسات المريبة في احتضان الأفكار الشاذة وتوجيهها، وما هو واضح من صلته بالماركسية[3]. التي هي فكرة يهودية يجعلنا على الأقل نستريب في انتمائه، ونتساءل أليس من السذاجة أن نغض الطرف عن كون رجال هذا المذهب يهوداً ورموزه توراتية، ونحمل المصادفة وحدها عبء ذلك؟!

ونزيد: أليست النفسية اليهودية منذ حلول غضب الله عليها مسؤولة عن كثير من المفاسد والشرور في الفكر والواقع من غير اشتراط دافع للإفساد عمداً بالضرورة، فليس من شرط الأفاعي -هكذا كما سماهم المسيح- لكي تكون شريرة أن تضع بروتوكولات للإيقاع بالحمام!!

١- البنائية (ص:١١٠).

٢- تكونت آراءه كما يقول الدكتور عبده الراجحي وسط ما يشير إليه هو باسم الجماعة اليهودية الراديكالية في نيويورك، وبعض أبحاثه في العبرية الحديثة، على أن له موقفاً من الصهيونية والدولة اليهودية في الأرض المحتلة.

٣- كما في تقديمه لكتاب الماركسية وفلسفة اللغة تأليف ميخائيل باختين وترجمة محمد البكري ويمنى لعيد.

ب- إن المدرسة الأمريكية " نيويورك":

"هي التي لقيت أكبر قدر من الذيوع في العالم العربي" كما يقول الدكتور صلاح فضل[١].

ولعل الأصح أن يقال في المشرق العربي وهي التي تربى في أحضانها الكاتب النصراني " كمال أبو ديب"[٢].الذي سار على خطاه الدكتور عبد الله الغذامي وتلميذه السريحي عندنا[٣].

ج- الاتجاهات التطويرية للبنيوية[٤].

انبثق من البنيوية اتجاهات قامت بتطوير الفلسفات المعروفة وفق منهج بنيوي -أي: بصياغة جديدة للفلسفات والنظريات المشهورة- ومن رواد تلك الاتجاهات إضافة إلى شتراوس وتطويره للدراسات الانتربولوجية:-

١- " لوى التوسير": أعاد صياغة الماركسية بحيث تقرأ من منظور بنيوي لا منظور هيجلي!! وقريب منه "هنري لوفيفر" الزعيم الماركسي الحركي.

٢- "جاك لاكان": أعاد صياغة الفرويدية، بل إن كتاباته تعد في مجملها صدى لتلك النظرية، خاصة رسالته "وراء مبدأ الواقع" التي كان عنوانها محاكاة لعنوان كتاب فرويد "وراء مبدأ اللذة".

٤- انظر البنائية:(ص:١٤٠).
٥- انظر مقدمة كتابه الضخم "الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي".
٦- انظر "الخطيئة والتكفير" و"الكتابة خارج الأقواس"!
٧- انظر "عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو آديت كريزويل ترجمة جابر عصفور، والمذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع، فصل البنائية، والبنائية:(ص:٢١٠-٢٦٦) والبنوية: جان بياجيه، ترجمة عارف وبشير، والنقد البنيوي للحكاية: رولات بارت، ترجمة أنطون أبو زيد.

٣- **"ميشل فوكو"**: الذي صاغ نظرية جديدة في اللغة وأصلها وتراكيبها ووظيفتها، من خلال مصدره الخاص لاستكناه الحقيقة الإنسانية وهو "الجنون" معلناً أن المجنون يمكن أن يؤدي دور النبي عند المؤمنين بالأديان!![1].

٤- **"رولات بارت"**: صاغ نظرية بنيوية لتغير الأزياء (الموضة)، هي في جزء منها تطوير لآراء "دوركايم" كما أحدث أثراً بالغاً في النقد الأدبي خاصة بعد أن أصبح عضواً في مجلة *TELQUE* صوت الاتجاه الذي يسمى ما بعد البنيوية أو (التفكيكيين) الذين ينتمي إليهم الغذامي في كتابه السالف ذكره.

✓ المدرسة الفرنسية:

وهي المدرسة الرائجة في القارة الأوروبية والمغرب العربي، وانتشرت في المشرق العربي تبعاً لانتشار الحداثة، ولن نفصل القول فيها وإنما نوجز أهم اتجاهاتها:

١- **البنيوية الانتربولوجية**: أي التي تبحث في الإنسان وتطور حياته وعاداته الاجتماعية- وزعيمها هو اليهودي " كلود ليفي شتراوس" السالف الذكر، وقد طور اتجاهات دوركايم وفريزر عن الأساطير والعادات الاجتماعية للبدائيين وفق منظوره البنيوي، وهو كثيراً ما يعلن عن ولائه الماركسي واعتناقه لمبادئ المادية الجدلية، كما أنه يميل

١- الجامع المشترك بين كل هذه الفلسفات هو الثورة على المعايير العقلية والحسية، لكن كلاً منها سلك سبيله الخاص (فرويد: العقل الباطن والأحلام، كاميو وسارتر: الأساطير، شتراوس: السحرة والكهان، برجسون: الحدس، فوكو: الجنون) والحمد لله على نعمة الإسلام.

إلى البرنامج الاشتراكي سياسياً واقتصادياً، ويرى أن مستقبل الغرب والعالم كله مرهون بانتصار الاشتراكية(١).

٢- **الاتجاه الماركسي**: ويمثله رواد الروس المهاجرين إلى فرنسا أو الفرنسيين الماركسيين، ومن أشهرهم " لوسيان جولدمان" و" لوكاش" وهما مهاجران، وتسمى بنيويتهما " البنيوية التكوينية أو التوليدية" في حين

تسمى بنيوية شومسكي " التحويلية"! وقد استمدا النظرية من " جان بياجيه" مؤسسها الأصلي ولكنهما حولاها إلى ماركسية(٢).

البنيوية فلسفة أم منهج:

زعم الدكتور كمال أبو ديب أن البنيوية ليست فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، وعلى هذا الأساس اعتمد الحداثيون في الدفاع عنها كالغذامي والسريحي، وتصريحهما في أكثر من مناسبة بانتهاج هذا المنهج يجعلنا نبين حقيقة هذا الادعاء(٣).

جاء في "مجلة فصول" ذات الاتجاه الحداثي المعروف "يتفق السيد زكريا إبراهيم مع السيد ياسين وغيره -في النظر إلى- البنيوية على أنها تنطوي على موقف عقائدي أو تمثل منظوراً خاصاً"(٤).

٢- انظر البنائية:(ص:٢٨).

(١) انظر "البنيوية التكوينية": الفصلان الأول والأخير، ترجمة محمد سبيلا، المغرب.

(٣)أما "الواقعيون" عندنا فهم نسخة من اليساريين المنتمين في أي مكان، ولهذا فلا كلام لنا معهم.

(٤)مجلة الفصول، م:٥، ع:٤، ص:١٤٥.

هذا والدكتور زكريا إبراهيم نصراني من أكبر المتخصصين في هذا المجال، وله كتابه المتعمق " مشكلة البنية" وقد تحدث فيه عن "انزلاق البنيوية من مجال المنهجية العلمية إلى مجال الأيدلوجيا، وآية ذلك أن المنظور الفكري الذي انطوت عليه هذه البنيوية الجديدة قد جاء مؤكداً للدعوى القائلة بأن في تضاعيف هذا الاتجاه الفلسفي الجديد إنكاراً لقدرة البشر على صنع تاريخهم الخاص، ورفضاً لكل نزعة إنسانية، ومن ثم فقد صار البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة البنيوية هو إعلان موت الإنسان"(١).

هذا مع أننا نسأل أبا ديب هذا: ماهي الفلسفة إن لم تكن طريقة في الرؤية، ومنهجاً في معاينة الوجود؟!

ويقول "جان ماري بنو" في كتابه الثورة البنيوية: "إذا كان الوجوديون قد تخلصوا من "الله"، فقد نجح سوسيور في التخلص من الإنسان. وقال: كان الإنسان خالق المعنى ومصدره الحي، ولكنه اختفى تماماً في ظل العلم الجديد الذي جعل المعنى حصيلة مجموعة من العلاقات اللغوية البنيوية والسيميوليجية التي تفرز العلاقات وتحدد المعاني، وفي ظل هذا التصور أصبح الإنسان إفرازاً لغوياً بدلاً منه صانعاً للغة". إنها جبرية من نوع غريب لم تعرف البشرية له نظيراً من قبل!!

(١)مجلة الفصول العدد نفسه.

وفي مقال فصول: "وربما كان أكبر دليل على أن البنيوية قد اكتسبت طابع المنظور الفكري أو الموقف العقائدي، وهو هجوم بعض البنيويين وعلى رأسهم "ليفي شتراوس" على "سارتر" والوجوديين، ودحض آرائهم في التقدم والمبادئ التاريخية، ويتجلى هذا الطابع العقائدي -أيضاً- في محاولة بعضهم وعلى رأسهم "التوسير" إعطاء تفسير جديد للماركسية، بحيث حولها من منهج عمل ثوري يرتكز على الإنسان إلى نظرية رجعية تؤكد حتمية سيادة نظام لا سلطان للإنسان عليه. إلخ".

كما أن الدكتور صلاح فضل عقد مبحثاً بعنوان: "محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية".

وهنا نشير إلى ما تنضح به كتابات السريحي والغذامي ومن لف لفهم من إضفاء القوة المطلقة للغة وسلب لإرادة الإنسان -خاصة الشاعر- حتى من نسبة وضع لفظة مكان أخرى!![1]. فأي ربوبية قهرية يريد هؤلاء أن يجعلوها للغة!!

على أن مما يؤكد أن البنيوية فلسفة ذات تطبيقات ثورية واقعية؛ ارتباطها ببعض الأحداث السياسية مما كان سبباً في ظهور نقيضها "التفكيكية"، ذلك أن" التفكيكية هي رد فعل لانهيار البنيوية في فرنسا بعد أحداث عام (١٩٦٨م)، فهي إفراز طبيعي لحالة الإحباط والكفر بالنظريات الشاملة المتماسكة، ومنها الماركسية التي اجتاحت فرنسا في تلك الآونة.

١- وهذا ما ظهر جلياً في أطروحة السريحي لدرجة الماجستير، وكذلك رسالة الدكتوراه التي رفضها مجلس الجامعة، وكلفه بصياغة جديدة لها يحد من غلوه في فاعلية اللغة وقهرها!!

لقد قامت البنيوية على فكرة سيادة منطق البنية المتماسكة فوق الإنسان والمتغيرات، وكانت صدمتها شديدة حيث جعلتها أحداث الثورة الطلابية في أوروبا بصفة عامة في أواخر السبعينيات، وفي فرنسا بصفة خاصة في عام (١٩٦٨م) تدرك الدلالات الحزينة لنظريتها التي أثبتت الأيام صحتها -أي: حين أثبتت البنية السياسية في فرنسا قوتها أمام أي معارضة- وأصبحت فكرة البنية عدواً لدوداً للمفكرين، وارتد الكثيرون عن البنيوية كما فعل الناقد رولات بارت في كتاباته الأخيرة، واتجه الكثيرون إلى الهجوم على جميع الأنظمة والنظريات العقائدية التي تخنق الفرد".

وهذا النص الصريح يذكرنا بما حصل من انهيار فكرة القومية العربية بعد هزيمة عام (١٩٦٧م)، والسؤال هو مالذي ينهار بتأثير الأحداث السياسية، أهي المناهج المجردة أم الفلسفات التي قامت عليها تلك السياسات؟!

فإن أصر القوم على تسميتها مناهج لا فلسفات فلن نجادل في مجرد الألفاظ، فالمنهج الذي تقوم عليه أنظمة شمولية تارة وتسقط تارة هو "عقيدة". والسلام.

ومن هنا كان السؤال الذي جعله الدكتور صلاح فضل عنواناً لمبحث خاص: "هل البنائية تعبير عن فشل اليسار؟".

- **انتقال البنيوية من أوروبا إلى البلاد العربية وتطويرها إلى الحداثة:**

❦ خطورة البنيوية على اللغة والدين :

ومع كل ماسبق من نشأة البنيوية وما تطور عنها في سياق تاريخي معرفي مغاير ومناقض لما تنتمي إليه هذه الأمة، فلا بأس أن نتنزل في الجدل ونفرض أن البنيوية ليست سوى منهج مجرد في الدراسات اللغوية والأدبية ونسأل:

أليست البنيوية منهجاً مطرداً بقوانين وتحليلات شمولية قاطعة لا تستثني قائلاً ولا نصاً ولا لغة؟ ثم أليس "الموقف الألسني يجرد كل قاعدة من قدسيتها؛ بل لا يرى قاعدة إلا فيما هو متداول وممارس من طرف المجموعات البشرية، وفي بعض الأحيان يرى تكسير القاعدة قاعدة[1].

إن كل من يشك في الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب هو في نظر البنيويين عدو لدود ورجعي تقليدي؛ ذلك أن قوة النظرية تستمد من شموليتها واطراد قانونها بخلاف سائر المناهج والاتجاهات المنطقية -كما يزعمون- وعليه فليس لدى البنيويين نص مقدس لا يخضع لنظريتهم، وتبعاً لذلك جرت دراسة التوراة والإنجيل بنيوياً مثلها مثل سائر النصوص، ومن هنا ندرك مدى خطورة الدعوة إلى البنيوية وتطبيقاتها على

١- المصدر السابق.

اللغة العربية التي أسمى ما فيها وذروة نصوصها باتفاق كل ناطق بها أو دارس لها هو "النص الموحى" -أي: كلام الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

كيف يمكن أن تطبق على القرآن الكريم نظرية موت المؤلف، واستقلال النص وقيامه كوناً مستقلاً بذاته يفهمه كل قارئ كما يشاء، حيث أنه لا مانع لدى البنيوية من أن يكون له تفسيرات بعدد القراء بل أكثر من ذلك.

فانظر إلى ما يقوله الدكتور الغذامي -بعد أن أطال في تقرير هذا الأمر، وجعله من أعظم ميزات المنهج وأسمى خصائصه:

الكاتب صاغ النص حسب معجمه الألسني، وكل كلمة من هذا المعجم تحمل معها تاريخاً مديداً ومتنوعاً وعى الكاتب بعضه وغاب عنه بعضه الآخر، ولكن هذا الغائب إنما غاب عن ذهن الكاتب ولم يغب عن الكلمة التي تظل حبلى بكل تاريخياتها، والقارئ حينما يستقبل النص فإنه يتلقاه حسب معجمه، وقد يمده هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعاها الكاتب

٢- زعم بعض الحداثيين في عكاظ عدد:٧٣٣٦ ذو القعدة ١٤٠٦هـ أن جناح الذل في قوله تعالى:((وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ))[الإسراء:٢٤]^ -الذي استشهد به أبو تمام قديماً على جنوحه إلى الإعراب- زعم الكاتب أنه نفس التركيب الحداثي "السفينة الصخر" مثلاً!!

حينما أبدع نصه، ومن هنا تتنوع الدلالة وتتضاعف، ويتمكن النص من اكتشاف قيم جديدة على يد القارئ، وتختلف هذه القيم وتتنوع من قارئ وآخر؛ بل عند قارئ واحد في أزمنة متفاوتة، وكل هذه التنوعات هي دلالات للنص حتى وإن تناقضت مع بعضها البعض.

✓ **أيقبل مسلم تطبيق هذا الكلام على القرآن؟**

إن إقرار تطبيقه على شعر العرب ولغتهم وهدم قواعدهم النحوية والبلاغية جملة لابد أن يؤدي إلى ذلك حتماً.

إن موقف طه حسين ومن وراءه أخف من هذا الموقف ولو من بعض الوجوه؛ ذلك أنه -وشيوخه المستشرقين- حين أرادوا هدم البيان القرآني -توصلاً إلى هدم الإسلام- اتخذوا ذريعة لذلك إنكار الشعر الجاهلي في ذات نصوصه، أما هذا المنهج البنيوي فهو يتنكر للقواعد والأصول والمعايير النحوية واللغوية؛ بل للفطرة العربية من أساسها، إنه يستبقي النصوص -أشباحاً وهلاماً- فقط!!

فالأولون ساروا على منهج كفار قريش في الزعم بأن النص القرآني ليس منزلاً من عند الله، والبنيويون حاكوا الباطنية في تفسيره -كما يشاءون- بلا ضابط من عقل أو نقل.

وإنه لو قدر للحداثة العربية أن تسير على الدرب نفسه الذي سلكته نظيرتها التركية لكان معنى ذلك المسخ الكامل لا للغة فحسب بل لوجه الإسلام كله.

❀ أسباب رواج الحداثة العربية:

والحداثة العربية في جميع صورها إنما راجت لسببين أساسين هما:-

١- جنوح الناس إلى الخروج عن المألوف ولهاثهم خلف "العصرنة"!!

٢- الخلط بين الحداثة -وإن شئت فقل بين الهدم- والتجديد.

وهما يرجعان في الحقيقة إلى أمر واحد عاشته أوروبا وتعيشه كل الأمم، لأنه خطأ إنساني مشترك يمكن أن يقع فيه كل من لا يملك المعيار الرباني الثابت، وهو خطأ الاعتقاد في التقدم المطلق، واعتبار الزمن وحده معياراً للحكم على الأشياء.

❀ مصادقة الحداثة لنظرية التطور الحضاري والمعرفي:

في حين أن نظرة عقلية عجلى تؤكد أن الحداثة هي نفسها مفهوم نسبي بما أن حاضرنا هو ماضي الغد!!

فكما رأينا -في أوروبا- كان لوثر أكبر الحداثيين في عصره، وهو الآن نموذج للبروتستانتي الكلاسيكي، ودانتي كان حداثياً كبيراً في زمانه، وهو الآن مثال الكلاسيكية الإنسانية.

وكان ديكارت حداثي زمانه بالنسبة للفلسفة العقلية، ثم كان الرومانسيون في القرن الثامن عشر نموذج الحداثة الثائرة على العقلانية الجامدة!

وفي أواخر القرن التاسع عشر- كانت الرمزية ثورة حداثية على الاتجاهات جميعها، ولما ظهرت مدارس (اللامعقول) المتنوعة (السوريالية، العبثية، العدمية، الوجودية) كتب النقاد عنها باعتبارها أكبر انقلاب معرفي حداثي، وأسمى سارتر مجلته العصور الحديثة!!

وفي الستينيات -كما أسلفنا- زعمت البنيوية أنها الثورة الحداثية التي لم يشهد التاريخ لها من نظير، ولكن نقيضها التفكيكية سرعان ما ظهرت في أواخر العقد نفسه مدعيةً الدعوى نفسها!!

وفي أمريكا كانت موجة (الهيبيز) آخر صرعة في نظر مفكري ذلك العقد والآن تلاشت، وارتد كثيرون للأصولية الإنجيلية!!

وهذا كله غير حداثة ماركس التي حقرت كل ما قبلها، وعندما جاء لينين صاغها بشكل تقدمي (حداثي) أكثر عصرية، ثم جاء عصر- استالين وتبنى اتحاد الكتاب السوفيت آراءه الأكثر حداثة، وهكذا.

إنه العقل البشري المحدود الضعيف الذي يتخيل كل مرحلة من مراحله أنها نهاية التاريخ، والدهر أعظم من ذلك وأطول لو كانوا يفقهون.

ولا نستطيع أن نجرد الحداثيين العرب عن فهم هذه الحقيقة، لكنهم بذكائهم اللماح لم ينسوا أن اطراد "الجدلية" إلى نهاية التاريخ تساوي نهاية اللغة، يمكنه حل المأزق بافتراض أن اختفاء عنصر- النقيض في المرحلة الأخيرة من الصراع الأبدي يؤدي إلى نهاية لا محدودة!! ولذلك تعجل هؤلاء الخطى وطالبوا -من الآن- بالوصول بالمعرفة إلى تلاشيها المطلق، وباللغة إلى تجريدها المطلق!!

وبتعبير الحداثيين: (إن الوصول بالمعرفة السائدة والنمطية إلى تلاشيها المطلق ينفي احتمال ظهور أي وضع معرفي استاتيكي (ثابت)، وسيظل الانفجار المعرفي الحداثي هو السائد والوحيد إلى ما لا نهاية)!!

وحسبك بهذه النتيجة من باطل لا تنكره بداءة العقول فحسب، بل يرفضه الواقع الحي في كل البلاد ولاسيما في الأدب العربي، إنه ليس من سنة الله كما أن الجمود المطلق ليس من سنته.

احتواء الأدب العربي على العناصر الحركية المستمرة (الشعر مثلاً):

فالنشاط الأدبي العربي هو جزء من النشاط الحيوي العام الذي يخضع للمبدأ الكلي المطلق في التصور الإسلامي وهو الحركة حول محور ثابت، فالتراث الأدبي في جملته يحوي عناصر حركية مستمرة -ديناميكية- ولكنها تنطلق في حركتها من أصول ثابتة وتلتزم بمعايير ثابتة، وهكذا يتجلى المنهج الفريد الجامع بين الاستقرار والمرونة، لا التصور الجدلي الأدبي العقيم.

إن من دلالات الإبداع والعبقرية أن يأتي الأديب بتلك النماذج الفائقة التي لا يستطيع سائر الناس الإتيان بمثلها مع التزامه بنفس المعايير أو الأساليب التي يعرفون!

يظهر هذا المنهج الفذ في الشعر العربي الذي توهم كثير من الداخلين في جحر الضب أن معاييره تضيق عن الإبداع وتستلزم الجمود!!

كلا، إن الإبداع تسابق وما من سباق إلا وله مسارات وحواجز وضوابط، وإلا كان كل ماشٍ في الشارع متسابقاً، ولنأخذ مثالاً: الالتزام بالبحور الشعرية المعروفة، أيّ ضيق أو جمود فيها؟

إنها سعة لا نظير لها مطلقاً في شعر أي أمة من الأمم، مع الالتـزام في الوقت نفسه بمعايير جمالية لا نظير لهـا كـذلك، فـالعروض العـربي يتـألف من ستة عشر بحراً، والبحر الواحـد -غالبـاً- يكـون منـه التـام والمجـزوء والمشطور،

وهذا ما يمكن تصنيفه -حسب المعايير الأوروبية- بحـوراً جديـدة، هذا غير ما يلحق التفعيلة نفسـها مـن تغيـيرات معروفـة لأهـل الفـن ولا يستفيد غيرهم من ذكرها هنا، إنها سعة تسمح للموهبة أن تبـدع كـما تشـاء فيما تشاء مع ضـبط لا يسـمح بتسرـب الطفيليـات وولـوج مـن لا يملـك المفتاح.

إصرار الحداثيين على التخبط:

أما حسب المفهوم الحداثي، فالطفـل الصـغير الـذي يلغـو بكلـمات وتمتمات هائمة لا رابط بينها، والشاعر الذي يخـبط في العـروض والقـوافي، ويلفق التراكيب الهشة، ويضع كلمة سطراً وجملة سطراً آخـر وثـلاث جمـل سطراً ثم يرجع من جديد حتى يسود مساحة كبـيرة مـن الـورق بغثيـان لا معنى له، والنائم الذي يحلم ويهمهم بألفاظ لا نسق يجمعها، والحشاش. و. كل أولئك حداثيون تنطبق عليهم معايير القوم (١٠٠٪) وبعبـارة أوضـح مادام لدى الإنسان مسكة من عقل؛ فلا يمكن أن تصل معرفته إلى التلاشي المطلق، فهذا شأن من يتعاطى أخطر ما أبدعته العبقرية الغربية مـن عقـاقير الهلوسة!!

ولو أن المقام يتسع لعرضنا نماذج ممن تاب الله عليهم وثابوا إلى رشدهم؛ ليعرضوا كيف كانوا يفكرون ويكتبون وينظمون في الماضي الحداثي الحالك كما حدثوني بذلك شخصياً أو كتبوه لي.

على أنني لو عذرت أحداً من أقطاب الحداثة لعذرت أولئك الدعاة الصليبيين التوراتيين، الذين أرادوا أن تكون الثقافة العربية كلها سائرة على النمط التوراتي مضموناً وأسلوباً. إنهم أذكياء استخدموا عقولهم لبعث أساطير دينهم وإحياء أساليب كتبهم المقدسة، وليسوا كبني جلدتنا الداخلين وراءهم

في جحر الضب بلهاء ساروا في طريق يهدم حقائق الدين الرباني والكتاب الإلهي المحفوظ مع دعوى إيمانهم به.

وإن تعجب فاعجب لأمة تهزها أزمات سياسية واجتماعية كبرى، كالأزمة التي داهمت الأمة في حرب الخليج الثانية، ويخرج أدباؤها ومبدعوها ليسودوا الصفحات بأن سبب الأزمة هو (إشكالية النص)!!

أما سائر البشر- الذين جعلوا لها أسباباً أخرى فهم نمطيون سطحيون!![1].

أما والحال كذلك وللمبررات الموضوعية التي تجعل القضية حية متدفقة وإن تلونت أو كمنت، ولضرورة إقامة الحجة وإبانة سبيل المجرمين فلابد من تجدد الإسهام من أهل الخبرة وفرسان الميدان في هذا المجال، وإنما سطرت هذه المقدمة تذكيراً وإعذاراً، والله ولي التوفيق.

١- لقد كنا نحسب -كما العقلاء في هذه الأمة جميعهم- أن هذه الأزمة سوف تجتاح الحداثة فيما تجتاح من فقاعات سني الغفلة والترف.

الفصل الحادي عشر

أثر الإسلام في الحضارة الأوروبية

الحضارة الإسلامية وأبرز الطرق التي انتقلت من خلالها للغرب

- **تعريف الحضارة الإسلامية:**

يمكن أن نصف الحضارة الإسلامية بأنها هي نتاج ما قدمه المجتمع الإسلامي للمجتمع البشري في الجوانب الروحية والأخلاقية، فضلاً عما قدمه من منجزات واكتشافات واختراعات في الجوانب الحياتية المختلفة.

- **أوضاع الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية قديماً:**

في الوقت الذي كانت البلاد الإسلامية المشعل الفكري الوضاء الذي ينشر النور فيما حوله و يملأ الدنيا علماً ومعرفة ، كانت أوروبا تعيش في حالة من الجهل والتخلف والضياع والتمزق ، و لما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهين التفتت إلى الحضارة الإسلامية لتنهل منها رحيق المعرفة والفكر.

ونور الحضارة الإسلامية هذا بدأ يشع على أوروبا في نهاية القرن الأول الهجري حيث كان يصل إليها عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية، ولكن جميعها تتفاوت بالتأثير حيث أن الأندلس كانت الأسبق بالتأثير ثم تلتها صقلية وأخيراً الحروب الصليبية.

• الأنـدلس المنـارة الأولى للحضارة الإسلامية في أوروبـا:

انتقال العرب المسلمين الى الاندلس:

لقد عبر المسلمون الى الاندلس في العقد الأخير من القرن الهجري الأول وواصلو فتوحاتهم في أوروبا وجنوب فرنسا واستولوا على مناطق واسعة منها مثل شبه جزيرة ايبيريا وجنوب فرنسا كما سبق وذكرنا بالإضافة الى جنوب إيطاليا وغيرها من المساحات الجغرافية بحيث نشر المسلمون في كل بقعة دخلوها من أوروبا لواء الامن و نور المعرفة وأقاموا فيها حكم عادل يساوي بين الجميع ويعمل للصالح العام ونبذ الانانية وبذا كانت الاندلس هي الأساس والمركز الذي انطلق منها المسلمون الى ربوع أوروبا ونشروا فيها الحضارة فكانت أساس النهضة في العصور الحديثة.

أثرهم في محيط الزراعة والصناعة:

ما انتقل العرب الى الأندلس حتى أخذت الزراعة تنتشر بسرعة كبيرة حيث غرس العرب الكروم وأدخلوا اليها الكثير من النباتات والفواكه التي لم تكن موجودة هناك بعد كالأرز والقمح وقصب السكر وغيرها كما حفروا القنوات ونظموا وسائل الري.

أما في ميدان الصناعة: فقد ازدهرت صناعة النسيج والزجاج والنحاس والخزن كما استخرجوا الذهب والفضة والرصاص والحديد وغيره من المعادن.

أثرهم في محيط العلم والثقافة وإيصال التطور إليها:

بنى العرب جامعة قرطبة التي وفد الطلاب إليها من جميع أنحاء الأندلس وافريقيا واوروبا وقد استدعي بعض الأساتذة المشهورين كي يحاضروا فيها، كما

كان الحكم في الأندلس مولعاً باقتناء الكتب حيث كان يكلف رجاله بالبحث عن المخطوطات في حوانيت الإسكندرية ودمشق وبغداد وشرائها ونسخها بهذه الطريقة تمكن من جمع أربعمائة ألف مجلد وأكبر دليل وجود أكثر من سبعين دار للكتب هناك، و بالإضافة إلى ذلك قام العديد من طلاب العلم الأندلسيين بالرحلة إلى العراق للتزود بالعلوم من منابعها و قد أمضى بعضهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين عاماً من أجل هذه المهمة ، إن هذا الإيفاد لدليل على تقدم الفكر العربي و فضله على أوروبا فيما بعد.

• صقلية المنارة الثانية للحضارة الإسلامية في أوروبا:

كيفية انتقال المسلمين إلى صقلية:

حيث قام المسلمون بفتحها سنة ٣١٣ هـ حيث لقيوا صعوبات كثيرة فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها جميعها حتى عام ٣٦٤ هـ على يد إبراهيم الثاني الاغلبي إلى أن سقطت هذه الدولة على أيدي الفاطميين عام ٣٩٦ هـ وخلال فترة حكمهم عين الخليفة المنصور (ثالث الخلفاء الفاطميين) والحسن بن علي بن الكبلي عين والياً على صقلية فوضع أساس حكومة شبة مستقلة توارثها أبناؤه من بعده وفي عهد هذه الاسرة بذرت بذور القافة العربية.

أثرهم في محيط الزراعة والصناعة والتجارة.

أخذت الزراعة تنمو وتزدهر على مر الأيام فقد اهتم العرب هناك بالزراعة فأدخلوا فيها زراعات جديدة كزراعة الكتان والزيتون بالإضافة إلى الكثير من النباتات والفواكه مستغلين خصوبة تربة هذه الجزيرة.

كما اهتموا بالصناعة فأنشأوا مصانع للورق والنسيج كما استخرجوا الفضة والحديد وغيرها الكثير.[1]

أثرهم في المحيط الثقافي والعلمي

كون صقلية على علاقة وثيقة بالدولة الإسلامية فقد تنورت بكافة أنواع العلوم كما بنى فيها العرب أول مدرسة للطب في أوروبا وعن طريقها انتشر الطب إلى إيطاليا وعام أرجاء القارة حيث كانت صقلية مركز اشعاع للحضارة الإنسانية استفادت منه أوروبا أعظم فائدة.

• الحروب الصليبية المنارة الثالثة للحضارة الإسلامية في أوروبا:

أسباب الحروب الصليبية:

في أواخر القرن الخامس الهجري خرجت مجموعة من المسيحيين الأوروبيين لغزو الشرق الإسلامي متذرعين بأسباب غير واضحة تختلف باختلاف الطوائف التي اشتركت فيها.

فقد تكون رغبة القبائل القيوتونية في الهجرة وجهة للمخاطرة بالإضافة الى هدم الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) لكنيسة القيامة كما

١- كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، للكاتب خليل إبراهيم السامرائي (الصفحة ٣٢٢).

أنهم دعوا بأن الحجاج المسيحيين كانوا يلقون مصاعب في أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى الإسلامية وهم في طريقهم لبيت المقدس أو بأنهم كانوا يتعرضون للمضايقات من قبل المسلمين اثناء حجهم لكن الادعاء باطل لان تعاليم الإسلام كفلت لأهل الأديان الأخرى الحرية التامة في مزاولة شعائرهم ونهت عن التعرض لهم

بسوء ما داموا مسالمين بالإضافة لسبب اخر وغير مباشر الا وهو رغبة في نفس البابا "اربان الثاني" بطريرك الكنيسة الغربية في ضم الكنيسة الشرقية لها.

أبرز نتائج الحروب الصليبية:

أثناء حروب الصليبيين نجحو في تكوين أربع امارات لهم في المشرق: وهي إمارة الرها وإمارة أنطاكيا وإمارة طرابلس وإمارة بيت المقدس ولكن الاعتداء الصليبي على الشرق كان سبباً في ظهور قوى إسلامية فيه فقد تحمس الابطال المسلمون لاسترداد بلادهم المغتصبة فقد تمكنوا من استرداد إمارة الرها أول امارة انشاءها الصليبيون في الشرق وأهم إماراتهم وقد تم ذلك سنة ٥٣٩ هـ على يد عماد الدين الزنكي ثم جاء من بعده ابنه السلطان نور الدين محمود (٥٤١- ٥٦٩هـ) فوحد بلاد الشام تحت حكمه كما ضم مصر ثم جاء بعده صلاح الدين الأيوبي فانتزع بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ وهكذا اخذ السلاطين من بعدهم ينزعون هذه المدن الإسلامية من ايدي هؤلاء المغتصبين مدينة تلو الأخرى وكان أخرها مدينة عكا أخر معقل لهم في الشرق.

أثر المسلمين على الأوروبيين في مجال العلوم

لقد كان الأثر الحضاري لهذه الحروب فنياً وصناعياً وتجارياً أكثر منه علمياً أو أدبياً فلقد كانت استفادتهم علمياً محدودة ممثلة بعدة أمور منها نقل الكتاب الطبي المشهور "كامل الصناعة الطبية" كما كان من أثر الحروب الصليبية العلمي اهتمام الأوروبيين بتعلم اللغة العربية لأنهم قد فشلو في نشر الديانة المسيحية بحد السيف فقرروا أن تعلم اللغة العربية يمكنهم من

التخاطب مع الشرقيين ونشر المسيحية يتم باللين كما أن إنشاء المستشفيات ومعالجة المرضى فيها لم يعرف في أوروبا قبل الحروب الصليبية كما يرجح أن هذا النظام المنقول عن الشرق الإسلامي بعد أن شاهد الأوروبيون المستشفيات فيه أثناء الحروب الصليبية.

أثر المسلمين في فنون الحروب لدى الأوروبيين:

أثرت الحروب الصليبية في تطور فن الحرب عند الغربيين ولا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة هذا بالإضافة الى ما أدت اليه الحروب من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل.

أثر المسلمين في مجالات الحياة المختلفة:

بالنظر الى المؤثرات الإسلامية في الحياة الأوروبية نتيجة للتبادل التجاري الذي اثارته الحروب الصليبية نلاحظ انتقال نباتات واشجار جديدة من شرق البحر المتوسط الى غربه مثل : الثوم و البطيخ الأرز و

الليمـون كـما انتشرـت في الغـرب العقـاقير و الاصـباغ و التوابـل الشرقية كما كثر استعمال و صناعة الاقمشة التـي نسـبت الى بلـدان الشرـق مثـل الموسـلين نسـبة الى الموصـل والدامسـكو نسـبة الى دمشـق و كـذلك الناعورة نقلها الصليبيون من حماه الى بلادهم فعندما شاهدوها ترفـع ميـاه العاصي اعجبوا بها فاتفقوا بان نقلو نماذج منها الى المانيا

الأثر العلمي والثقافي للحضارة الإسلامية على أوروبا

✓ الطب والصيدلة:

استطاع العـرب والمسـلمون ان يضـيفوا الى علـم الطـب الكثـير باكتشافهم للعديد مـن الامـراض التـي لم يتوصـل احـد مـن قـبلهم اليهـا كالجدري وامراض

العيـون كـما اضـافوا الكثـير الى علـم الطـب في الأغذيـة و التوليـد واكتشاف الدورة الدموية بالإضافة الى اكتشاف صنوف الادوية ولم يقتصر دورهم كعلماء في الكشوف الطبية فقط بل أيضا بالجانب الإنساني في الطب حيث قاموا بعلاج المرضى في المستشفيات بالمجان ومـنحهم المـال والثيـاب بعد الشفاء متقيدين بدينهم ديـن التسـامح والعطـف كـما كـانوا اول رواد الحجر الصحي وهم في ذلك بذلك يقتدون بالطبيب الأول عليه الصـلاة و السلام حيث يوجههم الى الحجـر الصـحي بقولـه(اذا سـمعتم بالطـاعون بارض فلا تخلونها واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا منها)، كـما يرجـع الفضل لهم باكتشاف الدورة الدموية على يد ابن النفيس وكل هذا قد انتقل الى الغرب فانتفع الأوروبيون ، كما سبقوا غيرهم الى فرض امتحان يجتازه

من يصبح طبيبا او جراحا و منحه ترخيصا لمزاولة المهنة كم فرضو نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة منعا للغش وتفاديا للكسب الحرام فهذه هي اخلاق الإسلام.

✓ الكيمياء:

من اسهامات العرب و المسلمين في هذا المجال اكتشافاتهم لكثير من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة كالكحل و الفضة وماء الذهب وزيت الزاج و الزرنيخ وملح البارود و غيرها الكثير بذلك كان للعرب المسلمين في هذا الميدان الفضل الأكبر في تنبيه العقول والاذهان الى اهمية التربية العلمية لمعرفة اسرار الكيمياء الطبية ومن اشهر العلماء الذين برعوا في هذا المجال جابر بن حيان الذي يعتبر المؤسس لهذا العلم و كانت ابحاثه و ما توصل اليه من معلومات في هذا الشأن هي المرجع الأول في أوروبا حتى القرن الثامن فلقد ترجمت الكثير من مؤلفاته الى اللغتين اللاتينية و الفرنسية .

✓ الرياضيات:

تدين الرياضيات بشطر كبير من تقدمها للعرب والمسلمين بل ان بعض فروعها اختراع عربي كعلم الجبر الذي مازالت أوروبا حتى يومنا هذا تطلق عليه هذا الاسم كما ان اسهامات العرب في الرياضيات تهذيبهم للأرقام الهندية وابتكارهم طرق الحسابية المستعملة في الحياة اليومية التي نقلتها أوروبا واستفادت بها. كما يحسب للعرب والمسلمين انهم اول من عرف الصفر (الذي يدل على اللاشيء) ويعد هذا الاسهام العلمي من أخطر الابتكارات اهتدى بها العقل البشري.

✓ الرحلات والجغرافية

اشـتهر العـرب والمسـلمون بحـبهم الشـديد للسـياحة والـرحلات فطافوا البلاد من الصين شرقا الى مجاهل افريقيا غربـا كـما أقـاموا علاقـات تجارية واسعة مع بلاد لم يسمع بها الأوروبيون بعد وقد كان لهذه الـرحلات أثرهـا البـالغ في المسـاهمة في الكشـف عـم طريـق راس الرجـاء الصـالح والوصول الى جزر الهند الشرقية ولولا مساعدة العرب عن طريق اكتشاف البوصلة وخطوط العرض والطول لعجر الأوروبيون عن اكتشـاف القـارة الامريكية وغيرها

وقد اهتم العرب المسلمون بعلم الجغرافية وكتبـوا فيـه العديـد مـن المؤلفات كان الدافع وراءها فريضـة الحـج التـي تفتقـر إلى معرفـة الطـرق والمنازل وأيضاً طلب العلم الذي يتطلب الرحلة الى سائر البلاد الإسـلامية فبلغ العرب من السيادة في الجغرافية ما لم تبلغه امة من قبـل وقـد اعتمـد الأوروبيون كثيراً على الخرائط التي رسمها العرب وعلى مراجعهم العربيـة منها السجلات التجارية ومدونات الرحلات وما كتبه التجار والحجاج.

✓ العمارة:

حقق العرب والمسلمون في مجال العمـران إنجـازات متميـزة حيـث اعتنوا بشق الطرق والجسور وإقامة الأسـواق والأمـن مـن أجـل ازدهـار التجارة وتحقق التنمية وفي مجال الزراعة وجهوا اهـتمامهم الى الـري وشـق الأنهار والخلجان.

ومن أبرز ما حققه المسلمون في نواحي العمران المنشآت والمباني العظيمة من مدن ومساجد ومدارس ومستشفيات لا يزال الكثير منها باقياً إلى يومنا هذا كالجامع الاموي والجامع الازهر.

وقد تأثر الأوروبيون بالعرب في فن العمارة والفنون والصناعات المنزلية دليل ذلك أن الأوروبيين قد أنشأوا منازل لهم على التراث العربي مساحة ورخاما ونافورة وجزيرة ومياه جارية.

ومثلها أي بيوت العرب كانت الزخرفة والأثاث الداخلي ويؤكد ذلك قول ((سيديو)): أن العرب هم اساتذتنا في كل شيء اذ انهم زودونا بمواد جليلة القيمة في تاريخ العصور الوسطى وبأسفار مجيدة في التراجم وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها وفناً معمارياً آية في الروعة والجمال واكتشافات هامة في الفنون والصناعات.

أثر الإسلام في الثقافة المسيحية:

تطلق الحضارة الإسلامية على التراث الفكري الذي خلفته الحضارة الإسلامية في جميع جوانبه الديني والفلسفي واللغوي والأدبي والفني وعندما جاء الإسلام أراد أن يعطي المسلم تصورا شاملا عن الحياة وطبيعتها والوجود ومكانة الانسان فيه ونوعية النظام الذي يجب ان يحكم المجتمع البشري والغاية من ذلك إيجاد امة ذات طابع خاص يتميز به عن جميع أمم الأرض.

وقد استطاعت هذه الثقافة ان تستفيد من التراث الحضاري الذي خلقته الأمم الأخرى حيث ترجمت كتب الاغريق والفرس في عصر العباسيين ثم أضاف العلماء المسلمون الجدد من فكرهم وانتاجهم الى هذا التراث الحضاري فصححوا الكثير من النظريات ومن اهم مظاهر الحضارة الإسلامية انها استطاعت ان تؤثر تأثيرا كبيرا في جميع الشعوب التي خضعت للدولة.

الإسلامية بل أن الثقافة الإسلامية قد طغت على الثقافة الاصلية للشعوب ومن أعجب العجائب أن ما عجزت عنه الأغارقة والفرس استطاعت أن تفعله الثقافة والحضارة الإسلامية ولذلك أجبرت الشعوب المختلفة ذات الحضارات المتباينة أن تتخلى عن ثقافتها الاصلية وعقائدها السابقة وتدخل في الإسلام فتكون عقيدته دينا لها وتكون تعاليمه شريعة لها وبحكم أن لغات بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام هي لغات غير عربية فقد ترجم القرآن إلى نوعين من الترجمة وهي الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية.

الفصل الثاني عشر
الإمبراطورية البيزنطية

الإمبراطورية البيزنطية والتي يشار إلي أحياناً باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، حيث استمرت الإمبراطورية الرومانية في الشرق خلال العصور القديمة المتأخرة والعصور الوسطى، وكانت عاصمتها القسطنطينية "اسطنبول الحديثة، التي تأسست في الأصل علي يد البيزنطيين". حيث نجت من التشرذم وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن ٥ الميلادي واستمرت في الوجود لألف سنة إضافية حتى سقطت في أيدي الأتراك العثمانيين في عام ١٤٥٣م.

• إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها:

وخلال فترة وجودها، كانت تعد الإمبراطورية الأقوى من الناحيه الاقتصادية، والثقافية، والقوة العسكرية الكبري في أوروبا، وعلى حد سواء "الإمبراطورية البيزنطية" أو "الإمبراطورية الرومانية الشرقية" منذ كتابة التاريخ عند إنشاؤها؛ استمر مواطنيها للإشارة إلى إمبراطوريتهم باسم الإمبراطورية الرومانية. وتظهر العديد من الفعاليات من القرن ٤ إلى القرن ٦ ، علامات تميز خلالها الفترة الانتقالية للإمبراطورية الرومانية اليونانية، الشرق والغرب اللاتيني المقسمة.

قام قسطنطين الأول خلال الفتره ٣٢٤-٣٣٧ بإعادة تنظيم الإمبراطورية، وجعل القسطنطينية هي العاصمة الجديدة، والمسيحية مصدق بها، تحت قيادة ثيودوسيوس الأول خلال الفتره ٣٧٩-٣٩٥،

وأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي للإمبراطورية، مع الممارسات الدينية الأخرى.

وأخيراً، في عهد هرقل خلال الفترة ٦١٠-٦٤١ ، تم إعادة هيكلة الجيش وإدارة الإمبراطورية واعتمدت اليونانية للاستعمال الرسمي بدلاً من اللاتينية، وهكذا، على الرغم من أن الدولة الرومانية استمرت وقامت بالمحافظة على تقاليد الدولة الرومانية، إلا أن المؤرخين المعاصرين ميزوا بيزنطة عن روما القديمة بقدر ما كانت مركزه على القسطنطينية، وموجهة نحو الثقافة اليونانية بدلا من اللاتينية، والتي تتميز بالمسيحية الأرثوذكسية .

وتطورت حدود الإمبراطورية بشكل كبير خلال وجودها، كما أنتقلت خلال عدة دورات من التراجع إلي الانتعاش، في عهد جستنيان الأول خلال الفتره ٥٢٧-٥٦٥ ، حيث وصلت الإمبراطورية إلي أقصى حد لها بعد إعادة احتلال جزء كبير من ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي الروماني تاريخياً، بما في ذلك شمال أفريقيا وإيطاليا وروما نفسها، التي عقدت لعدة قرون.

وفي عهد موريس خلال ٥٨٢-٦٠٢، تم توسيع حدود الإمبراطورية الشرقية إلي الشمال واستقرت، ومع ذلك، تسبب اغتياله في قيام الحرب البيزنطية الساسانية من ٦٠٢-٦٢٨، حيث استنفدت موارد الإمبراطورية، وأسهمت في الخسارة الإقليمية الكبرى خلال الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وفي غضون سنوات ضياع الإمبراطورية كانت أغنى محافظاتها مصر وسوريا.

وخـلال السـلالة المقدونيـة في القـرن ١٠ – ١١ قرنـاً توسـعت الإمبراطورية مرة أخرى وشهدت مقـدونيا نهضـة كبـيره في القـرن الثـاني عشر، حيث وصلت إلى نهايتها عند فقدان جزء كبـير مـن آسـيا الصـغرى للأتراك السلاجقة بعد معركة

ملاذكرد التي قامت في عام ١٠٧١، وهذه المعركـة فتحـت الطريـق للأتراك لكي يستقروا في الأناضول كوطنا لهم.

واستعادت الإمبراطورية مرة أخرى أثنـاء اسـتعادة *Komnenian* ، لقوتها بحلول القرن الـ ١٢م حيث كانت القسطنطينية أكبر وأغنـى مدينـة أوروبية، ومع ذلك، تم تسليمها بعد الضربة القاضية التـي انتابتهـا خـلال الحملة الصليبية الرابعة ، وبعـدها أقيـل مـن منصـبه في عـام ١٢٠٤. وتـم تقسيم الأراضي التي كانـت تحكمهـا الإمبراطوريـة سـابقاً عـلى المنافسـين العوالم اليونانية واللاتينية والبيزنطية، وعـلى الـرغم مـن الانتعـاش الـذي وصـلت إليـه القسـطنطينية في نهايـة المطـاف في عـام ١٢٦١، ظلـت الإمبراطورية البيزنطية واحده فقط من العديد من الدول المتنافسة صغيرة في المنطقة لعدد من القرون الأخيرة من وجودهـا، حيـث ضـمت الأراضي المتبقية تدريجياً إلي العثمانيين خلال القرن ال١٥، بعد سـقوط القسـطنطينية في قبضة الإمبراطورية العثمانية عام ١٤٥٣ م، وانتهت أخيراً الإمبراطوريـة البيزنطية

معلومات عن الإمبراطورية البيزنطية:

كانت أصول الحضارة العظيمة المعروفة باسم الإمبراطورية البيزنطية، تعزى إلى ٣٣٠ ميلادية، عندما خصص الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول "روما الجديدة" على موقع المستعمرة اليونانية القديمة من بيزنطة، وعلى الرغم من أن النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية انهار وسقط في عام ٤٧٦ م، ولكن نجا النصف الشرقي وظل لمدة ١٠٠٠ سنة أخرى، ووضع تقاليد عريقة في الفن والأدب والتعلم والقيام بدور المنطقة العسكرية العازلة بين دول أوروبا

وخطر الغزو من آسيا، ولكن وقعت الإمبراطورية البيزنطية أخيراً في عام ١٤٥٣، بعد أن اقتحم الجيش العثماني القسطنطينية في عهد قسطنطين الحادي عشر.

- **روما الجديدة:**

المصطلح "البيزنطي" مستمد من البيزنطية، وهي مستعمرة يونانية قديمة أسسها رجل يدعى بيزاس، وتقع على الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور "المضيق الذي يربط بين البحر الأسود بالبحر المتوسط"، حيث كانت بيزنطة تقع من الناحية المثالية لتكون بمثابة نقطة العبور والتجارة بين أوروبا وآسيا الصغرى، وفي عام ٣٣٠ ميلادياً، اختار الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول بيزنطة كموقع للعاصمة الرومانية الجديدة، القسطنطينية، قبل خمس سنوات،في مجمع نيقية وقد أتخذ قسطنطين المسيحية الدين الرسمي في روما، وأصبح المواطنين في القسطنطينية وبقية الإمبراطورية

الرومانية الشرقية التي تم تحديدها بقوة مثل الرومان والمسيحيين، رغم أن العديد منهم تحدثوا باليونانيه وليس اللاتينية.

وعلى الرغم من أن قسنطين حكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة، ولكن أثبتت أن هذه الوحدة وهمية بعد وفاته في عام ٣٣٧ م، وفي عام ٣٦٤ م، قسم الامبراطور فالنتينيان الأول مرة أخرى الإمبراطورية إلى قسمين غربي وشرقي، ووضع نفسه علي السلطة في الغرب وشقيقه فالنس في الشرق، وتباينت مصير المنطقتين بشكل كبير على مدى العدة قرون القادمة. وقامت الهجمات المستمرة علي الغرب من الغزاة الألمان مثل القوط الغربيين واندلعت الإمبراطورية تكافح من أسفل قطعة حتى أصبحت إيطاليا الأراضي الوحيدة المتبقية تحت السيطرة الرومانية.

وفي عام ٤٧٦ م ، أطاح أودواكر البربري بالإمبراطور الروماني الماضي، رومولوس أغسطس، وسقطت روما.

- **بقاء الإمبراطورية البيزنطية:**

كان النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية أقل عرضة للهجوم الخارجي، ويرجع الفضل في ذلك إلى موقعها الجغرافي، حيث تقع القسطنطينية على مضيق، وكان من الصعب للغاية اختراق دفاعات العاصمة، بالإضافة إلى ذلك، كانت الإمبراطورية الشرقية على الحدود المشتركة بالكثير مع دول أوروبا، كما استفادة كثيراً من مركزها الإداري القوى والاستقرار السياسي الداخلي، فضلاً عن ثروتها الكبيرة مقارنة مع

الدول الأخرى من الفترة المبكرة من القرون الوسطى، وكانت قادرة على بذل المزيد من الجهد للسيطرة على موارد الإمبراطورية الاقتصادية لتكون أكثر فعالية علي حشد القوى البشرية الكافية لمكافحة غزو الأباطرة الشرقيين.

ونتيجة لهذه المزايا، مرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بأشكال مختلفة والمعروفة باسم الإمبراطورية البيزنطية أو بيزنطية، وكانت قادره على البقاء على قيد الحياة لعدة قرون بعد سقوط روما، على الرغم من بيزنطة كان يحكمها القانون الروماني والمؤسسات السياسية الرومانية، ولغتها الرسمية اللاتينية، واليونانية أيضا تحدثوا بها على نطاق واسع، وحصل طلاب التعليم علي التاريخ اليوناني والأدب والثقافة، ومن حيث الدين، وأنشأ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ رسمياً لتقسيم العالم المسيحي إلى خمسة بطريركيات، يحكمها البطريرك كل من: روما "حيث البطريرك سيدعو نفسه في وقت لاحق البابا"، والقسطنطينية، والإسكندرية، وأنطاكية والقدس.

وكان الإمبراطور البيزنطي بطريرك القسطنطينية، ورئيس كل من الكنيسة والدولة بعد أن استوعبت الإمبراطورية الإسلامية الإسكندرية، وأنطاكية والقدس في القرن السابع الميلادي، والإمبراطور البيزنطي أصبح الزعيم الروحي لمعظم المسيحيين الشرقيين.

• الإمبراطورية البيزنطية جستنيان:

تولى السلطة جستنيان الأول الحكم ، في عام ٥٢٧ وظل يحكم حتى وفاته في عام ٥٦٥، وهو أول حاكم عظيم في الإمبراطورية البيزنطية، وخلال سنوات حكمه، شملت الإمبراطورية معظم الأراضي المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، كما احتلت جيوش جستنيان جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الغربية السابقة، بما في ذلك شمال أفريقيا، وأنشأ العديد من الآثار العظيمة للإمبراطورية تحت قيادة جستنيان، بما في ذلك كنيسة القبة من الحكمة المقدسة، أو آيا صوفيا ٣٧ _ ٥٣٢ ميلادية، بجانب إصلاحات جستنيان وتقنين القانون الروماني، ودون القانون البيزنطي الذي من شأنه أن يدوم لعدة قرون، والذي يساعد في تشكيل المفهوم الحديث للدولة وعند وفاة جستنيان، ملك الإمبراطورية البيزنطية العليا بوصفها أكبر وأقوى دولة في أوروبا. تراكمت الديون عليها خلال الحرب حيث جعلت الإمبراطورية في ضائقة مالية وخيمة، ومع ذلك، اضطر خلفائه فرض الضريبة وجلبها بشدة من المواطنين البيزنطيين من أجل الحفاظ على الإمبراطورية واقفه على قدميها، وبالإضافة إلى ذلك، تم امداد الجيش الامبراطوري من أجل النضال للحفاظ على الأراضي التي احتلت أثناء حكم جستنيان خلال القرنين السابع والثامن ولكن دون جدوى، وتلقت

هجمات من قبل الفرس والسلاف، جنباً إلى جنب مع عدم الاستقرار السياسي الداخلي والانحدار الاقتصادي، الذي هدد الإمبراطورية.

وجاءت التهديدات الجديدة والأكثر خطورة في شكل الإسلام الذي أسسه النبي محمد ﷺ في مكة المكرمة في عام ٦٢٢ م، وفي عام ٦٣٤ م، بدأت جيوش المسلمين هجومها على الإمبراطورية البيزنطية لاقتحام سوريا، وبحلول نهاية هذا القرن، فقدت بيزنطة سوريا، والأراضي المقدسة ومصر وشمال أفريقيا وبعض الأقاليم الأخرى التي انضمت إلى القوى الإسلامية.

- **بيزنطة والحروب الصليبية:**

وفي نهاية القرن ال١١ شهدت بداية الحروب الصليبية ، سلسلة من الحروب المقدسة التي شنها المسيحيون الغربيين ضد المسلمين في الشرق الأدنى من عام ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ .

بجانب أتراك آسيا الوسطى للسيطره على القسطنطينية، وتحول الإمبراطور ألكسيوس الأول إلي الغرب للحصول على المساعدة، مما أدى إلى إعلان "الجهاد" من قبل البابا أوربان الثاني في كليرمونت "بفرنسا" حيث بدأت الحملة الصليبية الأولى، كما تدفقت الجيوش من فرنسا وألمانيا وإيطاليا إلى بيزنطة، وحاول ألكسيوس إجبار قادتهم على قسم يمين الولاء لهم من أجل ضمان استعادة الأرض من الأتراك لتعود إلى إمبراطوريتهم، وبعد استعادت القوات الغربية والبيزنطية نيقية في آسيا الصغرى من الأتراك، تراجع ألكسيوس وجيشه، بسبب اتهامهم بالخيانة من الصليبيين.

وأثناء الحروب الصليبية اللاحقة، واصل العداء بين بيزنطة والغرب، وبلغت ذروتها في غزو ونهب القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٤ م، حيث أنشأ النظام اللاتيني في القسطنطينية على أرضية مهزوزة بسبب العداء السافر من سكان المدينة و افتقارها إلى المال. وفر العديد من اللاجئين من القسطنطينية إلى نيقية، الموقعة من الحكومة في المنفى البيزنطي والتي من شأنها استعادة السيطرة على العاصمة والاطاحة بالحكم اللاتيني في ١٢٦١.

• سقوط الإمبراطورية البيزنطية وأرثها

خلال فترة حكم الأباطرة، بدءاً مايكل الثامن في عام ١٢٦١، حيث كان قد أصيب اقتصاد الدولة البيزنطية القوية بالشلل، وبدأ في استعادة مكانته السابقة.

وفي عام ١٣٦٩، سعى الإمبراطور جون الخامس دون جدوى بالمساعدات المالية من الغرب لمواجهة التهديدات التركية المتنامي، ولكن تم القبض على المدين المعسر في البندقية، وبعد أربع سنوات، قال أنه اضطر للتنازل عنها مثل الأمراء الصربيين وحاكم بلغاريا لتصبح تابعة للأتراك الأقوياء، وكدولة تابعة، أصبحت بيزنطة تدفع الجزية للسلطان وتقدم له الدعم العسكري.

وفي عهد خلفاء جون، اكتسبت الإمبراطورية الإغاثة المتفرقة من الاضطهاد العثماني، ولكن صعود مراد الثاني كسلطان عام ١٤٢١ شهد نهاية المهلة النهائية، بعد إلغاء مراد جميع الامتيازات الممنوحة للبيزنطيين وحاصر القسطنطينية، وخلفه، محمد الثاني، الذي شن الهجوم النهائي على المدينة، في ٢٩

مايو ١٤٥٣، وبعد ان اقتحم الجيش العثماني القسطنطينية، تحت قيادة محمد الفاتح دخل منتصراً آيا صوفيا، التي أصبحت مسجد قيادي في المدينة، وتوفي الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر في المعركة في ذلك اليوم، وجاء انحطاط وسقوط الإمبراطورية البيزنطية كاملة.

وفي القرون التي سبقت الفتح العثماني النهائي عام ١٤٥٣، ازدهرت الثقافة البيزنطية، بما في ذلك الأدب والفن واللاهوت مرة أخرى، حتى تعثرت الإمبراطورية نفسها، وكانت الثقافة البيزنطية تمارس تأثيراً كبيراً على التراث الفكري الغربي، حيث سعى علماء عصر النهضة الإيطالية لمساعدة العلماء البيزنطيين في الترجمة الوثنية واليونانية والكتابات المسيحية.

وهذه العملية استمرت بعد ١٤٥٣، عندما فر العديد من هؤلاء العلماء إلى إيطاليا من القسطنطينية، وبعد فترة طويلة وفي "النهاية"، استمرت الثقافة البيزنطية والحضارة لممارسة تأثيرها على الدول التي تمارس الديانة الأرثوذكسية، بما في ذلك روسيا، ورومانيا، وبلغاريا وصربيا واليونان وغيرها.

- **العهد الروماني اكبر امبراطورية في التاريخ**:

تركزت الإمبراطورية الرومانية القديمة، فى مدينة روما، التي تأسست في عام ٢٧ قبل الميلاد بعد زوال الجمهورية الرومانية والاستمرار في اضمحلال إمبراطورية الغرب في القرن ٥ م، حيث أنها كانت تتبع علاج وجيز من الإمبراطورية الرومانية، لتلقي العلاج الكامل.

• معلومات عن العهد الروماني

تأسست الإمبراطورية الرومانية في فترة الجمهورية بعد الحضارة الرومانية القديمة ، حيث تميزت الحكومة برئاسة الأباطرة وحيازات الأراضي الكبيرة في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط في أوروبا وأفريقيا وآسيا.

كانت مدينة روما هي أكبر مدينة في العالم منذ ١٠٠ سنه قبل الميلاد، مع القسطنطينية "روما الجديدة" لتصبح أكبر بحوالي ٥٠٠ م، حيث نما جماهير الإمبراطورية إلى ما يقدر من ٥٠ حتي ٩٠٠٠٠٠٠٠ نسمة أي "نحو ٢٠٪ من سكان العالم في ذلك الوقت". وكان عمر الجمهورية نحو ٥٠٠ عام ، حيث سبقتها عدم الاستقرار الشديد لتعرضها لسلسلة من الحروب الأهلية والصراع السياسي، والتي تم خلالها تعيين يوليوس قيصر - كديكتاتور دائم ثم اغتيل في عام ٤٤ قبل الميلاد. واستمرت الحروب الأهلية، وبلغت ذروتها في انتصار أوكتافيوس، ابن قيصر - بالتبني، على مارك أنتوني وكليوباترا في معركة أكتيوم البحريه في عام ٣١ قبل الميلاد وضمها إلي مصر، وكانت سلطة أوكتافيان في ذلك الحين لا يمكن تعويضها، وفي عام ٢٧ قبل الميلاد منح مجلس الشيوخ الروماني رسمياً له السلطة وأصبح لقبه الجديد هو أوغسطس، الذي يمثل بشكل فعلي نهاية الجمهورية الرومانية.

وجاءت خليفة الإمبراطورية في الجمهورية التي استمرت إلي ما يقرب من ١٤٠٠ سنة، ومر أول قرنين من وجود الإمبراطورية بفترة من الاستقرار السياسي الغير مسبوق والازدهار المعروف باسم باكس رومانا ، أو "السلام الروماني"، وبعد فوز أوكتافيان، تم زيادة حجم الإمبراطورية بشكل كبير، وبعد

اغتيال كاليجولا في عام ٤١ ، نظر مجلس الشيوخ لفترة وجيزة لاستعادة الجمهورية، بينما أعلن الحرس الإمبراطوري كلوديوس قيصر بدلاً من ذلك. وتحت قيادة كلوديوس، غزت الإمبراطورية بريطانيا، وكان أول توسع له منذ أغسطس.

وبعد خليفة كلوديوس، نيرو، الذي انتحر في عام ٦٨، تعرضت الإمبراطورية لفترة وجيزة من الحروب الاهلية، فضلاً عن التمرد الكبير المتزامن في يهودا، حيث تم خلالها إعلان أربعة ضباط من الفيلق للامبراطورية، وظهرت فيسباسيان المظفرة في عام ٦٩، وإقامة فلافيان، قبل أن يخلفه ابنه تيتوس، الذي افتتح الكولوسيوم بعد ثوران بركان جبل فيزوف، وأعقب فترة حكمه القصيرة التي كتبها في عهد طويل من شقيقه دوميتيان، الذي اغتيل في نهاية المطاف، وعين مجلس الشيوخ أول خمسة من الأباطرة الجيدة، حيث بلغت الإمبراطورية أقصى حد لها تحت قيادة تراجان ، والثاني في هذا الخط.

وهناك فترة من زيادة المتاعب والتراجع بدأت مع عهد كومودوس، وبعد اغتيال كومودوس في عام ١٩٢ حدث في هذه السنة انتصار سيبتيموس سيفيروس من الأباطرة الخمسة، ولكن أدى اغتيال الكسندر سيفيروس في عام ٢٣٥ إلي أزمة القرن الثالث حيث تم الإعلان عن ٢٦ رجلاً للإمبراطور من قبل مجلس الشيوخ الروماني على مدى خمسين عاماً، ولم تشهد الإمبراطورية استقرار كامل حتى في عهد دقلديانوس، وإن كانت مع مقدمة من الولاية الربعية، التي شهدت أربعة أباطرة لحكم الإمبراطورية في وقت واحد، وكان هذا الترتيب غير

ناجح في النهاية، مما أدى إلى انتهاء الحرب الأهلية التي انتهت أخيراً علي يد قسطنطين الأول، والذي هزم منافسيه وأصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية ، وبعد ذلك حول قسطنطين العاصمة لبيزنطة، التي تم تغيير اسمها إلى "القسطنطينية" تكريماً له، وظلت عاصمة الشرق حتى زواله.

كما اعتنق قسطنطين المسيحية التي أصبحت في وقت لاحق دين الدولة الرسمي للإمبراطورية ، وهذا الجزء الشرقي من الإمبراطورية " عرف فيما بعد باسم "الامبراطورية البيزنطية" ، وظلت واحدة من القوى الكبرى في العالم إلى جانب الإمبراطورية الساسانية الخصم اللدود ، الذي كان قد ورث صراع الرومانية-الفارسي منذ قرون من سابقتها البارثيين.

وبعد وفاة ثيودوسيوس الأول ، الامبراطور الأخير لحكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة، تآكلت سيادة الإمبراطورية تدريجياً

لإساءة استخدام السلطة، والحروب الأهلية، والهجرات والغـزوات البربرية، والإصلاحات العسكرية والكساد الاقتصادي، وتم نهب روما في عام ٤١٠ من قبل القوط الغـربيين، ومـرة أخـرى في عـام ٤٥٥ مـن قبـل المخربين وتسارع تسوس الإمبراطورية الغربية، في حين خلع الامبراطـور، رومولوس أوغستولوس، في عـام ٤٧٦ قبـل اودواسـير، ومـن المسـلم بـه عموماً بمناسبة نهاية الإمبراطورية في الغرب. ومع ذلك، كـان أوغسـطس المعترف بها من قبل الأمبراطورية الشرقية، والمنفصلة عن القاعدة الواقعة في الجزء الغربي من الإمبراطورية، والتي توقفت عـن الوجـود عنـد وفـاة يوليـــوس نيبـــوس في عـــام ٤٨٠ ، بيـــنما اســـتمرت الامبراطوريـــة الرومانية الشرقية لألف عام أخـرى، وسـقطت في نهايـة المطـاف في أيـدي الأتراك العثمانيين في عام ١٤٥٣.

وكانت الإمبراطورية الرومانية من بين القوى الاقتصـادية والثقافيـة والسياسـية والعسـكرية الأقـوى في العـالم. وكانـت أكـبر إمبراطوريـة في العصـر والتاريخ القديم، وواحدة من أكبر الإمبراطوريات في تاريخ العالم
.

وغطت في أوجها تحت قيادة تراجان ٥ ملايين كيلو متر مربع، وهـي منطقة تتكون من ٤٨ دولة في القرن ال٢١ . وعقدت التأثير عـلى مـا يقـدر بنحو ٧٠ مليون شخص، في ذلك الوقت ٢١٪ مـن سـكان العـالم بـأسره. وظلت الإمبراطورية طول العمر وعلي مدى واسع بما لها من التأثير الـدائم علي اللغة اللاتينية واليونانية والثقافية والدين والاختراعات والعمارة

والفلسفة والقانون وأشكال الحكم على أحفاد الإمبراطورية، وطوال الفترة الأوروبية في القرون الوسطى، وحتى المحاولات لإقامة خلفاء للإمبراطورية الرومانية، بما في ذلك الإمبراطورية الرومانية، والدولة الصليبية، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، عن طريق الاستعمار الأوروبي بعد عصر النهضة، وتم تصدير الثقافة اليونانية الرومانية على نطاق عالمي، ولعبت دوراً حاسماً في تطور العالم المعاصر.

• الجغرافيا والديموغرافيا

كانت الإمبراطورية الرومانية أكبر امبراطورية في التاريخ، بين الدول المتجاورة في جميع أنحاء أوروبا، وشمال أفريقيا، والشرق الأوسط، حيث أطلق عليها الامبرياليين عبارة "امبراطورية بلا نهاية"، وأعربت الإيديولوجية أنها إمبراطورية بلا مساحة محدودة، كما جاء في قصيدة فيرجل في ملحمة اينييد، أنها إمبراطورية بلا حدود التي تمنح للرومان من قبل الإله الأعلى على كوكب الأرض، وتم تجديد هذه الإمبراطورية من الهيمنة العالمية لتحافظ على استمراريتها تحت الحكم المسيحي في القرن ال ٤

وفي الواقع، تم إنجاز التوسع الروماني في الغالب في ظل الجمهورية، على الرغم من أنها غزت أجزاء من شمال أوروبا في القرن الأول، عندما تم تعزيز السيطرة الرومانية في أوروبا وأفريقيا وآسيا، وفي عهد أوغسطس، تم عرض خطة "خارطة عالمية من العالم المعروف" لأول مرة في العالم في روما، وبالتزامن مع تكوين العمل الأكثر شمولية في الجغرافيا السياسية أن ينجو

من العصور القديمة، والجغرافيا للكاتب اليوناني جاسرة سترابو. وعندما مات أوغسطس، وضعت حسابات تذكارية لانجازاته "احتياط *Gestae*"في مكاناً بارزاً لفهرسة الجغرافية للشعوب والأماكن داخل الإمبراطورية، والجغرافيا كانت تعداد، والحفظ الدقيق لسجلات مكتوبة والشواغل الرئيسية لإدارة الإمبراطورية الرومانية.

ووصلت الإمبراطورية إلي أكبر مساحة بموجب تراجان الذي حكم منذ عام ٩٨-١١٧ ، والتي بلغت مساحتها لنحو ٥ ملايين كيلومتر مربع في عام ٢٠٠٩ وقسمت بين الدول الحديثة المختلفة إلي الأربعين، وبلغت تقديرات السكان التقليديين من ٥٥ حتي ٦٠٠٠٠٠٠٠ نسمة لمدة تتراوح بين سدس وربع من إجمالي سكان العالم، وجعلت منها أكبر عدد من السكان من أي كيان سياسي موحد في الغرب حتى منتصف القرن ال ١٩، وقد جادل دراسات الديموغرافية الأخيرة الذروة السكانيه التي تتراوح ما بين ٧٠ مليون إلى أكثر من ١٠٠ مليون نسمة، وكل واحدة أكبر من ثلاث مدن في إمبراطورية روما، وكانت الإسكندرية، و *Antioch* تقريباً هي ضعف حجم أي مدينة أوروبية في بداية القرن التاسع ١٧.

كما أكد المؤرخ كريستوفر كيلي ووصف ذلك: بإمتداد الامبراطورية من جدار هادريان في غارقة رذاذ شمال انجلترا للبنوك تحت وهج الشمس الحارة إلي الفرات في سورية، ومن نظام نهر الراين ونهر الدانوب الكبير الذي سار عبر الأراضي الخصبة المسطحة في أوروبا من البلدان المنخفضة إلى البحر الأسود،ثم إلى السهول الغنية من ساحل شمال

افريقيا وجرح مترف من وادي النيل في مصر، والإمبراطورية تأخذ شكل دائري تماماً عبر البحر المتوسط التي أشار إليها الفاتحين لها

واعتمدت سياسة خليفة تراجان هادريان علي المحافظة عليها بدلاً من توسيع الإمبراطورية، وتميزت حدود غرامات، وحدود *LIMITES* بالدوريات، وكانت الحدود المحصنة أشد وطأة وغير مستقرة، مثل سور هادريان، الذي يفصل العالم الروماني عما كان ينظر إليها على أنها التهديد البربري إلى الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى، وهو نصب على قيد الحياة لهذا الجهد.

- **اللغات:**

وكانت لغة الرومان الرئيسيه هي اللغة اللاتينية ، والتي يؤكدها فيرجيل كمصدر وحدة الرومانية والتقاليد ، حتى وقت الكسندر سيفيروس الذي حكم من ٢٢٢-٢٣٥، وكانت شهادات الميلاد والوصايا من المواطنين الرومان مكتوبة باللغة اللاتينية، وكانت اللاتينية هي لغة المحاكم في الغرب والجيش في جميع أنحاء الإمبراطورية، ولكن لم تفرض رسمياً على الشعوب التي وضعت تحت الحكم الروماني، حيث تتناقض هذه السياسة مع الإسكندر الأكبر، الذي يهدف إلى فرض اليونانية في جميع أنحاء إمبراطوريته كلغة رسمية.

ونتيجة لذلك من فتوحات الاسكندر ، أصبحت اليونانية *koine* هي اللغة المشتركة حول شرق البحر المتوسط وحتي آسيا الصغرى، وتمثل "الحدود اللغوية" في التقسيم بين الغرب اللاتينية والشرق اليونانية التي مرت على شبه جزيرة البلقان.

وحصل الرومان على تعليم النخبة اليونانية كلغة أدبية، ومعظم الرجال من الطبقات الحاكمة، يمكن أن يتكلمون اليونانية، وشجع الأباطرة جوليو-كلودين المستويات العالية من الصحيح اللاتينية " *Latinitas* "، وهي الحركة اللغوية المحددة في المصطلحات الحديثة مثل اللاتينية الكلاسيكية، وفضلت اللاتينية لإجراء المهام الرسمية. وحاول كلوديوس للحد من استخدام اليونانية، وأحياناً سحبت الجنسية من أولئك الذين يفتقرون إلى اللاتينية ، ولكن حتى في مجلس الشيوخ وجه على موقعه ثنائية اللغة الخاصة في التواصل مع سفراء يتحدثون اليونانية. وينقل عن سوتونيوس أنه يشير إلى أن لدينا لغتين.

وفي الامبراطورية الشرقية، ترجمت القوانين والوثائق الرسمية بانتظام إلى اليونانية من اللغة اللاتينية، حيث يشار إلى التداخل اليومي من اللغتين التي وضحتها نقوش ثنائية اللغة، والتي كانت في بعض الأحيان حتى في الانتقال ذهاباً وإياباً بين اليونانية واللاتينية، لكل السكان الأحرار للإمبراطورية، ولكن عدداً كبيراً من المواطنين الرومان افتقرت إلي اللاتينية، على الرغم من أنها كانت من المتوقع أن تكتسب على الأقل المعرفة الرمزية، وظلت اللاتينية علامة على *"Romanness"* .

ومن بين المقترحات الأخرى ، فـإن الإمبراطـور دقلـديانوس الـذي حكم منذ عام ٢٨٤-٣٠٥ ، فإنه سعى لتجديد سلطة اللاتينيـة ، والتعبـير اليوناني علي انه *kratousa dialektos* يشهد حالة استمرار اللاتينيـة باسـم "لغة القوة".

وفي أوائـل القـرن ال ٦ ، شـارك الامبراطـور جسـتنيان في جهـود موضوعيين لتأكيد مكانة اللاتينية كلغة القانون، على الرغم من أن في وقتـه اللاتينية لم تعد تعقد أي عملة كلغة المعيشة في الشرق.

• امبراطورية روما:

وهناك فترة من الاضطرابات والحروب الأهلية في القرن الثامن قبل المـيلاد، حيـث شـهدت مرحلـة التحـول في رومـا مـن الجمهوريـة إلى الإمبراطورية، وهذه الفترة شملت يوليـوس قيصر، الـذي تـولى في نهايـة المطاف للسلطة الكاملة على روما كديكتاتور، وبعد اغتياله في عام ٤٤ قبـل الميلاد، استبعد الثلاثـي مـارك أنتـوني، يبيـدس، وأوكتافيـان، ابـن شـقيق قيصـر، ولم يمض وقت طويل قبل أن يذهب أوكتافيـان إلى الحـرب ضـد أنتوني في شمال أفريقيا، وبعد انتصاره في معركة أكتيوم البحرية عام ٣١ قبـل الميلاد توج أوغسطس الإمبراطور الأول لروما، وظل حكمه من ٢٧ قبل الميلاد إلى ١٤ م، والتي تميزت بالاستقرار والسلام.

وأنشئ أوغسطس شكل مـن أشـكال الحكـم المعروفـة باسـم عهـد الزعامـة، الـذي يجمـع بـين عنـاصرمن الجمهوريـة مـع القـوى التقليديـة للملكية، ولكن مجلس

الشيوخ لا يزال يعمل، على الرغم من أوغسطس، ظل في السيطرة على الحكومة ، وبدأت روما في الازدهار مرة أخرى، وكان الإمبراطور ينظر إليها على أنها إله، وبعد ذلك، كانت تعبده كل الأباطرة كآلهة بعد الموت، ومن بين حكام روما كانت تراجان الذي حكم من ٩٨-١١٧، وهادريان من١١٧-١٣٨، وأنطونيوس بيوس من ١٣٨-١٦١، وماركوس أوريليوس من ١٦١-١٨٠، وارتفع منحط، الرجل القاسي أيضاً إلى الطاقة: كاليجولا من٣٧-٤١، ونيرون من ٥٤-٦٨ حيث كان مكروه بحيث عهودهم ضربت من السجلات الرومانية الرسمية.

الفصل الثالث عشر
الإمبراطورية الرومانية المقدسة

الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجرمانية تكتل سياسي قروسطي بأراضي أوروبا الوسطى والغربية وُلد خلال العصور الوسطى المبكرة وتم حله رسمياً سنة ١٨٠٦. تاريخ بداية الإمبرطورية هو سنة ٩٦٢ حين توج البابا يوحنا الثاني عشر أوتو الأول العظيم إمبراطوراً لكيان شمل ألمانيا وإيطاليا (بورغونيا لاحقاً) التي ورثت الجزء الأكبر من الإمبراطورية الكارولنجية، لكن ما يميزها أنها لم تعد تشمل "فرنسا الغربية"، أي تقريباً فرنسا الحالية. وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجرمانية إلى ذروة قوتها خلال العصور الوسطى المتأخرة، وشكلت مع البابوية الكاثوليكية واحدة من القوتين العالميتين.

استخدم لفظ الإمبراطورية الرومانية في عام ١٠٣٤ للدلالة على الأراضي التي تحت حكم كونراد الثاني، والإمبراطورية المقدسة في سنة ١١٥٧. بدأ استخدام مصطلح إمبراطور الروماني للإشارة إلى ملوك شمال أوروبا في وقت مبكر مع أوتو الثاني (إمبراطور بين عامي ٩٧٣ - ٩٨٣).

استخدم الأباطرة من شارلمان - المتوفى سنة ٨١٤ - حتى أوتو الأول العظيم (إمبراطور بين عامي٩٦٢ - ٩٧٣) ببساطة لقب الامبراطور أغسطس للإمبرطورية الكارولينجية.

قُدم مصطلح الامبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجرمانية في سنة ١٢٥٤، وظهر التعبير الكامل "في نهاية القرن الخامس عشر حين فقدت المملكة الكثير من نفوذها في إيطاليا، رغم بقاءها مرتبطة بها حتى النهاية ببعض الكيانات الإقليمية الإيطالية المتكاملة فيها : "مقدس" و"الروماني" مصطلحان استخدما في روح محاكاة للإمبراطورية البيزنطية؛ كما شدد على مقطع "للأمة الألمانية" من سنة ٩٦٢ وما بعدها، كان جوهر هذه المؤسسة في الأصل في شعوب القومية الجرمانية، المشكلين للفرنجة الشرقيين بعد التقسيم الكارولينجي.

كان لقب الإمبراطور انتخابياً أساساً، وفقاً للتقاليد "الفيدرالية" لدوقيات ألمانيا الرئيسية الأربعة (ساكسونيا، فرنكونيا، بافاريا وألامانيا) المتمايزة كل منها بقاعدتها العرقية المختلفة. كان الناخبون من علية نبلاء مملكة ألمانيا، الذين كانوا يتنازعون على التاج. كان لقب الإمبراطوري يعتبر من ناحية في جميع أنحاء أوروبا الغربية المنصب الأعلى ومبدءاً لا جدال فيه، وغالباً ما يشهد على ذلك عملياً عدم وجود بودستا أساسي للأباطرة، وتحولوا رسمياً إلى صورة رمزية عاجزين عن التعبير عن رغبتهم في المملكة.

حاولت بعض العائلات الكبرى الإستحواذ على التاج الإمبراطوري الوراثي مثل السلالة الأوتونية، لكن أسرة هابسبورغ حسمت الأمر لصالحها منذ نهاية العصور الوسطى محتفظة باللقب حتى سنة ١٨٠٦، وإن لم تلغ أبداً صلاحية الأمراء الناخبين ومكانتهم. فبوفاة كل إمبراطور كانوا يجتمعون لينتخبوا خلفاً له.

أُلغــــيَ لقــب الإمبراطــور "الرومــاني" عــلى يــد إمبراطــور آخــر هو نابليونَ الأول إمبراطـور فرنسـا الـذي فـرض عـلى فرانسـيس الثـاني هابسبورغ أن يأخذ لقب "إمبراطور النمسا" الأكثر انسـجاماً مـع المنـاطق التي كان يحكمها فعلاً. وتم حل الإمبراطورية الرومانية المقدسة رسـمياً في سنة ١٨٠٦.

حتى المعاصرون لم يعرفوا كيفية تحديد هذا الكيان. في وصف شـهير كتــب صــأمويل بوفنــدورف ســنة١٦٦٧ في كتــاب (*De statu imperii Germanici)* المنشور باسمه المستعار سيفيرينو مونزامبانو: «لقد زالـت، لـذا تعتبر جرمانيا جسداً بلا تهذيب مثل الوحش».

و قال عنها فولتير في وقت لاحق: «لـيس مقدسـة ولا رومانيـة ولا إمبراطورية»

- **الفـرق بـين الإمبـراطوريـة الكـارولـنجيـة والإمبـراطوريـة الرومانيـة المقدسة:**

الإمبراطوريـــة الكارولنجيـــة ذات صـــلة وثيقـــة بصـــورة مؤسســـها شارلمان وذريته الكارولنجيين وفتوحاته وعلاقته الخاصة مع البابوية.

ولــئن ظهــرت الإمبراطوريــة الرومانيــة الجرمانيــة (الإمبراطوريــة الرومانية المقدسة) منذ الفترة الكارولنجية، فإن فشلها في اسـتيعاب مملكـة فرنسا الأساسية حال دون أن تكون وريثاً، إن لم تكن على نفس قـدر التـاج الفرنسي.

و لكن اللقب الإمبراطوري ظل مستمراً بمعنــى معـين، ولـذلك في حساب الأباطرة يـُراد في بعض الأحيان أن يبدأ من شارلمان.

• إمبراطورية "رومانية"؟

من الناحية القانونية لم يبق من الإمبراطورية الرومانية التـي أسسـها الإمبراطـور أوغسـطس سـنة ٢٧ ق.م وقسـّمها ثيودوسيوس الأول إلى جزئين (٣٩٥) سوى جزءها الشرقي الذي ورث مكانة الجزء الغـربي بعـد خلع آخـر أباطرتـه رومولـوس أوغوسـتولوس (٤٧٦) مسـتعيداً وحـدة الدولة رسمياً. اعتبر سكان الإمبراطورية الشرقية أنفسهم روماناً، وسـموا دولتهم بمملكة الرومان.

كان تتويج البابا لاون الثالث لشارلمان إمبراطـوراً سـنة ٨٠٠عمـلاً يفتقر لصورة شرعية من الناحية القانونية: وحده إمبراطور الـروم الشرـقي هو من يتوج أي أحد يناظره في الغرب، لذلك نظرت القسطنطينية بفوقيـة وبعين الشك لذلك الفعل.

وبالرغم من ذلك، فإن التتويج البابوي له ما يـبرره مـن الناحيـة الرسمية لسببين:

١. حـُكم امرأة آنذاك للإمبراطورية البيزنطية وهي إيرين، هو أمـر باطـل بعيون الغربيين، ما خلق فراغاً في السلطة فاتحاً الطريـق أمـام انقلابـات محتملة (وفي الواقع لم يكن ممكناً للإمبراطورية البيزنطية آنـذاك التـدخل المباشر في أوروبا الغربية بأي حال).

٢. قضية أن البابـا أعلـن نفسـه الوريـث المبـاشر للإمبراطوريـة الرومانيـة مـُدعياً السلطة المؤقتة بفضل وثيقة تبرع القسـطنطينية(مزورة)، التـي يمنح قسطنطين الأول بموجبها مـُـلك مدينة روماوما تاخمها

٣. للبابا سيلفستر الأول؛ اعتُرف بتزوير الوثيقة في القرن الخامس عشر عبر الدراسة الفيلولوجية، ويبدو أنها كُتبت في القرن الثامن حين توجب على البابا المهدد بزحفاللومبارديين فرض سلطته. في تلك المناسبة قام بتتويج مماثل غير شرعي رسمياً كسابقه، متوجاً ببين القصير ملك الفرنجة، كشكر له على المعونة التي قدمها في الصراع مع اللومبارديين.

حاول الأباطرة الرومان-الألمان بشتى الطرق الحصول على قبول من البيزنطيين كنظراء لهم: عبر العلاقات الدبلوماسية أو سياسية أو الزواج أو بالتهديد. ولكنهم لم يحصلوا على النتائج المرجوة في كل مرة، لأن القسطنطينية كانت تدعوهم دائماً بـ"ملوك الألمان" ولم تدعهم أبداً بـ"الأباطرة".

ولئن كانت دعواهم بالتصرف كورثة للرومان مشكوك فيها قانونياً إلا أنها حققت بعض النجاحات التي لا تنكر، مثل استعادة القانون الروماني منذ منتصف القرن الثاني عشر، والذي عاد إلى الغرب من خلال أنشطة الجامعات ليحل محل كل أو معظم القوانين الجرمانية السارية منذ زمن الغزوات البربرية ومحل تلك القوانين الكنسية التي نشرتها المؤسسات الكنسية.

وهكذا، رغم البداية التي يحجبها سوء الفهم والأعمال المفروضة قانوناً، صارت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحدى أحجار الزاوية في المجتمع الأوروبي، وأثرت عميقاً بالأحداث عبر القرون.

• المؤسسات:

تميزت الامبراطورية منذ العصور الوسطى المبكرة بالصراع من أجل إبقاء الدوقات المحليين بعيداً عن السلطة، لم تتمكن الإمبراطورية أبداً من أن تُحكم السيطرة على الأرض التي تملكها رسمياً، خلافا لملوك الأراضي الإفرنجية الغربية والتي ستصبح فرنسا فيما بعد.

بينما كانت الإمبراطورية مضطرة منذ البداية لمنح مزيد من السلطات للدوقات المحليين على أراضيهم. وقد بدأت هذه العملية في القرن الثاني عشر وانتهت تقريباً مع صلح وستفاليا سنة١٦٤٨ . فشلت عدة محاولات لاستعادة العظمة الإمبراطورية الأصلية.

رسمياً كانت الإمبراطورية مستوعبة بين حاجة ملك ألمانيا لأن يتوج من قبل البابا (حتى عام١٥٠٨) من جهة والسمو الإمبراطوري (*Reichsstände*) من جهة أخرى.

• الملك الألماني:

شكّل تتويج شارلمان إمبراطوراً على يد البابا في عام ٨٠٠ مثالاً سار عليه الملوك اللاحقين: كانت هذه البادرة نتيجة لدفاع شارلمان عن البابا ضد تمرد سكان روما. ونشأ من هذا المشهد مفهوم أن الإمبراطورية هي المدافع عن الكنيسة.

و أن يصبح أحدهم إمبراطوراً يعني ضمناً أنه صار ملكاً ألمانياً. انتخب الملوك الألمان منذ زمن بعيد: في القرن التاسع من قِبل رؤساء أكبر خمس قبائل (الفرنجة والساكسون والالبايوفاريين والسويبيين والثورنغيين) وفي وقت

لاحق من قبل الدوقات الرئيسيين الكنسيين منهم والعلمانيين؛ وأخيراً فقط عبر من أَطلق عليهم اسمأمراء الناخبون. أُقر هذا الاجتماع رسمياً بموجب مرسوم الذهبي الصادر في ١٣٥٦ من رايشتاغ نورنبيرغ برئاسة الامبراطور كارل الرابع. في البداية الناخبون كانوا سبعة وتغير هذا العدد على مر القرون.

حتى عام ١٥٠٨، كان الملك المنتخب حديثاً: يقصد روما ليتوّجه البابا إمبراطوراً. وهذا الأمر في كثير من الحالات يستغرق سنوات عديدة لو أن الملك كان مشغولاً بأمور أخرى كقيادة الحروب.

لم يكن ممكناً بداً للإمبراطور أن يستأثر بحكم الإمبراطورية. فقد كانت سلطته محددة فعلياً بجهاز الإمبراطورية التشريعي وهو الرايشتاغ. وكان هذا تجمعاً معقداً يلتئم على فترات غير منتظمة وفي أماكن مختلفة بناءً على طلب من الامبراطور. فقط بعد سنة ١٦٦٣ أصبح الرايشتاغ تجمعاً دائماً.

- **السمو الإمبراطوري:**

كيان كان يعتبر رتبة إمبراطورية، إن وفقاً للعادات الإقطاعية فليس هناك سلطة أعلى منها غير الإمبراطور نفسه. فقط هؤلاء من كانوا يجلسون في الرايشتاغ، وكانوا مع اختلافات كبيرة عبر القرون:

- ❃ الأقاليم التي يحكمها أمير أو دوق أو حتى من ملك كما في بعض الحالات (مثل بروسيا فيما بعد).
- ❃ الأقاليم الكنسية التي يحكمها أسقف أو أسقف كونت.
- ❃ الفرسان الإمبراطوريون.
- ❃ المدن الإمبراطورية الحرة.

عدد الأقاليم كبير بصورة مذهلة، حيث بلغ عدة مئات في زمن صلح وستفاليا. من ضمنها العديد لم تزد مساحته عن بضعة أميال مربعة. لذلك وصف العديدون الإمبراطورية بأنها كالفسيفساء.

التاريخ:

من الفرنجة الشرقيين حتى صراع التعيينات:

يعتبر العام ٩٦٢ عموماً التقدير الأقصى لسنة تأسيس الإمبراطورية على يد أوتو الأول العظيم إلا أن البعض يفضل ربط بداية الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتتويج شارلمان إمبراطوراً للرومان في سنة ٨٠٠، وكان الباقون يسمون شارلمان نفسه ملك الفرنجة. كما أن اللقب يوضح أن الإمبراطورية الكارولنجية كانت تغطي مساحة تشمل فرنسا وألمانيا الحاليتين، إذا كانت على قاعدة تشكيل كلا البلدين.

لذلك ترى غالبية المؤرخين أن قيام الإمبراطورية هي العملية بدأت بتقسيمالإمبراطورية الكارولنجية بموجبمعاهدة فيردان سنة ٨٤٣، مع استمرار سلالة الكارولنجيين بطريقة مستقلة في الأجزاء الثلاثة. كان الجزء الأكثر شرقية من نصيب لودفيش الجرماني وقد خلفه الكثير حتى وفاة لودفيش الرابع الملقب ب"الطفل" آخر كارولنجي الجزء الشرقي.

انتخب دوقات ألامانيا وبافاريا وفرنكونيا و ساكسونيا كونراد الأول الإمبراطور الروماني المقدس للفرنجة وهو غير كارولنجي زعيماً لهم في سنة ٩١١. رضي خلفه هاينريش الأول (٩١٩ - ٩٣٦) الساكسوني

بإمبراطورية شرقية منفصلة عن تلك الغربية الإفرنجية (ما يزال يحكمها الكارولنجيون) في سنة ٩٢١ مطلقاً على نفسه لقب ملك *الفرنجة* الشرقيين (*rex Francorum orientalium*).

عين هاينريش ابنه أوتو خلفاً له والذي كان قد انتخب ملكاً بآخن سنة ٩٣٦، ثم توج إمبراطوراً في سنة ٩٦٢ باسم أوتو الأول (عرف بالعظيم فيما بعد) وقد قام بخطوة مهمة نحو الإمبراطورية (وليس نحو مملكة الفرنجة الشرقيين المتبقية الأخرى من المملكة الإفرنجية) بمباركة من البابا. كان أوتو قد حقق الكثير قبل استلمه السلطة، حين انتصر على المجريين في معركة لشفيلد سنة ٩٥٥.

يُشار إلى التتويج في الأدب المعاصر واللاحق كانتقالة للإمبراطورية. كانت الأسطورية المستنبطة أن إمبراطوريةً واحدةً كانت ولا تزال قائمة. تعتبر أنها ابتدأتبالإسكندر الأكبر ومرت بالروم ثم من الفرنجة آلت أخيراً إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (وهذا ما يُفسر تسميتها بالرومانية). واعتبر الأباطرة الألمان الخلفاء المباشرين للأباطرة الرومان، ولهذا السبب أعطوا في البداية لقب أوغوسطوس. في البداية لم يسَمَى الأباطرة بعد بال"رومان"، ولعل ذلك تحاشياً للصراع مع الإمبراطور الروماني الذي ما زال موجوداً في القسطنطينية. وأصبح

مصطلح الإمبراطور الروماني (*Imperator Romanorum*) شائعاً فقط بعد عهد كونراد الثاني.

في ذلك الزمن، لم تكن المملكة الأكثر شرقية "ألمانية" بقدر ما كانت كونفدرالية للقبائل الجرمانية القديمة البايوفاريون والسويبي- ألامانيون و الفرنكونيون و ساكسون. وربما بقيت الإمبراطورية على قيد الحياة كاتحاد سياسي الوحيد فقط بفضل قوة شخصية ونفوذ هاينريش الساكسوني وابنه أوتو. مع ذلك وإن كانوا قد انتخبو رسمياً من قبل رؤساء القبائل الجرمانية، فإنهم في الواقع كانوا قادرين على أن يعينوا من يخلفهم.

تغير هذا بعد وفاة هنري الثاني دون أبناء في سنة ١٠٢٤، وانتخب كونراد الثاني أول السلالة السالية ملكاً في العام نفسه بعد بضع جلسات فقط. يبدو أن اختيار الملك كان مزيجاً معقداً من النفوذ الشخصي والصراعات القبلية والميراث والتزكية من قبل الزعماء المدعوون لتشكيل اجتماع الناخبين الكبار.

توضحت بالفعل في ذلك الوقت الثنائية بين الأقاليم، تلك التي للقبائل القديمة المتأصلة في أراضي الفرنجة، والملك الإمبراطور. فضل كل ملك قضاء معظم وقته في أراضيه. هذه الممارسة لم تتغير إلا عهد أوتو الثالث الملك في سنة ٩٨٣ والإمبراطور بين عامي ٩٩٦ و١٠٠٢، والذي بدأ في استخدام المقار الأسقفية المنتشرة بالإمبراطورية كمقار مؤقتة للحكومة. يبدو أن حتى خلفائه هنري الثاني، كونراد الثاني وهنري الثالث قد تمكنوا من ربط الدوقات بالأراضي. لذا لم يكن مصادفة أن تتغيير المصطلحات آنذاك وتظهر إرهاصات مصطلح المملكة التوتونية (*Regnum Teutonicum*).

تلاشى مجد الإمبراطورية تقريباً في صراع التعيينات، الذي حرم خلاله البابا غريغوريوس السابع هنري الرابع كنسياً (الملك سنة ١٠٥٦ والإمبراطور بين عامي ١٠٨٤ و١١٠٦).

وعلى الرغم من إزالة الحرمان بعد رحلته إلى كانوسا سنة ١٠٧٧

إلا أن ذلك كانت له انعكاسات بعيدة المدى. في ذات الوقت انتخب الدوقات الألمان رودولف شوابيا ملكاً آخر، وتمكن هنري الرابع من هزيمته في سنة ١٠٨٠ بعد ثلاث سنوات من الحرب. لقد تضررت الجذور الأسطورية للإمبراطورية إلى الأبد بإذلال الملك الألماني. والأهم من ذلك أن الكنيسة صارت لاعباً مستقلاً على ساحة الإمبراطورية.

• الإمبراطورية الروماني في ظل آل هوهنشتاوفن:

صعد أول أباطرة سلالة هوهنشتاوفن (كانوا دوقات شوابيا) كونراد الثالث العرش سنة ١١٣٨، بالفترة التي شهدت استعادة مجد الإميراطورية في ظل ظروف اتفاق فورمس الجديدة. كان فريدريك الأول بربروساثاني سلالة هوهنشتاوفن (ملكاً في سنة ١١٥٢ وإمبراطوراً من عام ١١٥٥ حتى ١١٩٠) أول من دعى الإمبراطورية ب"المقدسة" ولطالما وجه التشريع بهذا المنحى.

كما عادت فكرة "الرومانية" لتتنامى في عهد فريدريك الأول، في محاولة على ما يبدو لتبرير السلطة الإمبراطورية المستقلة عن البابا. برر اجتماع إمبراطوري في حملات رونكاليا سنة ١١٥٨ صراحة القوانين الامبراطورية من خلال رأي (*quattuor doctores*)

للهيئة جامعة بولونيا القانونية الجديدة التي استخدمت عبارات مثل : الأمير لا يخضع لقانون (*princeps legibus solutus*) المؤخوذة من قانون (*Corpus iuris civilis*). إن ما وضعه المشرعون الرومان لنظام مختلف تماماً ولا يتوافق أبداً مع بنية الإمبراطورية كان يعتبر ثانوياً جداً، في هذه اللحظة حاول بلاط الإمبراطور التشريع لنفسه.

القوانين الإمبراطورية تم الإبلاغ لنا المصطلح العام الفخمة حتى صراع التعيينات، ولكن وردت لأول مرة في رونكاليا. وتشمل هذه القائمة والطرق العامة، والتعريفات، وإصدار عملة، وجمع الضرائب والعقابية تعيين واقالة المسؤولين. هذه الحقوق المتأصلة في ساعة صراحة القانون الروماني، مثل القانون الدستوري، وهذا النظام الآن مرتبطة القانون الإقطاعي، ولعل أبرزها تغيير الانسحاب من خصومات هاينريش الأسد في ١١٨٠، والتي أدت إلى الحرمان الكنسي. فردريك، وذلك لبعض الوقت، تحاول ربط على نحو أوثق مع الامبراطور الدوقات الألمان المتمردين ككل.

كان إنشاء صلح جديد (سلام الأرض) في جميع أنحاء الإمبراطورية حدث دستوري هام آخر في بلدة رونكاليا، فلم يكن ذلك محاولة لإلغاء قوانين الأخذ بالثأر بين الدوقات المحليين فحسب، وإنما أيضاً لربط أتباع الإمبراطور بنظام قضائي ومكافح للجريمة وهو مفهوم لم يكن مقبولاً في كل أنحاء العالم آنذاك.

منذ ذلك الحين، بعد صراع التعيينات، الامبراطـور لم يعـد يسـتطيع الاعتماد على الكنيسـة عـلى التمسـك بالسـلطة، وبشـكل متزايـد شـتاوفن فريدريك الأراضي الممنوحة للمسؤولين عـن أملـه في أن يكـون أكثـر مـن المناورة المحلية الدوقات. في البداية استخدمت أساساً للحرب، هذه سوف تشكل الأساس لفئة من فرسان المستقبل، ودعم آخر للامبريالية.

آخر المفهوم المبتكر للمرة كان الأساس المنهجي من المـدن الجديـدة، من جانب كل ذلك الجزء من الامبراطور المحلية الدوقات. ويعـزى ذلـك في جزء منه إلى الانفجـار مـن السـكان، ولكـن أيضـاً عـلى ضرورة تركيـز السلطة الاقتصادية في مواقع إستراتيجية، وحتى ذلك الحين المدن الوحيـدة القائمة هي أساس الرومانية القديمة أو أقدم الأسـقفية المواقـع. مـن بـين المدن التي تأسست في القرن الثاني عشر فرايبـورغ إم برايسـغاو، النمـوذج الاقتصادي لكثير من لاحقة، وميونخ.

اللاحقة للحكم هوهنشتاوفن، فريدريك الثاني، وكـان في كثـير مـن وسـائل مختلفـة مـن الـذين سـبقوهم. ولا يـزال الطفـل في البدايـة سادت صقلية، بينما في ألمانيا، ابن فريدريك الأول بربروسـا، فيليـب دوق شوابيا وأوتو الرابع في منافسة معه عـلى لقـب ملـك ألمانيـا. بعـد أن تـوج الامبراطور، ١٢٢٠، وخطر الصراع مع الباباادعت سلطة رومـا؛ مذهلـة حتـى بالنسـبة للكثـيرين،في ظـل القـدس في الحملـة السادسـة الصليبية لعام ١٢٢٨في الوقت الذي كان لايزال محروماً من قبل البابا.

بينما فريدريك الثاني في الشعبية الأسطورية للفكرة، في وقت واحـد يجعل الخطوة الأولى في العملية التي أدت بعد ذلك إلى التفكك. على ناحية

التركيز على إقامة دولة في صقلية حديثة للغاية في ذلك الزمن، الخدمات العامة والنظام المالي والنظام القضائي. وعلى الجانب الآخر فيديريكو وكان الامبراطور الذي يمنح القوى الكبرى إلى الألمانية الدوقات في "امتيازين" اثنين لم يكن ممكناً لسلطة المركزية التراجع عنهما. في ١٢٢٠ فرديريك حد كبير الأساقفة نقل إلى عدد من الامبراطورية الإنسان (الفخمة)، بما في ذلك إنشاء الرسوم والنعناع وقطع نقدية، وإقامة التحصينات. في ١٢٣٢ توسعت كثيراً هذه الحقوق إلى

الأقاليم الأخرى. على الرغم من أن العديد من هذه الامتيازات التي كانت موجودة من قبل، على الأقل أنها لا تمنح بشكل عام ونهائي، للسماح للحفاظ الدوقات من أجل شمال من جبال الألب فريدريك حين يريد التركيز على وطنه، لإيطاليا. في وثيقة مؤرخة في ١٢٣٢، لأول مرة، ودعا الألمان أصحاب الأرض، وتغيير كبير آخر.

الفصل الرابع عشر
الإمبراطورية والمسيحية

أولاً –موجز عن الامبراطورية الرومانية:

يعتبر قيام الامبراطورية الرومانية أعظم الانجازات السياسية التي تمت في التاريخ، حيث تبدو انتصارات الاسكندر الأكبر وشارلمان ونابليون ضئيلة، بالمقارنة بالبناء المتين الذي أقامه يوليوس قيصر وخليفته أوغسطس. كان يوليوس قيصر، الذي يعتبر من بعض الوجوه أعظم رجل أنجبته روما، هو مؤسس الامبراطورية، كما كان أوغسطس قيصر هو أول الأباطرة العظام. ولكن كانت الامبراطورية الرومانية نتاج عملية طويلة من النمو السياسي والدستوري والاجتماعي، مما يضفي على تاريخ روما أهمية عظمى، فكانت الامبراطورية الرومانية هي الحل الوحيد الممكن لصراع دام نحو سبعمائة عام. فتاريخ روما هو قصة صراع طبقة ضد طبقة أخرى، طبقة النبلاء ضد طبقة عامة الشعب، صراع الأقلية ضد الأكثرية، صراع حكومة الأثرياء ضد جموع الشعب المهملة. إنها قصة المسيرة المنتصرة للديمقراطية، والحكومة الشعبية ضد الحكم المطلق لطبقة النبلاء. فلقد أصر عامة الشعب – رغم كل الفروق الهائلة – على المطالبة بحقوقهم، حتى نالوا أخيراً قدراً من المساواة الاجتماعية والسياسية والقانونية مع سادتهم. ولكن الصراع الطويل أضعف كلا الفريقين حتى لم تعد، لا الأكثرية المناضلة، ولا الأقلية المستبدة، بقادرتين على تحقيق التوازن العادل. فقد انتصرت الديمقراطية في الصراع، لكنها خسرت نفسها واضطرت إلى قبول سيد

عام على رأس الأرستقراطية. ولم يكن الأمر قليل الأهمية بالنسبة للمسيحية، فقد كانت الامبراطورية الرومانية تخطو عملياً – لأسباب داخلية وأخرى خارجية – نحو حكومة الرجل الواحد، وهو المقابل السياسي للديانة الشاملة التي تنادي "بالله الواحد والمخلص الواحد".

ثانياً– الامبراطورية الرومانية تمهد للمسيحية:

حوالي منتصف فترة حكم أوغسطس قيصر ، وُلد طفل يهودي، كان من المقرر أن يملك على إمبراطورية أكبر إتساعاً، وأطول بقاء من إمبراطورية القياصرة . إنها لحقيقة مذهلة أن يتواكب – تقريباً – قيام الإمبراطورية الرومانية مع ظهور المسيحية. ومع أنه يبدو للنظرة السطحية، أن الامبراطورية الرومانية بدت كأكبر عدو للمسيحية في عهدها الأول، بل وكانت في بعض الأحيان أعتى مضطهد لها، إلا أن الامبراطورية الرومانية كانت – من وجوه كثيرة – أعظم تمهيد للمسيحية، بل – وفي بعض الجوانب – أفضل حليف لها، فقد كانت الامبراطورية – من وجهة النظر السياسية – إعلاناً بحلول "ملء الأزمنة" فإن القياصرة – مهما كانوا، ومهما فعلوا – قد أعدوا الطريق للرب. ولا بد أن نقدم هنا موجزاً لبعض الخدمات التي قدمتها الامبراطورية الرومانية للبشرية بعامة، ولملكوت الله بخاصة.

١. السلام الروماني وتوحيد العالم:

كانت أول خدمة أدتها الامبراطورية الرومانية للعالم هي استتباب الأمن والسلام، فلم يكن في العالم سلام منذ أيام الاسكندر الأكبر، بل كانت الصراعات الداخلية والغزوات الخارجية سبباً في استمرار حالة من الغليان،

وتم ارساء أسس السلام العالمي عندما أمسك أوغسطس قيصر بزمام الحكم، فاستقرت الأحوال في بلاد الامبراطورية من بريطانيا شمالاً إلى نهر الفرات شرقاً. لقد وضعت روما نهاية لحروبها الأهلية، كما أوقفت جميع الحروب بين شعوبها، ورغم أن حروبها كانت في بعض الأحيان جائرة وبلا مبرر، كما تصرفت في بعض غزواتها تصرف البرابرة، إلا أنها كانت تحكم الشعوب التي أخضعتها حكماً يتميز بروح إنسانية. انتهت الصراعات الداخلية التي سببت الكثير من الغليان في الشرق، فأصبحت كل مناطق أسيا الصغرى وبلاد الشرق الأوسط خاضعة لروما، وهكذا وحدت الامبراطورية الشعوب اليونانية والرومانية واليهودية تحت حكم واحد، ومزجت هذه الشعوب معاً وأعدتهم للمسيحية، حيث أمكن آنذاك فقط ، الحديث عن العالم كوحدة : "كل المسكونة" (لو ٢ : ١) التي تحكمها حكومة واحدة، فقد صار الجميع أعضاء في دولة عالمية واحدة، هي الامبراطورية الرومانية التي تظلل الجميع بشعار النسر الروماني.

٢. العالمية والتحرر من القيود القومية:

لقد ساهمت الأوضاع الجديدة في التحرر من القيـود القوميـة، ذلـك التحرر الذي بـدأ بفتوحـات القائـد المقـدوني، فقـد زالـت – تحـت علـم الإمبراطورية الرومانية– كل الحواجز القومية، وصارت المـدن الكـبرى – مثل روما والاسكندرية وأنطاكية وغيرها - أماكن التقاء لكـل الأجنـاس واللغات. فقد حمل الرومان – أينما توجهوا – قـوانينهم وحضـارتهم، كـما استقر الإغريق بالآلآف في كل المراكز الهامة كأساتذة بالآلاف وتجار وأطباء ورياضيين. كما

نزحت أعداد ضخمة من أهل الشرق ومعهم آلهـتهم وأسرارهـم إلى روما التي أصبحت صورة مصغرة للعـالم. وأصـبح الجنـود – في الجيـوش الرومانية، من كل أركان الامبراطورية – رفقاء سلاح وأصدقاء. كما أسهم الآلاف من العبيد من ذوي التعليم والثقافة الرفيعـة، في حركـة التحـرر؛ لأنهم في كثير من الأحوال كانوا أرفع ثقافـة مـن سـادتهم، فأصـبحوا لهـم معلمين. كما أنه في كل مدينة هامة –شرقاً أو غرباً– استقرت جماعات كبيرة من شتات اليهود.

٣. انتقاء الأفضل (Electicism):

كانت هذه العالمية دافعاً كبيراً لتغير أفضـل الأفكـار، ولم يكـن ثمـة شئ أفضل للمسيحية مـن هـذا الانصـهار بـين جميـع الأجنـاس، وتبـادل الأفكار. فقد اكتشف كل شعب الأشياء التي يشترك فيها مع جيرانه. ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد، والرواقيون ينادون ببشارة الأخوة المدنية والأدبية

بين كل البشر. وبإنصهار النظم الفلسفية المختلفة، انتقل الاهتمام بالنظرة القومية إلى الاهتمام بالنظرة الأخلاقية والأدبية والإنسانية، وهكذا أصبح الجميع متساويين أمام "الواحد"، ولم يعد ثمة فرق إلا من جهة الفضيلة والرذيلة، واقترب الناس إلى "الإله" الحكيم الصالح، حتى قال أحد الشعراء: "إننا ذريته".

كما عمل شتات اليهود على إعداد الفكر في الامبراطورية الرومانية للمسيحية، فقد تعلَّم اليونانيون من اليهود، واليهود من اليونانيون، وتعلَّم الرومانيون من كليهما. كما ساعد القانون الروماني، والادارة الرومانية شتات اليهود مساعدة كبيرة، وازداد عدد المستوطنات اليهودية واكتسبت قوة في كلا القسمين الشرقي والغربي، من الامبراطورية. وقد أتى اليهود من بلادهم بعبادة

الإله الواحد ممتزجة بالفلسفة اليونانية التي كانت تسير فعلاً نحو عبادة الله الواحد، وهكذا كانت الطقوس الوثنية آخذه في الأفول.

لقد تكلم اليهود بلغة العالم في ذلك العصر، وهي اليونانية، وترجموا أسفارهم المقدسة إلى اليونانية، وبها كسبوا الكثير من الدخلاء. وكانت الروح الرومانية في البداية ضعيفة، ولكن سرعان ما انضوى الرومانيون تحت هذا الاتجاه العالمي واختيار الأفضل. وبإزدياد فتوحاتهم اتسعت عقولهم، واعتنقوا سياسة الاسكندر في الاحتفاظ بآلهة الشعوب المهزومة، وجعلوها تحت حماية روما، وضموها إلى مجتمع آلهتهم. وبهذه الطريقة كان من الطبيعي أن تسيطر الأفكار الوثنية للشعوب المهزومة –وقد كانوا أكثر ثقافة وأعرق حضاره– على عقول الرومانيون.

٤. **حماية الثقافة اليونانية:**

كانت الخدمة الجليلة الأخرى التي أسدتها السلطات الرومانية للبشرية وللمسيحية، هي الحماية التي أضفتها روما على تراث الحضارة اليونانية. ويجب أن نذكر أن الرومانيين لم يكونوا في الأصل إلا قبائل متبربرة غازية لا تعني كثيراً بالثقافة، بل كانت القوة هي مثلهم الأعلى. وكانوا قد قضوا بالفعل على حضارتين عريقتين رفيعتين، هما: حضارة قرطاجنة في شمال أفريقية، دون أن يتركوا لها أثرًا – وحضارة " إترووريا " (*Etruria*) في إيطاليا التي اكتشفت– في الأزمنة الحديثة – بعض أثارها وبقاياها. ومن الصعب إدراك ما كان يمكن لروما الجبارة أن تفعله بالعالم، لو لم تقع تحت تأثير ثقافة اليونان الراقية وفلسفتهم الرفيعة. ولو أن إله الحرب الروماني "مارس" لم تهذبه الحكمة

الإغريقية "بالاس أثينا" (*Pallas Athene*) لفعل ما فعله الوندال والتتارمن القضاء على الحضارة الإنسانية، ووقف تقدم البشرية. أما الإغريق –من جهة أخرى– فقد أمكنهم أن يغزوا، عن طريق التفوق في كل شئ مرتبط بالحياة العقلية للإنسان، أكثر من قدرتهم على الغزو بالسيف. وكان الفكر اليوناني في حاجة إلى قوة عملية وسياسية لحمايته. فالرومانيون بعد أن تسببوا– في البداية– في الكثير من الخراب، تعلَّموا شيئاً فشيئاً، وتحضروا وأسهموا في ازدهار الحضارات التالية، بأن حفظوا وكشفوا للعالم كل الخصائص الروحية للإغريق، وأخذت صلة الإنسان بالاله – التي عرفوها من سقراط وأفلاطون – تنتشر إلى أوسع مدى. وقد

استفاد الكثيرون من عظماء اللاهوتيين وقادة الكنيسة المسيحية، من حضارة الاغريق، وفلسفاتهم وعلومهم اللاهوتية، حتى قال أكليمندس السكندري إن الفلسفة اليونانية والشريعة اليهودية، كانتا المعلم الذي أتى بالعالم إلى المسيح. كما أن الرسول بولس – الذي خرج بالمسيحية من البقاء حبيسة الحظيرة اليهودية، ونادى بشمولها لكل الناس– تعلَّم الكثير من الفكر اليوناني وبخاصة من الرواقيين. ومما يسترعي الالتفات أن الإرساليات المسيحية الأولى ذهبت فقط إلى الشعوب التي تتكلم اليونانية، وهو ما كان واقعاً في كل مراكز الامبراطورية الرومانية.

٥. **اللغة**:

كانت الأحوال في الامبراطورية الرومانية من جهة اللغة على أفضل ما يكون لنشر المسيحية. وقد أمكن للجمهوريات اليونانية – بأعمالها ومشروعاتها وعبقريتها الرائعة وامكاناتها التجارية – أن تنشر لهجاتها اليونانية في كل جزر

بحر إيجة وسواحل أسيا الصغرى وصقلية وكل الأقاليم اليونانية. ومن هذا الكم الكبير من اللهجات اليونانية، نشأت أخيراً لغة يونانية عامة (*Koine*). ومع انتصارات الاسكندر الأكبر أصبحت هذه اللغة الاغريقية هي اللغة الشائعة فكانت معروفة في شمالي الهند وفي بلاط فارس، وعلى سواحل البحر الأسود البعيدة علاوة على البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، فكان الموطن الأصلي للإنجيل (بلاد اليهودية) محاطاً من كل الجهات بالحضارة اليونانية. بل قد تغلغلت الثقافة اليونانية واللغة اليونانية في

وسط يهود فلسطين العنيدين والمحافظين على هويتهم. ورغم أن اليونانية لم تكن هي اللغة الأصلية لربنا يسوع المسيح، إلا أنه على ما يبدو لنا، كان يعرفها ويتحدث بها متى اضطر إلى ذلك، أما لغته التي كان يتكلم ويعلّم بها فكانت الأرامية. وتاريخ صراع المكابيين يقدم لنا دليلاً قوياً على مدى انتشار الثقافة اليونانية واللغة اليونانية بين اليهود. وفى الأيام الأخيرة لأورشليم ذاتها، كان فيها جماعات هيلينية من يهود أتقياء، وكانت اليونانية لغة عالمية عند اليهود أنفسهم. وكان النقش المكتوب على جدار الساحة الخارجية للهيكل لتحذير الأمم – تحت التهديد بعقوبة القتل – مكتوباً باللغة اليونانية.

وأصبحت اللغة اليونانية (*Koine*) هي اللغة الشائعة بين شتات اليهود، فقد أدرك اليهود مزايا اللغة اليونانية كلغة للتجارة – التي هي وظيفة اليهود الرئيسية – وللثقافة ولإكتساب دخلاء. وقد نشروا الأسفار المقدسة بالترجمة السبعينية في العالمين اليوناني والروماني. وعندما ظهر الرومانيون، وجدوا هذه

اللغة معروفة جداً وواسعة الإنتشار ومتأصلة الجذور، فلم يأملوا في إحلال لغتهم محلها، بل لم يحاولوا ذلك ، في الحقيقة إلا في صقلية وجنوبي إيطاليا، وبالتدريج رحبوا بها واستخدموها وسيلة للاتصال بين الشعوب في المناطق الشرقية الخاضعة لهم.

ومع أن اللاتينية كانت – بالطبع – لغة الغزاة الرسمية، فقد كان الحكام – بعامة – يصدرون أحكامهم وقراراتهم باللغة اللاتينية ومعها ترجمتها باليونانية حتى يقدر الشعب أن يفهمها. وكثيراً ما شكا الشعراء والمؤرخون اللاتينيون من أن اليونانية قد تغلبت على لغة الرومانيين المنتصرين. وبإنتشار اللاتينية أصبحت هناك لغتان عالميتان جنباً إلى جنب في كل أقطار الامبراطورية الرومانية، ولكن كانت اللغة اليونانية هي اللغة السائدة في النصف الشرقي من الامبراطورية، وهو الذي كان التربة الأولى التي أنتشرت فيها المسيحية. وعندما مدت المسيحية نشاطها إلى الغرب، وجدت في اللاتينية وسيلة جاهزة للتفاهم والاتصال. واحترام الرومان للغة اليونانية أمر يدعو للتقدير، فقد كان ذلك لفائدة المسيحية، لأنها عندما بدأت تتجه نحو العالم تخلت عن الأرامية –لغتها الأصلية – لكي يصبح الإنجيل إنجيلاً للعالم كله، تمت ترجمته إلى اليونانية، ولم يضطر المبشرون المسيحيون الأوائل إلى تعلم لغات أو ألسنة، بل كفتهم اليونانية تلك المشقة. وقد كتب الرسول بولس باليونانية إلى الكنيسة في روما ذاتها، فقد كانت اليونانية شائعة فيها. وبينما كانت المسيحية تنتشر في الشرق اليوناني الذي ربطت بين أجزائه الادارة الرومانية، كان الرومان يمهدون الطريق إلى الغرب ويعدونه للمسيحية.

٦. الأحوال في الامبراطورية :

لقد فتحت الامبراطورية الرومانية أمام المسيحية الطرق الكبرى التي سار فيها الرسل والمبشرون. فشبكة الطرق العظيمة التي كانت تربط العالم المتحضر آنذاك، لم تخدم الجيوش الرومانية والحرس الامبراطوري فحسب، بل أدت نفس الخدمة للارساليات التبشيرية الأولى. وعندما بدأت الكنائس تنشأ في كل جهات الامبراطورية، سهَّلت هذه الطرق تنظيم الكنائس والاتصالات فيما بينها، مما دعم الكنيسة وجعلها تتغلب أخيراً على الامبراطورية ذاتها. وعندما استتب السلام في ربوع الامبراطورية، ازدحمت كل هذه الطرق بحشود من القوافل والتجار، فانتعشت التجارة تحت ظروف أفضل من قبل، ولم يتبادل الناس الأشياء المادية فحسب، بل والأشياء الروحية أيضاً. وكان الكثيرون من التجار والصناع من المسيحيين، وبينما كانوا يبيعون ويشترون الأشياء الفانية، لم تفتهم الفرصة لنشر الإنجيل. وكان البحر – بالنسبة لامبراطورية تحتضن كل شواطئ البحر المتوسط – وسيلة هامة للاتصال، بعد أن أصبحت طرق التجارة البحرية في البحر المتوسط أكثر أماناً عنها في أي فترة سابقة، فقد طرد "بومبي الكبير" القراصنة من البحر، وعند سقوط سكتوس بومبي لم يكن ثمة قوة بحرية معادية. وقد أدت السفن التي كانت تروح وتجيء، بأعداد لا حصر لها في ذلك البحر الروماني – خدمات رائعة وفرصاً عظيمة للخدمات التبشيرية المسيحية الأولى .

٧. التسامح:

كان للقدر الكبير من الحرية الذي سمحت به السلطات الرومانية لمختلف الديانات ، فضل في نمو المسيحية الوليدة . فلم يكن من سياسة الامبراطورية –في بداية الأمر – اضطهاد الديانات، أو إنشاء محاكم تفتيش. وقد ازدهرت عبادات غريبة كثيرة، وافدة من الشرق ومن مصر، في العاصمة. وما لم تصبح هذه العبادات خطراً على الفضيلة العامة أو على سلام المجتمع، فإنه كان مسموحاً لها بالانتشار دون مساءلة، بل وتحت أعين الشرطة.

٨. النموذج لكنيسة جامعة :

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الامبراطورية الرومانية قد قدمت للمسيحية صورة ظاهرة للطموح الروحي ، فوسعت الرؤية أمام الكنيسة. فكان في إمكان بولس– كمواطن في امبراطورية عالمية – أن يحلم بديانة تضم كل البشرية، فإن كان سيف الرومان قد استطاع أن ينتصر ويوحِّد كل المسكونة ، فيجب على الكنيسة المجاهدة ألا يكون سعيها في الدائرة الروحية، بأقل من ذلك. كما استمد منها المسئولون الأوائل الكثير من الأفكار في تنظيم المجتمع الجديد، حتى صارت الكنيسة المسيحية - فيما بعد - صورة من الامبراطورية الرومانية. وقد استخدم المسيحيون الكثير من أسلحة العدو، وتعلموا منه أساليب الهجوم، والدفاع، وقيمة التنظيم الشامل.

٩. التشريع الروماني:

تميز القانون الروماني في أصوله بأضيق الاستثناءات. وقد صيغ أول قانون روماني رسمي حسب الأنماط اليونانية، إلا أن الرومان – هنا كما في أمور أخرى كثيرة – طوَّروا ما استعاروه وصاروا أساتذة التشريع في العالم القديم. ومع

اتساع امبراطوريتهم ومفاهيمهم، أعادوا صياغة قوانينهم لتطبق على كل رعاياهم. وكان من أعظم الخدمات التي أسدتها الإمبراطورية الرومانية للعالم القديم هي النظام المتناسق لقوانين صالحة، حتى صارت مصدراً لمعظم القوانين في العالم الحاضر. وقد لعب القانون الروماني دوراً يضارع في الأهمية دور الشريعة اليهودية، في صياغة النظم المسيحية. فقد علَّم الناس الطاعة واحترام السلطات، وبرهن على أنه قوة فعالة للتحضر والمساواة في أرجاء الإمبرطورية.

١٠. التمهيد سلبياً:

قدمت روما لرعاياها قوانين ممتازة وحكومة نظامية، وحماية عسكرية، ولكنها لم تقدم لهم ديانة مقنعة، وكانت الامبراطورية العالمية في حاجة إلى ديانة عالمية لم تجدها إلا في المسيحية. وهكذا ليس فقط بما أمكن للرومانيين أن يتمموه، بل بما لم يتمموه أيضاً صار الطريق ممهداً أمام الرب، وأصبح الشعب مهيأً لمجيئه. لقد أثبتت الديانات القومية القديمة أنها غير قادرة على اشباع الحاجات المتزايدة لطبيعة الإنسان روحياً وأدبياً، وكان الإفلاس الأدبي بارزاً. لقد انحدرت الديانة الرومانية القديمة من فضائل

مجردة إلى مجرد شكليات ولم يعد الإنسان يجد في ديانة الدولة مجالاً لنشاطه الروحي. فهو لم يعد مجرد ذرة في المجتمع، يقوم بطقوس دينية، ليست لصالح روحه، بل لصالح المجتمع. وكانت شخصية الفرد آخذة في البروز ببطء، كما دعت المدارس الفلسفية الجديدة الإنسان للبحث عن السلام مع الله – بعيداً عن الدولة – في عزلة بنفسه قبل كل شئ . إلا أنه حتى أفضل تلك المدارس وجدت أن الحاجة ملحة وصارخة إلى ديانة إيجابية، لا سلبية. الحاجة ماسة إلى حياة مثالية كاملة حية متحركة، فوق

حياة البشر العادية. وهكذا أحس الناس بشديد الحاجة إلى إعلان جديد، إلى رؤية جديدة أو إلى معرفة صحيحة بالله. وأعتقد الناس في الأيام الغابرة أن الله قد أعلن ذاته للأولين من الحكماء أو الأبطال من أسلافهم، لذلك يجب على الأجيال التالية أن تقبل بالإيمان ما نادى به أولئك الراءون الأولون الذين كانوا أقرب إلى الله – كما قال شيشرون –ولكن سرعان ما نفذ هذا الكم من المعرفة، فإن أفلاطون بعد أن حلَّق إلى الذروة في الفكر الفلسفي والشعري عن الإله، اعترف بالحاجة إلى شيطان أو إنسان خارق للعادة (سوبر مان) ليفضي إلينا بأسرار الأبدية.

وفي بداية عصر الامبراطورية الرومانية بدأت فترة من القلق والاضطراب الديني واسع المدى، وحاول الناس أن يجدوا لهم في الفلسفة والسحر والتنجيم والطقوس الغريبة، مكاناً اميناً يستريحون إليه. وكان هذا سبب الانتشار السريع المكثف للأسرار الشرقية التي وعدت العلاقة المبتدئة مع الله هنا، برجاء أفضل عند الموت، وأرضت الرغبة الملحة في

الخلود في نهاية الزمان. وكانت هذه هي النفوس الجادة المستعدة لإستقبال الأخبار الطيبة عن يسوع بفرح، أما الآخرون فكانوا قد فقدوا كل إيمان بجميع أشكال الدين، وأسلموا أنفسهم ليأس قاتل واعتنقوا الأبيقورية التي كانت تبشر بالفناء والانتهازية. كان لهذا النمط من التفكير سحر رهيب على من أوصلهم اليأس إلى حالة من الضياع. ونرى ذلك بصورة قوية في شعر لو كريتيوس (*Lucretius*) أي عمر الخيام في الأدب اللاتيني – وآخرين غيره، فإذ لم يقدروا أن يجدوا الله أسلموا أنفسهم لفلسفة الشك القاتلة. وتتأكد الحاجة الماسة إلى إنجيل جديد للحياة والخلود، من قراءة

النقوش اليونانية والرومانية المنقوشة على القبور في ذلك العصر. بل إن "سينكا" – الذي كاد أن يكون مسيحياً في بعض النواحي – تحدث عن الخلود "كحلم جميل". ولم يكن لدى "سيرفيوس سولبيشيوس" (*Servius Sulpicious*)، وهو يكتب رسالة لشيشرون لتعزيته في موت "توليا" (*Tullia*) التي افتقدها كثيراً، إلا كلمة "لو" في حديثه عن المستقبل. ويقترح قيصر – الذي كان يشغل رئاسة الكهنوت، والذي يمثل أعلى سلطة دينية في الدولة– أن يكون السجن مدى الحياة هو عقاب المجرمين الأوغاد حيث أن الإعدام سيعني الفناء ومن ثم الراحة لهم. ويتحدث كاتو – أكثر رجال جيله تديناً وورعاً – بكلمات لا تلقي أى لوم على إبيقورية قيصر وماديته. أما شيشرون فقد اكتفى بأن يترك موضوع الخلود بلا حل. لقد سخر فلاسفة أثينا من الرسول بولس عندما تحدث في

أريوس باغوس عن القيامة. كان هذا هو سلوك الطبقات المثقفة في العالم اليوناني الروماني في فجر المسيحية، ولكن كانت هناك – بلا شك– رغبة قوية في الوجود المستمر. وكانت الطبقات الأخرى تمارس طقوس ديانات قومية ميتة بطريقة آلية، وكان البعض يبحثون عن الإثارة وعن مجالات لإشباع أهوائهم الدنيا. كما كان البعض الآخر يبحثون عن السلام والأمل في المستقبل في أسرار الديانات الشرقية. كان قد بدأ ظهور التمييز بين الشر الأدبي والمادي، ومن ثم إدراك الخطية، فلم تكن الديانة والأخلاق قد اتحدتا من قبل، وكان "عرش عقل الإنسان" شاغراً. وكانت المسيحية الوشيكة هي أفضل من يشغله. كان الفكر اليوناني الروماني آخذاً في الإتساع ليتلقى تعاليم يسوع النقية.

ثالثاً موقف الامبراطورية الرومانية من الديانات:

أ- <u>الديانة الرومانية أو ديانة الدولة</u> :

يكشف تاريخ الديانة الرومانية عن تغلغل العبادات والطقوس الأترورية واليونانية والمصرية والشرقية، حتى لم يعد ممكناً التعرف على الديانة الرومانية القديمة، بل لم يمكن لدارسي التاريخ القديم أن يكتشفوا حقيقة العديد من الآلهة الرومانية. فقد ظلت أنماط العبادة الرومانية وطقوسها، تتراجع باضطراد حتى أخلت السبيل – مع غيرها من الطقوس الغريبة الأخرى التي غلبت عليها – أمام قوة المسيحية. وباتساع الدولة الرومانية زادت مطالبها الدينية. وفي فترة الحكم الملكي كانت ديانة روما هي ديانة مجتمع زراعي بسيط. وفيما بين الحكم الملكي والحرب البونية الثانية، أصبحت ديانة روما أكثر تعقيداً وزاد عدد الآلهة كثيراً بما ورد من

سائر الأقاليم الإيطالية والعالم اليوناني. فقد تأثر الفكـر الرومـاني في البداية بأسرار ديانة إترووريا الغامضة، ولعله من هنا جاء ثلاثـي الكـابيتول (جوبيتر – جونو – منيرفا) الذي سبق أن دخل إلى إتروريـا مـن مصـادر يونانية مما يدل على أن الرومـان لم يكونـوا أول مـن تـأثر في إيطاليـا بديانـة اليونان. أما المستعمرات الإغريقية في جنوبي إيطاليا فقد كانـت سـخية في مسـاهماتها، ففتحـت الطريـق أمـام الغـزو التـالي لآلهـة اليونـان. وكانـت الكتب السيبليانية (*Sibyllain*) قد نقلها الرومان في زمن مبكر جـداً عـن الكوميين (*Cumae*) لتصبح أسفاراً مقدسة عند الرومان.

وفي ٤٩٣ ق . م. – في أثناء مجاعـة – تـم بنـاء معبـد لثلاثـي الآلهـة اليونانية (ديمتر وديونيسيوس و برسيفون) بأسـماء لاتينيـة هـي " سـيرس (*Ceres*)، وليبر (*Liber*)، وليبرا (*Libera*) كبداية لإنعدام الثقة في الآلهة الرومانية القديمة، وهـو الأمـر الـذي تكـرر كثـيراً في التـاريخ الرومـاني، بإدخال آلهة جديدة أجنبية في أوقات الشدة. وفي ٤٣٣ ق . م . جاء "أبولو" من نفس المصدر ، وتبعه مركوري (عطارد) ثم أسكليبيوس (*Asclepius*) في ٢٩٣ ق . م .

وفي ٢٤٩ ق . م . ظهرت عبادة ديس (*Dis*) وبروسربينا (*Proserpina*) من ترنتو (*Tarentum*). كما تم إدخال أنماط أخرى من العبادات والمعبودات غير الرومانية. لقد كانت روما في ذلك العصر، واسعة الأفق في سياستها لمواجهة الاحتياجات الدينية المتزايدة للمجتمع. إلا أنها لم تكن تسمح بذلك خارج إيطاليا، كما تطور الذوق نحو الأشكال الجمالية والدرامية للعبادة. وكانت فترة الحرب البونية الثانية فترة حرجة في

الحياة الدينية الرومانية فترنحت العقائد الدينية أمام عدم الإيمان المتزايد، فتخلت الطبقات المثقفة – بل والرعاع أيضاً – عن الديانة الرومانية القديمة، فغرق المثقفون في مذهب الشك، بينما مال الرعاع إلى الخرافات، فوضع المثقفون الفلسفة محل الدين، أما الرعاع فأحلوا العبادات الحسية الشرقية محل الدين. وذهب الرومان مرة أخرى إلى البلاد الأخرى ليستعيروا لهم آلهة، فذهبوا هذه المرة إلى اليونان ومصر وأسيا، وأدخلوا جميع الآلهة اليونانية ، وسرعان ما جمعوا بينها وبين الآلهة الرومانية، فقد دخل هيبي (*Hebe*) في ١٩١ ق . م . باسم جوفنتاس (*Juventas*). وفي ١٧٩ ق . م. دخلت أرطاميس باسم ديانا. وفي ١٣٨ ق . م . دخل أريز (إله الحرب) على أنه مارس(*Mars* – المريخ) .

إلا أن الشرق – موطن الديانات – أثبت أنه أكثر نفعاً. ففي ٢٠٤ ق . م. أدخل الرومان سيبيل (*Cybele*) من بسينوس (*Pessinu*) إلى روما وعرفوها باسم "الأم العظيمة"، وكانت تلك ضربة قاضية للديانة الرومانية القديمة، كما كانت دافعاً إلى إدخال العبادات الحسية العربيدة الغامضة التي أسرت عقول العامة. وسرعان ما جاء "باكوس" (إله الخمر) برذائله. وأدخل "سولا" (*Sulla*) عبادة "ما"(*Ma*) من فريجية بديلاً للآلهة "بلونا" (*Bellona*) كما أخذوا من مصر "إيزيس". وفي حروب بومبي ضد القراصنة، دخلت "مترا" (*Mithra*) إلى روما فكانت أعظم منافس للمسيحية. وبدأت الديانة تؤول إلى أيدي السياسيين، حتى صارت في أواخر أيام الجمهورية في أيدي رجال السياسة. وانحدرت العبادة إلى الشكلية، وتفاقمت الشكلية إلى الكف عن العبادة.

وفي ظل الامبراطورية أخذت الأنظمة الفلسفية تحل محل الديانة وانتشرت الطقوس الشرقية. وكانت النهضة الدينية في أيام أوغسطس قيصر مجرد محاولة لنفخ الحياة في العظام اليابسة. وكانت خطته دينية من ناحية، وسياسية من الناحية الأخرى، لإقامة ديانة شعبية إمبراطورية يكون هو رأسها، وتدور حول شخصه. فقد اكتشف ضرورة وجود ديانة امبراطورية. فقد كان الملوك في الشرق – منذ أمد بعيد – يعتبرون آلهة لدى رعاياهم. وقد أراد الاسكندر الأكبر – كسياسي حكيم – أن يستخدم هذا الأمر كرابطة اتحاد لدولته الواسعة . كما انتشرت نفس العادة لدى خلفائه في الشرق وبخاصة في مصر وسورية. وعندما استتب السلام في عهد أوغسطس قيصر في العالم، كان

الشرق على استعداد أن يعتبره إلهًا. ومن ذلك نشأت عبادة الأباطرة، أو عبادة روما متجسدة فيهم. وقد أدت هذه العبادة إلى الوحدة الدينية في الإمبراطورية، وفي نفس الوقت أدت إلى تفخيم الامبراطور. إلا أن كل هذا الجهد ذهب هباء، فقد ماتت الديانة الرومانية القديمة، وظلت الحاجات الدينية في الإمبراطورية تجد شبعها في الفلسفة والأسرار التي كانت تتضمن الأمل في الخلود. وسرعان ما فقدت عبادة شخص الإمبراطور أيضاً قوتها، حتى إن "فسباسيان" تهكم – وهو على فراش الموت – على فكرة صيرورته إلهاً. وهكذا أخذت عبادة الإمبراطور في الاضمحلال باضطراد.

ب- الديانات المرخص بها ، والديانات غير المرخص بها :

انقسمت الديانات غير الرومانية إلى ديانات أخرى مرخص بها وديانات غير مرخص بها، ففي أوقات مختلفة بسبب حدوث كوارث من زلازل أو أوبئة أو مجاعات أو غيرها، كان الرومان يلجأون الى إدخال عبادات غير رومانية كوسيلة لاسترضاء الآلهة. وكان معنى هذا أن تلك العبادات يمكن لأتباعها الأجانب ممارستها دون التعرض للعقاب. وهكذا أصبح مصرحاً لأي شعب يقيم في روما، بحرية إقامة عبادته الأصلية طالما كان ذلك لا يتعارض مع سلام الدولة، أو كان يفسد أخلاقيات المجتمع. إلا أنه في ١٨٦ ق . م . صدر قرار من مجلس الشيوخ بإجراء تحقيق صارم حول الطقوس الخاصة بعبادة الإله "باكوس" التي نشرت الانحلال الأخلاقي بين أتباعه. إلا أن روما لم تمارس مطلقاً الاضطهاد بانتظام. وكانت الطقوس الأجنبية والخزعبلات الغريبة، رغم تحريمها وطرد أتباعها من المدينة في بعض الأحيان، تعود دائماً أقوى مما كانت.

ويجب ألا يفوتنا القول أن العناصر الأخلاقية الأصلية قد سقطت عن الديانة الرومانية، فأصبحت مجرد ديانة عسكرية وسياسية. لخير الدولة، وليس لخلاص الأفراد. وكان على الفرد أن يلتزم القيام بطقوس مرسومة معينة ليجنب الدولة المتاعب. ولم تكن الدولة تطلب أكثر من ذلك. بل تترك للفرد قدراً كبيراً من الحرية في البحث عن الاثارة أو متعة الجمال في دفء الأسرار الأجنبية. وهكذا بينما كان الرومان يميزون بين الديانات المرخص بها وغير المرخص بها، إلا أنهم نادراً ما استخدموا العنف ضد

الديانات غير المرخص بها، فلم يتعرض الكثير من الديانات غير المرخص بها للإنزعاج، بل إن فكرة الامبراطورية – في صميمها – جعلت من التسامح مع الديانات غير الرومانية أمراً ضرورياً، وقد تنازلت الدولة – عملياً، لا نظرياً – عن فكرة الديانات غير المرخص بها، لكنها احتفظت بها في سجل القوانين لاستخدام ذلك في أحوال طارئة، مثل ما حدث مع الديانة المسيحية، ولم تكن الحكومة وحدها هي المتسامحة. بل كانت الأشكال المختلفة للديانات متسامحة فيما بينها، وعلى علاقات طيبة مع بعضها البعض، فكان يسمح لشخص ما بالعضوية في أسرار عبادة عدة آلهة، وفي نفس الوقت يمكن أن يكون كاهناً لإلهين أو أكثر، فلم يكن هناك أدنى اعتراض على عبادة المسيح مع ميترا وايزيس وأدونيس، وكان ادراك الناس لوحدة الإله يتزايد، ويعطون لجيرانهم الحق في عبادة الإله الواحد المجهول، تحت أسماء مختلفة وأشكال متباينة. ويقال أن "هادريان" قد سمح بإقامة معابد في كل الامبراطورية "للإله المجهول".

ا. اليهودية ديانة مصرح بها:

وتعتبر اليهودية – بالنسبة لتاريخ المسيحية – مثالاً هاماً للديانة المصرح بها. ومع أنه لم يوجد شعب منعزل أو عنيد أكثر من اليهود، إلا أنهم مع ذلك ومنحوا ذلك الحق. فمنذ أيام يوليوس قيصر كانت السياسة الامبراطورية نحو اليهود ودياناتهم متسامحة تماماً ، باستثناء المحاولة المجنونة في أيام "غايوس" (*Gauis*) التي لم تدم طويلاً. وكثيراً ما حمتهم الحكومة من كراهية الرعاع لهم. وكان مسموحاً لهم – حتى ٧٠ م – بحرية ارسال مساهمتهم السنوية للهيكل في أورشليم، بل وسمحت لهم بامتيازات حكم ذاتي وسلطات تشريعية خاصة بهم. وهكذا شكلوا جماعة منعزلة متميزة في وسط المجتمع الروماني. بل أن الحرب المشئومة (٦٨ – ٧٠ م) وسقوط أورشليم، لم يسفرا عن اضطهاد اليهود رغم أن الرومان سحبوا معظم سلطات الحكم الذاتي والتشريع الذاتي، وأجبروا اليهود على دفع ضريبة عن كل بالغ لمعبد الكابيتول للإله "جوبيتر"، ولكنهم ظلوا يسمحون بالعبادة اليهودية ويحمونها، بل أعفوهم من الواجبات التي لا تتفق مع ديانتهم مثل تأدية الخدمة العسكرية. وكان هذا التسامح نحو الديانة اليهودية، بالغ الأهمية بالنسبة للمسيحية الوليدة التي كانوا يعتبرونها نوعا مصلحاً من الديانة اليهودية.

٢. لماذا حرمت المسيحية وحدها:

وهنا يبرز السؤال: إن كانت هذه هي السياسة العامة للامبراطورية، من الاعتدال والتسامح و إفساح المجال أمام كل الآلهة والعبادات، واحترام معتقدات كل شعوب الامبراطورية. فكيف يحدث هذا الأمر الاستثنائي بتحريم المسيحية وحدها واضطهادها؟

لقد كانت المسيحية – في الحقيقة – ديانة غير مرخص بها، ولم تسمح بها الحكومة كما سمحت باليهودية، ولكن ليست هذه إجابة السؤال، فقد كانت هناك ديانات أخرى غير مرخص بها، ونمت بسرعة في الامبراطورية، كما لم يكن التحريم لأن المسيحية كانت تهاجم الخطأ وتكسب دخلاء، وجرؤت على الظهور حتى في "بيت قيصر"، فقد كانت عبادة "ميترا" وعبادة "ايزيس" تهاجمان غيرهما من العبادات، ومع هذا تسامحت معهما روما. كما لم يكن ذلك بسبب كراهية الشعب، لأن الشعب لم يكن يكره المسيحيين أكثر مما يكره اليهود، فلا بد أنه كانت هناك أسباب أخرى.

٣. امبراطوريتان:

لقد وُلدت امبراطوريتان في نفس الوقت تقريبا تشابهتا جداً واختلفتا جداً حتى أصبح لا بد من نشوب الصراع بينهما حتى الموت. فكان المسيحيون يؤكدون أن المجتمع الذي ينتظرونه ويعملون من أجله هو "ملكوت" أي مملكة، **كان لا بد من الصراع للأسباب الآتية:**

أ - الخلط بين الروحي والزمني:

لم يفكر المسيحيون على أساس قومي أو عنصري، ولكن على أساس مسكوني. ولم يستطع الرومان أن يفهموا معنى قيام مملكة الله على الأرض، وظنوا أن المسيحيين يطمعون في إقامة ملكوت سياسي، وسرعان ما اكتشفوا أن المسيحية لم تأت لتنقذ بل لتدمير الإمبراطورية وتمزيقها. وقد جعل الحماس المسيحي من كلمة "ملكوت" أمراً مزعجاً جداً لوطنية الوثنيين، لأن الكثيرين من المسيحيين – في انتظارهم لظهور الرب ثانية – أخطأوا في ظنهم أن مملكة

المسيح على الأرض وشيكة الظهور، مما يهدد الدولة الرومانية. ورغم أن المسيحيين استناروا بالتدريج في هذا الصدد، إلا أن الضرر كان قد وقع.

وكانت كل من الامبراطورية الرومانية والمسيحية تهدفان إلى إقامة تنظيم اجتماعي يضم كل الجنس البشري. ولكن رغم تشابه هاتين المملكتين في نقاط عديدة، وقد مهدت إحداهما الطريق للأخرى، إلا أن التناقض بينهما كان أقوى من أن يسمح بالمصالحة بينهما، وكانت المسيحية تهدف نحو العالمية من خلال الفرد، فأضفت قيمة جديدة على الشخصية الإنسانية.

ب - مطالب فريدة للمسيحية:

يبدو أن المسيحية قد استفرت الكبرياء الرومانية بدعاواها الغريبة، فقد نادت أن العالم سيحترق بنار ليفسح الطريق لسموات جديدة وأرض جديدة، وأن المدينة الخالدة "روما" لا بد أن تسقط، وأن ملكًا سيأتي من

السماء له يخضع المسيحيون، وأنـه في وسـط الخـراب القـادم سـينعم المسيحيون بالسلام.

ج - طرافة المسيحية:

بعد أن خرجت المسيحية من تحت عباءة اليهودية، لا بد أنها فاجـأت الحكومة ، كديانة جديدة غير مصرح بها، وقد أصبحت لها قوتهـا، وكانـت أحدث وآخر ديانة تظهر في الامبراطورية فجأة بدون سابق انذار. ولم يكـن واضحًا أمام العقل الروماني، أن المسيحية ظلت تنتشرـ لمـدة جيـل في ظـل التسامح الديني الذي كفلته الدولة لليهودية باعتبارها ديانة قديمـة العهـد، فقد كان الرومان ذوي طبيعة محافظة لا يحبون التجديد. وقد نصـح أعظـم رجال الدولة في عهد أوغسـطس قيصرـ، وهـو ميسـيناس (*Maecenas*)، الإمبراطور بألا يتسامح مع

أديان جديدة هدَّامة للامبراطورية، وأن ظهور عقيدة جديـدة فجـأة لها أتباع كثيرون، قد تشكل خطراً على السلام العام.

د - عدم تسامح الديانة المسيحية وانغلاقها:

وبطريقة ما كان المسيحيون يهدمون روح التسامح في الامبراطوريـة، بعدم تسامحهم مع الديانات الأخري وانغـلاق مجـتمعهم، بيـنما قبلـت كـل الديانات الأخرى في الامبراطورية التساهل وحرية الاختيار، وكانت عـلى استعداد للالتقاء مع نقاط الاتفاق مع جيرانها أكثر مما مع نقاط الاختلاف ، لكن المسيحية لم تقبل المهادنة ولم تتسامح مع سائر الأنظمة الدينية الأخـرى ، وبدت بذلك ظالمة للعبادات الأخرى التي ظلت السند الروحي لكثير من

الشعوب قبل أن تشرق شمس المسيحية. ولكن لا يمكن أن نلومها متى عرفنا أنه من أجل حياتها ورسالتها ، كان عليها ألا تتهاون في الحق المسلم إليها، فقد كان العديدون من الوثنيين على استعداد أن يقبلوا المسيح بفرح مع ميترا وإيزيس وسيرابيس.

لكن المسيحية كانت تستلزم الانفصال التام، فلم تكن عبادة المسيح تحتمل أي منافس، فهي الديانة الوحيدة المقبولة ويجب أن ينفصل أتباع المسيح عن العالم. ولقد كانت كنيسة المسيح حاسمة في موقفها، فالمسيحية لا تتساوي مع أي ديانة أخرى، بل هي تسمو فوق كل الديانات. وبدت – بالطبع – هذه الروح عدائية بالقياس الى روح تلك الأيام التي سمحت للديانات المتنافسة أن تعيش معًا بغير مبالاة. أضف إلى ذلك انعزال المجتمع المسيحي، فلم يكن مسموحاً لأي وثني –مهما بلغ من الورع ومارس تطهير النفس عن طريق التصوف وطقوس ديانته القديمة– أن يكون عضواً في الكنيسة المسيحية ما لم ينبذ تلك

الأشياء العزيزة عليه . وقد ظهرت روح الانعزال في كل جوانب الحياة العامة. وكان المسيحيون يجتمعون ليلاً في اجتماعات سرية، وقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم يرتكبون أبشع الجرائم في تلك الاجتماعات مثل إقامة ولائم للدعارة ومعاشرة الأمهات وغير ذلك من الرذائل، وكان كل ذلك لانعزالهم.

هـ- العناد:

أضف إلى ذلك العناد الشديد الذي قابل به المسيحيون مطالب السلطات الامبراطورية، وكان ذلك مثيراً جداً للحكام الرومان. وكان يمكن أن يتركهم الرومان أحراراً في ديانتهم لو أنهم أظهروا الطاعة – ولو شكلياً – للديانة الرسمية للدولة. إن اعتدال الرومان واحترامهم للقانون قد اصطدما بعناد المسيحيين وإصرارهم، وقد بدت شجاعة الشهداء أمام أعدائهم كنوع من التعصب العنيد، وقد أشار الامبراطور "أوريليوس" إلى المسيحية مرة واحدة بتلك العبارة: "محض عناد" كما أشار اليها أريستيدس (*Aristides*) قائلاً: إنها "مجرد عناد".

و -مهاجمة الديانات الوثنية:

لم يقنع المسيحيون بالانسحاب الحاسم من الممارسات الوثنية، بل هاجموا الديانات الوثنية بكل شدة، وصارت تلك الديانات– في رأي المسيحيين – "تعاليم شياطين". كما كانت الديانة الإمبراطورية وعبادة الامبراطور نجاسة في نظرهم، ومن ثم وقعوا تحت طائلة الاتهام بعدم والولاء للإمبراطور والإجرام

في حقه، وهزأوا من القول بأن عظمة روما ترجع إلى احترامها للآلهة. وهكذا بدا المسيحيون ملحدين، من وجهة نظر الوثنيين. وحيث أن الديانة كانت مسألة ترتبط بسلامة الدولة وخيرها، فإن الإلحاد يمكن أن يستجلب غضب الآلهة على الدولة.

ز - القاء المسيحيين للأسود:

ما أن بدأت المصائب والكوارث تنهال على الامبراطورية الرومانية، حتى ألقوا باللوم على المسيحيين. ففي القديم، كثيراً ما كانت روما تسترضي الآلهة باستيراد ديانات أخرى جديدة. وفي أحيان أخرى كان يتم استبعاد بعض الديانات الشرقية حفاظاً على الفضيلة. آما الآن، فقد أصبح المسيحيون هم كبش الفداء، عندما تقع الكوارث. فإذا حدثت مجاعة أو زلزلة أو وباء، أو أي كارثة قومية، ترتفع الصرخات مطالبة بالقاء المسيحين الى الأسود.

وقد ظلت هذه النظرة الظالمة إلى المسيحية – كعامل هدَّام للإمبراطورية – حتى سقوط روما في يد ألريك (*Alaric*) ملك القوط. وقد نسي الوثنيون أن المصائب والكوارث الكبري – كما قال المدافعون – كانت تنزل بروما قبل العصر المسيحي. وكان المسيحيون على الدوام على استعداد للتضحية بذواتهم في أوقات الشدة، مقدمين العون للوثنيين والمسيحيين على حد سواء.

ح - الكراهية للجنس البشري:

ولقد تجمع كل حقد على المسيحين في اتهامهم "بالكراهية للجنس البشري" أو للمجتمع، والتي قوبلت "بكراهية الجنس البشري لهم". لقد كان المسيحيون مكروهين للغاية، ليس من الرعاع فقط، بل ومن الطبقات العليا

المثقفة أيضاً. وكان معظم أتباع المسيحية الأوائل من طبقة العبيد أو العتقاء. فلم يكن "الكثيرون حكماء" ولا "الكثيرون شرفاء"، كما كان القليلون منهم مواطنون رومانيين. وقد ذكرنا بعض الجرائم التي اتهمهم بها اعدائهم، وقد دعوهم "مسيحيين" لأول مرة في انطاكية، استهزاء بهم. كما دعاهم اليهود "نصاري". ولم يكن هناك لقب حقير إلا وألصقوه بهم، فنعتوهم بأحط النعوت. ولم يجد الكتَّاب الرومان ألقابًا أبشع من أن يلقبوهم بها. "فتاسيتوس" (*Tacitus*) يعتبر الإيمان المسيحي من الأمور البغيضة الشنيعة التي اجتاحت روما، ويصفها بأنها "خرافة قاتلة"، كما وصفها "سوتونيوس" (*Suetonius*) "غريبة وضارة"، ويقول عنها "بليني" (*Pliny*) إنها "تافهة حقيرة"، ولذلك قال "يوستس" (*Justus*): إن المسيحيون كانوا مكروهين وملعونين من كل الجنس البشري. وقد تأكدت هذه الكراهية وهذا الحقد بهجمات الفلسفة على المسيحية. وعندما شدت الديانة الجديدة أنظار الفلاسفة، لم يكن ذلك –أولاً– إلا للسخرية منها. ويمكن معرفة موقف الفلسفة الوثنية – بجلاء – بقراءة كتابات "كلسوس" (*Celsus*) وكتابات المدافعين المسيحيين.

٤. لم تكن الامبراطورية الرومانية المصدر الوحيد للازعاج:

لقد ظلت الفلسفة طويلاً بمعزل عن ديانة الجليلي المصلوب، فكان "الحكماء" هم آخر من دخل ملكوت الله. فعندما رسخت المسيحية أخيراً كقوة دائمة في الفكر الانساني، تنازلت الفلسفة، وأخذت أقوال المسيحية في الحسبان، إلا أن هذا جاء متأخراً جداً، بعد أن كان الايمان الجديد قد أصبح مكروهاً فعلاً من العالم. واكتشفت الفلسفة ضعفها وبدأت في إصلاح نفسها بمحاولة أن تكون فلسفة وديناً معاً، وهو ما حدث بصفة خاصة في الأفلاطونية الحديثة. حيث ينحني فيها العقل أمام الاعلان. وكانت القوة الأخرى التي عكرت سلام الكنيسة المسيحية، هي العدو الكامن داخل الحظيرة. فقد دخلت أعداد كبيرة من الوثنيين إلى الكنيسة. جاءوا بأفكارهم الشرقية واليونانية، مثلما جاء المسيحيون من اليهود بأفكارهم اليهودية معهم. وقد أدي هذا الى هرطقات شنيعة، وكانت كل مدرسة فكرية تشوِّه – على طريقتها الخاصة – الإيمان القويم. ثم انضم إلى تلك القوى المعادية، حليف آخر هو الوثنية المصلحة بقيادة كهنوت مجروح في كبريائه. ففي البداية، كان مما ساعد المسيحية كثيراً، هو أنه لم يكن هناك كهنة حاقدون غيورون على رأس الديانة اليونانية الرومانية، كما كان في اليهودية والديانات الشرقية، فقد كان الاضطهاد الديني دائماً من صنع الكهنوت، وهو ما لم يحدث في العالم الروماني إلا في وقت متأخر عندما بدأ إهمال المعابد والمذابح وهجرانها، وهنا قام الكهنة كهيئة معارضة. وهكذا نرى أنه لم تقف السلطة الإمبراطورية الرومانية وحدها في وجه المسيحية، إنما كان يحرضها ويدفعها إلى ذلك:

١ – كراهية الشعب لها.
٢ – الفلسفة.
٣ – كهنة الوثنيين.
٤ – الهرطقات داخل الكنيسة.

رابعاً : العلاقات بين الامبراطورية الرومانية والمسيحية:

علينا هنا أن نوضح كيف أن موقف الامبراطورية الرومانية الذي كان في البداية وديًّا أو غير مبالٍ، تحول الى صراع وحشي، وكذلك المراحل المختلفة في سياسة الحكومة الرومانية – لو أمكننا الحديث عن أي سياسة مرسومة–تجاه المسيحية، والاتهامات أو الإجراءات التي حوكم على أساسها المسيحيون، وأن نبين أيضاً متى وكيف أصبح الاعتراف بالمسيحية جريمة. وسنرى أن الإمبراطورية الرومانية كانت تسير باضطراد نحو الضعف، بينما كانت المسيحية تكتسب على الدوام أرضاً جديدة. **ولإيضاح ذلك سنقسم تاريخ الامبراطورية الرومانية إلى ست فترات:**

١ – <u>من بداية المسيحية حتى موت نيرون في ٦٨ م</u>:

لم يكن الايمان المسيحي – في البداية – معروفاً للسلطات الرومانية، فقد ظهرت المسيحية في بداية الأمر كنوع من اليهودية المصلحة والأكثر روحانية، كما لم يفكر تابعوها والمبشرون الأولون بها في الانفصال عن المجتمع اليهودي، فلم يكن ينظر إلى المسيحية إلا كمذهب من المذاهب اليهودية التي ينتمي إليها كل يهودي بينما يظل يهودياً موسوياً. لكن سرعان

ما توترت هذه العلاقة الودية بسبب اتساع التبشير بالمسيحية وقبول الدخلاء من الأمم. وجاء أول اضطهاد

للكنيسة الوليدة من اليهودية الحاقدة، فكان اليهود هم أول من اشتكوا ضد المسيحيين أمام المحاكم الرومانية. ولم ترفض الحكومة الرومانية أن تضطهد المسيحيين فحسب، بل وحمت الايمان الجديد من الاتهامات اليهودية ومن عنف الغوغاء.

وسرعان ما وجد المبشرون المسيحيون – وبخاصة الرسول بولس– في الإمبراطورية الرومانية حليفاً للخير. وعندما كتب الرسول بولس رسالته إلى الكنيسة في روما نصحهم بالخضوع للسلاطين "المرتبة من الله". ولابد أن هذا الانطباع الطيب قد تدعم بالمعاملة السمحة التي لقيها الرسول بولس في سجنه الأول في روما واطلاق نيرون سراحه في المحاكمة الأولى. وكان العسكر الرومان قد أسرعوا إليه في أورشليم أنقذوه من تعصب أبناء جنسه. وكان موقف الرومان من اتهامات اليهود للمسيحيين إما عدم المبالاة كما فعل "غاليون" وإلى أخائية الذي لم يهمه "شئ من ذلك"، أو اكتشفوا براءة المتهمين كما فعل فيلكس، وبوركيوس فستوس.

وهكذا نظر الرومان الى المسيحية باعتبارها مذهباً من المذاهب اليهودية، ولكن اليهود تقدموا خطوة أخرى في اتهام المسيحيين بعدم الولاء لقيصر (وهو ما اتهموا به الرب يسوع أمام بيلاطس)، مدَّعين أن المسيحيين "كلهم يعملون ضد أحكام قيصر، قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع ". وهكذا تبرأت اليهودية من المسيحية، ووقفت المسيحية بمفردها.

كما أن الأعداد المتزايدة من المسيحيين أكـدت للحكومـة الرومانيـة، استقلال المسيحية عن اليهودية، علاوة على أن محاكمـة مـواطن رومـاني – هو بولس الرسول – في روما ذاتها، زاد الحقيقة وضوحاً.

ولم يقع أول اضطهاد من الدولة الرومانية للمسيحية، نتيجة لسياسـة معينة أو لتوجس الخطر على الدولة، كما لم تكن هناك اتهامات محددة، لكنـه نتج عن شرارة عارضة أشعلت الحريق في روما (في يوليـو ٦٤ م)، فحتـى ذلك التاريخ لم يأبه أي إمبراطور بالمسيحية. لقد وُلد يسوع في متصف فـترة حكم أوغسطس قيصر، وكانت خدمة يسوع الجهارية في زمـن طيبـاريوس قيصـر، وفي عهده أيضاً صلب المسيح وقام. إلا أن حكمه انتهـي مبكـراً(٣٧ م) فلم يشهد انتشار الايمان الجديد، رغم أنه ينسـب لهـذا الامبراطـور تقديم قرار لمجلس الشيوخ بضـم المسـيح الى "البـانثيون" (مجمـع الآلهـة) الرومـانى، (وهـي أسـطورة بـالطبع)، وفي الحكـم القيصــر "الغـايوس" (*Gaius*) المجنون لم يكن "الطريـق الجديـد" قـد أنفصـل بعـد تمامـاً عـن اليهودية. وقد قام غايوس بإجراء ضد اليهـود، إذ أمـر باقامـة تمثـال لـه في الهيكـل. وفي حكـم كلوديـوس (٤١ – ٥٤م) كانــت معاملــة الرومــان لليهود قاسية وقد أمر بنفي عدد منهم مـن رومـا. ويـرى الـبعض أن هـذا الأمر قد شمل المسيحين أيضاً، إذ نفى بعض المسيحيين باعتبـارهم يهـودًا، إلا أن "ديو كاسـيوس" (*Dio Cassius*) يلمِّـح إلى أن ذلـك كـان إجـراء بوليسياً للحد من انتشار العبادة اليهودية في روما. وفي عهد نيرون – بعـد حريق روما ٦٤ م – حدثت أول خطوة عدائية اتخذتها الحكومة ضد

المسيحيين، وكان "تاسيتوس" المؤرخ الروماني هو أول من وصفها. فقد أدت تصرفات نيرون الطائشة إلى إشاعة انه هو السبب في هذا الحريق المتعمد، لأنه كان يرغب في إعادة بناء المدينة على أساس خطط أفخم. ومع أنه عمل كل ما كان ممكناً لإخماد الحريق معرضاً حياته للخطر، كما بذل كل ما استطاعه لتخفيف غضب الناس، وأمر بإقامة الطقوس الدينية لاسترضاء الآلهة وصرف غضبهم، إلا أن الاتهام ظل معلقاً

برقبته. ومن أجل تبديد الشائعات، ألقى بالذنب على المسيحيين المكروهين من الجميع وأوقع بالمسيحيين أقسى العقوبات. فتم اعتقال أعداد ضخمة ممن يعترفون بمسيحيتهم، ولم تكن التهمة الموجهة إليهم هي اشعال الحريق عمداً، بقدر ما كانت هي كراهيتهم للجنس البشري بعامة. ومات الضحايا وسط استهزاء الناس، بعضهم ألبسوهم جلود حيوانات فمزقتهم الوحوش إرباً إرباً، وعلقوا البعض الآخر على صلبان وأشعلت فيهم النيران للاضاءة ليلاً، حتى بدأ الناس يحسون بالرثاء لهم كما يقول "تاسيتوس".

✍ **وهنا يثور السؤال: لماذا أصبح المسيحيون وحدهم هدفاً للاضطهاد ؟ لقد أسهمت في ذلك جملة أسباب:**

يرى "فارار" (*Farrar*) في اعتناق "بوبيا" للمسيحية – الذي استغله اليهود بخبث التفسير الوحيد للاضطهاد الأول للمسيحيين، ويؤيده في ذلك "لا يتفوت"، إلا أننا نرى أن ذلك – في حد ذاته – لم يكن سبباً كافياً رغم أن اليهود كان يسعدهم انتهاز هذه الفرصة للانتقام من أعدائهم.

كان المسيحيون قد أصبحوا – في نظر السلطات – طائفة متميزة ، سواء من خلال تقارير الحكام في الأقطار الشرقية حيث كانت المسيحية تتقدم بخطوات واسعة، أو مما أثارته محاكمة الرسول بولس في روما من اهتمام كأحدث طائفة دينية، وبذلك كانوا أنسب الضحايا لارضاء الآلهة وعامة الشعب.

كان عدد المسيحين في روما كبيرًا – بلا شك يسبب نشاطهم الدءوب في اكتساب دخلاء حتى تضخمت أعدادهم.

لم يكونوا متحفظين في التعبير عن معتقداتهم، فقد صرحوا بأن الأرض نهايتها للحريق، وأنهم ينتظرون بشوق مجئ "ملكهم" ثانية ليصلح المجتمع. وكان كل ذلك كفيلاً بأن يلقي عليهم بالشك بسهولة.

لقد كسبوا كراهية الشعب بانعزاليتهم، فتحولت كراهية الشعب لليهود إلى كراهية للمسيحيين. وإن جماعة أصبحت موضع كراهية عامة الشعب، لا بد أن توضع تحت رقابة إدارة شرطة المدينة.

كان قسم كبير من المسيحيين في روما من غير الرومانيين، ومن ثم لم تكن لهم امتيازات المواطنين الرومانيين.

ولعل في هذه الأسباب – مع ما سبق في البند الثالث – ما يفسر لماذا أصبح المسيحيون هدفاً للاضطهاد. على أي حال لقد وقع عليهم اختيار نيرون ليكونوا كبش فداء لأغراضه الخاصة وأغراض مشيره "تيجلينوس" (*Tigellinus*). وهكذا حدث الاضطهاد الأول وليد

الصدفة لتحويل الشكوك بعيداً عن نيرون، ولم يكن بسبب أي سياسة مرسومة، أو لتوجس الخطر منهم على الدولة، أو لأن المسيحيين أرتكبوا جرائم. لكن اضطهادهم أتاح الفرصة لأعدائهم لالتماس الأدلة ضدهم وتصيد الأسباب.

ومع أن هذا الاضطهاد كان في أساسه أمراً عارضاً، إلا أن نتائجه كانت بالغة الأهمية. **وهناك ثلاثة آراء بالنسبة لتاريخ سياسة تحريم الحكومة الرومانية للإيمان الجديد:**

- الرأي القديم وهو أن الاضطهاد لمجرد الاعتراف بالمسيحية، بدأ في أيام تراجان في ١١٢ م، وهو رأي أصبح الآن لا يلقى قبولاً بصورة عامة.
- يؤمن سير "رمزي" (*Ramsay*) أن هذا التطور من العقاب على جرائم محددة، إلى تجريم مجرد الاعتراف بالمسيحية ، حدث فيما بين ٦٨ م – ٩٦ م.
- يرى "هاردي" (*Hardy*) و"مومسن" (*Mommsen*) و "ساندای" (*Sunday*) و "انجوس" (*S. Angus*) أن محاكمة المسيحيين في أيام نيرون قد أدت إلى اعتبار مجرد الاعتراف بالمسيحية جريمة عقوبتها الموت.

ويذكر "تاسيتوس" اضطهاد المسيحية كأمر عارض لم يدم طويلاً، بينما يذكر "سوتونيوس" (*Suetonius*): أن عقاب المسيحيين كان مذكوراً في قائمة لوائح الشرطة الدائمة لحفظ النظام، وهو ما لا يتفق مع ما ذكره

"تاسيتوس" من أنها كانت إجراءات استثنائية فريدة ضد "الخرافة المقيتة". ولكن ليست الروايتان متعارضتان، إذ أن "تاسيتوس" يذكر المرحلة الأولى، بينما يذكر "سوتونيوس" عبارة موجزة عن المبدأ الاداري الذى أدى إليه ما عمله نيرون، فقد واصلت إدارة البوليس – في عهد نيرون – ما بدأته واعتبرته سياسة دائمة. ومع ذلك – كما يرى سير "رمزي" لم يحاكم المسيحيون لكونهم مسيحيين، بل على أساس بعض الاتهامات المرتبطة بهذا الاعتراف واعتبارهم أعداء للمجتمع واتهامهم بالسحر وغير ذلك، كعدم التعاطف مع النظم السياسية والاجتماعية للامبراطورية. وبالتدريج رأوا أن الدين ذاته يتضمن هذه الجرائم فتم تجريمه كدين، وأوكلت الرقابة عليهم ومعاقبتهم لإدارة الشرطة التي أصبح لها الحق – في أي وقت – في اتخاذ ارجاءات عنيفة ضدهم، أو أن تتجاهلهم حسب مقتضيات الأحوال. وهكذا صارت المسيحية ديناً محرماً. ولكن لم تكن الحكومة

الرومانية تمارس اضطهاد المسيحيين بصورة منتظمة، بل كان اضطهادهم أو عدم اضطهادهم، يتوقف – منذ ذلك الوقت – على مزاج الإمبراطور الحاكم وعلى طبيعة ادارته وحكمه، ونشاط حكام الأقاليم، وعلى حالة الشعور العام تجاههم. وليس هناك دليل مبكر على أن الاضطهاد نيرون قد امتد إلى خارج روما. ولكن من الطبيعي أن المثال الذي قدمه الإمبراطور كان – بالضرورة – قدوة لكل الحكام في الإمبراطورية. وقد خلقت النهاية العاصفة لحكم نيرون، والأيام المضطربة التي سبقت ارتقاء فسباسيان، جوًّا مواتياً للمسيحية.

ويبدو أن الرسول بولس – بعد تبرئته عند المحاكمة الأولى أمام الإمبراطور – واصل نشاطه التبشيري بدون عوائق غير عادية، حتى استدعي إلى روما للمرة الثانية. والاضطهاد في عهد نيرون له أثر بالغ في تاريخ المسيحية، فقد بدأ نيرون في اضطهاد المسيحيين، فخلق بذلك سابقة لمن جاءوا بعده من الحكام. كما أن المتاعب بدأت أولاً في عاصمة العالم ثم انتقلت في المرحلة التالية إلى الشرق ثم إلى أفريقية ثم إلى الغرب. ولكن حتى ذلك الوقت ظل الاضطهاد محلياً. وكان نيرون أول المضطهدين الرومان، وقد انتهت حياته نهاية مفجعة مثل هيرودس أغريباس، وهي حقيقة ملفته للنظر وقد علق عليها كثيراً"لاكتانتيوس" (*Lactantius*) وغيره من الكتَّاب المسيحيين.

٢ - <u>فترة حكم أسرة فلافيوس (٦٨ م – ٩٦ م)</u> :

يري سير "رمزي" أن الأباطرة الفلافيين حوَّلوا النظام – الذي وضعه نيرون لمعاقبة المسيحيين على جرائم محددة – إلى تجريم المسيحية ذاتها. فقد رسم اضطهاد نيرون منهجاً للدولة الرومانية – فيما بعد – لموقفها من الإيمان الجديد،

فلم يستطع الأباطرة الفلافيون أن يحيدوا عن النهج الذي رسمه نيرون. وكانت المسيحية آخذة في الانتشار وبخاصة في الشرق وفي روما نفسها. وليس لدينا أي خبر عن أي اضطهاد في عهد "فسباسيان" رغم أن "هيلاري" يذكره – بطريق الخطأ على أنه مضطهد مثل (*Decius*) نيرون و"ديسيوس"، وكذلك لا نقرأ عن أي اضطهاد في عهد ابنه تيطس. ولكن لا يعني ذلك أنه لم يحدث في عهديهما أي نوع من الاضطهاد، حيث أن الأمر كله كان منوطاً بإدارة الشرطة، ولابد أنه وقعت بعض أحداث العنف بين الحين والآخر حسب الظروف المحلية. ولابد أنه كان لسقوط أورشليم من أثر على الديانة اليهودية، مثلما كان لسقوط روما – على يد القوط والوندال والجرمان – من أثر في ديانة روما، فقد أضعف فكرة وجود إله قومي يرتبط بديانة سياسية ، واتسعت الهوة بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية، فتحررت المسيحية من نفوذ اليهودية.

كما أن اليهود– بعامة – أدركوا وقتئذ عدم جدوى الأحلام السياسية، وأصبحوا أكثر استعداداً للانضمام للإيمان المسيحي، وأصبح التمييز بين المسيحية واليهودية واضحاً، كما زادت المقاومة والعداء. ومع أن فاسبسيان قد فرض الضريبة على كل شخص بالغ من المسيحيين من أصل يهودي، ومن اليهود على السواء، ولكن لا يذكر التاريخ شيئاً عن حدوث عنف على المسيحية في عهد فاسباسيان. كما لم يعرف عن تيطس أنه كان مضطهداً، إلا أن رأيه في اليهودية والمسيحية – كما سجله في مجلس الحرب

أمام أورشليم في ٧٠ م ، والذي نقله لنا " سولبيشيوس ساويروس" (*Solpicious Severus*) يستلفت النظر لموافقته على السياسة التـي بـدأها نيرون. ولا شك في أن "ساويرس" قد

نقل ذلك عن "تاسيوس" دون تمحيص، حيث أنه يناقض مـا ذكـره "يوستيوس". ويدافع تيطس عن تدمير الكهنة بأنه أراد أن يستأصل ديانـة اليهود والمسيحيين تماماً، حيث أن هاتين الديانتين – رغم معارضة إحداهما للأخرى – هما من أصل واحد فقـد خرجـت المسـيحية مـن تحـت عبـاءة اليهودية، فإن استؤصل الأصل، فلا بد أن يبيـد الفـرع سريعـاً. إلا أننـا لا نعرف أي إجراءات عنيفة قام بها تيطس ضد أي منهما مباشرة، ولعـل مـدة حكمه القصيرة لم تمهله لذلك.

ويبرز "دوميتيان" كمضطهد واضح، في تلك الحقبة من التاريخ، كما برز نيرون في الحقبة الأولى، ولم تكن إجراءاته ضـد المسـيحيين عمـلاً قـائماً بذاته، بل كان جزءًا من سياسة عامة قاسي منها غيرهم. فكان حكمه عودة للمبادئ القديمة. وقد حـاول إصـلاح الأخـلاق، والقضـاء عـلى الـترف والرذيلة، والطقـوس الشـــرقية اللاأخلاقيـة، وأن يـتخلص مـن الممثلـين والفلاسفة والمنجمين. وفي محاولته لإحيـاء الديانـة القوميـة اصـطدم بهـذا الدين العالمي الجديد. وقد حكم بالموت على ابن عمه "فلافيوس كليمنس" (*Flarius Clemens*) لاعتناقه المسيحية (أو الإلحاد في نظر دوميتيان)، كما نفى زوجته "دوميتيلا " (*Domitilla*). ولم يكن الاعتراف بالمسيحية تهمـه كافيه لإدانة المواطنيين الرومانيين من الطبقة العليا، فكانت تلصق بهم تهمة

الالحاد أوالسحر، ويندرج تحت ذلك رفض الخضوع لدين الآلهة القومية. أما بالنسبة للمواطنين الرومانيين من عامة الشعب، وشعوب الولايات المختلفة، فكان مجرد اعتناق المسيحية يستحق الحكم بالموت. ولم يصدر الإمبراطور مرسوماً محدداً أو

حظراً عاماً، ولكن استمر العمل بالمبدأ الذي وضعه نيرون. وقد كان هناك – كما يقول "مومسن" (*Mommsen*) حظر ساري المفعول على المسيحيين، كما على قطَّاع الطرق، إلا أن الإجراءات العنيفة ضد الفريقين، كانت تحدث في نوبات غير منتظمة بناء على أهواء حكام الأقاليم. وقد اتخذ دوميتيان خطوة واحدة محددة ضد المسيحيين حين وضع اختباراً سهلاً للتعرف على المسيحيين، ومن ثم يسهِّل عملية البحث والتحري. وكان هذا الاختبار هو أن يطلب منهم السجود لتمثال الإمبراطور. وكان هذا الأمر أيضاً جزءاً من سياسة دوميتيان العامة، لتأكيد سيادته وألوهيته وترسيخ عبادة الامبراطور كرباط للوحدة السياسية للامبراطورية. ويعكس سفر الرؤيا معاناة الكنيسة في عهد هذا الإمبراطور.

٣ - مدة اسرة الأنطونية (٩٦ – ١٩٢ م):

نرفا وتراجان: (*Tragan&Nerva*):

بموت دوميتيان استعادت الكنيسة سلامها الذي استمر خلال الفترة القصيرة لحكم نرفا (٩٦ – ٩٨ م)، والثلاثة عشر عاماً الأولى من حكم تراجان. ومن العجيب أن البعض من أفضل الأباطرة الرومان (تراجان، ماركس أوريليوس، وديثيوس ودقلديانوس) كانوا قساة على

المسيحيين، في حين أن البعض من أسوأ الأباطرة (مثل "كومودوس" (*Commodus*) و"كاركلا " (*Caracalla*) و "هيلوجابلوس" (*Heliogabalus*)) تركوا المسيحيين في سلام. وكانت المسيحية تنتشر بسرعة في فترة الهدوء. ولما تولى "بليني" حكم ولاية بيثينية في ١١١ م، ووجد – وبخاصة في القسم الشرقي من ولايته

أن المعابد والهياكل تكاد تكون مهجورة تماماً، أحضر أمامه بعض المسيحيين، وعلى أساس ما فعله سابقوه، أمر باعدامهم بسبب ديانتهم. إلا أن بليني سرعان ما اكتشف تورط الكثيرين جداً من الرجال والنساء ومن كل الأعمار، ومن المواطنيين الرومان وسكان الولايات. فأرسل المواطنين الرومان إلى روما لمحاكمتهم. ولكن بسبب نزعته الانسانية، استنكف من إعدام كل المسيحيين، كما كانت تقتضي السياسة العامة للدولة.

وكتب بليني إلى الإمبراطور تراجان، يخبره بما قام به بالفعل، محبذاً – بطريقة خفية – ابداء التسامح معهم، ومتسائلاً ألا يجب التمييز بين المسنين والشباب؟ ألا نغفر لمن ارتدوا عن المسيحية وسجدوا لصورة الإمبراطور، ولعنوا المسيح؟ أيكون مجرد الإعتراف باعتناق المسيحية جريمة تستحق الموت دون اثبات جرائم أخرى، أم يجب معاقبة ما يصاحب ذلك الإيمان من جرائم، ثم بعد ذلك يشرح أسلوبه هو، فقد أعطى المتهمين فرصة للارتداد. أما الذين ثبتوا على الإيمان فأعدمهم، حيث اعتبر عنادهم و إصرارهم – في حد ذاتيهما – يستحقان العقاب، إلا أن الإدارة بتدخلها وجدت الكثير لتفعله، فقد قدمت لها عريضة مجهولة بها أسماء كثيرة، أنكر

غالبيتهم أنهم مسيحيون، وقد قام الوشاة أسماء أخرى كثيرة، وقد انكر أولئك بالمثل انتمائهم للإيمان المسيحي، وكان بيليني مقتنعاً تماماً بأن اجتماعات المسيحيين تخلو من الضرر، وبتعريض اثنتين من الخادمات للتعذيب، لم يكتشف سوى أوهام متطرفة خاطئة، وأجاب تراجان بأنه لا يمكن وضع قاعدة عامة محددة وشاملة، وكان من الواضح أنه يؤيد صحة ما فعله بليني، وربما لم يكن يتفق تماماً مع بيلني في اقتراحاته التي تتسم بالانسانية، **ومع ذلك فقد أصدر الإمبراطور ثلاثة قرارات هامة:**

١. يجب ألا تبحث سلطات الشرطة عن المسيحيين، لكن إن اتهموا وادينوا فيجب معاقبتهم.
٢. ألا تقبل البلاغات المجهولة ضد المسيحيين.
٣. المشتبه فيهم يعفون من العقاب متى ثبت أنهم لم يكونوا مسيحيين،أو أنهم انطروا المسيحية.

وقد اعتبر البعض أن هذا القرار من تراجان، كان أول تقنين رشمي لحطر المسيحية ولكننا سبق أن رأينا أن المسيحية تم حظرها بناء على محاكمات نيرون علاوة على ذلك، ليس هناك أدنى أثر لأي مبدأ جديد لاستخدام القسوة، لا في خطابات بليني وزلا في إجابة تراجان، فلم يكن اضطهاد المسيحيين امراً منظماً أو عاماً كما لم تكن إجابة تراجان مرسوماً بالتسامح، إلا أنها في مجملها كانت في صالح المسيحيين، إذ قللت من المخاطر التي يترعضون لها وكان الأمر كله متعلقاً بالإدارة.

لم يستحدث تراجان أي أجراء ضد المسيحيين، كما لم يشجع أي إجراء ضدهم وطلب من قائد الجيش أن يتغاضي عن المذنبين في هذا الخصوص، وقد استشاره "بيليني" على أمل إقرار معاملة أكثر اعتدالاً للمسيحيين بأن وضع في صيغة سؤال، ما كان يرغب هو فعليا في الموافقة عليه إن جواب تراجان وضع نهاية للنظام القديم من "العداء الذي لا يلين".

هادريان: كانت فترة حكم هارديان (١١٧ – ١٣٨م) فترة تسامح مع المسيحيين، فلم يكن هارديانن متعصباً بل منفتحاً يبحث في كل الأديان والكثير من الأسرار، وكان على استعداد لترك الحرية لكل الأديان، وفي أسيا حيث كانت المسيحية تنتشر بشدة، حدثت حالة من الرعب بسبب تشجيع الوشاة ضد

المسيحيين فكان أي شخص يعترف بالمسيحية معرضاً للتهديد من الوشاة من أجل الحصول على رشوة وقد وجد "ليسنوس سلوانس جرانيانوس" – مثل بيليني– نفسه في مواجهة مشاكل في هذا الخصوص، فكتب إلى هارديان يطلب النصيحة وقد وصل جواب هارديان الى خليفة "جرانيانوس" وهو "مينوسيوس فوندانوس" وإلى آسيا (حوالي ١٢٤ م)، وقد طعن في اصالة هذا المستند الهام "افربك" و "كايم" و "لايتفوت" و "السير وليم رمزي" وفي الحقيقة نرى أنها وثيقة أقرب إلى الصالة منها إلى الزيف، لأنه من سوى هارديان – المتفتح الذهن – كان يمكنه أن يكتب مثل هذا الجواب؟ ومن الجلي أن المسائل التي رفعها الوالي الى هارديان

كانت مشابهة للمشاكل التي رفعها بيليني الى تراجان، وكانت إجابة هارديان خطوة حاسمة لصالح المسيحية، خطوة أبعد ما جاء في جواب تراجان، **وكان جواب هارديان يسير على الخطوط الآتية:**

١- لا يمكن تجاهل الوشاة، لئلاً يعاني الأبرياء (كما كان في عهد بيليني)، ولئلاً يتاجر الوشاة في تقديم الاتهامات.

٢- على من يتهمون المسيحيين أن يثبتوا أن المتهمين قد ارتكبوا ما يخالف القانون.

٣- ليس مسموحاً بتقديم عرائض أو القيام بمظارهات ضد المسيحيين.

٤- إذا لم يستطع الواشي اثبات دعواه، فلابد من عقابه.

وهذه المواد زادت كثيراً من المخاطر أمام الوشاة، وقللت من الأخطار التي يتعرض لها المسيحيون، ولم يرد بها اعتبار مجرد الاعتراف بالمسيحية جريمة، ولكن لم ينسخ هذا المبدأ أيضاً ولعل جواب هارديان قد اعطى دافعاً معيناً نحو استخدام اجراء أكثر تحديداً وأدق انتظاماً.

٤ - انطونيونوس بيوس (من ١٣٨ – ١٦١ م):

وقد واصل انطونيونس سياسة تراجان وهارديان إلا انه حدث اضطهاد في عهده حيث أعدم "بطلماوس" و "لوكيوس" في روما، كما أعدم "بوليكاربوس" أسقف سميرنا، إلا أن انطونيوس أيد بشدة سياسة هارديان في حماية المسيحيين الذين لم يحكم عليهم ضد عنف الرعاع، وذلك في خطاباته إلى "لاريسا" واثينا وتسالونيكي وإلى "كل الهيلينيين".

٥ - **ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠ م):**

بدأ تحت حكم أوريليوس رد فعل قوي كان له أثره على المسيحيين، وذلك بسبب حوادث الحدود وتفشي الوباء، كما إلى سياسة أوريليوس التي كانت تهدف أغلى العودة الى المبادئ القديمة وإحياء الديانة الرومانية القومية، وفي عهده امتد الاضطهاد الى الغرب (الى بلاد الغال أي في فرنس) وعلى أفريقية كمقدمة للاضطهاد العام الذي حدث في القرن الثالث ورغم أن اورويليوس لم يقم عملياً بإجراء أي تغيير إلا أنه لم يكن هناك التسامح الذي ميز العهود الثلاثة السابقة، حقيقة أنه لم يصدر أي مرسوم عام أو قرار محدد بالاضطهاد، وتعود حالات الاستشهاد العديدة التي سجلت في ذلك العهد إلى كثرة الكتابات المسيحية المفصلة التي وصلتنا عن ذلك العهد.

ظلت المسيحية – في حد ذاتها – جريمة، كما أن عناد المسيحيين وحده كان يكفي سبباً للعقاب، ولكن يبدو أن اوريليوس قد لام الحكام على صرامتهم في "لوجدون"، ولم يشجع الوشاة ضد المسيحيين، بل أن "ترتليانوس: وصفه بأنه "حامي المسيحيين": ومن ثم لا نجد في ذلك العهد أي محاولة جادة أو منظمة للقضاء على الإيمان الجديد، وظلت الإدارة المركزية: "طوال ذلك الوقت بلا أي سياسة ثابتة نحو المسيحيين، غذ يبدو أن الدولة لم تكن قد حزمت أمرها بعد (كما يقول هاردي).

أما في عهد "كومودوس" (١٨٠ – ١٩٢) فقد تمتع المسيحيون بالراحة، ويعتقد أن هاردي ان التنظيم المسيحي لم يكن يعتبر خطراً جسيماً على الإمبراطورية في القرنين الأول والثاني، فلو أن روما رأت مثل هذا الخطر في المسيحية، أو انها امبراطورية داخل الإمبراطورية، لبدأت سياسة إبادة منظمة خلال الفترة التي كانت فيها المسيحية أضعف من أن يقاوم، وعندما أدركت الإمبراطورية مدي خطر المسيحية عليها – كما حدث في القرن الثالث الميلادي – اتخذت اقسى الإجراءات، كانت المسيحية قد أصبحت أقوى من أن تضار أو تنهار، وقد أخذت الإمبراطورية منذ ذلك الحين في الضعف والاستسلام.

٦ - **الأسر المتغيرة (١٩٢ – ٢٨٤ م):**

وفي الفترة التالية التي سادها عدم الاستقرار، إذ تعاقب على العرش في أقل من مائة عام، نحو عشرين إمبراطوراً بدا كل منهم أسرة حاكمة جديدة، مما سمح للمسيحية أن تنتشر بلا متاعب تقريباً، كما أن حروب القبائل المتبربرة المستمرة، وضورة اليقظة الدائمة عند نقط الحدود أو جدت ظروفاً مواتية

للمسيحية، كما أن ابتعاد المسيحيين عن حلبة الصراع السياسي، مع قبولهم لكل أسرة حاكمة جديدة، حفظهم من الصدام مع الحكام الجدد، بالإضافة إلى أن العديد من هؤلاء الأباطرة لم يكونوا رومانيين أصلاً بل أجانب لا ارتباط قوي لهم بالإيمان الروماني القديم، ولم تكن أفكارهم الدينية متزمتة، وكل ذلك كان بالغ الأهمية لإيمان الجديد القادم من الشرق،

كما أتيت بعض الأباطرة أنهم لم يكونوا غير معاديين للمسيحية فحسب، بل متعاطفين معها، فلم يحدث في هذه الفترة أي اضطهاد شرس _ ربما باستثناء ما حدث في عهد "ديسيوس"، وبالتأكيد لم يحدث اضطهاد طويل الأمد في تلك الفترة، كما أن الكنيسة ذاتها كانت قد نزمت نفسها على مبادئ الادارة الإمبراطورية، ومن ثم أصبحت قوية متحدة، حتى عندما هبت عليها العواصف، لم تهتز، ففي ٢٠٢ م بدأ "ساويروس" اضطهاداً قاسياً في افريقية ومصر، إلا أن "كاراكلا" المتقلب أعاد لها السلام، أما "هيلو جالبوس"، **فقد ساند المسيحية بطريق غير مباشر:**

١- بتحقير الديانة الرومانية.

٢- بالتسامح، وقد عرض – حسب أحد الكتاب – أن يمزج بين المسيحية واليهودية والسامرية في ديانة واحدة، كما كان "الكسندر ساوريوس" متسامحاً يسعى للتوفيق بين الديانات، فقد وضع في معبده الخاص تماثيل لكل من اورفيوس وأبولونيوس وابراهيم والمسيح ويقال أنه كان في نيته إقامة معبد للمسيح وقد تفجر اضطهاد محلي في عهد "ماكسيمن التراقي" أما أول اضطهاد عام فكان في عهد "ديسيوس" **وفيه نقتطان تستحقان النظر:**

١. لم يكن الموت هو العقوبة المباشرة للاعتراف بالمسيحية، بل استخدمت كل وسيلة ممكنة لحث المسيحيين على ارتداد وإنكار المسيح.

٢. وجهت السلطات الرومانية كل جهودها – بصفة خاصة – إلى المسؤولين في الكنيسة، بعد أنم أدركت هذه السلطات خطورة التنظيم المسيحي، وقد واصل "جاليوس" هذه السياسة أما "فاليرون" فبعد أن وقف الاضطهاد سعى إلى الحد من الانتشار هذه الديانة بنفي الأساقفة وغلق الكناس، ثم بعد ذلك أصدر قانوناً يقضي بعقوبة الموت، وقد أصدر "جالينوس" أول قرار فعلى بالتسامح ومنع الاضطهاد ورد الأملاك المسيحية وبذلك دخلت المسيحية فترة أربعين سنة من الهدوء، وبنقص المخاطر الخارجية أمامها قل عدد الراغبين في الإيمان، انهمك أعضاؤها الانشغال بالأمور العالمية، ولم يوقف هذا الانحدار إلا اضطهاد دقلديانوس.

٣- من دقلديانوس حتى صدور أول مرسوم إمبراطوري بالتسامح (٢٨٤ – ٣١١م): كان دقلديانوس – مثل بعض المضطهدين الآخرين – واحداً من أقدر الحكام الرومكان، ولم يكن ميالاً إلى الوقوف ضد المسيحيين، إلا أنه اضطر أخيراً –بسبب زوج ابنته "جاليريوس" إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ولم يكن مقصوداً من أول مرسوم أصدره دقلديانوس في الربع والعشرين من فبراير سنة ٣٠٣ م إبادة المسيحية، بل كان القصد منه الحد من نموها وإضعاف تأثيرها السياسي وكان موجهها أساس ضد الكتب المقدسة والكنائس والاجتماعات المسيحية، آما المرسوم الثاني فكان ضد النظام الكنسي،

٤- وقد ضمن المرسوم الثالث الحرية للمرتدين عن المسيحية، لكنه

٥- سعى إلى إجبار المسيحيين العنيدين على الخضوع بتعذيبهم، وكان هذا اعتراف ضمنياً بفشل الحكومة الإمبراطورية وبعد أن ألغيت عقوبة الموت، أصدر "مكسيمين" مرسوماً رابعاً بإعادة عقوبة الموت ومطالبة المسيحيين بتقديم الذبائح للآلهة، وفي نفس السنة في ٣٠٤م اقتنع دقلديانوس بعدم جدوى هذه الإجراءات، فأوقف عقوبة الموت ، فكان هذا التقلب في سياسة الإمبراطورية، ثم تنازله عن العرش في العام التالي، اعترافاً واقعياً بانتصار "الناصري".

وبعد ان استمر الاضطهاد ثماني سنوات (أو عشر سنوات لو حسبنا الاضطهادات المحلية بعد ٣١١ م) أصدر جاليورس – الذي أصابه مرض عضال – من مدينة نيقوميديا، مع قسطنطين وليسينوس أول مرسوم عام للتسامح في ٣٠ ابريل ٣١١م بعد أن كانت المسيحية في تلك الأثناء أثبتت أنها دولة داخل الدولة، وأخيراً تم الاعتراف بها كديانة قانونية ولو أنها لم تكن على قدم المساواة مع الوثنية.

٦- من أول مرسوم عام بالتسامح حتى سقوط الامبراطورية الغربية (٣١١ – ٤٧٦م): في هذه المرحلة اصبحت المسيحية – في البداية – على قدم المساواة مع غيرها من الديانات المنافسة، ثم علت فوقها، وأخيراً أصبحت الديانة الرسمية للدولة في الشرق والغرب، وما أن حصلت المسيحية على التسامح حتى اصبحت هي نفسها غير متسامحة، بل أضحت مضطهداً مريراً لكل الديانات المنافسة

٧- وللهرطقات، وبعد ان انتصر قسطنطين على "ماكسنتيوس" في موقعة "قنطرة ملفيان" في ٢٧

أكتوبر سنة ٣١٢ م، أصبح هو الحاكم الوحيد في الغرب وأصدر مع زميله "ليسنيوس" إمبراطور الشرق، مرسوم التسامح الشهير في ٣٠ مارس سنة ٣١٣ من مدينة ميلانو وبموجبه اكتسبت كل الأديان حقاً متساوياً في التسامح، وهكذا وقفت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية، وكان تعاطف قسطنطين مع المسيحية لدوافع سياسية في أكثره، فقد أراد أن يكون مع الجانب الفائز، ومع كل نجاح جديد كان يزداد ميلاً إلى المسيحية رغم أن حياته في مجملها كانت وسطاً، وكان يحلم بأن يمزج الوثنية والمسيحية في مجتمع واحد تحت نفس النظام القوانين والشرائع، فهو لم يحظر الوثنية بأي حال من الأحوال، وبتأسيس مدينة القسطنطينية، صارت المسيحية – في الواقع – دين الدولة، وهو تحالف أدى الى عواقب وخيمة على المسيحية، فقد بدأت عندئذ في خنق حرية الضمير التي قاست من أجلها كثيراً، وبدأ "الإيمان القديم" لفترة طويلة يمارس عدم التسامح، وقد ورث أبناء قسطنطين عن أبيهم طبيعته القاسية ومسيحيته الأسمية، كان قسطنطين قد ترك الوثنية والمسحية واقتين على قدم المساواة، وبدأ أبناؤه بعده في إبادة الوثنية بالعنف، وبعد أن صار قسطنطيوس الإمبراطور الوحيد ولأنه لم يرث عن أبيه الاعتدال والحذر، وبتحريض من النساء والأساقفة أصدر مراسيم تأمر بإغلاق المعابد ومنع الذبائح وقد تردد الحكماء من حكام الأقاليم، في تنفيذ هذه الإجراءات المتسرعة، وهكذا بدأت المسيحية في

السيطرة والهجوم، ولم تضطهد الوثنية فحسب، بل أن حزب الأغلبية في المسيحية حظر كل منافسيه، وفي هذه المرة هاجمت البدع والهرطقات "الإيمان القويم"، ولعل عنف أبناء قسطنطين وعدم تسامحهم وقسوتهم تبرر رد الفعل

لدى "يوليانوس المرتد" الذي قام بجهد خيالي لإعادة الدين القديم، وبينما كان يعلن التسامح مع المسيحية سعى إلى إضعافها بالسخرية من عقائدها، كما أوقف امتيازات رجال الدين، ومنع الكنيسة من قبول العديد من لهبات والعطايا، واستبعد المسيحيين من المراكز العامة، ومنع تعليم الكلاسيكيات في المدارس المسيحية خشية أن يصبح لسان المسيحيين أفضل في مواجهة حجج الوثنيين وأخيراً أضفى على العبادة الوثنية فخفخة ومهابة لجذب الناس إليها، إلا أن القوة الأدبية في المسيحية انتصرت على كل ذلك، وعند موته في احدى ساحات القتال في حربة مع الفرس، قال متأوها: "لقد انتصرت أيها الجليلي" (وهو يقول لا يستند الى مصدر ثقة)، واستمر الحياد الدينة مدة قصيرة بعد موته، وقد خرج "جراتيان" بتحريض من "امبروزيوس" (أسقف ميلان) عن هاذ الحياد فأزال تمثال النصر من مقر مجلس الشيوخ، ورفض أن يخلع على نفسه لقب وثياب الكهنة الأعظم، وحظر الذبائح الدموية وسدد ضريبة قاضية للديانة القديمة إذ سحب منها بعض الامتيازات المالية، وبذلك جعلها تعتمد على التبرعات الاختيارية، وقد اتخذ ثيودسيوس الأول –أو الكبير – سياسة دينية عنيفة تجاه كل من الهرطقة والوثنية، ويُعزي تعصبه الى امبروزيوس، الذي كان يعتبر أنه ليس

لليهود أو للوثنيين أو للهراطقة أي حقوق على الإطلاق، وهكذا بدأ التحريم المنظم للوثنية، ففي ٣٨١ م رفض حق إصدار "الوصية" للمترتدين عن المسيحية، وفي ٣٨٣ م أنكر عليهم حقهم في الميراث، وفي ٣٩١ م حرمت العبادة الوثينية العامة، وفي ٣٩٢ م حرم العديد من العبادات الوثنية الخاصة والعامة، وفرضت عقوبات أكبر على تقديم الذبائح، وهكذا ارتدت المسيحية

بربرية الوندال، ومارست كل أنواع العنف ومصادرة الأملاك، كثيراً ما كان الرهبان والكهنة يقودون الرعاع في هذه الأعمال، وواصل أبناء ثيودسيوس سياسة التمادي في قمع الوثنية، وقد عزل هونوريوس في الغرب في ٤٠٨ م الوثنيين من الوظائف المدنية والعسكرية، وفي مرسوم لاحق في ٤٢٣م أصبح بقاء الوثنية أمراً مشكوكاً فيه، وتثبت القوانين المتلاحقة ضد الارتداد، أن الوثنية كانت ما زالت مصدر جذب للناس، وقد صدرت في عهد فالتنبات الثالث ٤٢٣ – ٤٥٥ م وثؤدسيوس الثاني قوانين لهدم المعابد أو تحويلها إلى كنائس مسيحية، واستمر اضطهاد الوثنية في الغرب في ٤٧٦ م بالقضاء على الوثنية وقد عجل سقوط الإمبراطورية الغربية في ٤٦٧ م بالقضاء على الوثنية نهائياً وفي الشرق أغلق وبروح استبدادية منعت العبادة الوثنية في الخفاء تحت طائلة العقاب بالموت.

خامساً– انتصار المسيحية وتحول الإمبراطورية الرومانية إليها:

تـم الآن الاعـتراف بالمسـيحية ديانـة رسـمية للغـرب والشـــرق، وصارت المسيحية من القوة حتى أنها ضمنت اليها المتبربرين الذين استولوا على الغرب، فكبحت جماحهم وعلمتهم تحت قيادة البابويـة حتـى امتـدت انتصارها إلى ما وراء حدود الإمبراطورية الرومانية.

وينسب "ميريفال" تحول الإمبراطوريـة الرومانيـة إلى المسـيحية إلى أربعة أسباب هي:

١- الدليل الخارجي الظاهر في اتمام النبوات وعمل المعجزات.

٢- الدليل الداخلي في إشباع الاحتياجات الروحية للناس وتقديم الفادي لهم.

٣- نماذج الحياة النقية، والاستشهاد البطولي، للمسيحيين الأوائل.

٤- النجاح الذي حققة المسيحيون في عهد قسطنطين.

ويعلـل "جيبـون" ظـاهرة نجـاح المسـيحية في الإمبراطوريـة الرومانية بما يلي:

١. حماسة وغيرة المسيحيين الأوائل.

٢. اعتقاد المسيحية في الخلود مكافآت وعقوبات في المستقبل.

٣. المعجزات.

٤. القـانون الأخلاقـي السـامي والفضـائل النقيـة الواضـحة في حيـاة المسيحيين.

٥. التنظيم المسيحي الكنسي القوي حسب نظم الإمبراطورية.

إلا أنه ما من قائمة من قوائم هذه الأسباب تكفي لتعليل نمو ونحاج ديانة يسوع الناصري.

أ - أسباب سلبية:

كان لانتصار المسيحية – في المقام الأول – أسباب سلبية – منها: الإفلاس الأدبي والروحي للعالم القديم، والفساد الداخلي وانحلال الأنظمة الوثنية، وقد فشلت كل الديانات القومية القديمة، وهجرها جميع الفلاسفة وجماهير الشعب، ولم يكن تقديم ديانة عالمية للإنسانية كلها، إلا في المسيحية، فقد تدهورت العبادات إلى مجرد شكليات بحته، لا تمنح القلب أي راحة، وأحس الناس بحاجة ماسة وملحة الى اعلان الهي، لا يمكن لديانة فلسفية أو طبيعية أن تشبعها.

ب - أسباب ايجابية:

ولكن يرجع نجاح الدين الجديد أساساً إلى أسباب ايجابية، من بينها الحماسة والغيرة للإيمان المسيحي، والجدية الصادقة في الحياة وفي الكرازة، وقد تجلت صفاتها الأصيلة الخالصة – على أفضل ما يكون – في اتباعها في وسط الاضطهاد، كما في الموت البطولي لشهدائها، أما الوثنية فرغم تحالفها مع القوة المدنية، ورغم ماضيها الأسطوري، فلم يكن في مقدورها مواجهة الاضطهاد، وعندما اضطرت الوثنية الى الاعتماد على الهبات التطوعية، لم يمكنها ان تنجح كما حدث مع المسيحية، ومثلها العليا في إنكار الذات، وقد بلغت جدية المسيحية الأولى الذروة لاعتقادها في المجئ الثاني الوشيك

للرب ونهاية الدهر، كما أن وسائل الاتصال ساعدت المسيحية كثيراً في انتشارها، وكانت أهم وسيلة لها هي الحياة المثالية لإتباعها، وقد قابلت المسيحية القوة السياسية بالقوة الأدبية والروحية، علاوة على أنه عندما درس المفكرون – في العالم القديم – المسيحية وجدوها تطابق اسمى مبادئ العقل والطبيعة، إلا أن السبب الرئيسي في نجاح المسيحية، هو توافق تعليمها مع الطبيعة الروحية للانسان، وكانت هناك جدية عميقة عند قطاع كبير من العالم القديم، قدمت له المسيحية السلام والراحة والقوة المنشودة، كما كان في المسيحية أيضاً ميزة ضخمة جدا فوق كل الأديان المنافسة لها في الامبراطورية الرومانية، وهي ملاءمتها لكل الطبقات في كل الظروف والتغيرات ، فلم يكن فيها شئ محلي أو قومي، كما قدمت أعظم صورة للنموذج المعاصر عن الأخوة ، كما ان احترامها للمرأة قد أكسبها العديد من المؤمنين، فكانت المسيحية – في هذا الصدد – أسمى جداً من عبادة "مثرا"

منافستها العظمى، وفي عصر التغيرات الاجتماعية الكبيرة والعديد من الكوارث والمحن، استهوت المتألمين بانكارها لنفسها وسعيها الدائب من أجل سعادة الآخرين، وكقانون أخلاقي كانت المسيحية أسمى وأنبل من كل النظم والعبادات المعاصرة أنا الميزة التي لا تقدر بثمن والتي تفوقت بها المسيحية على كل الديانات والفلسفات الأخرى، فكان ما في حياة يسوع المثالية الكاملة من سحر وقوة وجمال وروعة ، فقد كان شخص يسوع مثالا وحافزا للحياة الاسمي أمام كل الفلاسفة وعامة الشعب ، أقوى من كل

فضـــيلة مجــردة أو كـــمال ، ويقـــول "ليكـــي" في كتابــه "تـــاريخ الأخلاقيات" لقد أمكن للمسـيحية أن تعمـق جـذورها في قلـوب النـاس لأنها كانت مثالاً للأشواق الأدبية لذلك العصـر ، ولأنها جسـمت بصـدق المثل الأعلى للسـمو الـذي كـان يسـعي اليـه البشرـ، ولأنهـا تجاوبـت مـع احتياجاتهم الروحية وأهـدافهم وعـواطفهم، ولأن الكيـان الروحـي كلـه للإنسان استطاع أن يتسع ويمتد من خلال تأثيرهـا " أضـف الى كـل هـذه الظروف المواتية المذكورة آنفاً في البند ثانياً "الأعداد للمسيحية" – وبذلك يمكننا أن نفهم كيف تحولت الامبراطورية الرومانية الى ملكوت المسيح .

الفصل الخامس عشر
بداية النزاع بين البابوية والإمبراطورية

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين البابا جريجوري السابع *Pope Gregory VII* والإمبراطور هنري الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١٠٥٦-١١٠٥) حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة وبخاصة في شمال إيطاليا، إذا صر كل من البابا والإمبراطور علي أن لكل منهما الحق في سيامة الأساقفة وتمسك كل منهما برأيه لأنه رأي أن في انتصار خصمه تحطيمًا للمبدأ الذي يسعى هو من أجله.

فهنري الرابع وجد في تمسكه برأيه محافظه على حقه الذي ورثه عن أسلافه، وأن تمسكه بفرض رأيه أمر تتوقف عليه هيبته في إيطاليا وغير إيطاليا من بلاد الإمبراطورية، لذلك أسرع بتعين اثنين من أتباعه على أسقفيتي فرمو *fermo* وسبوليتو *spoleto*، على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلاً في دائرة اختصاص البابا.

أما جريجوري السابع فقد تمسك من جانبه بنظرته السمو البابوي بحكم أن البابا خليفة السيد المسيح على الأرض ووريث القديس بطرس في الغرب، كما اعتبر نجاحه في فرض رأيه على الإمبراطور أمرًا تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية، فضلاً عن سياسته في الإصلاح الكنسي- وهي السياسة التي شرع فعلًا في تنفيذها.

ثم تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنـري الإمبراطـور أسـقفًا جديدًا لميلان هو الأسـقف تدالـد *tedald* في عـام ١٠٧٥، وحينئـذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع، ويبدو أن البابـا جريجـوري السـابع كـان مستعدًا عندئذ التحدي والصراع.

فأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى هنري الرابع في أواخر عـام ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والعذاب أن هو لم يخضع لـرأي البابويـة، وفي ذلك الوقت ثارت ثائرة الإمبراطور فعقد تجمعًـا في ورمـز *worms* في يناير ١٠٧٦ قرر فيه بطلان انتخاب البابا جريجوري السابع بل وعزله مـن منصبه.

وعندما سمع البابا بذلك القرار قابله بهدوء، ودعا هو الأخـر بعقـد مجمع في الفاتيكان في فبراير ١٠٧٦ قـرر فيـه توقيـع الحرمـان عـلى هنـري الرابع وعزله من منصبه وتحريـر جميـع رعايـاه وأتباعـه مـن إيـمان الطاعـة والتبعية التي اقسموها له. (انظر المزيد عن هذا الموضوع هنا في موقع الأنبا تكلا في أقسام المقالات والكتب الأخرى). وبـذلك بـدأت الحـرب بيـنهما ومع أن موقف الطرفين كان حرجًا وصعبًا إلا أنه مـن الواضـح أن هنـري الرابع وجد نفسه في موقف أصعب من خصمه، لأن البابا كان يسـتطيع أن يعتمد على عطف كثير مـن أبنـاء العـالم المسـيحي بوصـفه الأب الروحـي للكنيسة، في حين كان هنـري الرابـع لا يسـتطيع حتـى الاعـتماد عـلى ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا قراره بالحرمان بوصفه مسيحيًا وعقوبة العزل بوصفه ملكًا.

وبعبارة أخري فإن كفتي البابوية والإمبراطورية لم تكونـا متعـادلتين أبـداً عنـد بدايـة النـزاع بـل طيلـة أدوار النـزاع الآتيـة، لأن البابـا كـان يستطيع أن يعتمد دائمًا على أسلحه قويه أهمها شعور الشـعب مـن حولـه، فضلًا عن الأسانيد المستفادة من الكتاب المقدس التي تعطي البابا هذا الحق العظيم، **في حين استند الإمبراطور فيما ذهب إليه إلى:**

١. القانون الروماني الذي يمجد الإمبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها.
٢. الجيش الإمبراطوري الذي ثبت عجزه في أكثـر مـن مناسـبة عـن إخضاع البابوية.
٣. والواقع أن الإمبراطور لم يجد له نصير سوي تلك الفئة قليلة العدد من رجال الدين والإيمان الذين عرفوابالسيمونية وسـوء السـيرة، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلفية مـا يجعـل مـنهم سندًا حقيقيًا للإمبراطور، أما ذو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعًا البابوية في موقفها المعادي للملك.

وهكذا تلفت هنري الرابـع حولـه فلـم يجـد مـن يعتمـد عليـه مـن الدوقات والأمراء، إذ كانوا جميعًا يخشون نزعته الاستبدادية، فكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها مجمعًا في تريبـور *tribur* في أكتـوبر ١٠٧٦ وقـرروا فيه الخروج على طاعة هنري الرابع وإنـذاره باختيـار إمبراطـور غـيره عـلى ألمانيا إن لم يغفر له البابا في مده أقصـاها فبرايـر ١٠٧٧ م عـلي أن يقضـي الفترة ما بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ في أحـد الأديـرة محرومًـا مـن الإمبراطورية.

وكان أن انسحب هنري الرابع إلي ذلك الدير الذي جعل يفكر فيه في حاله، وان كان الموقف لم يكن في حاجه إلى تفكير، ذلك أنه وجد نفسه وحيدًا أمام خصم عنيد لا يرحم، فلابد له من التراجع والاستسلام إذا أراد إنقاذ عرشه، مما تطلب من هنري الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه في ألمانيا فيؤدي ذلك إلى مظاهره عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد في موقفه، واخيرًا لم يجد الإمبراطور هنري الرابع حلًا أمامه سوى أن يرحل سرًا إلى البابا، في الوقت الذي كان البابا قد بدأ رحلته إلى ألمانيا، ولكنه أسرع عندما علم أن خصمه هنري الرابع عبر الألب ساعيًا إليه، واحتمي البابا في قلعه "كانوسا" التابعة لماتيلدا ملكه تسكانيا، وكان البرد قاسيًا عندما اخذ هنري الرابع يصعد الطريق الجبلي الوعر إلى قلعة كانوسا، حيث بقي ثلاثة أيام واقفًا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة في وجهه، حتى تعطف عليه البابا وسمح له بالمثول بين يديه على شرط بأن يسلم للبابوية بكل ما تطلبه دون أي قيد وكان ذلك في يناير ١٠٧٧.

ويُقال أن الإمبراطور دخل على البابا حافي القدمين مرتديًا ثوبًا من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف الخشن، حتى إذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتمي عند قدميه وانفجر باكيًا وهو يصيح "اغفر لي يا أبتاه المقدس".

فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطًا قاسيه وزوده بالنصح والإرشاد، وقد اكتسب بهذا هنري الرابع غفران البابا وطالب بولاء رعاياه ولكن بعد أن دفع الثمن غاليًا، كلفه كرامته ومكانته، فها هو حاكم الإمبراطورية العظيم بذل نفسه أمام البابا ويعترف للبابوية بحقوقها كاملة حتى حرمانه من

رعاية الكنيسة وعزله من منصبه، وها هو حليفه قيصر وشارلمان ارتضى أن يقف البابا منه موقف الحكم بينه وبين شعبه أن شاء أمرهم بالخروج على طاعته، وان شاء أمرهم بالامتثال له، لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التي أنزلها البابوية بالإمبراطور في كانوسا كانت قاصمه، وان الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقًا بعد ذلك.

المرحلة الثانية من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية:

مرّ قرابة قرن من الزمان ووصل إلى كرسي البابوية البابا ادريان الرابع *Pope Adrian IV* ووصل إلى الإمبراطورية فردريك الأول، وجعل كل منهما يسعى لتقويه مركزه خصوصاً وأن كلا منهما كانت له شخصيته القوية بالإضافة إليالحروب الصليبيه (حروب الفرنجة) التي كانت رحاها دائرة في الشرق.

فلما بدأ الإمبراطور يجور على حقوق البابا حتى أنه حبس كبير أساقفة لوند الذي كان صديقًا حميمًا للبابا ادريان الرابع، وعندما دخل مندوب البابا على الإمبراطور عام ١١٥٧ حياه بعبارة غريبة هي "أن البابا يحيك كوالد والكرادلة يحيونك كأخوة".

فدهش فردريك من هذه التحية التي جعلت من الكرادلة أخوة مساويين للإمبراطور، كما أن الإمبراطور دهش من رسالة البابا المرسلة إليه والتي احتوت عبارة مؤداها أن التابع الإمبراطوري يعتبر منحه من البابا، فالبابا بذلك يمنح الإمبراطورية للإمبراطور، فثار لكرامته وأيده الأساقفة الألمان في ذلك لاحظ انقسام الكنيسة بين كنيسة ألمانية تتبع الإمبراطور وأخرى في روما تتبع البابا) أدرك الإمبراطور أن قبوله لهذه الرسالة هو تنازل عن حقه وإعلان تبعيته

لهذا البابا، ولذلك رد مدافعًا عن حقه: أننا نتسلم الإمبراطور من الله عن طريق انتخاب الأمراء، فأن شريعة الله تقضي بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفي الإمبراطورية والبابوية، كما قضت تعاليم القديس بطرس، بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (رسالة بطرس الأولي الآية ١٧) وعلي هذا فإن كل ما يقوله بأننا تسلمنا التاج الإمبراطوري إقطاعا من البابا يعتبر باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعليم بطرس الرسول.

وقع هذا الرد وقع الصاعقة على رأس البابا، وكان عليه أن يتجنب سوء الصدام بينهما ولوأن سوء النية قد توافر بين الطرفين، وان هذا الحادث قد كشف النقاب عن حقيقة شعور كل منهما تجاه الأخر ومهد الطريق لصدام قريب بينهما.

فالإمبراطور بدأ يدخل بنفوذه في منطقه نفوذ البابا في شمال إيطاليا وساعده على ذلك خوف بعض الآراء وضعفهم هناك بالإضافة إلى ضعف البابا نفسه لكبر سنة وتوفي في ١١٥٩ وخلفه الكاردينال رولاند باسم البابا اسكندر الثالث وظل في منصبه قرابة ٢٢ سنة (١١٥٩ - ١١٨١) تمسك أثناءها بحقوق البباوية ودخل النزاع إلى مرحله العنف بين الإمبراطور وبينه، لا سيما وأنه كانت تحكمها علاقات سيئة قديمة بينهما، فاستعمل البابا في روما سلاح الحرمان ضد بابا ألمانيا مما آثار الإمبراطور، وأراد أن يكسر أنيابه حتى بالسلاح لو استطاع، إلا أن أساقفة ألمانيا أنفسهم وهم التابعون له لم يوافقوه على أن يشهر السلاح ضد الكنيسة مهما كان الأمر، فتألف حلف علماني بزعامة الإمبراطور الذي ثار لكرامة الإمبراطورية، وعقد رجال الإكليروس في روما حلفًا واحد برئاسة البابا اسكندر قرارًا بحرمان الإمبراطور من رحمه الكنيسة.

وهنا نفذ الإمبراطور فكرته وهو استعمال القوه العسكرية فزحف على روما بجيش جرار، فهرب البابا إلى جنوب إيطاليا حيث النورمان المحاربين الأشلاء بالإضافة إلى انتشار مرض الطاعون في جيشه ففتك بالكثير من رجاله ولم يستطع العودة عندما حوصر من الجنوب بالنورمان ومن الشمال بتحالف دويلات شمال إيطاليا والطاعون ينهش رجاله فهزم أسس حلفاء البابا في هذا المكان مكانًا باسمه واعتبروها معجزه على يديه وسمي المكان بمدينه الإسكندرية نسبه إلى البابا اسكندر شمالي مدينه جنوا.

أخيرا لم يجد الإمبراطور فردريك مفرًا من الخضوع والتسليم، فدخل البندقية منكس الأعلام حيث كان البابا اسكندر الثالثفي انتظاره يحيط به جموع حافلة من الكرادلة تلمع عيونهم بالفرحة بهذا الانتصار الذي عدوه انتصار ألهياً، ولم تلبث أنتكررت تمثيلية كانوساً بعد مرور مائه عام، فآتي الإمبراطور فردريك الأول العظيم حليفه فتجرد شارلمان كما كان ينادي ليرتمي بين قدميّ البابا اسكندر الثالث باكيًا طالبا منه الصفح والغفران، مثلما فعل سلفه العظيم هنري الرابع مع البابا جريجوري السابع ١٠٧٧.

وهكذا تم الصلح بين الإمبراطورية والبابوية في أغسطس عام ١١٧٧ أي بعد مائة عام بالتمام فوافق فردريك الأول على رد جميع الأراضي المغتصبة من البباوية، وتعهد كل من الطرفين بمساعده الطرف الآخر ضد أي عدو يهدده، علاوة على عما وافق عليه الإمبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمانديين في صقليه لمده خمس عشره سنة. وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية في شمال إيطاليا لمده ست سنوات وقبل أن تنتهي هذه الهدنة الأخيرة مع المدن

اللمباردية ثم توقيع صلح كونستانس سنة ١٠٨٣ بين المدن اللمباردية والإمبراطور، وهو الصلح الذي نص علي أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسي والقضائي والاقتصادي والعسكري، مع احتفاظ الإمبراطور ببعض المظاهر التي تصور سيادته اسمياً، مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض الضرائب البسيطة للمساهمة في نفقات جيوش الإمبراطورية.

علي أنه من الواضح أن هذه الشروط لا تخفي الحقيقة الواقعة وهي أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة بمقتضى معاهده كونستانس وأن نفوذ الإمبراطور في شمال إيطاليا أصبح اسمياً وأن البابوية قد أخذت وضعها بشكل كبير.

ومن هنا نري في هاتين الحلقتين من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية أن:

١- إن الكنيسة كانت سلطه وكانت إقطاعية تبحث عن نفوذها السياسي والاقتصادي ولو بحد السيف أو الثورات.

٢- الإمبراطورية تبحث عن نفوذها وتقويته حتى باندلاع الحروب الصليبية في الشرق التي خاب أثرها وتركت الكنيسة الشرقية المظلومة تدفع قسطًا كبيرًا من الثمن.

٣- أن البابوات في انتصاراتهم على الأباطرة دخلهم الزهو والافتراء فتركوا جانب الروح وبحثوا عن لذة الجسد فتركوا الكتاب المقدس وبحثوا عن المال والسيف.

٤- ذهبت نفوس الشعب المسكين تحت أرجل هؤلاء وأولئك دون تقديم أي عمل روحي.

• البابا والدولة وصراع الإرادتين:

بحلول عام ٨٠٠ ميلادياً شهدت أوروبا التزاوج السياسي بين كنيسة روما والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وذلك مقابل التزاوج القائم بين الإمبراطورية البيزنطية وكنيسة القسطنطينية في الشرق، ولكن ديناميكية

العلاقة بين السلطة الزمنية والدينية اختلفت من الشرق للغرب، فعلى حين سيطر الإمبراطور البيزنطي على البطريركية في القسطنطينية فإن هذا لم يحدث في الغرب حيث ظلت العلاقة بين الإمبراطوريات والملكيات المتعاقبة والكنيسة في روما تتأرجح بشكل كبير، فالأولى تملك سلطة القوة والجيوش، بينما بابا روما يملك السلطة الروحية وفقا للعقيدة الكاثوليكية، وبالتالي فإن غضب الكنيسة على أي إنسان كان كفيلاً بحرمانه من الآخرة وجنتها، ورغم التوافق المبدئي الذي كان بين بابا روما والإمبراطورية الرومانية المقدسة في البداية، فإن السياسة والمال كان لهما بطبيعة الحال الأثر الأكبر في القضاء على الاستمرارية المطلقة لعلاقة الوئام بين هاتين المؤسستين، فكثيراً ما رأينا قيادات لكنيسة روما ترفض الخضوع لسلطة الإمبراطور أو الملك، بينما وجدنا أيضاً إمبراطوراً أو ملكاً يسعى تدريجياً للقضاء على النفوذ المتغلغل للكنيسة في قصره ودولته.

حقيقة الأمر أن هناك بعض المتناقضات التي ميزت علاقة كنيسة روما والسلطة الزمنية في وسط وغرب أوروبا، فرغم أن بعض البابوات كانوا يسعون سعيا حثيثا للسيطرة على الملوك والأمراء من خلال مد نفوذ الكنيسة إلى قصورهم ورجالهم، فإن ملوكاً آخرين كان لهم دورهم في زعزعة استقرار الكرسي البابوي ومؤسسات الكنيسة حماية لملكهم، فكانت

هذه سمة العلاقة بين الطرفين حتى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، عندما بدأت تتفجر العلاقة المتوترة بين الطرفين بشكل فج، وكان ذلك بسبب الخلاف الذي دب بين البابا «جيرجوري السابع» والملك الألماني «هنري الرابع» بسبب ما هو معروف بحق منح الإقطاعيات *Investiture*، حيث سعى البابا لسحب حق منح الإقطاعيات لرجال الكنيسة من الملك، وهو ما لم يلق قبولاً لدى الملك والذي بدأ يتطاول على البابا واصفاً إياه بأنه «أفاق» مطالباً بعزله من منصبه البابوي فيكون بذلك ملعونا على مدار الزمن، فكان رد البابا قوياً فعزله كنسياً ورفع عن رعاياه حق الطاعة له معتبراً أن أيا منهم يقدم فروض الولاء والطاعة يعد خارجاً على الدين ومصيره جهنم في الآخرة واللعنة في دنياه، وإزاء هذا العزل الكنسي أصبح الملك في وضع صعب، فاضطر لعبور جبال الألب للذهاب للبابا ليسترضيه لمدة أربعة أيام راكعاً أمام كنيسته حتى عفا عنه البابا، فعاد الملك «هنري الرابع» وهو يضمر في نفسه كل الشر للبابا، فانتظر الفرصة المناسبة وعاد

لإيطاليا بجيش قوي استطاع أن يخيف البابا والذي اضطر للهروب ومات وهو في المنفى، وقد استمرت فصول هذه المسرحية الهزلية حتى تم الاتفاق على حل وسط بين البابوية والملك الألماني من خلال توزيع حقوق منح الإقطاعيات على الاثنين بشكل يحفظ للكنيسة بعض هيبتها دون الإخلال بسلطة الدولة.

لقد كان هذا الفصل في حقيقة الأمر مجرد بداية فجة لسلسلة من الأزمات بين البابوية من ناحية والسلطة المدنية أو الزمنية من ناحية أخرى، فحقيقة الأمر أن الملوك ضاقوا ذرعاً بالنفوذ المتصاعد للكنيسة في كل شيء، فالملك لا يرث العرش إلا بدور للبابا أو مندوبه، والإنسان محاصر من مولده لمماته بدور للكنيسة سواء في تعميده أو تناوله أو اعترافه أو غفران ذنبه، كما أن لموته طقوساً كنسية يجب مراعاتها، ولكن الأهم من ذلك دور الكنيسة الحاسم في موقفه في الدار الآخرة، فبيدها حقوق المغفرة وأبواب الجنة تمر من خلال الكنيسة، وهي أمور بدأت تضغط على المواطن البسيط والملك والأمير على حد سواء، فنجد هناك تحركاً نحو مزيد من الاستقلالية عن الكنيسة، وقد تفاقم الوضع بشكل أساسي بعدما سعى الملوك لفرض الضرائب على أراضي الكنيسة التي كانت تملك في مناسبات كثيرة أكثر من ثلث الأراضي الزراعية، من ناحية أخرى فقد سعت الكنيسة لأن تفرض سطوتها الروحية على الملوك بمنح نفسها حق

معاقبتهم في الدنيا، وهو ما حدث عندما حاول بطريرك الكنيسة الإنجليزية «وليم بيكيت» الاستحواذ على حقوق الكنيسة أمام ملك إنجلترا رغم الصداقة التي كانت تجمعهما والتي أدت لعزل الأخير كنسياً، وهو ما أدى إلى طلب الملك من بعض رجاله أن يخلصوه من البطريرك فقتلوا الرجل، وهو ما ترك أوروبا في حالة ذهول سياسي وديني، يضاف إلى كل هذه الأسباب سبب آخر وهو رفض الكنيسة منح الطلاق لبعض الملوك كما كان الحال مع ملك فرنسا فيليب أغسطس الذي اضطره البابا «إينوسنتي الثالث» لاستعادة زوجته.

ولكن أخطر فصول الخلاف بين البابا والملوك كان الصراع الذي نشب حول محاولة الملك الفرنسي «فيليب الجميل *Philip the Fair*» فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة فرفض البابا «بونيفاس الثامن» فلم يتورع الملك من إرسال مجموعة مسلحة دخلت على البابا وضربوه واختطفوه فمات المسكين متأثراً بسجنه والاعتداء عليه، ولم يكتف الملك فيليب بذلك بل قام بقوة السيف بنقل مقر البابوية لأول مرة إلى مقاطعة «أفينيون» وهو ما سمي في التاريخ الكنسي الاحتجاز البابوي، حيث بقيت هناك لمدة سبعين عاماً حتى عادت مرة أخرى لروما. لقد استباح ملوك فرنسا الواحد تلو الآخر قدسية الكرسي البابوي، وهو ما لم تتغلب عليه الكنيسة في حقيقة الأمر حتى اليوم، فلقد أدى

هذا الانتقال إلى كسر هيبة الكنيسة وخلق حالة من الفوضى الدينية في أوروبا والتي تفاقمت بعدما تدخلت فرنسا مرة أخرى للدفع من خلال كرادلتها لانتخاب بابا غير بابا الفاتيكان فيما عرف بالـ *Western Schism* أو الانفصال الغربي للكنيسة» وعند مرحلة محددة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية كان هناك مقران للبابوية في آن واحد الأول في روما والثاني في آفينيون مرة أخرى، ولأول مرة تعاني الكنيسة الكاثوليكية من هذا الانفصام في الهوية والسلطة على حد سواء بسبب صراعها مع سلطة الملوك والأمراء، فلقد انقسمت الولاءات داخل الكنيسة الواحدة بسبب الصراع بين السلطة الروحية والدينية.

وواقع الأمر أن سلطان الكنيسة كان روحياً وفي أمور السياسة فإن سلطان السيف هو الأبقى، وهنا يتبادل الباباوات والملوك مسؤولية ما حدث بدرجات متفاوتة وفقا للأزمنة المختلفة، وذلك رغم مقولة السيد المسيح الشهيرة «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» ولكن هنا اختلت موازين حقوق قيصر والرب وفقا لممثليهما في الدنيا، وبرغم كون هذه الجملة دستوراً عظيماً لما يجب أن تكون عليه علاقة السلطة الدينية والسياسية، فإن هذا لم يحدث، فكثير من قيادات الكنيسة لعبوا دوراً سياسياً خارج صلاحياتهم الروحية، فعلى كاهل البابا «أوربان الثالث» على سبيل المثال مسؤولية الخراب البشري الذي حل على

العالم بسبب فتواه للجهاد الصليبي في الأراضي المقدسة كما سنتابع في الأسابيع القادمة، والحقيقة أن المشكلة الأساسية نتجت عن خطورة المزج بين الدين والدولة، فالأول يتناول العلاقة بين الإنسان وفاطره، والثاني بين الإنسان ونظيره، وما أخطر المزج بين الشرعيتين، كما أن الأول مصدره المولى سبحانه وتعالى، والثاني مصدره علاقة بني البشر بعضهم ببعض.

وتستوقفني هنا عبارة لأحد المؤرخين يقول فيها «إن المسيحية دائماً ما تقوم بتخريب السلطة الزمنية التي احتضنتها»، مستنداً إلى التاريخ الممتد للخلافات بينها وبين الإمبراطوريات والدول التي استوعبتها، وتقديري أن هذه الجملة بها تقصير واضح لسببين الأول لأن التخريب هنا حل على الدين والدولة على حد سواء، والثاني هو أن العبارة اقتصرت على الكنيسة وحدها بينما التجربة الإنسانية تشير إلى عكس ذلك خاصة مع محدودية نجاح أو أكاد أجزم فشل نماذج الدولة الثيوقراطية التي مزجت الدين والدولة عبر التاريخ، فما أخطر من لا يتعلم من تجارب الخلط بين الدين والسياسة في التاريخ!

المراجع

المراجع العربية

١. كتاب " أثر العرب والمسلمين في الحضارة الأوروبية"/ للكاتب فتحي علي يونس/ القاهرة/ ١٩٩٦م

٢. كتاب " أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية "/ للكاتب أحمد علي الملا/ دار الفكر للنشر/ الطبعة الثانية/ ١٩٨١م

٣. كتاب " تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس"/ للكتاب ١ــالدكتور خليل إبراهيم السامرائي،٢ــالدكتور عبد الواحد ذنون طه،٣ــالدكتور ناطق صالح مطلوب/

٤. أفغراف سمير نوف، تاريخ الكنيسة المسيحية، ترجمة: الكسندروس، حمص، ط٩، ١٩٦٤.

٥. السيد الباز العريني، تاريخ اوربا العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٨.

٦. جان جاك شوفاليه، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الى الدولة القومية، ت: محمد عرب صاصيلا، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦.

٧. عبد الحميد البطريق، عبد العزيز النوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، بيروت، دار النهضة العربية،.

٨. عبد القادر احمد يوسف، العصور الوسطى الأوربية ٤٧٦-١٥٠٠، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٧.

٩. عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، القاهرة، الهيئة العربية العامة للكتاب، ١٩٩٧.
١٠. عبد المجيد النعنعي ، اوربا في بعض الأزمنة الحديثة ١٤٥٣-١٨٤٨، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣.
١١. كرستوفر دوسن ، تكوين اوربا ، ت: محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص٣٣.
١٢. محمد محمد صالح ، تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، بغداد ، دار الجاحظ للطباعة والنشر ، ١٩٨١.
١٣. وول ديورانت ، قصة الحضارة ت: عبد الحميد يوسف ، القاهرة ، مطابع الدجوى – عابدين ، ١٩٧٥.
١٤. ابن الابار، ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ط القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
١٥. الادريسي، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، ط ليدن، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م.
١٦. ابن بلقين (ت ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م)، مذكرات الامير عبد الله، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط القاهرة، (بلا. ت).

١٧. الخطيب، لسان الدين ابو عبد الله محمد التلمساني (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):
١٨. اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
١٩. الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، ط تونس، ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م.
٢٠. ابن عذارى، ابو العباس احمد بن محمد المراكشي (ت بعد سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبروفنسال، ط بريل، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.
٢١. ابن الفوطي، كمال الدين ابي الفضل عبد الرزاق احمد الشيباني البغدادي (ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، ط بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٢٢. ابن قتيبة، محمد بن مسلم (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، الامامة والسياسة، تحقيق: الاستاذ علي شيري، (د.م)، (بلا.ت).
٢٣. ابن القوطية، ابو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، تاريخ افتتاح الأندلس ، ط القاهرة، (بلا.ت).
٢٤. المالكي، ابو بكر عبد الله، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، ط القاهرة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

٢٥. مؤلف مجهول، اخبار مجموعة، ط مدريد، ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م.
٢٦. المقري، شهاب الدين حمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط مصر، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م.
٢٧. ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) معجم البلدان، ط٢، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥.
٢٨. ثانيا: المراجع الثانوية:
٢٩. الادهمي، محمد مظفر، تاريخ أوربا الحديث ـ عصر ـ النهضة الثورة الفرنسية ـ القرون ١٦ـ١٨ ميلادية، ط بغداد، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
٣٠. ارنولد، سير توماس، تراث الاسلام، عربه وعلق حواشيه: جرجيس فتح الله، ط٢، بيروت، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢.
٣١. بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ط بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.
٣٢. التكريتي، سليم طه، أوربا ترسل بعثاتها الى الأندلس ، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٧، الكويت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٣٣. الحجي، عبد الرحمن، التاريخ الأندلس ي، ط دمشق، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٣٤. حسين، محمد كامل، في الطب والاقربازين ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية، ط القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٣٥. الخطيب، محمد، تاريخ الحضارة العربية، ط سوريا، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
٣٦. السامرائي، خليل ابراهيم واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، ط الموصل، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٣٧. سليمان، علي حيدر، تاريخ الحضارة العربية والاوربية الحديثة، ط بغداد، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
٣٨. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ط بيروت، (بلا.ت).
٣٩. شيفل، فرديناند، الحضارة الاوربية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ط بيروت، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.
٤٠. الصياد، محمد محمود، في الجغرافيا ـ ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية لمجموعة مؤلفين، ط القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٤١. عاشور، سعيد عبد الفتاح وآخرون، الحياة الفكرية والعلمية في الاسلام ـ ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط٢، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٤٢. العبادي، احمد مختار:

٤٣. الحياة الاقتصادية في الدولة الاسلامية ـ ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط٢، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٤٤. نظم الحكم والادارة في الدولة الاسلامية ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط٢، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٤٥. عبد الحليم، رجب محمد، العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، ط القاهرة، (بلا.ت).

٤٦. العقاد، عباس محمود، اثر العرب في الحضارة الاوربية، ط٢، القاهرة، (بلا.ت).

٤٧. عنان، محمد عبد الله:

٤٨. دولة الاسلام في الأندلس ، ط القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٤٩. دول الطوائف، ط القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٥٠. فكري، احمد، قرطبة في العصر الاسلامي تاريخ وحضارة، ط الاسكندرية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٥١. الفلاحي، عبد المنعم، مآثر العرب والاسلام في القرون الوسطى ط الموصل، بلا . ت.

٥٢. القلماوي، سهير ومحمود علي مكي، في الادب ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية لمجموعة مؤلفين، ط القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٥٣. كيب، جوزيف ماك، مدنية العرب في الأندلس ، ترجمعة: تقي الـدين الهلالي، (د.م) ، ١٣٧٠هـم١٩٥٠م.

٥٤. مدكور، ابراهيم بيومي، في الفلسفة ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضــة الاوربيــة، لمجموعــة مـؤلفين، ط القــاهرة، ١٣٩٠هــ/ ١٩٧٠م.

٥٥. المطوي، محمد العروسي، الحروب الصـليبية في المشرـق والمغـرب، ط تونس، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م.

٥٦. مورينو، مانويل جوميث، الفن الإسلامي في اسبانيا، تعريـب: لطفـي عبد البديع، ط القاهرة، بلا . ت.

٥٧. هونكه، زيغريد، شمس العـرب تسـطع عـلى الغـرب، ط٦، بـيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

٥٨. يونـغ، لـويس، العـرب واوربـا، ترجمـة: ميشـيل ازرق، ط بـيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.

المراجع الاجنبية:

١. Hackett , Francis , francis the First, Newyork ,Doran and Co , ١٩٣٧.

٢. Criswell , David , The Rise and Fall of the Holy Roman Empire,Baltimore, ٢٠٠٥.

٣. Joseoh,brusher, popes Through the ages, Prinction, ١٩٥٩.

٤. Jackson, Richard,A History of the French Coronation,Chapel Hill, ١٩٨٤.

٥. Osborn,Kenan, The Christian Sacrament of Initiation , Paptism Confirmation,New York, ١٩٨٧.

٦. Hayes,A.C, A Political and Cultural History of Modern Europe , New York, ١٩٤٤.

٧. Knecht,R.J, Francis I, Cambridge , ١٩٨٢,.

٨. Merle,J.H, History of The Reformtion of The Sixteenth Century, ٢٠٠١.

٩. Mack.P.Holt, The French Wars of Religion, Cambridge, Cambridge University Press.

١٠. Hartt,Frederick , A History of Italion Renaissance Art,New York, ١٩١٠.

١١. Tilley,Arthur,The French Wars of Religon,London,Macmillian Company, ١٩٨٩.

١٢. Mullet,Michael,Luther,Methuen,and Co, ١٩٨٦.

١٣. Hanna,William, The Wars of Huguenotes,New York,Robert Carter and Brothers, ١٨٧٢.

١٤. Bossy,John, Christian in the West ١٤٠٠-١٧٠٠. Oxford, ١٩٨٥.

١٥. Armstrong,B.C, John Calvin, www.

١٦. Monter, Wiliam,Calvin Geneva, New York, ١٩٦٧.

١٧. ………… ,Judging the French Reformation , Hersey in Trials.by.Siteenth.Century.Century.Parliament, Cambridge, ١٩٩١.

١٨. Baumgartner,Frederuc, Henry II , Durham,N.C, ١٩٨٨.

١٩. Mentzer, Raymond The. Legal Response. to Hersey in Languedoc ١٥٠٠-١٥٦٠, Sixteenth Century journal,, London, ١٩٧٣

٢٠. Sutherland,N.M, The Huguenot Struggle for Recognition , New Haven, ١٩٨٠.

٢١. Knecht,Robert Jean, The Rise and Fall of Reformation France ١٤٨٣-١٦١٠,Black Wall, ٢٠٠١.

٢٢. Diefendorf,Barbara, Catholics and Huguenots in the Sixteenth-Century,New York, ١٩٩١.

٢٣. Mariejoil,Jean.Hippolte,Chatherine.de.Medicis,Haohette , ١٩٢٠.

٢٤. William, Durant,The Age of Reason, Simon and Schuster, ١٩٦١.

٢٥. Machinnon, Growth and Decline of the French Monarchy ,London, ١٩٨٨.

٢٦. Conner,Philip,Huguenot Hrartland ,Montauban and Southern French Calvinism During The Wars of Religon,Aldershot, ٢٠٠٢.

٢٧. Hauser,Henri, The French Reformation and the French People in the Sixteenth Century, American Historical Review, ١٨٩٩.

٢٨. Roelker,Nancy,Queen of Navarre: Jeanne de Albert, ١٥٢٨-١٥٧٢,Cambridge, ١٩٨٦.

٢٩. Kindon,Robert,M, Geneva The Coming of the Wars of Religion in France, ١٥٥٣- ١٥٦٣,Genave, ١٩٥٦.

٣٠. Taber,Linda.C. Royal Policy and Religious Dissent Within the Parliament of paris, ١٥٥٩-١٥٦٣.Unpublished PhD Thesis, Stanford University, ١٩٨٢.